جون بوكان

ذو العباءة الخضراء



ترجمة أحمد سمير درويش

ذو العباءة الخضراء

تأليف
جون بوكان

ترجمة
أحمد سمير درويش

مراجعة
شيماء طه الريدي



ذو العباءة الخضراء

جون بوكان

Greenmantle

John Buchan

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥١٣ ٤

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

إلى كارولين جُروسفينور

خلال العام الماضي، استطعتُ أن أسترقَ فواصل من الاستراحة وسط حياةٍ حافلة بالمشاغل، وسلَّيتُ نفسي فيها بنسج هذه الحكاية. فكتبتُها في عجالة، في كل أنواع الأماكن والأوقات الغريبة؛ في إنجلترا وخارجها، وأثناء رحلات طويلة، وفي أنصاف ساعاتٍ بين مهامَّ أشد جدية، وأخشى أن تكون متأثرةً بهذه التقلُّبات التي مرَّت بها أثناء ولادتها من رحم ذهني. لكنَّ كتابتها سلَّتني، وتكفيني مكافأةً وزيادة أن تتسلَّيْ بقراءتها، أنتِ وبضعة أشخاصٍ آخرين.

لا تسمحي لأي رجلٍ أو امرأة بأن يصف أحداثها بأنها مُستبعَدة. فالحرب قد حذفت تلك الكلمة من قاموس مفرداتنا، وأصبحت الميلودراما واقعيةً بحتة تخلو من أي خيال. فأشياء لم نكن نتخيلها من قبلُ صارت تحدث يوميًّا لأصدقائنا، في البر والبحر. وبات الناس يَسعَون إلى تحقيق أكثر الاحتمالات المُستبعَدة، وغالبًا ما ينجحون. وصارت المصادفة تمدُّ مائة ذراع طويلة كلَّ ساعةٍ عبر الأرض، كأنها «بريااروس» جديد. ويومًا ما، عندما يُكتَب التاريخ كاملًا — حقيقيًّا بلا مُبالغات، مدعومًا بوثائق وفيرة — سيعتزل الروائي الحالِم المسكين مِهنته، وينكبُّ على قراءة رواية «الآنسة أوستن» في صومعة.

أمَّا شخصيات الحكاية، فستتذكَّرينهم إذا فكرتِ مليًّا. ساندي، وهذا تعرفينه جيدًا. ذاك الرجل العظيم الذي كان موجودًا في البصرة آخِرَ مرةٍ سُمع عنه، حيث كان يشغل المنصب الذي كان هاري بوليفانت يشغلُه يومًا ما. وريتشارد هاناي موجود في المكان الذي كان يشتاق إليه؛ إذ يقود كتيبته فِي أبشع جزءٍ من الجبهة

في الغرب. أما السيد جون إس بلنكيرون، المُفعَم بالشرف، والذي تعافى تمامًا من عُسر الهضم، فقد عاد إلى الولايات المتَّحدة بعدما حاول عبثًا أن يصطحب بيتر معه. وأمَّا بيتر، فقد بلغ أوْج طموحه. لقد حلَق لحيتَه وانضمَّ إلى الفيلق الجوي الملكي.

الفصل الأول

مُهمة مقترَحة

كنت قد أنهيتُ فطوري للتو، وكنتُ أملأ غليوني حين تلقيتُ برقية بوليفانت. كان ذلك في فيرلينج، ذاك المنزل الريفي الكبير في هامبشاير الذي أتيتُ إليه لأتماثَل للشفاء بعدَ معركة لوس، وكان ساندي، الذي كان على نفس حالي، يبحث عن مُربَّى المرملاد. رميتُه بورقةِ البرقية الرقيقة بالشريط الأزرق المُلصَق عليها، وأطلقَ صفيرًا حين قرأها.

قال: «مرحى، لقد صارت الكتيبة تحت إمرتك يا ديك. أو ربما يكون هذا منصبًا مَكتبيًّا في المقر نفسِه. ستكون ضابطًا لعينًا من ذوي الرُّتب العالية، وتمارس سلطتك بدكتاتورية على ضابط الفوج المجتهد. ولتتذكَّر كيف كنتَ تتحدَّث عن ذوي الرُّتب العالية في أيام شبابك!»

جلستُ أفكر لحظة؛ إذ أعادني اسم «بوليفانت» إلى الوراء ثمانية عشر شهرًا، إلى ذلك الصيف الحار الذي سبق الحرب. لم أرَ الرجل منذ ذلك الحين، وإن كنتُ قد قرأتُ عنه في الصحف. كنتُ ضابطَ كتيبةٍ مُحمَّلًا بالأعباء على مرٍّ أكثر من عام، ولم يشغل بالي طَوال تلك الفترة سوى صقل كثيرٍ من الأفراد المُبتدئين، وتحويلهم إلى جنودٍ أكْفاء. لقد أحرزتُ نجاحًا كبيرًا، ولم يكن في الدنيا رجلٌ أكثر فخرًا من ريتشارد هاناي حين أخذ الفوج التابع له من مشاة «لينوكس هايلاندرز»، وعَبَر به التحصينات في ذاك اليوم المجيد والدامي، الخامس والعشرين من سبتمبر. صحيح أنَّ معركة لوس لم تكن نُزهة، وأننا قد خُضنا بعض المعارك البشعة قبلها، لكن أصعب جزءٍ رأيته من الحملة كان أشبَهَ بحفل شاي مقارنةً بالمهمة التي كنتُ فيها مع بوليفانت قبل بدء الحرب (نُشر وصف الميجور هاناي لهذه المسألة بالتفصيل في كتاب بعنوان «درجات السُّلَّم التسع والثلاثون»).

كان يبدو أنَّ رؤية اسمِه على نموذج برقية قد غيَّرت نظرتي للحياة تمامًا. صحيحٌ أنني كنتُ أطمح إلى تولي قيادة الكتيبة، وأتطلع إلى أن أكون حاضرًا النهايةَ مع «الإخوة الألمان».

لكن هذه الرسالة دفعت أفكاري فجأة إلى طريق جديد. ربما تُوجَد أشياء أخرى في الحرب غير القتال المباشر. فلماذا بحق السماء تريد وزارة الخارجية أن ترى رائدًا مغمورًا من الجيش الجديد، بل وتريد رؤيته بأقصى سرعة؟

قلت: «أنا ذاهب إلى وسط المدينة بقطار العاشرة، وسأعود قبل موعد العشاء.»

قال ساندي: «جرِّب خيَّاطي الذي أتعامَل معه. لدَيه ذوق رائع جدًّا في الشارات الحمراء التي تُلصَق بياقات ضباط الأركان. يمكنك أن تستخدِم اسمي.»

خطرَت ببالي فكرة. قلت له: «لقد صرتَ على أحسن ما يُرام الآن. إذا أرسلتُ إليك برقيةً من هناك، فهلَّا تحزم أمتعتك وأمتعتي وتلحَق بي؟»

«بكل تأكيد! سأقبل بوظيفةٍ ضمن فريقك إذا كانوا سيُعطونك فيلقًا. وما دام الأمر كذلك، فلتتكرم ولتُحضِر معك برميلًا من المحار من مطعم «سويتنجز» وأنت عائد الليلة.»

سافرتُ إلى لندن وسط أمطار نوفمبر الخفيفة المعتادة، التي توقفت عند ويمبلدون، وأفسحَتِ الأجواء لأشعة شمسية خافتة. لم أكن أطيق لندن أثناء الحرب قط. كان يبدو أنها قد فقدت هويتها، وصارت تعجُّ بكل أنواع الشارات والأزياء العسكرية، وهذا لم يكن يتماشى مع تصوُّري عنها. كان المرء يشعر بالحرب في شوارعها أشدَّ من شعوره بها في ميدان المعركة نفسه، أو بالأحرى، كان يشعر بفوضى الحرب دون أن يشعر بالغرَض منها. ويُمكنني القول إنَّني كنت أتقبَّل هذا، ولكن منذ أغسطس ١٩١٤، لم أقضِ يومًا في وسط المدينة قط إلَّا وعدتُ إلى المنزل مكتئبًا حتى النخاع.

أخذتُ سيارة أجرة، واتجهتُ مباشرة إلى وزارة الخارجية. لم يَدَعني السير والتر أنتظر طويلًا. ولكن عندما اصطحبني سكرتيره إلى غرفته، كدتُ لا أتعرَّف الرجل الذي عرفتُه قبل ذلك بثمانية عشر شهرًا.

بدا أنه قد فقد وزنًا، وكانت لدَيه انحناءة في كتفَيه المربعتَين. كان وجهه قد فقد تورُّده، وصار مُكتسيًا ببُقَع حمراء متفرقة، كوجه رجلٍ لا يحظى بقدرٍ كافٍ من الهواء النقي. وكان شعره أشدَّ شيبًا بكثيرٍ عن ذي قبل، خفيفًا جدًّا عند الصدغَين، في حين كانت عيناه مُحاطتَين بالهالات من كثرة العمل. لكنهما كانتا، كدأبهما دائمًا، ثاقبتَين ودودتَين فَطِنتَين، وكان فكُّه حادًّا بارزًا مثلما كان من قبل.

قال لسكرتيره: «يجب ألَّا يزعجنا أحد لأيِّ سبب، مهما كان، طَوال الساعة القادمة.» وعندما خرج سكرتيره الشاب، اتجه نحو بابَي الغرفة وأوصدهما بالمفاتيح.

قال وهو يرتمي على كرسيٍّ بجوار المدفأة: «حسنًا أيها الميجور هاناي. هل تُحب الجُندية؟»

قلت: «بالتأكيد، مع أنني كنتُ سأختار حربًا من نوعٍ آخر لو كان الأمر بيدي. فهذه الحرب مرهِقة ودامية. لكننا عرفنا الآن من أين تُؤكَل كتِف الألماني العجوز، والمثابرة ستقودنا إلى النجاح. أتوقع عودتي إلى الجبهة في غضون أسبوع أو اثنَين.»

سألني: «هل ستتولَّى قيادة الكتيبة؟» بدا أنه كان متابِعًا شئوني عن كثب.

قلت: «أعتقد أن لديَّ فرصةً جيدة لتولي قيادتها. لكني لستُ مشاركًا في هذه الحرب من أجل الشرف والمجد. أريد بذل كل ما بوسعي، لكني أتمنى من الرب أن تنتهي الحرب. كل ما يشغل بالي أن أخرج منها سالمًا.»

ضحك. ثم قال: «أنت تظلِم نفسك. ماذا عمَّا فعلتَه في نقطة المراقبة الأمامية عند لون تري؟ يبدو أنك كنتَ ناسيًا مسألة الخروج سالمًا آنذاك.»

شعرتُ بنفسي أحمرُّ خجلًا. وقلت: «كانت تلك محض حماقة، ولا أستطيع أن أُخمِّن هوية مَن أخبرك بهذا. كنتُ أكره تلك المهمة، لكني اضطُررتُ إلى القيام بها لأحمي الضبَّاط التابِعين لي من الموت. فقد كانوا مجموعةً من المجانين الصغار المولَعين بالعنف والقتال. ولو كنتُ أرسلت واحدًا منهم، لَما تورَّع عن جلب المتاعب.»

كان وجه السير والتر ما زال مُكتسيًا بابتسامة عريضة.

قال: «لا أُشكِّك في حذرك. فلَديك أساسياته الأولية، وإلَّا كان أصدقاؤنا من جماعة بلاك ستون قد قبضوا عليك في لقائنا المرِح الأخير. لا أُشكِّك في حذَرِك مثلما لا أُشكك في شجاعتك. لكن ما يشغل بالي هو ما إذا كانت خنادق الجبهة هي المكان الأمثل للاستفادة من هذا الحذر.»

فسألته بحدة: «هل وزارة الحرب غير راضية عن أدائي؟»

«بل راضون تمامًا. ويقترحون أن يُوَلُّوك قيادة كتيبتك. لقد بات من المؤكد الآن أنك إذا نجوتَ من الموت برصاصةٍ طائشة ما، فستُصبح قائد لواءٍ بلا شك. إنها حرب رائعة لذوي الشباب والعقول المُدبرة. لكن … أحسب أنك مُشارك في هذا العمل لخدمة بلدك يا هاناي، أليس كذلك؟»

قلت: «أحسبني كذلك. فبالتأكيد لستُ مشاركًا فيه من أجل صحتي.»

نظر إلى ساقي التي كان الأطباء قد نَخرُوها ليُخرِجوا منها شظايا القنبلة، وابتسم ابتسامةً حملت تساؤلًا.

سألني: «هل استعادت لياقَتَها بعض الشيء؟»

«إنها صلبة صلابة سوطٍ جِلديٍّ ثقيل. أصبحتُ أعيش على لعب كرة المضرب والأكل والنوم كتلاميذ المدارس.»

نهض مُولِّيًا ظهره للنار، وأخذ يُحدِّق في شرودٍ عبر النافذة إلى الحديقة الشتوية.

قال: «إنها لعبة كبيرة، وأنت الرجل المناسب لها بلا شك. ولكن يوجَد آخرون يستطيعون أن يلعبوها أيضًا؛ لأن الجُندية اليوم صارت تتطلَّب قدراتٍ بشريةً عادية لا قدرات خارقة. إنها كآلةٍ كبيرة أجزاؤها مُوحَّدة. أنت تُقاتل، ليس لأنك تفتقر إلى وظيفة؛ بل لأنك تريد مساعدة إنجلترا. فماذا إن كنتَ تستطيع أن تُقدم لها مساعدة أفضل من تلك التي قد تُقدمها لها بقيادة كتيبة أو لواء، أو حتى فِرقة، إذا وصل الأمر إلى ذلك الحد؟ ماذا لو أنَّ ثمة مهمةً لا يقدر على فعلها سواك؟ ليست مهمة مكتبية بغرض التهرُّب من القتال، بل مهمة صعبة جدًّا لدرجة أنَّ معركتك التي خُضتَها في لوس ستكون كنزهةٍ مدرسية بسيطة إذا ما قُورنَت بها. أنت لا تخشى الخطر، أليس كذلك؟ حسنًا، لن تقاتل في هذه المهمة مُحاطًا بجيشٍ من حولك، بل ستكون وحدك. تعشق مُجابهة الصعوبات، أليس كذلك؟ حسنًا، سأعطيك مهمة تمتحِن كل قُدراتك. هل لدَيك أي شيءٍ تريد قوله؟»

بدأ قلبي يخفق بقوةٍ من شدة التوتر، فالسير والتر لم يكن رجلًا مبالِغًا.

قلت: «أنا جندي، وأطيع الأوامر.»

«هذا صحيح، لكن المهمة التي أُوشِك على اقتراحها لا تقع بأيِّ حال ضِمن نطاق واجبات الجندي المُتعارَف عليها. لك مُطلَق الحرية في أن تتصرَّف كما كنتُ سأتصرف أنا شخصيًّا، أقصد كما كان أي رجلٍ عاقل سيتصرف إذا عُرِضت عليه. لن أضغط عليك إطلاقًا. وإذا شئت، فلن أَعرِض الاقتراح حتى، بل سأدَعُك ترحل من هنا، في التوِّ واللحظة، وأتمنَّى لك التوفيق مع كتيبتك. فأنا لا أريد أن أُربِك جنديًّا كفئًا بقراراتٍ مستحيلة.»

أثار هذا فضولي وشحذ هِمتي.

«لن أهرب قبل أن تبدأ المعركة. دعني أسمع اقتراحك.»

اتجه السير والتر نحو خزانة، وفتحها بمفتاحٍ من سلسلته، وأخذ ورقة من أحد الأدراج. كانت تبدو نصف ورقة عادية من أوراق الملاحظات.

قال: «أظن أن رحلاتك لم تمتدَّ إلى الشرق.»

قلت: «لا، باستثناء رحلة صيدٍ في شرق أفريقيا.»

«هل تُتابع الحملة الجارية هناك؟»

«أُواظب على قراءة الصحف منذ أن ذهبتُ إلى المستشفى. لديَّ أصدقاء مشاركون في الأحداث الجارية في بلاد الرافدَين، وأنا حريص بالطبع على معرفة ما يحدُث في جاليبولي وسالونيك. وأعتقد أن مصر آمنة جدًّا.»

«إذا أَرعَيتني انتباهك عشر دقائق، فسأُكمل لك المعلومات التي حصلتَ عليها من قراءة الصحف.»

جلس السير والتر مُستلقيًا على كرسيٍّ بمسندَين للذراعَين، وتحدَّث ناظرًا إلى السقف. كانت تلك أفضلَ وأوضح وأكمل قصةٍ سمعتُها عن أي جزءٍ من الحرب طَوال حياتي. حكى لي كيف انحرفت تركيا عن مسارها، ولماذا ومتى. سمعتُ منه عن شكاواها بشأن استيلائنا على سُفنها الحربية المدرَّعة، وعن الضرَر الذي ألحقَه بها مجيء طَرَّاد جوبن الحربي، وعن أنور ولجنته الغالية، والطريقة التي أحكموا بها قبضتهم على التركي العجوز. وبعدما تحدَّث قليلًا، بدأ يسألني.

«أنت رجل ذكي، ولعلك ستتساءل كيف استطاع مُغامر من أصل بولندي — أعني أنور — ومجموعة من اليهود والغجر أن يُسيطروا على عِرق مُعتدٍّ بنفسه. سيُخبرك أيٌّ رجل عادي بأنها منظمة ألمانية مدعومة بأموال وأسلحة ألمانية. ستتساءل مرةً أخرى كيف يُنحَّى الإسلام جانبًا في كل ذلك، في حين أنَّ تركيا قوة دينية أصلًا. فهم يتجاهلون شيخ الإسلام، ومع أنَّ القيصر يدَّعي أنها حرب مُقدسة، ويُسمِّي نفسه الحاج محمد غليوم، ويقول إنَّ آل هوهنتسولرن من سلالة النبي، يبدو أن هذا لم يُجدِ أي نفع. سيُجيبك الرجل العادي مجددًا بأنَّ الإسلام في تركيا قد عفا عليه الزمن، وأنَّ مدافع كروب صارت هي الآلهة الجديدة. لكني لستُ مُتيقنًا من ذلك. فلا أُومن إطلاقًا بأنَّ الإسلام قد عفا عليه الزمن.»

أردف قائلًا: «انظر إلى الأمر من زاويةٍ مختلفة. إذا كان أنور وألمانيا هما وحدهما من يَجُرَّان تركيا إلى حرب أوروبية لأغراضٍ لا تُهِمُّ أي تركي إطلاقًا، فيُمكننا أن نتوقَّع أن نجد الجيش النظامي مُطيعًا، والقسطنطينية كذلك. ولكن في الولايات العثمانية، حيث يحظى الإسلام بتأثيرٍ قوي، سيُواجهون متاعب. لقد عوَّل كثيرون منَّا على ذلك. لكننا أُصبنا بخيبة أمل. فالجيش السوري مُتعصب مثل قبائل المهدي. والسنوسية شاركوا في اللعبة. والمُسلمون الفُرس يُهددون بإثارة متاعب. ثمَّة رياح جافة تهبُّ عبر الشرق، والهشيم ينتظر الشرارة. وتلك الرياح تهبُّ نحو الحدود الهندية. فمن أين تهبُّ تلك الرياح برأيك؟»

كان السير والتر قد خفض نبرتَه، وكان يتحدَّث ببطءٍ شديد ووضوح بالِغ. كنت أسمع قطرات المطر تتساقط من أفاريز النافذة، وصوت آلات تنبيه سيارات الأجرة في وايتهول من بعيد.

سألني مُجددًا: «هل لديك تفسير يا هاناي؟»

قلت: «يبدو أنَّ الإسلام كان له في تلك المسألة دورٌ أكبر ممَّا كنَّا نظن. أتصوَّر أنَّ الدِّين هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرتق إمبراطورية مُمزقة كهذه.»

قال: «أنت مُحق. لا شكَّ أنك مُحق. لقد سخِرنا من الحرب المقدسة، الجهاد الذي تنبأ به فون دير جولتز. لكني أعتقد أنَّ العجوز الغبي ذا النظارة الكبيرة كان مُحقًّا. ثمة حرب جهادية قيد الإعداد. والسؤال هو: كيف؟»

قلت: «بالتأكيد لا أعرف، لكني أراهن على أنها لن تُشَن بمجموعةٍ من ضباط ألمان سِمَان يرتدون خوذًا ذات سنون مُدببة. أتصوَّر أن المرء لا يُمكن أن يشنَّ حروبًا مقدسة بمدافع كروب وحدَها، وبعضٍ من ضباط الأركان، وطَرَّاد حربي ذي مراجل مُعطلة.»

«أتفق معك. هم ليسوا حمقى، مهما حاولنا إقناع أنفسنا بعكس ذلك. لكن ماذا لو حصلوا على تأييد مُقدس هائل، ماذا لو أتاهم شيء مُقدس، ككتابٍ أو إنجيلٍ ما، أو نبيٍّ جديد من الصحراء، شيء من شأنه أن يُجمِّل الآلية القبيحة للحرب الألمانية كلها، ويُضفي عليها رونق الغزوات الجارفة القديمة التي سحقت الإمبراطورية البيزنطية، وهزَّت أسوار فيينا؟ فالإسلام عقيدة قتالية، والفقيه ما زال واقفًا على المنبر حاملًا القرآن في يدٍ، وسيفًا مسلولًا في اليد الأخرى. ماذا لو وجدوا تابوت عهدٍ يُمنِّي حتى أبعَدَ القرويين المسلمين السُّذَّج بأحلام الجنة؟ كيف سيكون الوضع عندئذٍ يا صديقي؟»

«عندئذٍ سُتفتَح أبواب الجحيم في هذه المناطق قريبًا جدًّا.»

«جحيم قد ينتشِر. وتذكَّر أنَّ خلف بلاد فارس، تقع الهند.»

فسألته قائلًا: «أنت تُواصِل الافتراضات. ما مقدار ما تعرفه حقًّا؟»

«قليل جدًّا، عدا الحقيقة. لكنَّ الحقيقة مؤكدة بلا أي شك. لديَّ تقارير من عملاء في كل مكان؛ باعةٍ مُتجولين في جنوب روسيا، وتجار خيول أفغان، وتجار تركمان، وحُجاج على الطريق إلى مكة، وشيوخ في شمال أفريقيا، وبحَّارة على سواحل البحر الأسود، ومغول مُكتسين بفراء الأغنام، وفقراء هندوس، وتجار يونانيين في الخليج، بل وقناصل ذوي شأن يستخدمون الرسائل المشفرة. وكلهم يروون القصة نفسها. الشرق ينتظر وحيًا. وحيًا موعودًا. وهذا الوحي — الذي قد يكون في صورة رجلٍ من السماء، أو نبوءة، أو حلية رخيصة — آتٍ من الغرب. الألمان يعرفون ذلك، وهذه هي الورقة التي سيُذهلون بها العالَم.»

«والمهمة التي تحدَّثتَ عن تكليفي بها هي الذهاب واكتشاف حقيقة ذلك؟»

أومأ بالإيجاب بكل جدية. وقال: «هذه هي المهمة المجنونة والمستحيلة.»

قلت له: «أخبرني يا سير والتر. أعرف أنَّ العُرف السائد في هذا البلد أنَّ الرجل إذا كان على معرفةٍ مُتخصصة بشيءٍ ما، يُكلَّف بمهمةٍ عكسها تمامًا. أنا أعرف كلَّ شيءٍ عن داماralاند، ولكن بدلًا من أن يُعيِّنوني ضِمن فريق عمل لويس بوتا، كما كنت أريد في الطلب الذي تقدمتُ به، أبقَوني في وحل هامبشاير حتى انتهت الحملة في جنوب غرب أفريقيا الألمانية. أعرف رجلًا يُمكن أن يحسبه الجميع عربيًّا، لكن هل تظن أنهم أرسلوه إلى الشرق؟ لقد تركوه في كتيبتي، وكان هذا من حسن حظي؛ لأنه أنقذ حياتي في لوس. أعلم العُرف السائد، ولكن أليست هذه مبالغة بعض الشيء في تطبيقه؟ من المؤكد أنَّ لديكم آلافَ الرجال أمضَوا سنوات في الشرق، ويستطيعون التحدث بأيِّ لغة. هؤلاء هم الرجال المناسبون لهذه المهمة. أمَّا أنا، فلم أرَ تركيًّا في حياتي من قبلُ باستثناء رجلٍ كان يؤدي بعضًا من حركات المصارعة في عرضٍ ببلدة كيمبرلي. لقد اخترتَ أقل الرجال نفعًا لهذه المهمة على وجه الأرض.»

قال السير والتر: «كنتَ مُهندسَ تعدين يا هاناي. وإذا كنت تريد رجلًا ليُنقِّب عن الذهب في باروتسلاند، فبالطبع سترغب في الاستعانة بشخصٍ يعرف البلد والشعب واللغة. لكنَّ أهم شرطٍ ستحتاج إلى توفره فيه أن يكون ذا قدرة فطرية رائعة في تتبُّع مواقع الذهب، ومُلمًّا بخبايا عمله. هذا هو الوضع الآن. أعتقد أنك ذو قدرة فطرية بارعة في معرفة ما يحاول أعداؤنا إخفاءه. أعلم أنك شجاع رابط الجأش واسع الحيلة. لهذا أُخبرك بالقصة. وفوق ذلك ...»

وبَسَط خريطةً كبيرة لأوروبا على الحائط.

«لا أستطيع إخبارك بالمكان الذي ينبغي أن تتعقب السرَّ فيه بالضبط، لكني أستطيع أن أُحدِّد لك النطاق الذي ستُنقِّب فيه. لن تجده شرق البوسفور، ليس بعد. فما زال في أوروبا. ربما يكون في القسطنطينية، أو في تراقيا. ربما يكون أبعدَ ناحية الغرب. لكنه يتحرك شرقًا. وإذا وصلتَ إليه في الوقت المناسب، فقد تعترِض طريقَه نحو القسطنطينية. هذا كل ما أستطيع إخبارك به. السرُّ معروف في ألمانيا أيضًا لَمن يُهمهم الأمر. يجب على الباحث عنه أن يُنقِّب في أوروبا، حاليًّا على الأقل.»

فقلت: «هلَّا تُخبرني بالمزيد. لا تستطيع إخباري بأي تفاصيل أو تعليمات. وبالطبع لن تستطيع مساعدتي إذا أخفقتُ وأصابني ضرر.»

أومأ بالإيجاب. وقال: «ستكون خارج حدود صلاحياتي الرسمية.»

«إذن، فأنت تُعطيني حرية التصرُّف.»

«بكل تأكيد. لك أن تأخُذ ما تشاء من المال، وأن تحصل على أي مساعدةٍ تريدها. لك أن تتبع أي خطةٍ تخطر ببالك، وأن تذهب إلى أي مكانٍ تراه مفيدًا. لا نستطيع إعطاءك أي توجيهات.»

«سؤال أخير. تقول إن المسألة مهمة. أخبِرني بحجم أهميتها.»

قال بجدية: «إنها مسألة حياة أو موت. لا يُمكنني أن أصِفها بوصفٍ أشد أو أبسط من ذلك. حالَما نعرف ماهية الخطر، نستطيع مواجهته. وما دُمنا نجهله، سيظلُّ يَسري دون رادع، وقد يفوت الأوان. لا بد أن تُحسَم الحرب بالنصر أو الهزيمة في أوروبا. نعم، ولكن إذا اشتعل الشرق، سيتشتَّت انتباهنا عن أوروبا، وقد يفشل «الانقلاب» الكبير. لا أُبالغ حين أقول إنَّ النصر أو الهزيمة في هذه الحرب مرهونان بهذه المسألة يا هاناي.»

قمتُ من مقعدي ومشيتُ إلى النافذة. كانت تلك لحظة صعبة في حياتي. لقد كنتُ سعيدًا بجُنديتي، وفوق ذلك، كنت سعيدًا برفقة إخواني الضباط. لقد طُلِب منِّي الذهاب إلى أراضي العدو في مهمةٍ استكشافية كنتُ مقتنعًا بأنني غير مُناسب لها تمامًا، مهمة تقتضي أن أقضي أيامًا وليالِيَ وحيدًا، مهمة محفوفة بإجهادٍ مُحطِّم للأعصاب، وخطرٍ قاتل يُحاوطني كعباءة. ارتجفتُ من القشعريرة وأنا أنظر خارج النافذة إلى الجو القاتم. كانت مهمةً قاسية جدًّا، تفوق احتمال أي إنسانٍ من لحمٍ ودم. لكنَّ السير والتر قد وصفها بأنها مسألة حياة أو موت، وأنا أخبرتُه من قبل أنَّ غرضي هو خدمة بلادي. صحيح أنه لم يستطع أن يُصدر لي أي أوامر إلزامية، ولكن ألَم أكن مأمورًا بالفعل، ألم أكن مأمورًا من سلطةٍ أعلى من قائد لوائي؟ وصحيح أنني كنت أرى نفسي غير كفءٍ لها، لكنَّ رجالًا أذكى مني كانوا يرَونني كفئًا لها، أو على الأقل بالكفاءة الكافية ليمنحوني فرصةً ويؤمنوا بأنني سأنجح على الأرجح. كنتُ أعرف في قرارة نفسي أنني إذا رفضت، فلن أنعم بأي سلامٍ قط في الدُّنيا. لكنَّ السير والتر قد وصف المُخطط بأنه مجنون، وقال إنه هو نفسه ما كان ليَقبله أبدًا.

كيف يأخذ المرء قرارًا فارقًا؟ أقسمُ إنني حين استدرتُ لأتحدث كنتُ عازمًا على الرفض. لكنَّ إجابتي كانت «موافق»، وقد تجاوزت بذلك نقطة اللاعودة. كان صوتي يبدو مُتقطعًا وبعيدًا.

صافحني السير والتر ورمَشَتْ عيناه قليلًا.

«ربما أكون مُرسِلًا إيَّاك إلى حتفك يا هاناي، يا إلهي، يا له من سيِّدٍ مُتعِبٍ لَعِينٍ ذاك الواجب! إذا حدث ذلك، فسيُطاردني الندم، لكنك لن تندم أبدًا. لا تخشَ ذلك. لقد اخترتَ الطريق الأكثر وعورة، لكنه يقود مباشرة إلى قِمم التلال.»

سلَّمَني ورقة الملاحظات. كان مكتوبًا عليها ثلاث كلمات: «قصر الدين»، و«سرطان»، ورمز v. I.

قال: «هذا هو الخيط الوحيد لدينا. لا أستطيع تفسيره، ولكن يُمكنني أن أُخبرك بالقصة. كان لدَينا عملاء يعملون في بلاد فارس وبلاد الرافدين منذ سنوات، معظمهم ضبَّاط شبَّان من الجيش الهندي. يحملون أرواحهم على كفوفهم، ويختفي منهم واحدٌ بين الحين والآخر، وربما تروي بالوعات شوارع بغداد حكاياتٍ عن سرِّ اختفائهم. لكنهم اكتشفوا أشياء كثيرة، ويُقدِّرون أنَّ المسألة تستحقُّ العناء. لقد أخبرونا بالنجم الصاعد في الغرب، لكنهم لم يُعطونا أي تفاصيل. كلهم عدا واحد، وهو الأفضل بينهم. كان يعمل راعي بغالٍ بين الموصل وحدود بلاد فارس، وقد ذهب جنوبًا إلى تلال بختياري. اكتشف شيئًا ما، لكنَّ أعداءه علِموا أنه عرفه، ولاحقوه. وقبل ثلاثة أشهر، قُبَيل معركة الكوت مباشرة، دخل معسكر ديلامين مُترنحًا وقد اخترقت عشر رصاصات جسده، وجُرح جبينُه بسكينٍ. تمتم باسمِه، لكنه لم يُخبرهم بشيءٍ سوى ذلك، وأنَّ ثمة «شيئًا ما» آتيًا من الغرب. مات في غضون عشر دقائق. وجدوا هذه الورقة عليه، ولَّما كان قد صرخ بكلمة «قصر الدين» وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فلا بدَّ أنَّ لها علاقة بمهمته البحثية. عليك أن تكتشِف ما إذا كان لها أي معنًى.»

طويتُ الورقة ووضعتها في محفظتي.

ثم سألته: «يا له من رجلٍ عظيم! ماذا كان اسمه؟»

لم يُجب السير والتر فورًا. فقد كان ينظر خارج النافذة. ثم قال أخيرًا: «كان اسمه هاري بوليفانت. كان ابني. فلترقد رُوحه الشجاعة في سلام!»

الفصل الثاني

تجمُّع أفراد المهمة

أرسلتُ برقيةً إلى ساندي، طالبًا منه أن يأتي على متن قطار الثانية والربع ويُقابلني في شقَّتي.

قلتُ لبوليفانت: «لقد اخترتُ رفيقي.»

فقال: «ابن بيلي أربوثنوت؟ كان والده معي في هارو. أعرف ذلك الرجل؛ إذ اعتاد هاري أن يُحضِره ليصطاد، إنه طويل القامة، ذو وجه نحيلٍ بارز الوجنتَين، وعينَين بُنيتَين كعينَي فتاة جميلة. أعرف سجلَّه أيضًا. يوجَد الكثير عنه في هذا المكتب. لقد مرَّ بحصانه عبر اليمن، وهذا ما لم يفعله رجلٌ أبيض من قبل. سمح له العرب بالمرور؛ لأنهم ظنُّوه مجنونًا تمامًا، وزعموا أنَّ يد الرب كانت ثقيلة عليهِ بما يكفي، ولا داعي لتدخُّلٍ منهم يزيد مُعاناته. إنه أخٌ بالدم لكلِّ أنواع قُطاع الطرق الألبان. وكان له نفوذ في السياسة التركية أيضًا، ونال صيتًا كبيرًا. ذات يوم، كان رجل إنجليزي يشتكي لمحمود شوكت العجوز من ندرة الساسة المُحنَّكين في أوروبا الغربية، فقاطعَه محمود قائلًا: «أليس عندكم فخامة السيد أربوثنوت؟» تقول إنه موجود في كتيبتك. كنتُ أتساءل عمَّا حلَّ به؛ لأننا حاولنا التواصُل معه هنا، لكنه لم يترك أي عنوان. لودوفيك أربوثنوت، نعم، هذا هو الرجل المناسب. إذن فهو مدفون في أعماق الضباط المُكلَّفين في الجيش الجديد؟ حسنًا، سنُخرِجه سريعًا جدًّا!»

«كنت أعرف أنه قد طاف الشرق، لكني لم أكن أعرف أنه ذو مكانة سياسية بارزة هكذا. فساندي ليس من نوعية الرجال الذين يتباهَون بأنفسهم.»

قال السير والتر: «لم يكن ليفعل ذلك. لقد كان دومًا كَتومًا، وأكثر تحفظًا من الشرقيين أنفسهم. لديَّ رفيقٌ آخر لك، إذا أعجبك.»

ثم نظر إلى ساعته. وقال: «يُمكنك أن تذهب إلى مطعم فندق سافوي في غضون خمس دقائق إذا استقللتَ سيارة أجرة. ادخل من شارع ستراند، واستدِر يسارًا، وستجد في تجويف الحائط على الجانب الأيمن طاولةً عليها رجل مُهذب أمريكي ضخم البنيان. إنهم يعرفونه هناك؛ لذا سيكون منفردًا بالطاولة لنفسِه. أُريدك أن تذهب إليه وتجلس بجواره. قُل له إنك من طرفي. اسمه السيد جون سكانتلبري بلنكيرون، وهو الآن مواطن من مواطني مدينة بوسطن في ولاية ماساتشوستس، لكنه وُلد ونشأ في ولاية إنديانا أصلًا. ضع هذا الظرف في جيبك، لكن لا تقرأ محتواه إلَّا بعدما تتحدَّث إليه. فأنا أُريدك أن تكوِّن رأيك عن السيد بلنكيرون من وحي قناعتك الشخصية.»

خرجتُ من وزارة الخارجية بذهنٍ مشوَّش كذهنِ أي دبلوماسي خرج من بواباتها من قبل. كنتُ في غاية الاكتئاب. أولًا، كنتُ أشعر بوجل تام. صحيح أنني دائمًا ما كنتُ أظن أنَّ شجاعتي تكاد تفوق شجاعة أي رجلٍ عادي، ولكنَّ ثمة فارقًا بين شجاعة وأخرى، وبالتأكيد لم تكن شجاعتي من النوع المتبلِّد الإحساس. ضعني في خندق وسأستطيع تحمُّل إطلاق النار عليَّ بصمودٍ أشدَّ من معظم الناس، ويُمكن أن يسخن دمي وأتحمَّس إذا سنحت فرصة لذلك. لكني أظن أنَّ مخيلتي كانت أوسع ممَّا ينبغي. لم أستطع أن أطْرُد من رأسي التوقعات البغيضة التي ظلت تتزاحم فيه.

قدَّرتُ أنني، في غضون نحو أسبوعين، سأكون ميتًا. مُردًى قتيلًا بالرصاص كجاسوس، يا لها من نهايةٍ بشعة! أمَّا في تلك اللحظة، فكنت آمنًا تمامًا، أبحث عن سيارة أجرة وسط وايتهول، لكن جبهتي بدأت تتصبَّب عرقًا. انتابني الشعور نفسه الذي شعرت به في مغامرتي التي خضتُها قبل الحرب. لكنَّ هذه كانت أسوأ بكثير؛ لأنها كانت تتطلب مزيدًا من الهدوء والتريث والتدبير المسبق، ولأن فرصتي في النجاح بدت معدومة. وقفتُ أشاهد القامات المُرتدية الزي العسكري وهي تعبُر الرصيف، وفكرتُ في أنَّ المستقبل القريب الذي ينتظر هؤلاء الأشخاص آمِن جميل مقارنةً بما ينتظرني. نعم، حتى لو أصبحوا في قلعة هوهونتسولرن الأسبوع المقبل، أو خندق هيربين في منطقة المحاجر، أو تلك الزاوية البغيضة في قرية هودج. تساءلتُ لماذا لم أكن أسعد في صباح ذلك اليوم قبل أن أتلقَّى تلك البرقية الملعونة. وفجأة بدت لي كل تفاهات الحياة الإنجليزية غالية وعزيزة إلى حدٍّ لا يوصَف، وبعيدة المنال للغاية. كنتُ غاضبًا جدًّا من بوليفانت، حتى تذكرتُ كم كان عادلًا. فأنا من اخترتُ قدري بمحض إرادتي.

عندما كنتُ أطارد جماعة بلاك ستون، ساعدَني التشويق الكامن في المشكلة على مُواصلة المهمة. لكنني في هذه المرة لم أكن أرى أي مشكلةٍ أصلًا. لم يكن لديَّ أي خيطٍ أستند إليه سوى ثلاث كلمات من الهراء المُبهم على قطعةٍ من الورق، ولغز كان السير والتر مقتنعًا بوجوده لكنَّه لم يستطِع أن يُطلق عليه اسمًا معيَّنًا. كان الأمر كالقصة التي قد قرأتها من قبل عن سانت تريزا وهي ترتحل في سنِّ العاشرة مع شقيقها سعيًا إلى إقناع الموريين باعتناق المسيحية. جلستُ في سيارة الأجرة مكوَّمًا على نفسي، مُسنِدًا ذقني على صدري، متمنيًا في نفسي أن لو كنتُ فقدت ساقي في معركة لوس، وانعزلتُ مرتاحًا في مكانٍ بعيد إلى أن تنتهي الحرب.

وجدتُ رجُلي في المطعم كما كان متوقعًا. كان جالسًا هناك، يأكل بجدية ورزانة، وقد دسَّ تحت ذقنه منديل مائدة. كان رجلًا ضخمًا ذا وجهٍ سمين شاحب، حليق اللحية. تجاهلتُ النادل الذي كان يحوم حولي منتظرًا تقديم المساعدة لي، وسحبتُ كرسيًّا بجوار الأمريكي عند طاولته الصغيرة. استدار نحوي بعينَين يملؤهما النعاس كأنه ثور مُجتر.

سألته: «السيد بلنكيرون؟»

فقال: «تعرفُ اسمي أيها السير. السيد جون سكانتلبري بلنكيرون. أتمنَّى لك صباحًا طيبًا، لو رأيتُ أي شيء طيبٍ في هذا الطقس البريطاني اللعين.»

قلت بنبرةٍ خفيضة: «أنا من طرف السير والتر بوليفانت.»

فقال: «حقًّا؟ السير والتر من أصدقائي المُقربين جدًّا. سُررتُ بلقائك أيها السيد، أو ربما الكولونيل …»

قلت: «هاناي، الميجور هاناي.» كنتُ أتساءل ما المساعدة التي يستطيع هذا الأمريكي الناعِس أن يُقدمها لي.

قال: «دعني أُقدم لك غداءً على نفقتي الخاصة أيها الميجور. أيها النادل، أحضر قائمة المأكولات. يؤسِفني أنني لن أستطيع أن أُشاركك تذوُّق ما تُقدمه إدارة هذا الفندق. فأنا، يا سيدي، مصاب بعُسر الهضم، عُسر هضم الاثنا عشر. إنه يُصيبني بعد ساعتَين من تناول الوجبات، ويُشعِرني بجحيم مُستعر أسفل عظام صدري. لذا فأنا مُلزَم باتباع نظامٍ غذائي. طعامي هو السَّمك والحليب المغلي وقليل من الخبز المحمَّص الجاف. أتحسَّر على تلك الأيام التي كنتُ أستطيع فيها أن أُوفِّيَ وجبة غداء في مطعم شيري حقَّها، وألتهِمَ سلطعونات المحار وعظامًا مطهوة بالتوابل الحارة.» وتنهَّد من أعماق جسده العريض.

طلبتُ بيضًا مخفوقًا مقليًّا وشريحةً من اللحم المُقدَّد، وألقيتُ نظرةً أخرى عليه. كانت عيناه الكبيرتان تبدوان كأنهما تُحدِّقان بثباتٍ في وجهي دون أن ترياني فعلًا. كانتا خاويتَين كعينَي طفلٍ شارد الذهن، ولكن انتابني شعور غير مُريح بأنهما كانتا أشدَّ إبصارًا من عينيَّ.

قال: «أكنتَ تقاتل في الحرب أيها الميجور؟ معركة لوس؟ حسنًا، أظن أنها كانت معركةً شعواء بكلِّ تأكيد. نحن في أمريكا نحترم بسالة الجندي البريطاني في القتال، لكننا لا نستوعِب حِيَل الجنرالات البريطانيين وخُططهم إطلاقًا. فنحن نرى أنَّ النزعة العدوانية بين أعاليكم وقادتكم تفوق تفكيرهم العلمي. صحيح؟ لقد قاتل والدي في تشاتانوجا، لكنِّي لم أُعايش شيئًا بنفسي أعنف من الانتخابات الرئاسية. قل لي، هل تُوجَد أي طريقة تُتيح لي دخولَ مشهدٍ تُراق فيه دماء حقيقية؟»

أضحكتني نبرته الجادة. قلت: «الكثير من أبناء بلدك مشاركون في المعركة الحالية. فالفيلق الأجنبي الفرنسي يعجُّ بشبانٍ أمريكيين، وكذلك فيلق الخدمات في جيشنا. نصف السائقين الذين يُصادفهم المرء في فرنسا يَبدون من الولايات المتحدة.»

تنهَّد. وقال: «فكرتُ في الإقدام على عملٍ قتالي مُثير قبل عام. لكني فكرتُ مليًّا، وارتأيتُ أنَّ الربَّ الكريم لم يُنعِم على جون إس بلنكيرون بالبنية الجسدية القتالية التي قد تُشرِّف ميدان المعركة. وتذكرتُ أيضًا أننا، نحن الأمريكيين، كنَّا مُحايِدين، مُحايِدين خيِّرين، ولم يكن من اللائق أن أتدخَّل في الصراعات الدائرة بين الممالك العقيمة في أوروبا. لذا بقيتُ في وطني. وكانت هذه تضحية كبيرة أيها الميجور؛ لأنني كنتُ أرقد مريضًا أثناء الحرب الفلبينية الأمريكية، ولم أُجرِّب المشاعر التي يُنفِّس عنها الرجال في ساحة المعركة بلا رادعٍ قانوني قط. ولأنني مُهتم بدراسة الطبيعة الإنسانية، كنتُ أتوق إلى التجربة.»

سألته: «وماذا فعلتَ منذ ذلك الحين إلى الآن؟» فقد بدأ ذلك الرجل المُهذَّب الهادئ يُثير فضولي.

قال: «حسنًا، انتظرتُ فحسب. لقد أنعم عليَّ الرب بأموالٍ طائلة لأُنفقها كيفما أشاء؛ لذا لم أكن مُحتاجًا إلى أن أهرع كقطةٍ برِّية بحثًا عن إبرام صفقاتٍ أجني بها أرباحًا من وراء الحرب. لكني ارتأيتُ أنَّ الفرصة ستُتاح لي لأدخل اللعبة بطريقةٍ ما، وقد كان. فبصِفتي مُحايدًا، كنتُ في وضعٍ مُواتٍ للمشاركة. عشتُ فترةً حافلةً جدًّا، ثم ارتأيتُ أن أُغادر بلاد الربِّ وأرى ما يحدُث في أوروبا. قررتُ ألَّا أُشارك في ساحات القتال وإراقة

الدماء، لكنَّ السلام، كما يقول شاعركم في أغنيتِه، له انتصارات لا تقلُّ مجدًا عن الحرب، وأرى أنَّ هذا يعني أنَّ المُحايد يُمكن أن يكون له دورٌ في الحرب كالمُحارب المولَع بالقتال.»

قلت: «هذا أفضل أنواع الحياد التي سمعتُ عنها في حياتي.»

ردَّ برزانة: «هذا هو النوع الصحيح. أخبِرني أيها الميجور، ما الذي تُقاتل جماعتُك من أجلِه؟ من أجل أرواحكم والإمبراطورية وسلام أوروبا. حسنًا، تلك المُثُل لا تُهمُّنا إطلاقًا. نحن لسنا أوروبيين، ولا تُوجَد أي خنادق ألمانية على جزيرة لونج آيلاند حتى الآن. لقد أرسيتُم القواعد في أوروبا، وإذا تدخلنا، سيكون هذا مُنافيًا لقواعد اللعبة. لن تُرحبوا بنا، وأظن أنكم ستكونون مُحقِّين في ذلك. إننا مراعون جدًّا لأصول اللياقة لدرجة أننا لا نستطيع التدخُّل، وهذا ما كان صديقي، الرئيس ويلسون، يقصده حين رأى أنَّ كبرياء أمريكا يمنعها من التدخُّل. لذا فنحن مُحايدون. لكننا مُحايدون خيِّرون أيضًا. من واقع مُتابعتي للأحداث، يُوجَد ظَرِبان أُطلِق في العالم، ورائحتُه ستجعل الحياة كريهة، إلى حين التخلُّص منه. صحيح أننا لسنا مَن أطلقنا ذلك الظَّرِبان، ولكن علينا أن نُساعد في تطهير الكوكب منه. أتفهمني؟ لا نستطيع خوض الحرب، ولكن، بحقِّ الرب، بعضنا مُستعد لأن يتصبَّب دمًا من أجل كسح الفوضى الناجمة عنها. على المستوى الحكومي الرسمي، لا نفعل شيئًا سوى إصدار بياناتٍ كمِرجَل مثقوب يُسرِّب بخارًا. ولكن على مستوى المواطنين الأفراد، فنحن منشغلون بتلك المسألة حتى النخاع. لذا سأقتدي بجيفرسون ديفيس وودرو ويلسون، وسألتزم بأفضل نوعٍ من الحياد إلى أن يندم القيصر على أنه لم يُعلن الحرب على أمريكا أولًا.»

كنتُ أستعيد هدوئي تمامًا. كان هذا الرجل جوهرة مثالية، وشعرت بأنَّ روحه قد ألهمتني غايةً محددة.

«أظنُّ أنكم أيها البريطانيون كنتم تَلزَمون النوع نفسه من الحياد عندما حذَّر أدميرالكم الأسطول الألماني من اعتراض الأدميرال جورج ديوي في خليج مانيلا في عام ١٨٩٨.» شرب السيد بلنكيرون آخِر قطرة من حليبه المغلي، وأشعل سيجارًا أسود رقيقًا.

انحنيت إلى الأمام. وسألته: «هل تحدثتَ إلى السير والتر؟»

«تحدثتُ إليه، وفهمتُ منه أنَّ ثمة صفقة تنتظِرنا، وأنك ستكون مسئولًا عنها. هذا الرجل الضخم مُتبصرٌ وموثوق بكلامه، وإذا قال إنها صفقة رابحة، فيُمكنك أن تعتبرني مشاركًا فيها.»

«أتعرف أنها خطرة للغاية؟»

«خمَّنتُ ذلك. ولكن لا فائدة من البدء في إحصاء الأخطار. إنني أُومن بالعناية الإلهية الحكيمة الرحيمة، ولكن عليك أن تثِق بالرب وتمنحه فرصة. فما الحياة على أيِّ حال؟ عن نفسي، لا تعني لي الحياة سوى العيش على نظامٍ غذائي صارم، ومُكابدة آلام مُتكررة في معدتي. ليس من الصعب التخلي عنها، بشرطِ أن تجني ربحًا جيدًا من الصفقة. وفوق ذلك، ما حجم الخطر المُحتمل؟ قُرابةَ الساعة الواحدة صباحًا، عندما يكون النوم مُستعصيًا عليك، سيكون الخطر بحجم جبل إيفرست، ولكن إذا ركضتَ لمجابهته مُقبِلًا غير مُدبِر، فسيكون بمنزلة تلٍّ صغير تستطيع القفز من فوقه. فالدب الرمادي يبدو في مخيلتك شرسًا جدًّا وأنت مقبلٌ على الذهاب إلى جبال روكي، متسائلًا عمَّا إذا كنتَ ستنجو وتعود من هناك، لكنه يُصبح مجرد دبٍّ عادي عندما تُسلِّط مِهدافَ بندقيتك عليه. لن أفكر في الأخطار إلَّا بعد أن أغوص فيها حتى عُنقي ولا أرى سبيلًا إلى الخروج منها.»

كتبتُ عنواني في عجالةٍ على قصاصةٍ ورقية وسلمتها للفيلسوف البدين. وقلت: «تعالَ لتتناول العشاء معي الليلة في الساعة الثامنة.»

«شكرًا لك أيها الميجور. أرجو أن تُعِد لي قليلًا من السمك المسلوق دون أي توابل أو إضافات، وبعض الحليب الساخن. وأستميحك عذرًا أن أستعير أريكتك بعد الوجبة، وأقضي المساء مُستلقيًا عليها. فهذه نصيحة طبيبي الجديد.»

استقللتُ سيارة أجرة وذهبت بها إلى النادي الذي كنتُ أرتاده. وفي الطريق، فتحتُ الظرف الذي أعطاني إيَّاه السير والتر. كان يحوي عددًا من الملاحظات كانت بمنزلة ملفٍّ عن السيد بلنكيرون. اتضح لي أنه فعل معجزاتٍ لدول الحلفاء في الولايات المتحدة. فقد كشف مؤامرة دومبا، واضطلع بدورٍ مُهم جدًّا في الحصول على حقيبة أوراق الدكتور ألبرت. حاول جواسيس فون بابن قتله، بعدما أحبط محاولةً لتفجير أحد مصانع السلاح الكبيرة. وكتب عنه السير والتر في النهاية: «أفضل رجل حظينا به على الإطلاق. أفضل حتى من سكادر. إنه مُستعد لاقتحام أهوال الجحيم بعلبةٍ من أقراص البزموت ومجموعة من أوراق اللعب.»

دخلت إلى غرفة التدخين الخلفية الصغيرة، واستعرتُ أطلسًا من المكتبة، وأجَّجتُ نيران المدفأة بالسيخ، وجلست أُفكر. لقد أعطاني السيد بلنكيرون الدَّفعة التي كنتُ أحتاج إليها. وهكذا بدأ عقلي يعمل، وأخذ يستكشف المسألة كلها من جميع جوانبها. لا يعني ذلك أنني كنتُ أطمح إلى التوصُّل إلى أي شيءٍ بتأمُّلاتي تلك. فهذا اللغز ما كان ليُحَل بالتفكير وأنا جالسٌ على كرسيٍّ ذي مسندَين. لكنني كنتُ أحاول أن أستجمِع في رأسي

ملامح خطةٍ معينة لأُسيِّر العملية وفقها. وما أراحني أنني توقفتُ عن التفكير في الأخطار. لقد أشعرني بلنكيرون بالخجل من نفسي وأخرجني من تلك الحالة. فإذا كان لرجلٍ كثير القعود مُصاب بعُسر الهضم أن يُظهِر جرأة كهذه، فلن أكون أقل منه.

عدتُ إلى شقتي قُرابةَ الساعة الخامسة. كان خادمي بادوك قد رحل منذ فترةٍ طويلة للمشاركة في الحروب؛ لذا انتقلتُ إلى أحد المُجمعات السكنية الجديدة في شارع بارك لين حيث يُوفرون طعامًا وخدمة. لكني ظللتُ محتفظًا بشقَّتي القديمة لأجد مكانًا أذهب إليه عند الحصول على إجازة. فبئس قضاء الإجازات في فندق.

كان ساندي يلتهِم كعكات الشاي بإصرارٍ جادٍّ على التماثُل للشفاء.

سألني: «حسنًا يا ديك، ما الأخبار؟ هل رقَّوك إلى منصبٍ أعلى أم سرَّحوك من الخدمة؟»

«لا هذا ولا ذاك. لكننا سنختفي أنا وأنت من قوات جلالته. سنذهب في إعارةٍ لتنفيذ خدمة خاصة.»

قال ساندي: «ربَّاه! ما هي؟ من أجل الرب فلتُبعِدني عن العناء. هل سنصطحِب وفود المُحايدِين المشبوهِين إلى مصانع السلاح والذخيرة، أم سنأخذ الصحفي المرتعِش في سيارةٍ إلى مكانٍ يتخيل فيه أنه يرى ألمانيًّا؟»

«سنخوض في التفاصيل لاحقًا. ولكن يُمكنني أن أُخبرك الآن بهذا القدر. إنها آمنة وسهلة كعبور خطوط الألمان بعكاز.»

فقال ساندي: «حسنًا، هذا ليس سيئًا جدًّا»، وبدأ يتناول كعكات المافن بمرحٍ وبهجة.

يجب أن أُخصِّص لحظةً لأقدِّم ساندي للقارئ؛ إذ لا يُمكن أن يُقحَم في أحداث هذه القصة فجأة هكذا دون تقديمٍ لائق. إذا عدتَ إلى سجلِّ العائلات النبيلة، فستجد أنَّ إدوارد كوسباتريك، بارون كلانرويدن الخامس عشر، له ابنٌ وُلِد في عام ١٨٨٢، وكان هذا هو ابنَه الثاني، واسمه لودوفيك جوستافوس أربوثنوت، ويُلقَّب عادةً بفخامة السيد المُحترم، إلى آخِر الاسم. تلقى الابن المذكور تعليمه في كلية إيتون وكلية نيو كوليدج في أكسفورد، وكان قائدًا في فوج تويديل يومانري، وعَمِل مُلحقًا شرفيًّا في سفاراتٍ مختلفة عدة سنوات. سيكون سجلُّ العائلات النبيلة مقتصرًا على هذا الحد، لكن هذه ليست نهاية القصة إطلاقًا. وإذا أردتَ أن تعرف البقية، فسيكون عليك الاستعانة بمراجع مختلفة تمامًا. كبعض الرجال السُّمر النُّحفاء الذين يأتون من أقاصي الأرض، والذين قد يراهم المرء على أرصفة لندن بين الحين والآخر بثيابٍ مجعَّدة، يمشون بالخطوة الأجنبية الخفيفة، ويتسلَّلون إلى

داخل النوادي كما لو كانوا لا يستطيعون تذكُّر ما إذا كانوا أعضاء فيها أم لا. فهؤلاء قد تعرف منهم معلوماتٍ عن ساندي. ولكن إذا أردتَ مرجعًا أفضل، فستسمع عنه في موانئ الصيد الصغيرة المنسية التي تغوص عندها الجبال الألبانية في البحر الأدرياتيكي. وإذا ذهبت إلى مكة من أجل الحج، فمن المُحتمل أن تلتقي العشرات من أصدقاء ساندي فيها. وفي أكواخ الرعاة في القوقاز، ستجد قِطعًا من ثيابه المتروكة؛ لأنه معتاد أن يترك ملابسه أثناء ترحاله. وهو معروف كذلك في خاناتِ قوافل بُخارى وسمرقند، ويوجَد صيادون في جبال بامير ما زالوا يتحدَّثون عنه وهم يتسامرون حول نيرانهم. وإذا كنتَ ستزور بتروجراد أو روما أو القاهرة، فلن يُفيدك أن تطلُب منه خطابات توصية لتُسهِّل عليك الأمور في هذه المناطق؛ لأنه لو أعطاك إيَّاها، فستقودك إلى أماكن غريبة. ولكن إذا أجبرك القَدَر على الذهاب إلى لاسا أو يارقند أو سيستان، يُمكن لساندي أن يرسُم لك طريقك ويُخبِر أصدقاءه النافذين بقدومِك ليُساعدوك. صحيح أننا نَصِف أنفسنا بأننا مُنعزلون عن بقية البشر، لكن الحقيقة أننا العِرق الوحيد على الأرض الذي يُمكنه أن يُنتِج رجالًا قادرين على الاندماج التام مع الشعوب البعيدة. ربما يكون الاسكتلنديون أفضل من الإنجليز، لكننا جميعًا أفضل بنسبة ألف في المائة من بني أيِّ جنسية أخرى. كان ساندي هو الاسكتلندي المتجوِّل الذي وصل إلى قمة العبقرية في هذه النقطة. ولو كان موجودًا في الزمن القديم، لَقاد حملةً صليبية أو لَاكتشفَ طريقًا جديدًا إلى جزر الهند الشرقية. أمَّا اليوم، فإنه يكتفي بالترحال والتجوال كيفما تَقُوده روحه، إلى أن جرفته الحرب وألقَتْه في كتيبتي.

أخرجتُ الورقة التي أعطاني إيَّاها السير والتر. لم تكن الورقةَ الأصلية؛ لأنه عادةً ما كان يُحب الاحتفاظ بالأصل، لكنها كانت منسوخة عنها نَسخًا استشفافيًّا دقيقًا. ارتأيتُ أنَّ هاري بوليفانت لم يدوِّن تلك الكلمات ليُذكِّر نفسَه بها. فأمثاله ممَّن خاضوا مسيرةً مهنية حافلة كمسيرته لدَيهم ذاكرة قوية. لذا، فلا بد أنه دوَّنها لكي يتسنَّى لأصدقائه، إذا هَلَك ووجدوا جثتَه، أن يحصلوا على خيطٍ ما ليسترشدوا به. ومن ثَم، قلت لنفسي إنَّ هذه الكلمات لا بدَّ أن تكون مفهومةً لشخصٍ ما من بني جلدتنا، ولا بد كذلك أنها مُبهَمة تمامًا لأي تركي أو ألماني يعثر عليها.

لم أفهم شيئًا من الكلمة الأولى «قصر الدين». فسألت ساندي.

قال وهو ما يزال يلتهم الكعكات اللينة الصغيرة: «تقصد نصر الدين.»

فسألته بحدة: «ما هذا؟»

«إنه الجنرال الذي يُعتقَد أنه يقود الحملة المناهضة لنا في بلاد الرافدين. أتذكَّره منذ كنتُ في حلب قبل سنوات. كان يتحدث الفرنسية بركاكة، وكان يشرب ألذ شمبانيا.»

دققتُ في الورقة عن قُرب. فرأيت حرف القاف واضحًا كالشمس.

قال: ««قصر الدين» لا تُشير إلى شيءٍ مُحدد. إنها تعني «بيت الإيمان»، وقد تشمل أي شيءٍ بدءًا من جامع آيا صوفيا حتى فيلا راقية في الضواحي. ما لُغزك التالي يا ديك؟ هل تقدَّمت للمشاركة في مسابقةٍ على جائزة في صحيفة أسبوعية؟»

قرأتُ الكلمة التالية قائلًا: «سرطان.»

«هذا المرادف لكلمة سلطعون. وهو أيضًا اسم لمرضٍ مؤلِم. كما أنها علامة البرج الفلكي الذي يتخذ ذلك الشكل.»

قرأت الكلمة الثالثة: «.V. I»

«لا أعرف الإجابة. يبدو رقم سيارة. ستكتشف الشرطة ذلك لك. أراها مسابقة صعبة بعض الشيء. ما الجائزة؟»

ناولته الورقة. فقال: «من كتبها؟ يبدو كما لو كان في عجلةٍ من أمره.»

قلت: «هاري بوليفانت.»

ارتسمت الجدية على وجه ساندي. وقال: «هاري الذي نعرفه. لقد كان تلميذًا عند مُعلِّمي. أفضل رجل خلقه الرب على الإطلاق. رأيت اسمه في قائمة الضحايا قبل معركة الكوت ... لم يكن هاري يفعل شيئًا عبثًا دون غرضٍ مُحدد. ما قصة هذه الورقة؟»

قلت: «انتظر إلى ما بعد العشاء. سأُغيِّر ثيابي وأستحم. ثمة رجل أمريكي قادم ليتعشى معنا، وهو ضلع في تلك المهمة.»

وصل السيد بلنكيرون في موعده بالضبط مرتديًا معطفًا من الفرو كأميرٍ روسي. وبعدما رأيته واقفًا على قدمَيه، بخلاف المرة الأولى، استطعت أن أكوِّن عنه رأيًا أدق. كان سمين الوجه، لكنَّ جسده لم يكن بدينًا للدرجة، وكان له معصمان مفتولا العضلات يظهران من أسفل أساور كُمَّي قميصِه. تخيلتُ أنه إذا اقتضت الحاجة، فسيكون بارعًا في القتال بيدَيه.

أكلتُ أنا وساندي وجبة دسمة، لكنَّ الأمريكي أكل القليل من سمكه المقلي دون شهية، وكان يرتشف حليبه قطرةً بقطرة. عندما انصرف الخادم، أوفَى الأمريكي بوعده واستلقى على أريكتي بالفعل. عرضت عليه سيجارًا فاخرًا، لكنه فضَّل واحدًا من سيجاره البغيض الأسود الرقيق. وجلس ساندي ممددًا في كرسيٍّ مريح وأشعل غليونه. ثم قال: «الآن حان وقت قصتك يا ديك.»

بدأت، كما بدأ السير والتر كلامه معي، بإخبارهم عن اللغز الغامض في الشرق الأدنى. سردتُ القصة بحبكةٍ مُشوقة جدًّا؛ لأنني ظللت أفكر فيها كثيرًا، ولأنَّ اللغز الكامن في المسألة قد استحوذ على خيالي كله. أصبح ساندي متحمسًا جدًّا.

قال: «هذا ممكن جدًّا. بل كنتُ أتوقعه، وإن كنتُ لا أستطيع إطلاقًا أن أُخمِّن الورقة الرابحة التي يُخبئها الألمان. الاحتمالات كثيرة جدًّا. ربما تكون نبوءةً زائفة كالتي ظهرت قبل ثلاثين عامًا وأحدثت خرابًا في اليمن. أو راية كالتي كان «علي واد حلو» يحملها، أو حِلية كعِقد سليمان في الحبشة. لا يُمكن للمرء أبدًا أن يعرف ماهية الشيء الذي سيُطلِق شرارة الجهاد! لكني أظنُّ أنه رجل.»

فسألته: «من أين استطاع أن يحظى بالتأييد اللازم؟»

«من الصعب أن نعرف ذلك. لو كان أتباعه مجرد رجال قَبَليين همجيِّين كالبدو، فربما يكون قد اكتسب سمعةً بوصفه قديسًا وصانع معجزات. أو ربما يكون رجلًا بشَّر بدينٍ خالص، كالرجل الذي أسس الطريقة السنوسية. لكنَّ أغلب ظنِّي أنه لا بد أن يكون رجلًا ذا طابع أكثر استثنائية إذا كان له أن يُسبِل سحره على العالَم الإسلامي كله ويُقنعه باتباعه. فالأتراك والفُرس لن تنطلي عليهم لعبة الإصلاحات اللاهوتية الجديدة التقليدية. لا بدَّ أن يكون ذلك الرجل من نَسَب الأشراف. إن هؤلاء المهدِيين والملالي والأئمة كانوا نَكِرات، لكنهم كانوا يَحظَون بهيبةٍ محلية فحسب. ولكي يسيطر ذلك الرجل على العالَم الإسلامي كله — وهذا ما نخشاه حسبما أفهم — لا بد أن يكون مُنتسبًا إلى قريش، قبيلة النبي نفسه.»

«ولكن كيف يستطيع أي مُحتال أن يثبت ذلك؟ لأنني أظنُّه محتالًا.»

«سيكون عليه أن يُقدِّم مزيجًا من ادِّعاءاتٍ كثيرة. بادئ ذي بدء، يجب أن يكون نَسَبه شريفًا جدًّا، وتذكَّر أنَّ ثمة عائلات تدَّعي أنها من نَسَب قريش. ثم يجب أن يكون أعجوبةً في حدِّ ذاته، أي: ورِع وبليغ وما إلى ذلك. وأتوقَّع أنه سيكون عليه أن يُبيِّن أمارةً ما، وإن كنتُ لا أحمل أي فكرة عن ماهية تلك الأمارة بالتحديد.»

سألته قائلًا: «أنت أدرى بالشرق من أيِّ إنسانٍ على وجه الأرض. هل تظن أنَّ شيئًا كهذا مُمكن؟»

قال ساندي بوجهٍ جادٍّ مُتجهم: «بكل تأكيد.»

«حسنًا، لدَينا بذلك أرضيةٌ مُمهَّدة للبداية. ثم لدَينا الدليل الذي حصلنا عليه من كل عميلٍ سرِّي تابع لنا تقريبًا. كل ذلك يبدو أنه يثبت الحقيقة. ولكن ليس لدَينا أي تفاصيل ولا خيوط باستثناء تلك القُصاصة الورقية.» وأخبرتهما بقصتها.

تفحَّصها ساندي قاطبًا حاجبَيه. ثم قال: «إنها عصيَّة على فهمي. لكنها قد تكون المفتاح لكلِّ ذلك. خيط ربما يكون مُبهَمًا هنا في لندن، وواضحًا تمامًا في بغداد.»

«هذه بالضبط هي النقطة التي كنتُ سآتي على ذكرها. يقول السير والتر إنَّ هذه المسألة مُهمة لقضيتنا بقدْرِ أهمية المدافع الثقيلة. لا يستطيع إعطائي أوامر، لكنه يعرض عليَّ مهمة السفر إلى الخارج لاكتشاف ماهية المؤامَرة الخبيثة. وحالَما يعرفها، يقول إنه يستطيع إحباطها. ولكن يَجب كشفها قريبًا لأنَّ اللغم قد ينفجر في أي لحظة. وقد قبلت المهمة. فهل يُمكنك مساعدتي؟»

كان ساندي يتأمَّل السقف.

«وينبغي أن أضيف أنَّ تلك المهمة محفوفة بأخطار مُهلِكة كلعبة التصويب على الأشياء وسط غمار معركة لوس، يومَ دخلنا ساحة المعركة أنا وأنت. وإذا فشلنا، فلن يستطيع أحدٌ مساعدتنا.»

قال ساندي بنبرةٍ شاردة: «أوه، طبعًا طبعًا.»

بعدما أنهى السيد بلنكيرون استلقاءَه بعد العشاء، انتصب في جلسته وسحب نحوَه طاولة صغيرة. أخرج من جيبه مجموعةً من ورق اللعب، وبدأ يلعب تلك اللعبة المُسماة «دابل نابليون». كان يبدو غير واعٍ بالمحادثة.

شعرتُ فجأة بأنَّ المسألة كلها محض جنون. فها نحن أولاءِ ثلاثة مُغفَّلين جالسين في شقة بلندن نعتزم تنفيذ مهمةٍ في قلعة الأعداء دون أي فكرةٍ عمَّا سنفعله أو كيف سنفعله. وكان أحد الثلاثة يتأمَّل السقف، مُصفِّرًا بصوتٍ خفيض من بين أسنانه، فيما كان آخَر يلعب إحدى ألعاب الورق. انتابني شعورٌ قوي جدًّا بهزلية الموقف لدرجة أنني ضحكت.

نظر ساندي إليَّ بحدة.

«هل يُراودك هذا الشعور؟ يُراودني أنا أيضًا. هذا جنون، لكنَّ الحرب كلها جنونية أصلًا، والأشد جنونًا هو من سيفوز على الأرجح. سنسلُك هذا الطريق المجنون مهما كانت الوجهة التي نتوقع أن يقودنا إليها. حسنًا، أنا معك في هذه المهمة. لكني لا أمانع الاعتراف بأنني مرعوب. فقد اعتدتُ القتال في الخنادق، وكنتُ سعيدًا جدًّا بذلك. وها أنت الآن تُخرجني فجأة من الخندق، وقدماي باردتان جدًّا من الخوف.»

قلت: «لا أعتقد أنك تعرف ما هو الخوف.»

قال بجدية: «أنت مُخطئ في ذلك يا ديك. المختلُّون فقط هم من لا يعرفون الخوف. صحيح أنني فعلتُ أشياء متهورة، لكنني لم أكن أبدأ فيها أبدًا دون أن أتمنَّى لو أنها انتهت. وحالما أنخرط في غمار المهمة تصبح الأمور أسهل، بل وأكون حزينًا على تركها حين أصل إلى نهايتها. لكنَّ قدميَّ تكونان متجمِّدتَين في البداية من شدة الخوف.»

«إذن أفهم من ذلك أنك آتٍ معي؟»

قال: «بكل تأكيد. وهل ظننتَ أنني سأخذلك؟»

قلت مُخاطبًا بلنكيرون: «وأنت يا سيدي؟»

كان يبدو أنَّ لعبة الورق التي كان يلعبها تنتهي. فقد كان يُكمِل ثمانية أكوام صغيرة من ورق اللعب بصوتٍ من أنفه ينمُّ عن الرضا. وبينما كنت أحدثه، رفع عينَيه الناعستَين نحوي وأومأ بالإيجاب.

قال: «نعم بالطبع. لا تظنَّا أيها السيدان أنني لم أكن أتابع حديثكما الشائق جدًّا ذاك. أعتقد أنني لم أُفوِّت حرفًا منه. كل ما هنالك أنني أجد أنَّ لعبة الورق هذه تُحفِّز الهضم بعد الوجبات، وتدفعني إلى التفكير بهدوء. جون إس بلنكيرون معكما دائمًا وأبدًا.»

خَلَط ورق اللعب وأعاد توزيعه ليبدأ لعبة جديدة.

صحيح أنني لم أكن أتوقَّع منهما رفضًا قط، لكن هذه الموافقة السريعة أبهجتني جدًّا على كل حال. فما كنتُ لأستطيع مواجهة الأمر وحدي.

«حسنًا، اتفقنا. والآن لننتقِل إلى الطُّرق والوسائل. علينا نحن الثلاثة أن نتمركز في مواضع تُتيح لنا اكتشاف سر ألمانيا، وعلينا الذهاب إلى المكان المعروف فيه هذا السر. علينا أن نصل إلى القسطنطينية بأي طريقةٍ مهما كانت، ولنُغطِّ أكبر مساحة ممكنة من البلاد، علينا أن نسلك طرقًا مختلفة. ساندي، اسمعني يا فتاي، عليك أن تدخل تركيا. أنت الوحيد بيننا الذي يعرف هذا الشعب المثير للاهتمام. لا يُمكنك أن تدخلها عن طريق أوروبا بسهولة؛ لذا عليك أن تُجرِّب آسيا. ما رأيك في ساحل آسيا الصغرى؟»

قال: «هذا مُمكن. من الأفضل أن تترك تلك المسألة برُمَّتها لي. سأجد أفضل طريق. أعتقد أنَّ وزارة الخارجية ستُساعدني للوصول إلى نقطة الانطلاق، أليس كذلك؟»

قلت له: «تذكَّر أنك ينبغي ألَّا تتوغل شرقًا أكثر من اللازم. فالسر، على حدِّ علمنا، ما زال كامنًا غرب القسطنطينية.»

«مفهوم. سأدخلها بغتةً من عند مضيق البوسفور عبر مسارٍ متعرج قصير.»

«أمَّا أنت يا سيد بلنكيرون، فأودُّ أن أقترح عليك رحلة مباشرة. أنت أمريكي وتستطيع السفر عبر ألمانيا مباشرة. لكني أتساءل ما إذا كانت أنشطتك التي مارستها في نيويورك سوف تجعلهم لا يعتبرونك محايدًا تمامًا ويُقيدون تحركاتك أم لا؟»

قال: «فكرتُ في ذلك يا سيدي. فكرتُ في السيكولوجية الفريدة للأمَّة الألمانية العظيمة. حسبما فهمته عنهم، فهُم ماكرون كالقطط. وإذا لعبت لعبة القطط ضدهم، سيتفوقون عليك في كل مرة. أجل يا سيدي، إنهم ليسوا سُذَّجًا في أعمال الاستخبارات السرية. وإذا اشتريتُ شاربًا مستعارًا وصبغتُ شعري، وتنكَّرت في ثوبِ كاهنٍ معمداني، ودخلت ألمانيا محاولًا خداعهم بأنني آتٍ لإرساء السلام، فأظن أنهم سيتعقبونني بلا هوادة، وسيعتبرونني جاسوسًا ويُرْدونني قتيلًا بالرصاص في غضون أسبوع واحد، أو يزجُّون بي في الحبس الانفرادي في سجن موابت. لكنهم لا يرَون الصورة الأكبر. يُمكن الاحتيال عليهم يا سيدي. لذا، فمن بعد إذنك، سأزور «ألمانيا الوطن» بصفتي جون إس بلنكيرون، الذي كان يومًا ما شوكة في حَلق أذكى شبَّانهم على الجانب الآخر من الصراع. لكنني أعتزم أن أُوهمهم بأنه قد صار مختلفًا، وأنه قد غير موقفه. سيُقدِّر روحَ ألمانيا العظيمة النقية النبيلة، وسيحزن على ماضيه باعتباره مجرمًا قاتلًا، ويُعلن توبته في أحد تجمعات الاستتابة. سيوهمهم بأنه ضحيةٌ لخِسَّة الحكومة البريطانية وغدرها. سأفتعل مشادَّة مُحتدمة مع وزارة خارجيتكم بخصوص جواز سفري، وسأتحدَّث عنهم بكلمات لاذعة في كل أنحاء هذه العاصمة. سيكون عملاؤكم الاستخباراتيون في أثري خلسة في الميناء الذي سأنطلق منه، وسأصطدم بالمندوبين الدبلوماسيين البريطانيين في الدول الاسكندنافية. وبحلول ذلك الوقت، سيكون أصدقاؤنا الألمان قد بدءوا يتساءلون عمَّا حدث لجون إس، ويرَون أنهم ربما أخطئوا في حكمهم على ذلك الطفل البريء. لذا عندما أصل إلى ألمانيا، سيكونون في انتظاري بصدرٍ رحب دون تحيُّزات أو أحكام سابقة. وأعتقد أنَّ سلوكي عندئذٍ سيُفاجئهم ويشجعهم. سأُفضي لهم بمعلوماتٍ سرية قيِّمة عن الاستعدادات البريطانية، وسأُظهِر الأسد البريطاني على أنه أنذل أنواع الكلاب الجبانة. يُمكنك أن تثق بأنني سأُبهرهم. وبعدئذٍ سأتحرك شرقًا لأرى انهيار الإمبراطورية البريطانية في تلك المناطق. بالمناسبة، أين سيكون الملتقى؟»

«اليوم هو السابع عشر من نوفمبر. إذا لم نستطع اكتشاف ما نريد في غضون شهرين، فقد نترك المهمة. وفي السابع عشر من يناير، سنتجمع في القسطنطينية. أيًّا كان

من يصل إلى هناك أولًا ينتظر الاثنين الآخرين. إذا لم نكن كلنا حاضرين في نقطة الالتقاء بحلول ذلك التاريخ، فسيُعتبر أنَّ الغائب قد وقع في مأزق، وسيتحتَّم التخلي عنه. وإذا حدثت المعجزة ووصلنا إلى هناك بسلام، فسنكون قادِمين من أماكن مُختلفة ومُتنكرين في شخصياتٍ مختلفة؛ لذا نريد نقطة الْتقاء يتجمَّع عندها كل الأنواع الغريبة من الناس. ساندي، أنت تعرف القسطنطينية. فلتتكفل أنت بتحديد مكان اللقاء.»

قال: «فكرتُ في هذا بالفعل»، ثم ذهب إلى منضدة الكتابة، ورسم خريطة صغيرة على ورقة. وأضاف: «هذا الزقاق يمتد من البازار الكردي في جالاطا إلى عبَّارة راتشيك. في منتصف الطريق نحو العبَّارة، يوجد على الجانب الأيسر مقهًى يملكه رجل يوناني اسمه كوبراسو. توجَد خلف المقهى حديقة محاطة بأسوار عالية كانت أجزاء من المسرح البيزنطي القديم. يقع عند نهاية الحديقة كوخٌ يسمَّى «كوخ حديقة سليمان الأحمر». كان في الماضي قاعةَ رقصٍ وصالة قمار، والربُّ يعلم ماذا كان أيضًا غير ذلك. إنه ليس مكانًا للمحترمين، لكنَّ أناسًا من كل بقاع الأرض يلتقون هناك، دون أن تُطرَح عليهم أي أسئلة. هذا أنسب مُلتقًى ممكن من وجهة نظري.»

كانت الغلاية تئزُّ على النيران، وكان الليل قارس البرودة، وبدا الوقت مناسبًا لشرب بعضٍ من الويسكي الممزوج بالسكر والليمون. أعددتُ شرابًا لي ولساندي، وغليتُ بعض الحليب لبلنكيرون.

سألتُ قائلًا: «ماذا عن اللغة؟ لا مشكلة عندك في ذلك يا ساندي، أليس كذلك؟»

«أعرف الألمانية جيدًا جدًّا، وأستطيع إيهام الناس في أي مكان بأنني تركي. ستنفعني تلك النقطة الأولى في التنصُّت، وستنفعني الثانية في التعامُلات العادية الأخرى.»

سألت بلنكيرون: «وأنت؟»

قال: «لم تتنزل عليَّ هبةُ تعدُّد الألسنة كالحواريين في عيد العنصرة. يؤسفني الاعتراف بأنني لا أحظى بِهبة إتقان عدة لغات. لكنَّ الدور الذي اخترته لنفسي لا يتطلب تعدد اللغات. فلا تنسَ أبدًا أنني مجرد مواطن عادي اسمه جون إس بلنكيرون من الجمهورية الأمريكية العظيمة.»

قال لي ساندي: «لم تخبرنا بالمسار الذي ستسلكه يا ديك.»

قلت: «سأذهب إلى مضيق البوسفور عبر ألمانيا، ولأنني لست محايدًا؛ فلن تكون رحلتي مهيئة بسُبُل الراحة.»

بدا وجه ساندي متجهمًا مهمومًا.

وقال: «يبدو هذا تهورًا. هل لغتك الألمانية جيدة بما يكفي؟»

«جيدة إلى حدٍّ كبير؛ كافية جدًّا لأُوهِم الناس بأنني مواطن ألماني. لكني سأتظاهر أمامهم بأنني لا أفهم أي كلمة ألمانية. سأدَّعي أنني بويريٌّ من مُستعمرة كيب الغربية في جنوب أفريقيا، كأنني فردٌ من كتيبة الضابط ماريتس القديمة مرَّ ببعض المتاعب، ثم عَبَر الحدود إلى أنجولا، ووصل إلى أوروبا. سأتحدث الهولندية فقط ولا شيء سواها. وسحقًا! سأسبُّ البريطانيين بكلِّ قسوة. فاللغة الأفريقانية تعجُّ بالكثير من الشتائم النابية الجيدة. سأدَّعي أنني أعرف كل شيءٍ عن أفريقيا، وأنني متلهفٌ لنَيل فرصة أخرى لمحاربة الجنود البريطانيين المَلاعين. وآملُ بذلك أن يُرسلوني إلى الحملة الجارية في أوغندا أو مصر، وسأحرص على الذهاب عن طريق القسطنطينية. وإذا قُدِّر لي أن أتعامَل مع السكان الأصليين المسلمين، فمن المؤكد أنهم سيُطلِعونني على الورقة الرابحة التي يحملونها. أو هذا تصوُّري للأمر على الأقل.»

ملأنا كئوسنا — اثنتَين بالويسكي وواحدة بالحليب — وشربنا نخبَ لقائنا السعيد القادم. عندئذٍ بدأ ساندي يضحك، وشاركته الضحك. فقد انتابني مجددًا ذلك الشعور بأنَّ تلك المهمة محض جنون ميئوس منه. فأفضل الخطط التي وضعناها كانت كبضع دلاءٍ من الماء لتخفيف جفاف الصحراء الكبرى، أو كالسيدة العجوز التي كانت ستوقف المحيط الأطلسي بمكنسة. تذكرتُ القديسة تيريزا الصغيرة بإحساسٍ من التعاطف.

الفصل الثالث

بيتر بينار

كان رحيلُ كلٍّ منَّا في طريقه هادئًا غير لافتٍ للانتباه، باستثناء الأمريكي. فقد قضى ساندي أسبوعَين حافلَين بعيدًا عن أنظارنا كعادته؛ فذهب إلى المتحف البريطاني، ثم هرع في أرجاء البلاد ليلتقي ببعض رفاقه المُستكشفين القدامى، ثم زار مكتب وزارة الحرب، وبعدها ذهب إلى وزارة الخارجية، لكنه أمضى أغلب الوقت في شقتي، غائصًا في كرسي ذي مسندَين، مستغرقًا في التأمُّل. ثم غادر أخيرًا في الأول من ديسمبر على أنه مبعوث من الملك إلى القاهرة. وكنت أعرف أنَّه حالَما يصل إلى هناك، سيتخلَّى عن شخصية مبعوث الملك، ويتنكر بدلًا من ذلك في ثوبِ شخصٍ همجي شرقي غريب الأطوار. كنتُ سأبدو وقحًا لو سألته عن خططه. فقد كان هو المحترف الحقيقي، في حين كنتُ أنا مجرد هاوٍ.

أمَّا رحيل بلنكيرون فكان مُختلفًا. لقد أخبرني السير والتر بأن أتوخَّى الحذر من العواصف الشديدة، ورأيتُ في عينيه آنذاك لمعةً أوحَت إليَّ بما سيحدث لاحقًا. كان أول ما فعله ذاك الرجل الرائع أن أرسل خطابًا مُوقعًا باسمه إلى الصحف. كان مجلس العموم قد شهد جدلًا بخصوص السياسة الخارجية، واستلهم بلنكيرون محتوى رسالته من حديث أحد الحمقى في المجلس. لقد صرَّح بأنه كان مُتضامنًا مع البريطانيين قلبًا وقالبًا في البداية، لكنه اضطُر، على مضض، إلى تغيير آرائه. قال إنَّ حصارنا لألمانيا قد انتهك كل القوانين الإلهية والإنسانية، وإنه يرى أنَّ بريطانيا الآن أسوأ مثال حيٍّ للبروسية. أحدثَ ذلك الخطابُ ضجة كبيرة، واندلعت مشادة بين الصحيفة التي نشرته ومسئول الرقابة. لكنَّ هذه لم تكن إلَّا بداية حملة السيد بلنكيرون. فقد انضم إلى بعض الدجالين الذين كانوا يطلقون على أنفسهم «رابطة الديمقراطيين المعارضين للعدوان»، والذين كانوا يرَون أنَّ ألمانيا ستكون مُسالمة وديعة لو امتنعنا عن إيذاء مشاعرها فقط. ألقى خطبة أمام جمع من الناس تحت رعاية تلك الرابطة، وقاطعَه حشد الحاضرين قبل إكمالها، لكنَّ

ذلك كان بعدما أفضى بالكثير من الأشياء المذهلة. لم أكن حاضرًا، لكنَّ أحد الرجال الذين حضروا قال لي إنه لم يسمع هراءً دسمًا كهذا من قبل. فقد قال بلنكيرون إنَّ ألمانيا كانت مُحقَّة في رغبتها في حرية الإبحار في المياه الدولية، وإنَّ أمريكا ستدعمها، وإنَّ التهديد الذي تُشكِّله البحرية البريطانية على سلام العالم أكبر من تهديد جيش القيصر نفسه. واعترف بأنَّ رأيه كان مُختلفًا عن ذلك في الماضي، لكنه صرَّح بأنه رجل أمين لا يخشى مواجهة الحقائق. ثم اختُتمت الخطبة فجأةً حين أُصيبَ بإحدى حبَّات كرنب بروكسل في عينِه، وهو ما قابله بسبٍّ بأسلوبٍ غير سلميٍّ إطلاقًا، حسبما قال لي صديقي.

بعدئذٍ أرسل خطاباتٍ أخرى إلى الصحافة، قال فيها إنَّ إنجلترا صارت تمنع حرية التعبير، وأيَّده في ذلك كثيرٌ من الأوغاد. طالَب بعضُ الأمريكيين بأن يُغطَّى بالقطران والريش عقابًا له على تلك الأفعال، وطُرد من فندق سافوي. اندلع حراكٌ عامٌّ مُطالِب بترحيله، وبدأ البرلمان يشهد استجوابات عنه، وقال وكيل وزارة الخارجية للشئون الخارجية إنَّ وزارته تدرس المسألة. بدأت أرى أنَّ بلنكيرون كان يُبالغ في مسرحيته السخيفة؛ لذا ذهبتُ للقاء السير والتر، لكنه طلب منِّي أن أهدأ وأطمئن.

قال لي: «مبدأ صديقنا هو «الإتقان التام»، وهو عليمٌ بما يفعله. لقد وجهنا له طلبًا رسميًّا بالرحيل، وسيُبحِر من نيوكاسل يوم الإثنين. سنتعقَّبه كظلِّه أينما ذهب، ونأمُلُ أن يثير مزيدًا من الاحتجاجات الغاضبة. إنه رجل قدير جدًّا.»

كانت آخر مرة رأيتُه فيها بعد ظُهر يوم السبت حين قابلته في شارع سانت جيمس ومددتُ يدي لأُصافحه. قال لي آنذاك إنَّ حُلتي العسكرية دَنَس، وألقى خطبةً أمام حشدٍ صغير من الناس عن هذا. فطالبوه بالسكوت، واضطُر إلى أن يستقلَّ سيارة أجرة. وبينما كان يغادر، لمحتُ في عينه اليُسرى طيفَ غمزةٍ طفيفة. وقرأت يوم الإثنين أنه رحل، وعلَّقَت الصحف قائلة إنَّ شواطئنا قد استراحت منه أخيرًا.

أمَّا أنا، فأبحرتُ في الثالث من ديسمبر على متن سفينةٍ متجهة من ليفربول إلى الأرجنتين، كان من المُقرر أن ترسو في لشبونة. اضطُررت بالطبع إلى الحصول على جواز سفرٍ من وزارة الخارجية لمغادرة إنجلترا، لكنَّ اتصالي بالحكومة قد انقطع بعدئذٍ. كانت كل تفاصيل رحلتي مدروسةً بعناية. ارتأيتُ أنَّ لشبونة ستكون نقطة انطلاق مناسبة؛ لأنها كانت مُلتقًى للأوغاد من معظم أنحاء أفريقيا. كان متاعي يتمثل في حقيبةٍ قديمة من طراز جلادستون، وكانت ثيابي بقايا ممَّا كان موجودًا في خزانتي في جنوب أفريقيا. أطلقتُ لحيتي بضعة أيامٍ قبل أن أُبحر، ولأنها تنمو بسرعة؛ فقد صعدتُ على متن السفينة

بذقنٍ مكسوٍّ بشعرٍ طويل على غرار شبَّان بوير. كان اسمي حينئذٍ براندت، كورنيليس براندت، أو على الأقل كان جواز سفري يقول ذلك، وجوازات السفر لا تكذب أبدًا.

كان معي راكبان آخران فقط على متن تلك السفينة البغيضة، ولم يظهرا قطُّ حتى خرجنا من الخليج. كنت أنا شخصيًّا أشعر بتوعُّك بعض الشيء، لكني تمكنتُ من التحرُّك في أنحاء السفينة طَوال الوقت؛ لأنَّ البرودة في حُجَيرتي كانت شديدة إلى حدٍّ قد يُصيب فرس النهر نفسه بالإعياء. استغرقَت السفينة القديمة المتهالكة يومَين وليلة للسفر من جزيرة أوشا إلى شبه جزيرة فينيستر، كما لو كانت بطةً عرجاء. عندئذٍ تغير الطقس، وخرجنا من الزوابع الثلجية إلى جوٍّ شبيه جدًّا بالصيف. كانت تلال البرتغال كلها زرقاء وصفراء كصحراء كالاهاري، وقبل أن نصل إلى نهر تاجه، بدأت أشعر بأنني لم أغادر روديسيا قط أصلًا. كان ضِمن البحَّارة رجل هولندي اعتدتُ أن أثرثر معه باللغة الأفريقانية، وباستثناء «طاب صباحك» و«طاب مساؤك»، اللتَين كنت أقولهما للقبطان بلغةٍ إنجليزية ركيكة، كان ذلك هو كل كلامي في تلك الرحلة.

رسَونا عند أرصفة ميناء لشبونة في صباحٍ أزرق ساطع، وكان الجو قريبًا إلى الدفء بما يكفي لنرتدي قمصانًا تحتانية خفيفة من صوف الفلانيل. أصبح عليَّ آنذاك أن أكون حذرًا جدًّا. لم أترك السفينة مع الزورق الصغير الذي كان مُتجهًا إلى الشاطئ، بل أعددتُ فطوري على مهل. ثم تسكعتُ على متن السفينة، وعندئذٍ رأيتُ سفينة أخرى كانت تُلقي مرساتها آنذاك بالضبط في منتصف المجرى المائي، وكانت تحمل مدخنةً ملوَّنة بالأزرق والأبيض كنتُ أعرفها جيدًا جدًّا. قدَّرتُ أنها كانت راسيةً عند مُستنقعات أشجار المانجروف في أنجولا قبل نحو شهر. وهكذا كانت مثاليةً لتلبية غرضي. ارتأيتُ أن أصعد على متنها، متظاهرًا بأنني أبحث عن صديق، وأنزل منها إلى الشاطئ؛ كي يظنَّ أي شخصٍ فضولي في لشبونة أنني قادم مباشرة من أفريقيا البرتغالية.

صحتُ مُناديًا أحد المراكبية الهَمَج المجاورين، وركبتُ قاربه ومعي متاعي. وصلنا إلى السفينة — التي كانوا يُسمُّونها «هنري الملَّاح» — تزامنًا مع رحيل زورق الشاطئ الأول. كان الركاب المُحتشدون فيها كلهم برتغاليين، وكان هذا ملائمًا تمامًا لغرضي.

ولكن عندما صعدتُ السُّلم وصرتُ على متنها، كان أول رجل قابلته هو بيتر بينار العزيز.

كنت محظوظًا جدًّا بذلك. فتح بيتر عينَيه وفغر فمه، وقال: «يا إلهي!» بالهولندية، فأسكتُّه بسرعة.

وقلت: «براندت. كورنيليس براندت. هذا اسمي الآن، ولا تنسَه. مَن القبطان هنا؟ أما زال سلوجت العجوز؟»

قال بيتر وهو يستجمِع نفسه بعد صدمة المفاجأة: «أجل. كان يتحدث عنك أمس.»

كان هذا أفضل وأفضل. أرسلت بيتر إلى الأسفل ليجد لي سلوجت، وسرعان ما أصبحتُ مع ذاك القبطان المهذَّب في مقصورته أُحادِثه والباب موصَد علينا.

قلت له: «يجب أن تُدرِج اسمي في سجلَّات السفينة. اكتب أنني ركبتُ السفينة في موساميدس. واسمي كورنيليس براندت.»

كان سلوجت مُمانعًا في البداية. قال إنَّ هذه جناية. فأخبرته بأنَّ ذلك صحيح بالتأكيد، لكنه يجِب أن يفعلها، لأسبابٍ لا أستطيع الإفصاح عنها، لكنها مُشرِّفة جدًّا لكلِّ الأطراف المشاركة في هذا العمل. ووافق في النهاية، ورأيته يُنفِّذ ذلك بالفعل. كنتُ أحظى بتأثيرٍ على سلوجت العجوز؛ لأنني كنتُ أعرفه منذ أن كان يملك زورقًا قاطرًا مشبوهًا في خليج ديلاجوا.

ثم نزلنا أنا وبيتر إلى الشاطئ، ودخلنا لشبونة مُتبخترَين كما لو كنا مُلَّاك كبرى شركات العالم. حططنا الرِّحال في الفندق الكبير المقابل لمحطة القطار، وكان كل شيءٍ في مظهرنا وتصرفاتنا يوحي بأننا رجلان همجيَّان عائدان من جنوب أفريقيا إلى أرض الوطن لينغمسا في الملذَّات. كان نهارًا مشرقًا صافيًا؛ لذا استأجرتُ سيارةً وقررتُ أن أقودها بنفسي. سألنا عن اسم مكان خلَّاب لنزوره، فأوصَونا ببلدة سينترا، وأرشدونا إلى الطريق إليها. كنت أريد مكانًا هادئًا مناسبًا للحديث؛ إذ كان عندي الكثير لأقوله لبيتر بينار.

أطلقتُ على تلك السيارة «الفزع البرتغالي»، وكانت معجزة أننا نجونا من التحطُّم بداخلها. فنظام التوجيه فيها كان به عُطل أبديٌّ لَعِين. لذا انحرفنا بعرض الطريق عدة مرات، وكِدنا نهلك. لكننا وصلنا إلى وجهتنا في النهاية، وتناولنا الغداء في فندقٍ مقابل لقلعة الموريين. تركنا السيارة هناك، وأخذنا نتجوَّل عبر منحدرات أحد التلال، حيث جلست وسط أيكةٍ شبيهة جدًّا بسهول جنوب أفريقيا، وأخبرت بيتر بالموقف.

لكن يجب أولًا أن أحدِّثكم عن بيتر قليلًا. كان بيتر هو الرجل الذي علَّمني كل ما أعرفه عن مهارات البقاء على قيد الحياة في سهول جنوب أفريقيا، إلى جانب الكثير عن الطبيعة البشرية. كان في الأصل من المستعمرة القديمة — برجرسدورب على ما أظن — لكنه انتقل إلى مقاطعة ترانسفال عندما اكتُشفَت مناجم الذهب في ليدنبرج. كان

يمارس التنقيب ونقْل البضائع والصيد بالتناوب، لكنه كان صيادًا في الأساس. لم يكن مواطنًا صالحًا تمامًا في تلك الأيام. فقد كان في سوازيلاند مع بوب ماكناب، وأنتم تعرفون ماذا يعني ذلك. ثم بدأ يُقدِّم عروضًا خادعة لأقطاب كيمبرلي وجوهانسبرج ليستولي على أموالهم بداعي استثمارها في مناجم الذهب، وكان على دراية بكل شيء عن إضافة مكونات مُعينة إلى المناجم لتبدو أثمن من قيمتها الحقيقية. ثم ذهب إلى كالاهاري، حيث كان معروفًا هو وسكوتي سميث. وبدأ بيتر عهدًا من الاحترام نسبيًّا مع نشوب حرب ماتابيلي، عندما نفَّذ بعض مهام الاستكشاف والنقل الشريفة على غير عادته. أراد سيسل رودس أن يولِّيه مزرعةً للماشية على الطريق المؤدي إلى سالزبري في أفريقيا (هراري حاليًّا)، لكنَّ بيتر كان شيطانًا مستقلًّا، ولم يكن يقبل أن يكون له رئيس يُوجِّهه. بدأ يمارس صيد الحيوانات البرية الكبيرة، وكان يحظى بموهبةٍ فطريةٍ من الرب في ذلك؛ لأنه كان يستطيع تعقُّب حيوان الساسابي وسط الشُّجيرات الكثيفة، وكان أدقَّ قناصٍ رأيته في حياتي. كان يأخذ جماعات من الرجال في رحلات صيدٍ إلى سهول بَنجوي، وبروتسلاند، حتى تنجانيقا. ثم صار متخصصًا في الصيد في منطقة نجامي، حيث اصطدتُ معه ذات مرة، وكان معي عندما ذهبت إلى دامارالاند للتنقيب هناك.

عندما اندلعت حرب البوير، انحاز بيتر إلى بريطانيا، مثله مثل العديد من الصيادين العظماء، ونفذ معظم مهماتنا الاستخباراتية في شمال ترانسفال. كان الجنرال بايرز سيُعدمه لو استطاع القبض عليه، ونشبت بين بيتر وبني شعبه كراهية دامت وقتًا طويلًا. وعندما انتهى كل ذلك، وهدأت الأوضاع قليلًا، استقر في مدينة بولاوايو، واعتاد أن يصاحبني في رحلاتي الطويلة الشاقة. ثم ظللتُ عدة أشهر دون أن أراه، إلى أن غادرتُ أفريقيا قبل عامَين، وسمعتُ أنه كان آنذاك في مكانٍ ما في الكونغو يصطاد أفيالًا. دائمًا ما كانت لديه فكرة رائعة مفادها إحداث اضطراباتٍ شديدة جدًّا في أنجولا كي تُضطر حكومة الاتحاد إلى التدخُّل وضمِّها. كان بيتر يحمل أعظم الأفكار في نصف الكرة الجنوبي بعد رودس.

كان طوله نحو خمس أقدام وعشر بوصات، وكان نحيفًا ونشطًا جدًّا، وقويًّا كالثور. كانت له عينان زرقاوان شاحبتان، ووجه وديع كوجهِ فتاة صغيرة، وصوتٌ ناعس رقيق. كان يبدو من هيئته الحالية أنه قد كابَد بعض المشاقِّ مؤخرًا. فقد كانت ثيابه من الطراز الرائج في خليج لوبيتو، وكان نحيلًا للغاية، وبه سُمرة شديدة من أثر الشمس، وكانت لحيته يتخللها كثير من الشُّعيرات الرمادية. كان عمره ستة وخمسين عامًا، وعادةً ما

كان الآخرون يظنُّونه في الأربعين من عمره. لكنه في الوقت الحالي يبدو قريبًا من عمره الحقيقي.

سألته في البداية عمَّا كان يفعله منذ نشوب الحرب. فبصَق بطريقة الزنوج الأفارقة كدأبه دائمًا، وقال إنه مرَّ بوقتٍ عصيب جدًّا.

قال: «عَلِقتُ في كافو. عندما سمعتُ من لتسيتلا العزيز أنَّ الرجال البيض كانوا يُقاتلون، تفتَّق ذهني عن فكرةٍ ذكية بأن أدخل جنوب غرب أفريقيا الألمانية من جهة الشمال. فأنا، كما تعلم، كنتُ أعرف أنَّ بوتا لن يستطيع الامتناع طويلًا عن المشاركة في الحرب. حسنًا، دخلت الأراضي الألمانية بنجاح، ثم جاء ضابطٌ وغد، وصادَر كل بغالي، بل وأراد أن يأخُذني أنا أيضًا معها ليُجنِّدني في جيشه الغبي. كان رجلًا قبيحًا جدًّا أصفر الوجه.» ملأ بيتر غليونًا عميقًا بالتبغِ من جراب مصنوع من جلد حيوان الكودو.

سألته: «وهل أخذك وجَنَّدك؟»

«لا. لقد أطلقت عليه النار؛ ليس لأقتُله، وإنما لأُصيبه بجرح بليغ. وكان هذا مبرَّرًا تمامًا؛ لأنه هو مَن أطلق النار عليَّ أولًا. وأصابني في كتفي اليُسرى أيضًا. لكنَّ هذه كانت بداية مأزق سيئ. مشيتُ شرقًا بسرعة وخضتُ رحلةً مُضنِية حتى تجاوزت الحدود وأصبحتُ وسط قبائل الأوفامبو. صحيح أنَّني خضتُ في حياتي رحلاتٍ كثيرة، لكن هذه كانت الأسوأ. بقيتُ أربعة أيامٍ بلا ماء، وستة بلا طعام. ثم قادني حظِّي العاثر إلى مصادفة نكيتلا، إن كنت تذكره؛ ذاك الزعيم القَبَلِي المُختلط العِرق. قال إنني أَدين له بأموال نظير الماشية التي اشتريتُها عندما وصلت إلى هناك مع كارواب. كان هذا كذبًا، لكنه أصرَّ عليه، ولم يمنحني أي وسيلة نقلٍ لتُوصلني إلى وجهتي. لذا عبرتُ صحراء كالاهاري على قدميَّ. أف، كان ترحالي بطيئًا كامرأةٍ مجهدة قادمة من قداس كنسيٍّ طويل عائدة إلى منزلها. فقد استغرق أسابيع طِوالًا، وعندما وصلتُ إلى قرية ليكوي، سمعتُ أنَّ القتال قد انتهى، وأنَّ بوتا قهر الألمان. كانت هذه أيضًا كذبة، لكنها انطلت عليَّ، وذهبتُ شمالًا إلى روديسيا، حيث عرفت الحقيقة. لكني بحلول هذا الوقت كنتُ قد ارتأيتُ أنَّ الحرب بلغت مرحلةً يستحيل معها أن أجني أي ربح منها؛ لذا ذهبت إلى أنجولا بحثًا عن لاجئين ألمان. وبحلول هذا الوقت، صارت كراهيتي للألمان أشدَّ من كراهية الجحيم نفسه.»

فسألته: «لكن ما الذي كنتَ تنوي فعله بهم؟»

«خَطَر ببالي أنهم قد يُثيرون متاعب للحكومة في تلك المناطق. صحيح أنني لا أُكِن محبةً خاصة للبرتغاليين الحقراء، لكني أُفضِّلهم على الألمان دائمًا. حسنًا، اندلعتْ متاعب،

وقضيتُ وقتًا ممتعًا طَوال شهر أو اثنَين. لكنها تلاشت بمرور الوقت، وارتأيت أن مِن الأفضل لي أن أرحل إلى أوروبا؛ إذ كانت جنوب أفريقيا في طريقِها إلى الاستقرار التام، على حين كانت الحرب الكبرى تزداد إثارةً وتشويقا حقًّا. لذا فأنا هنا، يا كورنيليس، يا صديقي القديم. إذا حلقتُ لحيتي، فهل سيسمحون لي بالانضمام إلى الفيلق الجوي الملكي؟»

نظرت إلى بيتر وهو جالس هناك يُدخِّن؛ كان يبدو رابط الجأش تمامًا كما لو أنه قد عاش كل حياته الماضية يزرع الذرة في ناتال بجنوب أفريقيا، وعاد إلى أرض الوطن ليقضي إجازة شهرًا مع أهله في بيكهام.

قلت له: «أنت قادم معي يا صديقي. سنذهب إلى ألمانيا.»

لم يُبدِ بيتر أي دهشة. واكتفى بقول: «تذكَّر أنني لا أُحب الألمان. صحيح أنني رجل مسيحي هادئ، لكني أصبح شيطانًا حين أغضب.»

ثم أخبرته بقصة مهمتنا. «سنتظاهر بأننا من أفراد كتيبة الضابط ماريتس. سندَّعي أننا ذهبنا إلى أنجولا، وأننا الآن عائدان إلى «ألمانيا الوطن» في رحلةٍ شاقة لننتقِم من الإنجليز الملاعين. سنتظاهر أمامهم بأننا لا نعرف أي كلمةٍ ألمانية. ينبغي أن نختلق تفاصيل محبوكة عن المعارك التي شاركنا فيها؛ معركة «كاكاماس» مثلًا ستكون مُقنعة، وكذلك معركة «مخاضة سخايت». لقد كنتَ صيادًا في نجاميلاند قبل الحرب. لذا لن يكون لديهم ملفٌّ عنك، وبذلك يُمكنك أن تكذب كيفما تشاء. أمَّا أنا، فمن الأفضل أن أتظاهر بأنني أفريقاني مُتعلم، وأحد فتيان بايرز البارعين، وصديق لهيرتزوج المحنَّك. يُمكننا أن نُطلِق العِنان لمخيلتنا في اختلاق تفاصيل هذا الجزء، ولكن علينا أن نلتزم بقصةٍ موحدة في كلامنا عن المعارك التي خضناها».

قال بيتر: «حسنًا يا كورنيليس. (لقد ظلَّ يُناديني بهذا الاسم الجديد طَوال الوقت منذ أول مرة أخبرتُه فيها به. كان رجلًا بارعًا جدًّا في استيعاب تفاصيل أي مهمة.) ولكن ماذا بعدما ندخل ألمانيا؟ البداية لن تكون صعبة للغاية. لكني لا أدرك أي شيءٍ بعدُ عن الخطة التي سنتبِعها حالما نندمج وسط هؤلاء الألمان المُدمِني الجِعَة. هل سيكون علينا أن نكتشف شيئًا يُدبَّر في تركيا؟ عندما كنتُ صبيًّا، عادة ما كان الواعظ يُحدثنا عن تركيا. أتمنَّى لو كنت نلتُ تعليمًا أفضل وأستطيع تذكُّر مكانها على الخريطة.»

قلت: «دَع تلك المسألة لي، سأشرحها لك بالتفصيل قبل وصولنا إلى هناك. ليس لدَينا خيطٌ واضح لنتبعه في بحثنا، لكننا سنستكشف كل الاحتمالات المُمكنة، لعل حظَّنا الجيد

يقودنا إلى اكتشاف السر. لقد رأيتك تفعل ذلك كثيرًا جدًّا عندما كنَّا نصطاد حيوانات الكودو في كافو.»

أومأ بيتر بالإيجاب. وسألَني بقلق: «أما زلنا مُضطرَّيْن إلى المكوث في بلدة ألمانية؟ لن أحب ذلك يا كورنيليس.»

قلت: «سنتحرك صوب الشرق رويدًا رويدًا حتى القسطنطينية.»

ابتسم بيتر ابتسامةً عريضة. وقال: «سنطرق الكثير من الأراضي الجديدة. يُمكنك أن تعتمِد عليَّ يا صديقي كورنيليس. فلطالما كنت أتوق لزيارة أوروبا.»

ونهض واقفًا على قدمَيه ومدَّ ذراعَيه الطويلتَين.

«من الأفضل أن نبدأ فورًا. ربَّاه، تُرى ما الذي حدث لصاحبنا سولي ماريتس بوجهِه الذي يُشبه الزجاجة؟ لقد نشبت معركة حامية في المخاضة حين كنتُ غائصًا حتى عنقي في نهر الأورانج متضرعًا للرب أن يحسبَ البريطانيون رأسي حَجرًا فلا يُطلقوا النار عليه.»

هكذا بدأ بيتر يتقمَّص دوره الجديد، وكان يؤدِّيه باحتيالٍ مُتقَن تمامًا، كما فعل بلنكيرون نفسه من قبل. فطَوال طريق العودة إلى لشبونة، ظلَّ ينسج قصصًا خرافية عن ماريتس ومغامراته في جنوب غرب أفريقيا الألمانية حتى كدتُ أصدق أنها حقيقية. اختلق قصة محبوكة جدًّا عمَّا كنَّا نفعله، وسرعان ما حُفرَت في ذاكرتي لأنه ظل يسردها باستمرار. كان هذا دأب بيتر دومًا. كان يقول إنَّ المرء إذا اضطُر إلى أداء دورٍ ما، فيجب أن يتخيَّل نفسه فيه، ويُقنع نفسه بأنه حقيقي، إلى أن يتقمَّصه تمامًا بالفعل، ويشعر بأنه جزء من طبيعته، وليس دورًا يؤدِّيه متظاهرًا. صحيح أننا كنا مُتقمِّصَين أدوارنا بإتقانٍ كافٍ حين خرجنا من باب الفندق في صباح ذاك اليوم، لكننا عُدنا إليه وغدَين حقيقيَّين مُتعطشَين للنَّيل من إنجلترا.

قضينا المساء في تجميع أدلة تؤيد قصتنا المختلَقة. كانت البرتغال قد شهدت بوادرَ قيامِ جمهوريةٍ نوعًا ما، وكان من المعتاد أن تكتظَّ المقاهي بالساسة، لكنَّ الحرب أسكتت كل هذه المشاحنات المحلية، وكان حديث الساعة هو ما يحدُث في فرنسا وروسيا. كان المكان الذي ذهبنا إليه مكانًا مُبهرجًا فسيحًا جيد الإضاءة في شارعٍ رئيسي، وكانت الأرجاء تعجُّ بالكثير من رجالٍ مُتجوِّلين ذوي عيونٍ ثاقبة، وخمَّنتُ أنهم جواسيس ومخبرون تابعون للشرطة. كنت أعرف أنَّ بريطانيا هي الدولة الوحيدة التي لا تهتمُّ بمثل هذه الألاعيب، وأننا لن نتأذَّى إذا أخذنا حُريتنا وتصرَّفنا كما نشاء.

كنت أتحدَّث البرتغالية جيدًا إلى حدٍّ ما، وكان بيتر يتحدثها كمالكِ حانةٍ في لورنسو ماركيز؛ إذ كان يحشوها بالكثير من الكلمات التسونجانية. بدأ يشرب مشروب الكوراساو، واستنتجتُ أنه كان مشروبًا جديدًا عليه، وسرعان ما انطلق لسانُه بكل حرية. وبدأ كثير من الرجال المُجاورين لنا يُصغون باهتمامٍ إلى مُحادثتنا، وسرعان ما باتت طاولتنا مُحاطةً بحشدٍ صغير من روَّاد المقهى.

تحادَثنا عن ماريتس ومغامراتنا. وبدا أنَّ هذا الموضوع لم يلقَ استحسانًا في ذلك المقهى. فقد قال رجل ضخم شديد السواد إنَّ ماريتس خنزير قذِر سيُشنَق قريبًا. وسرعان ما أمسك بيتر معصم الرجل الذي كان يحمل فيه سكينًا، وأمسَك حلقومَه بيده الأخرى، وطالَبه بالاعتذار. وقد نالَه بالفعل. ما زال روَّاد شوارع لشبونة الراقية أُسودًا شجعانًا.

بعدئذٍ تكدَّس حشدٌ صغير من روَّاد المقهى في رُكننا. كان أولئك القريبون منَّا هادئين ومُهذبِين جدًّا، أمَّا البعيدون فكانوا يُبدون بعض التعليقات. قال بيتر إنَّ البرتغال، التي اعترف بأنه يُحبها، إذا ظلَّت مُوالية لإنجلترا، فإنها بذلك تدعم الحصان الخاسر، وعندئذٍ سَرَت همهمة من الاستياء بين الحاضرين. كان بينهم رجل عجوز يبدو محترمًا، وكان مظهره العام يوحي بأنه قبطان سفينة، وقد احمرَّ وجهه البريء الصادق تمامًا حين سمع ذلك، ووقف ناظرًا إلى بيتر مباشرة. وهنا أدركتُ أنَّ كلامنا قد جرح مشاعر رجل إنجليزي، وقلتُ ذلك لبيتر بالهولندية.

مثَّل بيتر دوره بإتقان. فسكتَ فجأة، ثم اختلس النظر حوله، وبدأ يهمس لي بثرثرةٍ خافتة. كان يُجسِّد مثالًا نموذجيًّا لممثلٍ مُحنَّك يؤدي دورَ المتآمِر.

وقف الرجل العجوز يُحدق إلينا. وقال: «لا أفهم هذه اللغة اللعينة، ولكن إذا كنتما أيها الهولنديان القذِران تقولان أي شيءٍ يسيء إلى إنجلترا، فأنا أطلب منكما تكراره. وإذا كررتُماه، فسأتعارك معكما أنتما الاثنين، وأقتلع رأسيكما.»

كان رجلًا ذا قلبٍ مُتعصب لإنجلترا مثلي تمامًا، لكني كنتُ مُضطرًّا إلى الاستمرار في اللعبة. قلتُ بالهولندية لبيتر إننا يجب ألَّا نتشاجر في حانة. قلت له بجديةٍ مُنذِرة: «تذكر الهدف الأكبر.» أومأ بيتر بالإيجاب، وحدَّق الرجل العجوز إلينا قليلًا، ثم بصق بازدراءٍ وخرج.

قلت لحشد الحاضرين: «سيحين الوقت الذي سيسكتُ فيه الإنجليز ويتوارَون عن الأنظار.» اشترَينا مشروباتٍ لبضعة أشخاص هناك على نفقتِنا الخاصة، ثم خرجنا إلى الشارع باختيالٍ وتباهٍ. وعند الباب، وجدتُ يدًا تلمس ذراعي، فنظرت إلى الأسفل لأجد رجُلًا قصيرًا جدًّا يرتدي معطفًا من الفرو.

قال بلهجةٍ هولندية رسمية جدًّا: «هلَّا يتفضل السيدان بالسير معي قليلًا واحتساء كأسٍ من الجِعَة برفقتي؟»

فسألته: «مَن أنت بحقِّ الشيطان؟»

أجاب بالعبارة المشهورة آنذاك بين كارهي دول الحلفاء: «لعنة الرب على إنجلترا!» ثم أعاد طَيَّة صَدر معطفه إلى الوراء، وأرانا شيئًا أشبَهَ بشريطٍ في عروته.

قال بيتر: «حسنًا. فلتتقدَّمنا يا صاح. لا نُمانع ذلك.»

قادنا إلى شارع خلفي، ثم صعد بنا دَرَجَين إلى شقةٍ صغيرة مريحة جدًّا. كانت تعج بالورنيش الأحمر الفاخر، وخمَّنتُ أنَّ التجارة في التُّحف والمشغولات الفنية هي مهنته الصورية. فالبرتغال، منذ أن قامت الجمهورية وفكَّكَت الأديرة، وباعت ممتلكات النبلاء المَلَكيِّين الأثرياء، صارت حافلةً بالصفقات التجارية في مجال بيع التحف والمشغولات المَطلية بالورنيش.

ملأ لنا إبريقَين طويلَين بأفخر أنواع جِعَة ميونخ.

قال وهو يرفع كأسه: «في صحتكما. أنتما من جنوب أفريقيا. فماذا تفعلان في أوروبا؟»

بدا كِلانا مُتجهمًا ومتكتمًا.

أجبتُه قائلًا: «هذا شأن خاص بنا. لا تتوقع أنك ستشتري ثِقتنا بكأسٍ من الجعة.»

فقال: «حقًّا؟ إذن سأطرح سؤالي بصيغة مختلفة. استنتجتُ من كلامكما في المقهى أنكما لا تُحبان الإنجليز.»

قال بيتر شيئًا عن أنه يتمنَّى دهسَ جَداتهم بقدمَيه، وهي عبارة متداولة بين زنوج جنوب أفريقيا بَدَت شنيعةً باللغة الهولندية.

ضحك الرجل. وقال: «هذا كل ما أريد معرفته. هل أنت في صفِّ ألمانيا؟»

قلت: «لم أحسم هذا بعد. إذا أحسنوا مُعاملتي، فسأُقاتل في صفوفهم، أو في صفوف أي أحدٍ يشن حربًا على إنجلترا. فإنجلترا قد سرقت بلدي، وأفسدت شعبي، وجعلتني مَنفيًّا. ونحن الأفريقان لا ننسى. ربما تكون خطواتنا بطيئة، لكننا ننتصِر في النهاية. نحن رجلان ثمينان جدًّا. فألمانيا تحارب إنجلترا في شرق أفريقيا. ونحن نعرف السكان الأصليين هناك كما لا يُمكن لأيِّ رجلٍ إنجليزي أن يعرفهم أبدًا. إنَّ الإنجليز مُرتخون ومتساهلون جدًّا، والزنوج يسخرون منهم. أمَّا نحن، فنستطيع أن نَسُوس السود ليقاتلوا بكل شراسةٍ

خوفًا منَّا. أتريد أن تعرف المكافأة نظير خدماتنا أيها الرجل القصير؟ سأُخبرك. سنفعل ذلك بلا أي مكافأة. لا نطلب مكافآت. فنحن نقاتل كرهًا في إنجلترا وحسب.»

نخر بيتر تعبيرًا عن رضاه التام عن كلامي.

وقال مُضيفُنا بلمعةٍ في عينَيه المتقاربتين: «هذا حديث جيد. ألمانيا تُرحِّب بأمثالكما من الرجال. ألتمس منكما أن تُخبراني بوجهتكما الحالية.»

قلت: «نحن ذاهبان إلى هولندا. ثم قد نذهب إلى ألمانيا. لقد تعبنا من الترحال وقد نرتاح قليلًا. فهذه الحرب ستدوم طويلًا، وستحين فرصتنا.»

قال بنبرة ذات مغزًى: «لكنكما قد تفوِّتان فرصتكما. ثمة سفينة ستبحر إلى روتردام غدًا. إذا أردتما نصيحتي، فاذهبا معها.»

كان هذا هو كل ما كنت أريده؛ لأننا لو بقِينا في لشبونة، فقد يأتي جندي حقيقي من أفراد كتيبة ماريتس فجأة في أي وقت ويفضح أمرنا.

كرر قائلًا: «أنصحكما بالإبحار على متن الباخرة ماتشادو. يوجَد في ألمانيا عملٌ لكما، بل الكثير من العمل، ولكن إذا تأخرتُما، فقد تضيع الفرصة. سأُرتِّب رحلتكما. فعملي هو مساعدة حلفاء وطني ألمانيا.»

دوَّن أسماءنا ونُبذةً موجزة عن إنجازاتنا قدَّمها له بيتر، الذي طلب قَدَحَين من الجعة ليساعداه على ذلك. كان بافاريًّا على ما يبدو، وشربنا نخبًا في صحة الأمير روبرخت؛ نفس الوغد الذي كنت أحاول قتلَه في معركة لوس. كانت تلك مفارَقة لم يكن بيتر يُدركها مع الأسف. فلو كان يُدركها، لاستمتع بها.

أوصلَنا الرجلُ القصير إلى فندقنا، وكان معنا في صباح اليوم التالي بعد الفطور، حيث أحضر إلينا تذاكر الباخرة. ركبنا الباخرة قُرابةَ الساعة الثانية بعد الظهر، لكنه لم يُصاحبنا إلى هناك بناء على نصيحتي. قلت له إننا — لمَّا كنا رعايا بريطانيين، بل ومُتمردين أيضًا — لا نريد أن نُعرِّض أنفسنا لأي أخطار على متن الباخرة، تحسُّبًا لأن يلحق بنا طَرَّاد بريطاني ويفتش الباخرة. لكنَّ بيتر أخذ منه عشرين جنيهًا نظير نفقات السفر؛ فمبدؤه كان ألَّا يُفوِّت أي فرصةٍ ليستغل الآخرين ويسلبهم أي منفعة متاحة.

بينما كنا نبحر نحو مصبِّ نهر تاجه، مررنا بسفينة «الملاح هنري» العزيزة.

قال لي بيتر: «لقد قابلتُ سلوجت في الشارع صباح اليوم، وأخبرني بأنَّ رجلًا ألمانيًّا قصيرًا قد استقل قاربًا عند الفجر وذهب إليه ليتفحص قائمة الركاب. كانت فكرتك وجيهة يا كورنيليس. أنا سعيد لأننا سنصبح وسط الألمان. إنهم أناس يقِظون يُسعدني لقاؤهم.»

الفصل الرابع

مغامرات رَجُلين هولندِيَّين طليقَين

كان الألمان، كما قال بيتر، شعبًا يقظًا. استقبلَنا رجلٌ ألماني على رصيف الميناء في روتردام. وكنت أشعر ببعض الخوف من أن يكون شيءٌ ما قد ظهر في لشبونة وفَضَح كذبنا، وأن يكون صاحبنا القصير قد حذَّر أصدقاءه منَّا ببرقيةٍ. ولكن بدا أنَّ كلَّ شيءٍ كان هادئًا تمامًا.

كنتُ أنا وبيتر قد نسجنا خططنا بإحكام شديد أثناء الرحلة. فلم نكن نتحدث إلَّا بالهولندية، وظللنا نتظاهر فيما بيننا بأننا فردان من كتيبة ماريتس؛ لأنَّ بيتر قال إنَّ هذه هي الطريقة الوحيدة لنتقمص الدور تمامًا. وأُقسمُ إنني، قبل أن نصل إلى هولندا، كدتُ أنسى ماضيَّ الحقيقي بالفعل من شدة انهماكي في تقمُّص هويتي الجديدة. بل كنت أخشى أن يَضمُر الجزء الآخر من عقلي، الذي ينبغي أن يكون منشغلًا بالمسألة الكبرى، وأن يُصبح تفكيري بالفعل كتفكيرِ أيِّ وغدٍ قروي عادي في جنوب أفريقيا.

كنا قد اتفقنا على أنه من الأفضل أن نصل إلى ألمانيا حالًا، وعندما أخبرَنا العميلُ الذي الْتقانا عند الرصيف بوجود قطار سيتَّجِه إلى هناك في منتصف النهار، قررنا أن نستقله.

عاودَني الإحساس بالخوف مجددًا قبل أن نتجاوز الحدود. فقد رأيتُ في المحطة رجلًا من مبعوثي الملك كنتُ قد رأيتُه في فرنسا من قبل، ومراسلًا حربيًّا كان يتحرك هنا وهناك بخفَّة وسرعة في الجانب الذي كنا متمركزَين فيه من الجبهة قبل معركة لوس. وسمعتُ امرأة تتحدَّث بلغةٍ إنجليزية واضحة جدًّا، وكانت لكنتها، وسط الهَذرمة الهولندية الجشَّاء، تبدو كعصفورٍ جميل وسط غِربان. ووجدتُ نُسخًا مطروحةً للبيع من صحف إنجليزية، وطبعاتٍ رخيصة من كتب ومجلات إنجليزية. شعرتُ بالندم والاستياء من المهمة كلها، وتساءلتُ عمَّا إذا كنتُ سأرى هذه المشاهد المألوفة المُرتبطة بالوطن مجددًا أم لا.

لكنَّ ذاك الشعور تلاشى حين انطلق القطار. كان يومًا عاصفًا صافيًا، وبينما كنا نسير ببطءٍ عبر مراعي هولندا المستوية، أمضيتُ وقتي في الإجابة عن أسئلة بيتر. لم يكن

قد ذهب إلى أوروبا من قبل، وأخذ انطباعًا جيدًا عن الزراعة هناك. قال إنه يُقدِّر أنَّ أرضًا كهذه قد تحمِل أربعة أغنام في كل فدانَين. وهكذا كنَّا مُنهمكِين في الحديث حين وصلنا إلى المحطة الحدودية، وارتجَّ بنا القطار فوق جسرِ قناةٍ وهو يدخل ألمانيا.

كنت أتوقع رؤية حاجزٍ كبير منصوب بأسلاكٍ شائكة وتحصينات. ولكن لم يكن يوجَد على الجانب الألماني سوى ستة حراس مُرتدِين الزي العسكري الرمادي الداكن الذي كنتُ أستهدفه في معركة لوس. أتى ضابطٌ مساعد يحمل الزر الأسود والذهبي الخاص بقوات الاحتياط، وأخرجَنا بحدةٍ من القطار، واقتادنا كلنا كالقطيع إلى غرفة انتظار كبيرة خالية، فيها مَوقد كبير مُتقد. ثم أخذونا اثنَين اثنَين إلى غرفة داخلية لتفتيشنا. كنتُ قد شرحتُ لبيتر كل شيء عن هذا الإجراء الشكلي المعتاد، لكني كنتُ سعيدًا بأننا دخلنا معًا؛ لأنَّهم جعلونا نتجرد تمامًا من كلِّ ثيابنا، واضطُررتُ إلى سبِّه بكلِّ جدِّية لأبقيه ساكتًا. كان الرجال الذين فتشونا مُهذبين إلى حدٍّ كبير، لكنهم أدَّوا وظيفتهم على أكمل وجه. دوَّنوا قائمة بكل ما كنَّا نحمِله في جيوبنا وحقائبنا، وكل التفاصيل الواردة في جوازَي السفر اللذَين أعطانا إيَّاهما العميل الذي الْتقانا في روتردام.

وبينما كنا نُعاود ارتداء ثيابنا، جاء رجل يرتدي زيَّ مُلازمٍ حاملًا ورقةً في يده. كان شابًّا نَضِر الوجه، في العشرين من عمره تقريبًا، وكان يرتدي نظارةً على عينَيه المصابتَين بقصر النظر.

صاح قائلًا: «السيد براندت.»

فأومأت بالإيجاب.

سألني بالهولندية: «وهذا السيد بينار؟»

حيَّانا بتحيةٍ عسكرية. وقال: «أعتذر أيها السيدان. تأخرتُ بسبب بطء سيارة حضرة القائد. لو كنتُ أتيت في الوقت المناسب، لما اضطُررتما إلى المرور بهذه الإجراءات. لقد أُخطِرنا بقدومكما، وتلقيتُ تعليمات بأن أصحبكما في رحلتكما. القطار المُتجه إلى برلين سيغادر في غضون نصف ساعة. أرجو أن تُشرفاني بمشاركتي كأسًا من الجعة الألمانية.»

ابتعَدْنا عن حشد الركاب العاديين بمشيةٍ مُتشامخة وشعور بالتميُّز، وتَبعْنا الملازمَ إلى مطعم المحطة. سرعان ما انخرط في محادثةٍ معنا، وكان يتحدَّث باللغة الهولندية الدارجة في هولندا، ووجد بيتر بعض الصعوبة في فهمها لأنه كان ناسيًا ما تعلَّمه في المدرسة. لم يكن الملازم لائقًا للخدمة الميدانية القتالية، بسبب قصر نظره وضعف قلبه، لكنه أظهر عقليةً عدوانية مُستميتة في ذاك المطعم الخانق. فمن وجهة نظره، كانت ألمانيا

تستطيع الْتهام الفرنسيين والروس وقتما تشاء، لكنها كانت تسعى إلى إحكام قبضتِها على الشرق الأوسط كله أولًا، لكي تخرج منتصرةً وهي تُسيطر على نصف العالم فعليًّا.

قال بابتسامةٍ عريضة: «أصدقاؤكما الإنجليز سيَحين دورهم أخيرًا. بعدما نُجوِّعهم ونُدمِّر تجارتهم بغواصاتنا، سنُريهم ما يُمكن أن يفعله أسطولنا البحري. لقد ظلُّوا يُهدرون وقتهم في التباهي والسياسة طَوال عام كامل، بينا كنا نبني سفنًا عظيمة، أوه، لقد بنَينا الكثير جدًّا منها! ابن عمي في كييل ...» وهنا سكت ونظر من فوق كتفه.

لكننا لم نعرف قصة ابن عمِّه هذا قط. فقد جاء رجل قصير مسفوع من الشمس، فنهض صاحبنا بسرعةٍ وحيَّاه تحية عسكرية وهو يضرب عَقِبَيْ حذائه بعضهما ببعض بصوتٍ حادٍّ كأنه يضم طرفَي مِلقَط.

قال: «هذان هما الهولنديان الآتيان من جنوب أفريقيا يا حضرة القائد.»

نظر إلينا الوافد الجديد بعينَين لامعتَين متبصرتَين، وبدأ يستجوب بيتر باللغة الأفريقانية. كان من حُسن حظنا أننا قد بذلنا جهدًا مُضنيًا في اختلاق قصة محبوكة، والتدرُّب على حفظ تفاصيلها؛ لأنَّ هذا الرجل كان قد قضى سنواتٍ في جنوب غرب أفريقيا الألمانية، وكان يعرف كل مِيل من الحدود. كان اسمه زورن، وشعرتُ أنا وبيتر بأننا نتذكَّر أننا سمِعنا البعض يتحدث عنه من قبل.

يُسعدني القول إنَّ كلَينا قد أبلى بلاء حسنًا جدًّا. فقد حكى بيتر قصته بحبكةٍ مُتقنة، دون مبالغة، وكان يطلب منِّي بين الحين والآخر أن أُساعده في تذكُّر اسمٍ ما أو أؤكد له تفصيلة مُعينة. وبدا الكابتن زورن مقتنعًا.

قال: «يبدو أنكما من نوعية الرجال المُناسبين.» ثم أضاف وهو يُقطِّب حاجبَيه متوعدًا: «لكن تذكَّرا، نحن لا نتهاون مع المكر في هذه الأرض. إذا كنتما صادقَين، فستنالان مكافأة، ولكن إذا تجرأتما على أن تلعبا على الحبلَين، فستُقتلان رميًا بالرصاص كالكلاب. فعِرقكما قد أنجب الكثير من الخونة، وأنا أكره ذلك.»

قلت بصرامة: «لا أطلب مكافأة. لسنا ألمانًا ولا عبيدًا لألمانيا. ولكن ما دامت ألمانيا تُحارب إنجلترا، فسنُقاتل في صفوفها.»

قال: «كلام جريء، ولكن عليكما أن تَحنِيا رقبتَيْكما العنيدتَين للانضباط أولًا. فعدم الانضباط هو نقطة ضعفكم أيها البويريون، وقد عانيتُم بسبب ذلك. لم تعودوا أمَّة. أمَّا في ألمانيا، فنضع الانضباط أولًا وأخيرًا؛ ولذا سنغزو العالم. انصرِفا الآن. سيغادر قطاركما في غضون ثلاثِ دقائق. سنرى ماذا سيقول فون شتوم عنكما.»

أعطاني ذاك الرجل أفضل «انطباع» من بين كل الألمان الذين قابلتُهم حتى الآن. فقد كان رجلًا مُحترمًا، وكان من الممكن أن أعمل معه. أعجبني ذقنه الصلب وعيناه الزرقاوان الهادئتان.

أكثر ما أتذكَّره عن رحلتنا إلى برلين هو طابعها العادي. غلب النعاس المُلازمَ ذا النظارة، وكانت العربة لنا وحدَنا معظم الوقت. كان يدخلها بين الحين والآخر جنديٌّ ما عائد إلى برلين في إجازة، وكان معظم هؤلاء الجنود رجالًا مُتعَبين أثقل النعاسُ أجفانهم. ولا عجب في ذلك؛ إذ كان هؤلاء البؤساء المساكين عائدِين إمَّا من ثغرة إيزر وإما من ثغرة ساحة إيبر. كنتُ أريد التحدُّث إليهم، لكني بالطبع كنتُ متظاهرًا بأنني لا أعرف الألمانية، والمحادثة التي سمعتها فيما بينهم مصادفةً لم تكن مهمةً كثيرًا. كان أغلبُها عن تفاصيل أفواجِهم العسكرية، وإن كان أحد الرجال، الذي كان أكثر تفاؤلًا من البقية، قد قال إنَّ هذا هو آخِر عيد ميلاد مجيد سيعيشونه في بؤس، وإنهم في العام المقبل سيقضون العطلة في ديارهم بجيوبٍ ملأى. وافقه الآخرون، لكن دون كثيرٍ من الاقتناع.

كان نهار الشتاء قصيرًا، وقضَينا معظم الرحلة في الظلام. استطعت أن أرى من النافذة أضواء قرًى صغيرة، ولهبَ بعض مصانع الحديد وورش الحدادة بين الحِين والآخر. توقَّفنا في إحدى البلدات لتناول العشاء، حيث كان رصيف القطار مكتظًّا بمجموعاتٍ من المجنَّدين مُنتظِرين السفر غربًا. لم نرَ أي علاماتٍ على نقص الغذاء، كالتي كتبَت عنها الصحف الإنجليزية. فقد تناولنا عشاء ممتازًا في مطعم المحطة، مع زجاجة من النبيذ الأبيض، مقابل ثلاثة شلنات فقط لكل فرد. صحيح أنَّ الخبز كان رديئًا، لكني أستطيع تحمُّل عدم وجود خُبز إذا حصلت على شريحة لحم غضَّة لذيذة وخضراوات شهية كتلك التي تُقدَّم في فندق سافوي.

كنت خائفًا بعض الشيءِ من أن ننام ونهذي بكلامٍ يفضح حقيقتنا أثناء نومِنا، ولكن لم يكن يوجد داعٍ إلى الخوف؛ لأنَّ مُرافقنا كان نائمًا كخنزير، فاغرًا فمَه عن آخرِه. وبينما كان القطار يمضي بنا بهديره الصاخب وسط الظلام، ظللتُ أقرص نفسي لأبقى متيقظًا ومُدركًا أنني في أرض العدو أؤدِّي مهمةً خطرة. بدأ المطر يهطل، ومررنا ببلداتٍ تقطر ماءً من شدة المطر فيها، في حين كانت الأضواء ساطعة من شوارعها المُبللة. وبينما كنَّا نتجه شرقًا، بدا أنَّ الإضاءة تزداد سطوعًا. كنتُ معتادًا ضباب لندن وظلامها، لذا شعرتُ باستغرابٍ وأنا أنساب بسرعةٍ هكذا عبر محطاتٍ متوهجة بمائة مصباح قوسيٍّ ساطع، وأرى صفوفًا طويلة من القناديل مُمتدة إلى الأفق. غلب النعاس بيتر مبكرًا، لكني ظللتُ

مستيقظًا حتى منتصف الليل، محاولًا استجماع أفكاري التي كانت تتفلَّت منِّي باستمرار. ثم غفوت أنا أيضًا ولم أستيقظ حتى نحو الخامسة صباحًا، عندما دخلنا محطةً كبيرة مزدحمة وساطعة الإضاءة كما لو كنَّا في وسط النهار. كانت تلك أسهل الرحلات التي خضتُها في حياتي، بل وأقلَّها إثارة للشبهات.

تمطَّى المُلازم وسوَّى زيَّه المجعَّد. حملنا أمتعتنا الضئيلة إلى عربةٍ بحصان؛ لأنَّ المحطة لم يكن فيها حَمَّالون حسبما بدا. سلَّم مرافقنا إلى سائق العربة عنوان أحد الفنادق، وخرجَت بنا العربة مُصلصلةً إلى الشوارع الخاوية ذات الإضاءة الباهرة.

قال بيتر: «بلدة رائعة. الحقيقة أنَّ الألمان شعب عظيم.»

فأومأ المُلازم بودٍّ مرح.

وقال: «أعظم شعب على وجه الأرض، وسيشهدُ أعداؤهم بذلك قريبًا.»

كنتُ راغبًا بشدَّة في الاستحمام، لكني ارتأيتُ أنَّ ذلك لن يكون متماشيًا مع دوري الذي كنتُ أتقمَّصه، وبيتر لم يكن من المؤمنين بالاستحمام. لكنَّنا تناولنا فطورًا لذيذًا جدًّا من القهوة والبيض، ثم أجرى المُلازم مكالمةً هاتفية. بدأ المكالمة بأسلوبٍ مُتسلِّط، ثم بدا أنَّ مُحادِثه قد أوصَلَه بشخصٍ ذي سُلطة أعلى؛ لأنه صار أكثر تأدبًا، وأصبح مُتذللًا بعض الشيء في النهاية. اتخذ بعض الترتيبات؛ لأنَّه أخبرَنا بأننا بعد الظُّهر سنُقابل رجلًا لم يستطع ترجمة لقبه إلى الهولندية. استنتجتُ أنه رجل ذو مكانة عالية جدًّا؛ لأنَّ صوت الملازم غلب عليه نبرةُ توقير وإجلال عند ذكره.

أخذَنا الملازم للتمشية في صباح ذاك اليوم بعدما ارتدَينا ثيابنا وهندمنا مَظهرنا. كنا نبدو وغدَين غريبين، لكنَّ مظهرنا كان يوحي بأننا من جنوب أفريقيا كأشجارها الأصلية الكثيفة. كان كِلانا يرتدي حُلة جاهزة من التويد، وقميصًا رماديًّا من الفلانيل وياقة من الفلانيل أيضًا، وقبعة من اللبَّاد ذات حوافٍ أعرض ممَّا يُحبذون في أوروبا. كنتُ أنتعل حذاء بُنيًّا طويل العنق ذا موطئ مُثبَّت بإحكام، فيما كان بيتر ينتعل واحدًا من تلك الأحذية البشعة الملونة بلون الخردل التي يرتديها البرتغاليون، والذي جعله كسيدةٍ صينية عرجاء. كان يرتدي ربطة عنق قرمزية من الساتان، وكانت تُصدِر صوتًا يُمكن للمرء سماعُه على بُعد ميل. كانت لحيتي قد نمت بصورة كبيرة بعض الشيء، وشذَّبتُها على غرار لحية الجنرال سماتس. أمَّا لحية بيتر، فكانت طليقةً طويلة متأرجحة كاللُّحى التي يُحبذها رجال الغابات النائية في جنوب أفريقيا، التي لا تُحلَق أبدًا تقريبًا، ونادرًا ما تُمشَّط. يجب أن أقول إننا كنَّا بالفعل نبدو زوجًا حقيقيًّا جدًّا من جنوب أفريقيا. فأيُّ

جنوب أفريقي كان سيظُنني رجلًا بويريًّا من الأرياف اشترى طقمًا كاملًا من الثياب من أقرب متجر، ومعه ابن عمِّه الذي وُلد في قريةٍ صغيرة تافهة، لكنه الْتحق بالمدرسة فظنَّ نفسه رجلًا استثنائيًّا. كانت تفوح منَّا رائحة شبه القارة السمراء، كما تُسميها الصحف.

كان صباحًا صافيًا جميلًا بعد المطر، وتجولنا في الشوارع ساعتَين. كانت مزدحمة جدًّا، وكانت المحلات تبدو فاخرة وزاهية ببضائع عيد الميلاد المجيد، وكان أحد المتاجر الكبيرة، الذي ذهبتُ إليه لأشتري مطواة، مُكتظًّا بالزبائن. لم أرَ كثيرًا من الشبان، وكان معظم النساء يرتدِين ملابس حداد. كان الزيُّ العسكري منتشرًا في كل مكان، ولكن بدا أنَّ أغلب مُرتديه كانوا ضباطًا متقاعِدين أُعيدوا إلى الخدمة، أو أفرادًا مَكتبيِّين. لمحْنا المبنى المنخفض العريض الذي كان يضمُّ هيئة الأركان، وخلعنا قبعاتنا تحيةً له. ثم حدَّقنا في مكتب الشئون البحرية الإمبراطورية، وتساءلنا عن ماهية المؤامرات التي تُحاك هناك خلف سوالف فون تيربيتز العجوز. كانت العاصمة تُعطي المرء انطباعًا بالنظافة القبيحة والسَّمت العملي الرتيب. ومع ذلك وجدتُها كئيبة، بل أشد كآبة من لندن. لا أعرف كيف أصوغ قصدي، لكن المكان ككلٍّ بدا بلا روح، بدا كمصنعٍ كبير لا مدينة. فالمرء لن يجعل من المصنع منزلًا، حتى وإن زيَّن واجهته، وزرع شُجيرات من الورود حوله. لقد أصابني المكان بالكآبة، لكنه أبهجني. فهو، بطريقةٍ ما، قد جعل الشعبَ الألمانيَّ يبدو أكثر ضآلة في نظري.

عند الساعة الثالثة، أخذَنا المُلازم إلى مبنًى أبيض بسيط خالٍ من أي زخرفة في شارع جانبي حيث كان بابُه محاطًا بحُراس. قابلَنا ضابطٌ شابٌّ من ضباط الأركان، وجعلَنا ننتظر خمس دقائق في غرفة انتظار صغيرة. ثم دخلنا غرفةً كبيرة ذات أرضية مصقولة كاد بيتر أن يجلس عليها. كان في الغرفة مدفأة تحوي حطبًا مشتعلًا، وطاولة كان يجلس إليها رجل ضئيل الحجم ذو نظارة وشعرٍ مُصفَّف إلى الوراء كعازف كمان شهير. كان ذلك هو رئيس الملازم؛ لأنه حيَّاه تحية عسكرية وأخبره باسمَينا. ثم اختفى الملازم، وأشار لنا الرجل الجالس إلى الطاولة بأن نجلس على كرسِيَّين أمامه.

سألَنا وهو ينظر إلينا من فوق نظارته: «السيد براندت والسيد بينار؟»

لكنَّ الرجل الآخر هو من لَفَت انتباهي. كان واقفًا مُوليًا ظهره للنيران، مُتكئًا بمرفقَيه على رف المدفأة. كان رجلًا ضخم البنيان تمامًا كالجبل؛ إذ كان طوله يبلغ ست أقدام ونصف قدم بكل تأكيد، وكانت كتفاه العريضتان تجعلانه كثورٍ من سلالة شورتهورن. كان يرتدي زيًّا عسكريًّا، وكان الشريط الأبيض والأسود الخاص بالصليب

الحديدي ظاهرًا عند إحدى عرواته. كانت سُترته كلها مجعدة ومشدودة بإحكامٍ كما لو كانت تحوي صدره الضخم بالكاد، وكانت يداه الضخمتان مُتشابكتَين فوق بطنه. قلت لنفسي إنَّ ذراعَي ذلك الرجل طويلتان كذراعَي الغوريلا حتمًا. كان ذا وجهٍ كبير خامل مُتبسم، وذقنٍ مشقوق مُربع بارزٍ عن بقية وجهه. كانت جبهته غائصة، وكانت مؤخرة رأسه القصيرة السميكة مُمتدة إلى الأمام لتلاقيها، في حين كانت رقبته بارزةً من فوق ياقته. كان شكل رأسه تمامًا كثمرة كمثرى ذات قمة مُدببة.

كان يُحدق بي بعينَيه الصغيرتَين اللامعتَين، وبادلتُه النظرة المُحدقة. عندئذٍ وجدت شيئًا لطالما كنتُ أبحث عنه، ولم أكن متيقنًا من وجوده حتى تلك اللحظة. كان أمامي هنا الرجل الألماني الذي يظهر في الرسوم الكاريكاتورية، الرجل الألماني الحقيقي، ذاك الذي كنَّا نواجهه في الحرب. كان قبيحَ الشكل كفرس النهر، لكنه كان باهرًا مَهيبًا. بل كانت كل شُعيرة منتصبة على رأسه الغريب باهرة مَهيبة.

كان الرجل الجالس إلى الطاولة يتحدث. خمَّنتُ أنه مسئول مدني ما ذو شأن وسط المُحيطين به، ربما وكيل وزارة. كانت لُغته الهولندية بطيئة وحذرة، لكنها كانت مُتقَنة، متقنة جدًّا لدرجة أنها استعصت على فهم بيتر. كانت أمامه ورقة، وكان يطرح علينا أسئلة منها. لم تكن صعبة؛ إذ كانت مجرد تكرارٍ لتلك التي طرحها علينا زورن عند الحدود. أجبتُ بطلاقةٍ لأنني كنتُ حافظًا كلَّ أكاذيبنا عن ظهر قلب.

ثم قاطعَه الرجل الواقف على سجادة المدفأة. قال بالألمانية: «سأتحدث أنا إليهما يا صاحب المعالي. فأسلوب سيادتك غير عملي تمامًا، ولا ينفع مع هذَين الخنزيرَين الأجنبِيَّين.»

بدأ كلامه باللغة الأفريقانية بتلك اللهجة الجشَّاء الغليظة التي يسمعها المرء في جنوب غرب أفريقيا الألمانية. قال: «لا بد أنكما سمعتما عني. أنا الكولونيل فون شتوم الذي حارب الهيريرو.»

أطرق بيتر بأُذنيه مُصغيًا باهتمام. وقال: «أجل أيها القائد، لقد قطعتَ رأس زعيمِهم القرد، وأرسلته في وعاء من الخلِّ ليطوفوا به كل أنحاء البلاد. رأيت ذلك.»

ضحك الرجل الضخم. وقال لصديقه: «أرأيت، أنا لا أنسى»، ثم الْتفت إلينا قائلًا: «هذا ما أفعله بأعدائي، وهذا ما ستفعله ألمانيا بأعدائها. بل وبكما أنتما أيضًا، إذا خذلتماني بأي قدْر مهما كان بسيطًا.» وعلَت ضحكاته مُجددًا.

كان هذا الضحك الصاخب بشعًا. وأخذ بيتر يُشاهده من أسفل جفنَيه مثلما رأيته من قبل يشاهد أسدًا على وشك الانقضاض.

ارتمى على كرسي، ووضع مرفقَيه على الطاولة، ومد وجهه إلى الأمام.

وقال: «لقد أتيتما من حربٍ فوضوية لعينة. لو كان ماريتس تحت إمرتي، لأمرتُ بجَلده مربوطًا في مؤخرة عربة. يا لهم من حمقى وكلاب وخنازير، كان الزمام بين أيديهم، ورمَوه. كان بإمكاننا أن نشعل ثورة تُجبر الإنجليز على الفرار إلى عرض البحر، وبسبب نقص الحماس تركوا لهيب الثورة يخمد. ثم ها هم يُحاولون تأجيجها بعدما برد الرماد.»

لفَّ كُريَّة صغيرة من الورق ونفضها بإصبعه فطارت في الهواء. ثم أضاف: «هذا رأيي في جنرالكما الأحمق، وفيكم جميعًا أيها الهولنديون. بطيئون كسيدةٍ أفريقانية سمينة، وجشِعون كنَسر أفريقي.»

بدَونا مُتجهِّمَين ومُستاءَين جدًّا.

صرخ قائلًا: «كلبان أخرسان. لو كنَّا أرسلنا ألف فردٍ من كتيبة براندنبورج، لفازوا بالمعركة في أسبوعَين. سايتس لم يكن لدَيه الكثير من المقاتِلين الذين يُمكن التباهي بهم؛ إذ كان معظمهم من الكَتَبة والمزارِعين ومُختلطي الأعراق، ولم يكن معهم أي جندي حقيقي ليقودهم، لكنه لم يسقط إلَّا بتحالُف بوتا وسماتس ودزينة من الجنرالات عليه. أمَّا ماريتس!» وعبَّر عن ازدرائه بنفخةٍ قوية كعصفة ريح.

قال بيتر بعُبوس: «لقد قاتل ماريتس بكل بسالةٍ حتى آخر لحظة. لم يكن خائفًا إطلاقًا من منظر الزيِّ العسكري الإنجليزي كجماعتكما.»

قال الرجل الضخم بنبرة هادئة كهديل الحمام: «ربما يكون هذا صحيحًا، لكنه ربما لم يكن خائفًا لأسبابٍ خاصة به. فأنتم أيها الهولنديون دائمًا ما تجدون فراشًا من الريش يُنقذكم حين تسقطون. يُمكنكم دائمًا أن تُصبحوا خونة. لقد صار ماريتس يُسمي نفسه روبنسون، ويحصل على معاش تقاعُدي من صديقه بوتا.»

قال بيتر: «تلك كذبة حقيرة.»

قال شتوم بتأدُّبٍ مفاجئ: «كنتُ أسأل عن معلومة. لكن كل هذا صار ماضيًا وانتهى. لم يعُد ماريتس مهمًّا، شأنه شأن آل كرونجي وآل كروجر القدامى عندكم. لقد انتهت المعركة، والآن تبحث عن الأمان. أو ربما عن سيد جديد؟ ولكن اسمعني يا رجل، بمَ يُمكن أن تنفعني؟ ماذا يُمكنك أن تُقدِّم لي؟ فأنت وقومك الهولنديون منبطحون في التراب، والنِّير حول أعناقكم. لقد أقنعكم مُحامو بريتوريا بتغيير قناعتكم وتقبُّل هذا الوضع. انظر إلى تلك الخريطة»، وأشار إلى خريطة كبيرة على الحائط. وأضاف: «جنوب أفريقيا

ملونة باللون الأخضر. ليس بالأحمر الذي يرمز إلى الإنجليز، ولا بالأصفر الذي يرمز إلى الألمان. صحيح أنها ستُصبح باللون الأصفر يومًا ما، لكنها ستظل وقتًا قصيرًا باللون الأخضر، لون مَن لا لون لهم، لون التافِهين، لون الأولاد الصغار، والفتيات، والجبناء.»

ظللتُ أتساءل عمَّا يرمي إليه.

ثم ثبَّت ناظرَيه على بيتر. وسأله: «لماذا جئتَ إلى هنا؟ لقد انتهت اللعبة في بلدك. فماذا يُمكن أن تُقدِّم لنا نحن الألمان؟ حتى إذا أعطَيناك عشرة ملايين مارك وأعدناك إلى هناك، لا تستطيع فعل أي شيء. ربما تُثير اضطرابًا في قريةٍ ما، وتطلق النار على شرطي. لقد خرجَت جنوب أفريقيا من حسابات هذه الحرب. بوتا رجل ذكي بعض الشيء، وقد هزمكم أيها المُتمردون كالجديان الساذجة. هل تستطيع إنكار ذلك؟»

لم يستطع بيتر الإنكار. لقد كان صريحًا للغاية في بعض الأشياء، وكان يُوافقه الرأي بالتأكيد.

قال: «لا، هذا صحيح أيها القائد.»

فصرخ شتوم قائلًا: «إذن ماذا يُمكنك أن تفعل بحقِّ الرب؟»

تمتم بيتر بكلامٍ أحمق عن استمالة أنجولا بِحِيَل ملتوية لإقناعها بالانحياز إلى ألمانيا، وإضرام ثورة بين السكان الأصليين. فرفع شتوم ذراعَيه فجأة وأطلق سبابًا، وضحك وكيل الوزارة.

كان هذا هو الوقت المناسب لأتدخَّل. فقد بدأتُ أدرك طبيعة شتوم ذاك، وبينما كان يتكلَّم، تذكرتُ مُهمتي الأصلية، التي كان ماضيَّ البويري الزائف قد غشاها. بدا لي أنَّ شتوم هذا ربما ينفعني.

قلت له: «دعني أتحدَّث. صديقي صياد عظيم، لكنه لا يجيد الكلام بقدْر ما يجيد القتال. فهو ليس سياسيًّا. أنت مُحق فيما تقول. لقد صارت جنوب أفريقيا بابًا مُغلقًا في الوقت الحالي، ومفتاحه موجود في مكانٍ آخر. هنا في أوروبا، وفي الشرق، وفي أجزاء أخرى من أفريقيا. لقد جئنا لنُساعدك في العثور على المفتاح.»

كان شتوم يُنصت. قال لي: «هيا قُل ما عندك يا صغيري البويري. سيكون شيئًا جديدًا أن نسمع أفريقانيًّا قرويًّا ساذجًا يدلي برأيه في السياسة العالمية.»

قلت: «أنتم تقاتلون في شرق أفريقيا، وقد تُقاتلون في مصر قريبًا. ستكون ساحة معركتكم ممتدةً عبر الساحل الشرقي شمال نهر الزمبيزي. الإنجليز ينتشرون في مختلف أنحاء العالم بحملاتٍ عسكرية صغيرة. لا أعرف أماكن تلك الحملات، وإن كنتُ قد قرأت

عنها في الصحف. لكني أعرف أفريقيا موطني. تُريدون أن تهزموهم هنا في أوروبا وفي الخارج أيضًا. لذا تسعَون، كجنرالات حكماء، إلى تفريقِهم وتشتيت شملِهم في كل أنحاء العالم، في حين تبقَون أنتم في وطنكم. هذه خطتكم، أليس كذلك؟»

قال شتوم ضاحكًا: «نحن أمام نسخةٍ ثانية من فون فالكانهاين.»

أضفت: «حسنًا، إنجلترا لن تترك شرق أفريقيا من يدَيها. إنها تخاف على مصر، وتخاف على الهند أيضًا. وإذا ضيَّقتُم الخناق عليها هناك، فستظل إنجلترا ترسِل جيوشًا ومزيدًا من الجيوش إلى أن تُصبح ضعيفة جدًّا في أوروبا بحيث يستطيع طفلٌ صغير أن يسحقَها. هذا هو دأب إنجلترا. إمبراطوريتها أهم عندها ممَّا قد يحدث لحلفائها. لذا أوصيكم بأن تُضيقوا عليها الخناق وتظلُّوا تُضيقونه هناك، كأن تُدمروا خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى «البحيرات»، وتحرقوا عاصمتها، وتجمعوا كل الإنجليز وتحبسوهم في جزيرة مُومباسا. فقيمة هذا لكم في الوقت الحالي تساوي قيمة ألفٍ من مستعمرة دامارالاند.»

كان الرجل مُهتمًّا حقًّا، وكان وكيل الوزارة أيضًا يُصغي باهتمام.

قال الأول: «نستطيع الحفاظ على أراضينا، ولكن بخصوص تضييق الخناق، فكيف نُضيقه بحق الجحيم؟ إن هؤلاء الإنجليز الملاعين يُحكِمون قبضتهم على البحر. لا نستطيع نقل رجالٍ أو أسلحة إلى هناك عن طريق البحر. والجنوب تحت سيطرة البرتغاليين، والغرب تحت سيطرة البلجيكيين. لا يُمكنك أن تُحرِّك كتلةً ما دون رافعة.»

قلت: «الرافعة موجودة، وجاهزة لتستخدموها.»

صاح قائلًا: «فلتُرِني إيَّاها من أجل الرب.»

نظرتُ إلى الباب لأتيقَّن من أنه مُوصَد، كما لو كان ما سأقوله سريًّا للغاية.

«أنتم بحاجة إلى رجال، والرجال مُنتظرون. إنهم سود، لكنهم مُحاربون بارعون بالفطرة. ففي جميع أنحاء حدودكم، لديكم بقايا قبائل مُقاتِلة كبيرة؛ الأنجوني والماساي والمانيومويزي، وفوق كل ذلك صوماليُّو الشمال، وسكان أعالي النيل. البريطانيون يُجنِّدون كتائبهم السوداء هناك، وأنتم أيضًا. لكن الحصول على مُجنَّدين لا يكفي. يجب أن تجعلوا أممًا بأكملها تتحرك، مثلما تحرَّكت قبائل الزولو تحت قيادة شاكا لتجتاح جنوب أفريقيا.»

قال وكيل الوزارة: «لا يُمكن تحقيق ذلك.»

فقلت بهدوء: «بل يُمكن. ونحن الاثنان هنا لتحقيقه.»

كان هذا النوع من الحديث صعبًا عليَّ للغاية، وخصوصًا بسبب التعليقات الجانبية التي كان شتوم يقولها بالألمانية للمسئول الآخر. فقد كان عليَّ في المقام الأول أن أجعلهما

يُصدِّقان أنني لا أفهم الألمانية إطلاقًا، وإذا كنتَ تفهم لغةً ما جيدًا، فليس من السهل عليك، حين تُقاطَع، أن تتظاهر بأنك لا تعرفها؛ لأنَّ لسانك قد يزِلُّ إما بالرد مباشرة على تلك المقاطعة، أو بالإشارة إليها بعدئذٍ فيما ستقوله لاحقًا. كان عليَّ أن أكون مُتيقظًا دائمًا، ولكن كان عليَّ أيضًا أن أكون مُقنعًا جدًّا، وأقنع هذَين الرجلَين بأنني سأكون نافعًا لهما. كان عليَّ أن أنال ثقتهما بأيِّ طريقة مُمكنة.

«لقد أمضيتُ سنواتٍ أطوف مختلف أنحاء أفريقيا؛ من أوغندا والكونغو إلى أعالي النيل. أعرف أساليب الزنوج كما لا يعرفها أي إنجليزي. فنحن الأفريقانيين نفهم خبايا نَفس الرجل الأسود، ومع أنه ربما يكرهنا، فإنه يُنفِّذ إرادتنا. وأنتم الألمان كالإنجليز، أي: إنكم قومٌ أعظم من أن تفهموا الرجال البسطاء العادِيِّين. تُنادون بالتحضُّر. ويُنادي الإنجليز بالتثقُّف والتعلُّم. صحيح أنَّ الرجل الأسود يُطيع الأوامر ويتخلى عن آلهته، لكنه يظل يعبدهم طَوال الوقت في أعماق روحه. يجب أن نضمَّ آلهته إلى صفِّنا، وعندئذٍ سيُحرِّك الجبال من أجلنا. يجب أن نفعل ما فعله جون لابوتا بقلادة ملكة سبأ.»

قال شتوم: «كل هذا مجرد هراء لا قيمة له»، لكنه لم يضحك هذه المرة.

قلت: «بل حِسٌّ منطقي رصين. ولكن يجب أن تبدأ من الطرف الصحيح. ابحث أولًا عن العِرق الذي يخشى كهنته. إنه في انتظاركم؛ مسلمو أرض الصومال والحدود الحبشية والنيل الأزرق والأبيض. سيكونون كالهشيم الذي سيشتعِل فورًا إذا استخدمتم دينَهم لإطلاق الشرارة. انظر إلى حجم المُعاناة التي كابَدها الإنجليز من مُلَّا معتوه كان يحكم اثنتي عشرة قرية فقط. وحالما تنطلق الشرارة، ستلتهم وثنيِّي الغرب والجنوب. هذا هو دأْب أفريقيا. برأيكَ كم ألفًا من رجال جيش المهدي لم يسمعوا بالنبي قطُّ إلَّا حينما رأَوا رايات الأمراء السوداء تدخل المعركة؟»

كان شتوم يبتسِم. الْتفتَ إلى المسئول الآخر وتحدَّث إليه واضعًا يدَه فوق فمه، لكنني سمعتُ كلامه. كان يقول له: «هذا هو الرجل المناسِب لهيلدا.» فزمَّ الآخر شفتَيه، وبدا عليه شيء من الخوف.

قرع شتوم جرسًا، فدخل المُلازم وحيَّاه بضربِ عَقبَي حذائه بعضهما بعض. أومأ شتوم برأسه نحو بيتر. وقال: «خذ هذا الرجل معك. لم نعد نحتاج إليه. والرجل الآخر سيتبعك قريبًا.»

خرج بيتر بوجهٍ بدَت عليه الحيرة، والْتفت شتوم نحوي.

قال لي: «أنت حالِم يا براندت. لكني لن أرفضك لهذا السبب. فالأحلام تتحقَّق أحيانًا، حينما يكون وراء الحالم جيشٌ يتبعه. ولكن مَن الذي سيُطلق الشرارة؟»

قلت: «أنتم.»

سألني: «ماذا تقصد بحق الجحيم؟»

«هذا دوركم. أنتم أذكى شعب في العالم. فأنتم تُسيطرون على نصف أراضي المُسلمين بالفعل. أنتم مسئولون عن أن تُرونا كيف نُشعل حربًا مقدسة؛ لأنكم حتمًا تعرفون سِرَّها. واطمئنوا إلى أننا سنُطيع أوامركم دومًا.»

قال باقتضاب: «ليس لدَينا سر»، ونظر نظرة خاطفة إلى المسئول، الذي كان يُحدِّق في الخارج عبر النافذة.

فغَرتُ فمي مذهولًا، وبدَوت مُحبطًا تمامًا. قلتُ له ببطء: «لا أصدقك. أنت تراوِغني. ولم أقطع ستة آلاف ميل لكي يخدعني أحد.»

صاح شتوم قائلًا: «تأدَّب بحقِّ الرب. أنت لا تُكلم واحدًا من كتائب مَغاويرك الشُّعث الخُرق.» وبخطوتَين فقط منه، أصبح فوق رأسي ورفَعَني من مقعدي. كانت يداه الضخمتان قابضتَين بإحكامٍ على كتفَيَّ، وكان إبهاماه يُقَوِّران إبِطيَّ. شعرت وكأنني في قبضة غوريلا ضخمة. ثم هزَّني ببطءٍ شديد حتى بدا أنَّ أسناني قد تقلقلت، وأُصيبَ رأسي بالدوار. أفلتَني أخيرًا، فسقطتُ خائرَ القوى على الكرسي مجددًا.

«والآن انصرف! هيا أيها الكلب! وتذكر أنني سيدُك. أنا، أولريك فون شتوم، من يملكك كما يملك زنجيٌّ كلبَه الهجين. ربما نجد منك فائدة لألمانيا عندما تخشاني أكثر مما تخشى ربَّك يا صديقي.»

بينما كنتُ أنصرف في حالةٍ من الدوار، كان الرجل الضخم يبتسِم بطريقته المروعة، وكان ذاك المسئول الضئيل ينظر إليَّ خلسةً ويبتسِم أيضًا. لقد طرقتُ بلدًا لعينًا غريبًا، غريبًا إلى حدِّ أنني لم أحظَ بمُتَّسَع من الوقت لأُدرك أنَّ تلك هي المرة الأولى التي يعتدي فيها أحدٌ عليَّ ويُرهِبني هكذا دون أن أردَّ الاعتداء بمثله. كدت أختنق غضبًا حين أدركتُ ذلك. لكني شكرتُ الرب على أنني لم أُبدِ أي غضب؛ لأنني تذكرتُ مهمتي الأساسية. بدا لي أن حُسن حظي قد قادني إلى رِفاقٍ سينفعونني في مهمتي.

الفصل الخامس

مغامرات أخرى للرجُلَين نفسيهما

كان صباح اليوم التالي مُمتزجًا بلمسةِ صقيع طفيفة، وكان الهواء فيه لذعة برد أثارت دمائي وشحذت معنوياتي. نسيت وضعي المحفوف بالأخطار، والطريق الطويل الذي ما زال عليَّ أن أقطعه. نزلت لأتناول الفطور بهيئةٍ رائعة، لأجد بيتر الهادئ دائمًا متوترًا للغاية. كان قد تذكَّر شتوم أثناء الليل، وكان مستاءً من تلك الذكرى، حسبما قال لي بتمتمةٍ خافتة عندما احتكَّ بعضنا ببعض عند باب قاعة الطعام. لم نحظَ أنا وبيتر بفرصة لنتحدَّث وحدنا. فالمُلازم كان معنا طَوال الوقت، وفي الليل كنَّا محبوسَين في غرفتينا الموصدتَين علينا. اكتشف بيتر ذلك وهو يُحاول الخروج بحثًا عن أعواد ثقاب؛ لأنه كان يُحب التدخين في الفراش، وكان معتادًا تلك العادة السيئة.

أجرى مرشدُنا مكالمةً هاتفية، وأخبرَنا بأننا سنؤخَذ لزيارة معسكرٍ للسجناء. كان مقررًا لي أن أذهب بعد الظهر إلى مكانٍ ما برفقة شتوم، لكنَّ الصباح كان لمشاهدة المعالم. قال لنا: «سترَيان مدى رحمة شعبنا العظيم. ستريان أيضًا بعض الإنجليز البغيضين الذين في قبضتنا. سيُسعدكما ذلك. هم السابقون، وسيلحق بهم كلُّ أفراد أمتِهم الباقين.»

ركبنا سيارة أجرة سارت بنا عبر الضواحي، ثم فوق ريفٍ مُمتد يُشبه حديقة للمزروعات السوقية، ثم إلى رابية غير مرتفعة كثيرًا من تلالٍ شجرية. وبعد رحلةٍ استغرقت ساعة، دخلنا بوابة مبنًى كان أشبَهَ بإصلاحيةٍ كبيرة أو مستشفًى كبير. أعتقد أنه كان مأوًى للأطفال المحرومِين والمعدمين في الماضي. كان عند البوابة حُراسٌ ولَفاتٌ دائرية ضخمة مُتتابعة من الأسلاك الشائكة، مَررْنا خلالها تحت قوسٍ يُنزَل إلى أسفلَ عند حلول الليل على غرار الأبواب الشبكية الحديدية المنزلقة في القلاع والحصون. أظهر الملازم تصريحه، وأوقفنا السيارة في ساحة مرصوفة بالطوب، ثم مشَينا عبر الكثير من الحرَّاس إلى مكتب القائد.

كان القائد خارج البلاد؛ لذا استقبلَنا نائبُه، وكان شابًّا شاحبًا شبهَ أصلع. سمعنا تعارُفات باللغة الألمانية ترجمَها مُرشدنا إلى الهولندية، والكثير من الخطب المُنمقة عن ألمانيا، وكيف أنها في صدارة الدول التي تتحلَّى بالإنسانية، وكذلك البسالة العسكرية. ثم وضعوا لنا شطائر وجِعَة، واصطحبونا في موكبٍ لنُجري جولة تفقُّدية. كان معنا طبيبان يبدوان ودِيعَين يرتديان نظارات، وبضعة سجَّانين، كانوا ضبَّاط صفٍّ من نوعية الضباط الأعزاء الضخام الباطشين الذين كنتُ أعرفهم جيدًا. كان هؤلاء بمثابة الأسمنت الذي يُحافظ على تماسُك جيش ألمانيا. فأغلب رجالِها لم يكونوا مدعاةً إلى التباهي، ولا ضباطها، حتى في الفيالق الممتازة، كفيلق الحرس وكتيبة براندنبورج، ولكن كان يبدو أنَّ لديهم كمًّا لا ينفد من ضبَّاط الصف الأكْفاء.

تمشَّينا في أرجاء المكان وتفقَّدنا المغاسل، وساحة الترفيه، والمطابخ والمستشفى، الذي لم يكن فيه سوى رجل مصاب بـ «الإنفلونزا». لم تكن حالة السجن العامة تبدو سيئة. كان كله مُخصصًا للضباط فقط، وأتوقَّع أنه كان مقصدًا للسياح يُؤخَذ إليه الزوَّار الأمريكيون عند مجيئهم إلى ألمانيا. فمِن المؤكد، إذا صحَّت نصف القصص التي كنَّا نسمعها، أنَّ ألمانيا فيها سجون أخرى مروعة بعيدًا في جنوبها وشرقها.

لم أستحسِن تلك الجولة إطلاقًا. فدائمًا ما كنت أرى أنَّ أسوأ شيء يُمكن أن يحدُث لرجل هو أن يُسجَن. كان منظر الأسرى الألمان عادة ما يُشعِرني بشعور سيئ، في حين أنَّ منظر جُثث الجنود الألمان لم يكن يُشعرني إلَّا بالارتياح والرضا. وفوق ذلك، كان احتمال أن تُعرَف هويتي الحقيقية ضئيلًا. لذا كنتُ أبقى متواريًا عن الأنظار قدر الإمكان كلما مررْنا بأيِّ شخصٍ في ممرَّات السجن. والقلَّة الذين قابلناهم مرُّوا بنا دون اكتراث. كان يُحيُّون نائب القائد بالتحية العسكرية، لكنهم لا يرمقوننا ولو بنظرةٍ واحدة. لا شكَّ أنهم حسبونا ألمانيين فضوليِّين جئنا لنشمت بهم. كانوا يَبدون بحالةٍ صحية جيدة إلى حدٍّ كبير، باستثناء تورُّمٍ طفيف حول عيونهم، كرجال لا يمارسون قدرًا كافيًا من التمارين. وبدَوا نحفاء أيضًا. أظن أن الطعام، برغم كلِّ كلام القائد، لم يكن مدعاةً إلى الفخر. رأينا في إحدى الغُرَف رجالًا يكتبون رسائل. كانت غرفة كبيرة، ولم يكن فيها إلا موقد صغير جدًّا ليدفئها، في حين كانت النوافذ موصَدة؛ لذا كان الجو فيها باردًا نتن الرائحة. وفي غرفة أخرى، كان أحد الرجال يُلقي محاضرة عن شيء ما لمجموعة من المُستمِعين، ويرسم أشكالًا على سبورة سوداء. كان بعضهم يرتدي الزيَّ العسكري الإنجليزي العادي، فيما كان البعض الآخر يرتدي أي شيء قديم استطاعوا الحصول عليه، وكان مُعظمهم يرتدي

المعاطف العسكرية السميكة. فالشعور بالبرد يشتدُّ على المرء حين لا يفعل شيئًا سوى تَمنِّي المُستحيل والتفكير في أحبائه والأيام الخوالي.

وبينما كنتُ أواصل التحرُّك، مُستمعًا بأذنٍ واحدة إلى ثرثرة الملازم والتفسيرات الصاخبة التي يُردِّدها نائب القائد، تعثَّرتُ بمصادفةٍ كان من المُمكن أن تُنهِي مهمتي تمامًا. كنَّا نسير في أرجاء غرفةٍ كانت بمنزلة غرفة نقاهة، حيث كان بعض الأشخاص جالِسين بعد خروجهم من المشفى. كانت غرفةً فسيحة، أدفأ قليلًا من بقية أجزاء المبنى، لكنها كانت سيئة التهوية هي أيضًا. كان فيها نحو ستة رجال يقرءون ويلعبون ألعابًا. نظروا إلينا لحظةً بعيونٍ فاترة، ثم عاوَدوا ما كانوا يفعلونه. وأفترض أنهم، لمَّا كانوا في فترة نقاهة، لم يكن مُنتظَرًا منهم النهوض وتأدية التحية.

عاوَدوا جميعًا ما كانوا يفعلونه باستثناء شخصٍ واحد كان يلعب إحدى ألعاب الورق على طاولةٍ صغيرة مررْنا بها. كنتُ مستاءً جدًّا من هذا الوضع؛ لأنني كرهتُ أن أرى هؤلاء الرجال الصالِحين محبوسين في هذا الجُحر الألماني اللَّعين، في حين كان من المُمكن أن يكونوا على الجبهة في ذلك الوقت يُعاقِبون الجنود الألمان شرَّ عقاب. كان القائد يتقدَّم الموكِب مع بيتر، الذي كان مهتمًّا جدًّا بمسألة السجون. ثم تبعهما المُلازم المُصاحب لنا وأحد الطبيبَين، ثم بضعة سجَّانين، ثم الطبيب الثاني وأنا. كنتُ شارد الذهن آنذاك، وكنت آخر واحد في طابور الموكب.

وفجأة نظر اللاعب بالورق إلى أعلى ورأيت وجهه. سحقًا لي لو لم يكن هذا هو دولِلي ريدل، الذي كان ضابطًا بفيلق المدافع الرشاشة في لوائنا في معركة لوس. كنت قد سمعتُ أنَّ الألمان قد أسروه حين فجَّروا لغمًا في «المحاجر».

كان عليَّ أن أتصرف بسرعةٍ حين وجدته فغَر فمه من الذهول، ورأيت أنه على وشك التحدث. كان الطبيب أمامي على بُعد ياردة واحدة.

تعثرتُ وأوقعت أوراق اللعب على الأرض. ثم جثوتُ على رُكبتي لأُلمِلمها وأمسكتُ ركبتَه. حنى رأسه ليُساعدني، وهمست له بصوتٍ خافت في أذنه.

«أجل أنا هاناي. من أجل الربِّ لا ترمش بعينك حتى. فأنا هنا في مهمةٍ سرية.»

كان الطبيب قد استدار ليرى ما الخطب. لكنِّي تمكنتُ من أن أهمس له ببضع كلماتٍ أخرى. قلت: «هوِّن عليك وتفاءل يا صاحبي العزيز. فالنصر حليفنا بلا شك.»

ثم بدأت أتحدَّث بلهجةٍ هولندية مُنفعلة وانتهيتُ من تجميع أوراق اللعب. كان دولِلي يمثِّل دوره ببراعة؛ إذ ابتسم كما لو كان يتسلَّى بقردٍ يصدر حركاتٍ عجيبة. كان الآخرون

يعودون آنذاك، وكان نائب القائد عائدًا بشرارة غاضبة في عينَيه البليدتَين. صاح قائلًا: «التحدُّث إلى السجناء ممنوع.»

نظرتُ إليه ببلاهةٍ حتى ترجم المُلازم كلامه.

قال دولي للطبيب بالإنجليزية: «مَن هذا الرجل بحق السماء؟ يُفسد عليَّ لعبتي ثم يهذر بلغة هولندية مُتعالية.»

كان من المفترَض أنني أعرف الإنجليزية، وقد أعطاني كلام دولي هذا فرصتي لأُظهر ذلك. تظاهرتُ بالغضب الشديد من ذلك الإنجليزي اللعين، وخرجتُ من الغرفة بالقرب من نائب القائد، مُتبرمًا كثعلب مريض. بعد ذلك اضطُررتُ إلى التمثيل قليلًا. كان آخِر مكان مررْنا به هو قسم الحبس المُشدَّد الذي يُحتجز فيه السجناء عقابًا على خرق القواعد. كانوا يبدون بائسين جدًّا، لكنني تظاهرتُ بالشماتة بمنظرهم، وقلتُ هذا للملازم، الذي نقلَه بدوره إلى الآخرين. قلَّما شعرتُ في حياتي بأنني نذلٌ هكذا.

في طريق العودة إلى الفندق، أسهب المُلازم في الحديث عن السجناء ومعسكرات الاعتقال؛ لأنه خَدَم سابقًا في معسكر رولبن. وكان بيتر، الذي سُجِن أكثر من مرةٍ من قبل، مهتمًّا جدًّا بكلامه وظل يسأله. أخبرَنا الملازم بعدة أشياء من بينها أنهم غالبًا ما يدسُّون سجناء زائفين وسط البقيَّة كجواسيس. وإذا وجد أولئك الجواسيس أي مؤامرةٍ تُحاك للهرب، كانوا ينضمُّون إليها ويُشجعونها. كانوا لا يعترضونها قطُّ إلَّا عند محاولة تنفيذها بالفعل، وعندئذٍ كانوا يُحكِمون قبضتَهم تمامًا على السجناء المتآمِرين. فلا شيء أحبُّ إلى العسكري الألماني من حُجةٍ للزَّجِّ بإنسانٍ مسكين في «الحبس الانفرادي».

افترقنا أنا وبيتر بعد ظُهر ذلك اليوم. فقد تُرِك مع الملازم، في حين أرسلوني إلى المحطة مع حقيبتي بصُحبة رقيبٍ من قوات الاحتياط. كان بيتر غاضبًا جدًّا، وأنا أيضًا لم يُعجبني الوضع العام، لكنَّ أساريري انفرجت حين سمعتُ أنني ذاهب إلى مكانٍ ما مع شتوم. فإذا كان يريد لقائي مُجددًا، فلا بد أنه كان يرى فائدة ممكنة منِّي، وإذا كان سيستعيَّن بي، فمن المؤكد أنه سيشركني في لعبته السرية. كنتُ أكره شتوم بقدْرِ ما يكره الكلبُ العقربَ، لكنني كنتُ مشتاقًا إلى رفقته.

عند رصيف المحطة، حيث وفَّرت عليَّ شارة قوات الاحتياط كل العناء المتعلِّق بشراء التذاكر، لم أستطع رؤية رفيقي. وقفتُ منتظرًا، في حين كان حشد كبير، معظمه من الجنود، يتجاوزني جيئةً وذهابًا ويملأ كلَّ العربات الأمامية. تحدَّث إليَّ أحد الضباط

بفظاظةٍ وأمرَني بأن أقف جانبًا خلف سياجٍ خشبي. فأطعتُه، وفجأة وجدت شتوم فوق رأسي يُحدِّق بي.

سألني بحدة: «هل تعرف الألمانية؟»

فقلت بلامبالاة: «بضع كلمات قليلة. فقد زرتُ ويندهوك من قبل، وتعلَّمت كلمات كافية لأستطيع طلب عشائي بنفسي. بيتر — صديقي — يتحدثها قليلًا.»

قال شتوم: «هكذا إذن. حسنًا، اصعد إلى العربة. ليست تلك! بل هذه أيها الغبي!»

فعلتُ ما أمرَني به، ثم تبعني، وأُغلقَ باب العربة خلفنا. لم يكن يوجَد داعٍ إلى هذه الحيطة؛ لأنَّ رؤية جانب وجه شتوم وحدَها، ولو من آخرِ رصيف المحطة، كانت كفيلة بأن تردع حتى أجرأ الرجال عن الاقتراب من العربة. تساءلتُ في قرارة نفسي عمَّا إذا كنتُ قد أيقظتُ شكوكه. لذا كان عليَّ أن أكون مُتيقظًا تمامًا لئلَّا أُظهِر أي علاماتٍ على الفهم إذا اختبر معرفتي باللغة الألمانية فجأة، وهذا لن يكون سهلًا؛ لأنني كنتُ أعرفها جيدًا بقدرِ ما أعرف الهولندية.

مضى القطار بنا إلى الريف، لكن النوافذ كانت مغبَّشة بسبب الصقيع، ولم أرَ شيئًا من المنظر الطبيعي. كان شتوم منشغلًا بقراءة بعض الأوراق وتركني وشأني. قرأتُ على لافتة أنَّ التدخين ممنوع؛ لذا، ولأُظهِر جهلي بالألمانية، أخرجت غليوني. رفع شتوم رأسه ورأى ما كنتُ أفعله، فأمرَني بفظاظةٍ بأن أعيد الغليون إلى مكانه، كأنه سيدة عجوز تكرَه رائحة التبغ.

لم يكد ينقضي نصف ساعة حتى شعرتُ بالملل الشديد؛ إذ لم أكن أحمل شيئًا لأقرأه، ومُنِعت من تدخين غليوني. كان بعض الأشخاص يمرُّون بين الحين والآخر في ممرات القطار، ولكن لم يُبدِ أيٌّ منهم نيةً لدخول العربة. من المؤكد أنهم رأَوا الجسد الضخم مرتديًا الزي العسكري، وخمَّنوا أنه قائد عالي الرتبة من هيئة الأركان يريد البقاء وحده. فكرتُ في أن أتمشَّى قليلًا في الممر لأمدد ساقيَّ، وبينما كنت أنهض لأفعل ذلك، إذا بشخص ما يفتح الباب، حاجبًا الضوء بقامته الضخمة.

كان يرتدي معطفًا طويلًا فضفاضًا ثقيلًا، وقبعة خضراء من اللباد. حيَّا شتوم، الذي رفع نظره إليه غاضبًا، وابتسم لنا نحن الاثنَين بدماثة.

قال: «أيها السيدان، هل لديكما مُتسع هنا لشخص ضئيل؟ لقد أُجبرتُ على مغادرة عربتي لأنني كدتُ أختنق من تدخين جنودكما البواسل. فمعدتي حساسة ...»

نهض شتوم بجبينٍ منعقد يستشيط غضبًا، وبدا وكأنه سيرمي ذاك المُتطفل من القطار. ثم بدا أنه توقَّف واستعاد هدوءه، واكتسى وجه الرجل الآخر بابتسامةٍ عريضة ودودة.

صاح قائلًا: «عجبًا، إنه الكولونيل شتوم. أنا سعيد جدًّا بلقائك مُجددًا أيها الكولونيل. لقد شرفتُ بمعرفتك سابقًا في سفارتنا. أعتقد أنَّ السفير جيرارد لم يكن مُعجبًا بمُحادثتنا في تلك الليلة.» ثم ارتمى الوافد الجديد على مقعدٍ في الزاوية المقابلة لي.

كنتُ مُتيقنًا تمامًا من أنني سأصادف بلنكيرون في مكانٍ ما في ألمانيا، لكنِّي لم أكن أتصوَّر أنَّ ذلك سيحدُث بهذه السرعة. جلس هناك ناظرًا إليَّ بعينَيه المحدقتَين الذاهلتَين، في حين كان يسترسل في كلامٍ تافه إلى شتوم، الذي كاد ينفجر وهو يحاول البقاء مهذبًا. بدَوتُ نَكِدَ المزاج مرتابًا، وهو ما اعتبرتُه التصرف الصحيح في موقف كهذا.

قال السيد بلنكيرون على سبيل استهلال محادثة: «الوضع يخمد قليلًا في سالونيك.»

فأشار شتوم إلى لافتة تحذِّر الضباط من الكلام عن عملياتٍ عسكرية مع رفقةٍ مُختلطة من الأشخاص في عربة قطار.

قال بلنكيرون: «معذرة، لا أستطيع قراءة لُغتكم هذه التي تُشبه طلاسم شواهد القبور. لكنِّي أظن أنَّ هذه اللافتة مُخصَّصة للمتطفِّلين، وأيًّا كان مضمونها، فهي لا تنطبق عليك أو عليَّ. وأفترضُ أنَّ هذا السيد المحترم رفيقٌ لك.»

جلستُ وعبست، مُحدقًا في الأمريكي بنظراتٍ مرتابة.

قال شتوم: «إنه هولندي، هولندي من جنوب أفريقيا، وهو ليس سعيدًا؛ لأنه لا يُحب سماع اللغة الإنجليزية.»

فقال بلنكيرون بنبرة ودودة: «أتفق معه في هذا. لكن من قال إنني أتحدَّث الإنجليزية؟ إنني أتحدث لغةً أمريكية جيدة. هوِّن عليك يا صاح، فليست اللهجة هي ما يُحدِّد ماهية الرجل، كما يقولون في الغرب في بلادي. فكراهيتي لجون بُل أشد من كراهيتي للأفعى السامة ذات الجرس. ويستطيع الكولونيل أن يؤكد لك ذلك.»

يُمكنني القول إنه كان سيؤكد ذلك بالفعل، لكنَّ القطار في تلك اللحظة تباطأ بنا عند إحدى المحطات، ونهض شتوم ليُغادر. صاح قائلًا من فوق كتفِه: «طاب يومُك يا سيد بلنكيرون. إذا لم تكن تريد المتاعب، فلا تتحدَّث بالإنجليزية مع مُسافرين غرباء. فهُم لا يُفرقون بين اللهجات المختلفة.»

تبِعتُه في عجالة، لكنَّ بلنكيرون استدعاني.

صرخ قائلًا: «نسيتَ حقيبتك يا صديقي»، وناولَني حقيبتي من رف الأمتعة. لكنه لم يُبدِ أي علامةٍ تدل على أنه يعرف هويتي، وآخِر ما رأيته منه أنه كان غائصًا في مقعدٍ في زاوية، مسندًا رأسَه على صدره كما لو كان سينام. كان رجلًا يلتزِم بأداء دوره بإتقان.

كانت في انتظارنا سيارة — من نوعية السيارات العسكرية الرمادية — وانطلقت بنا بسرعةٍ مروِّعة على طرقٍ وعرة وسط الغابات. كان شتوم قد وضع أوراقه في حقيبة، ورماني ببضع جمل قاسية أثناء الرحلة.

صرَّح قائلًا: «لم أحسم رأيي فيك يا براندت. قد تكون أحمق أو مُحتالًا أو رجلًا صالحًا. إذا كنتَ محتالًا، سنُرديك قتيلًا بالرصاص.»

فسألته: «وإذا كنتُ أحمق؟»

«سنُرسِلك إلى جبهة نهر إيزر أو نهر دفينا. ستكون كَبشًا معتبرًا نُضحِّي به في وجه المدافع.»

قلت: «لا يُمكنكم فعل ذلك إلَّا بموافقتي.»

قال بابتسامةٍ خبيثة: «حقًّا؟ تذكر أنك بلا وطنٍ تحتمي به. نظريًّا أنت مُتمرد، والبريطانيون سيَشنقونك إذا ذهبتَ إليهم، بافتراض أنَّ لدَيهم أيَّ ذرةٍ من التفكير المنطقي. أنت في قبضتنا يا صديقي، ونستطيع أن نفعل بك ما نشاء حرفيًّا.»

سكت لحظة، ثم قال وهو مُنهمِك في تفكير عميق:

«لكني لا أظنُّك أحمق. قد تكون نذلًا. وبعض أنواع الأنذال مفيد جدًّا. والبعض الآخر يكون مَصيره الشنق. سيتَّضح ذلك لنا قريبًا.»

«وإذا كنتُ رجلًا صالحًا؟»

«ستُمنَح فرصةً لخدمة ألمانيا، وهذا أعظم امتيازٍ مُشرِّف يُمكن أن يناله إنسان.» قال الرجل الغريب هذه العبارة بنبرةٍ مفعمة بصدقٍ رنَّان أبهرَني.

انعطفت السيارة خارج الأشجار إلى حديقة محاطة بشتلات مصطفَّة على جانبيها، ورأيت أمامي في الغسق منزلًا كبيرًا بعض الشيء يُشبه كوخًا سويسريًّا مكسوًّا بعشبٍ كثيف غير مُشذَّب. كان يوجَد عنده مدخلٌ مقوَّس نوعًا ما ذو بابٍ شبكي حديدي صوري مُعلَّق أعلاه، وشرفة محاطة بأسوار مُفرَّجة تبدو كأنها مصنوعة من زخارف جصِّية. توقَّفنا عند بابٍ أمامي مُصمَّم على الطراز القوطي، حيث كان في انتظارنا رجل نحيف في منتصف العمر يرتدي سترة صيد.

وبينما كنَّا نتَّجِهُ إلى الصالة المُضاءة، ألقيتُ نظرة فاحصة على مُضيفنا. كان نحيلًا جدًّا، بُنيَّ البشرة، وكانت كتفاه مُصابتَين بالانحناءة التي تصيب المرء من المداومة على ركوب الخيل. كان ذا شعرٍ أشيب غير مُرتَّب، ولحية شعثاء، وعينَين جذابتَين مُصابتَين بقصر النظر.

قال: «أهلًا بك سيدي الكولونيل. أهذا هو الصديق الذي تحدثتَ عنه؟»

قال شتوم: «هذا هو الهولندي. اسمه براندت. براندت، أقدِّم لك السيد جاوديان.»

كنت أعرف الاسم بالطبع، بل إنَّ معظم المشتغلين بمهنتي كانوا يعرفونه. فقد كان أحد أكبر مهندسي السكك الحديدية في العالم، والرجل الذي أنشأ السكك الحديدية في بغداد وسوريا، والخطوط الجديدة في شرق ألمانيا. أظن أنه كان يُعتبر أعظم مَرجعٍ حيٍّ في مجال الإنشاءات في المناطق الاستوائية. كان يعرف المشرق وكان يعرف أفريقيا، ومن الواضح أنهم قد أحضروني إليه ليمتحِن قدراتي.

أخذتني خادمة شقراء إلى غرفتي، التي كانت ذات أرضيةٍ مصقولة خالية من أي سجَّاد، وتحوي موقدًا، ونوافذ بدت مُصمَّمة لتُفتَح، على عكس معظم النوافذ الألمانية التي جربتُها من قبل. عندما اغتسلت، نزلتُ إلى الصالة التي كانت جدرانها مُزينة بتشكيلة منوعة من غنائم السفر، كجبب الدراويش ودروع الماساي وبضعةٍ من رءوس الجاموس الجيدة. دق الجرس بعد قليل. وعندئذٍ ظهر شتوم مع مُضيفه، ودخلنا لنتناول العشاء.

كنت أتضور جوعًا، وكنت سأتناول وجبة كبيرة دسمة لو لم أكن مضطرًّا إلى الحفاظ على ذهني نشطًا ويقظًا. كان الرجلان الآخران يتحدَّثان بالألمانية، وكلَّما كان يُوجَّه إليَّ سؤال، كان شتوم يُترجمه لي. أول ما كان عليَّ فعله أن أتظاهر بعدَم معرفة الألمانية، والنظر بلامبالاة في أرجاء الغرفة أثناء حديثهما. والثاني كان ألَّا أُفوِّت أي كلمة؛ لأنَّ هذا كان مَكمَن فرصتي. أمَّا الثالث، فهو أن أكون مُستعدًّا للإجابة عن الأسئلة في أي لحظة، وأن أُظهِر في إجابتي أنني لم أكن متابعًا مُحادثتهما السابقة. كذلك كان عليَّ أن أُثبت في تلك الإجابات أنني لستُ غبيًّا؛ إذ كان عليَّ إقناعهما بأنني سأُفيدهما. استلزم ذلك مجهودًا مُضنيًا، وشعرت بأنني شاهدٌ في المحكمة يخضع لاستجواب صارم، أو رجل يحاول لعب ثلاثة أدوار شطرنج في وقتٍ واحد.

سمعتُ شتوم يُخبر جاوديان بخلاصة خطتي. هزَّ المهندس رأسه بالرفض.

قال: «فات الأوان. كان ينبغي فعل ذلك في البداية. لقد أهملنا أفريقيا. وأنت تعرف السبب.»

ضحك شتوم. وقال: «السيدة فون آينم! ربما، لكنَّ مفعول سحرها طاغٍ.»

ألقى جاوديان نظرة خاطفة نحوي، في حين كنتُ منشغلًا بتناول طبق من سلطة البرتقال. ثم أضاف قائلًا لشتوم: «لديَّ الكثير لأخبرك به بهذا الشأن. لكنه ليس كلامًا عاجلًا. صديقك مُحقٌّ في شيء واحد. أوغندا بقعة حيوية للإنجليز، وإذا ضُربوا هناك، ستهتز أركانهم كلها. ولكن كيف لنا أن نضربهم؟ فما زالوا مُسيطرِين على الساحل، وإمداداتنا تتناقَص يومًا تلوَ الآخر.»

«صحيح أننا لا نستطيع إرسال تعزيزات، ولكن هل استخدمنا كل الموارد المحلية؟ هذا ما لا أستطيع إقناع نفسي به. يقول زيمرمان إننا قد استهلكناها كلها بالفعل، لكنَّ تريسلر له رأي مختلف، والآن يظهر لنا هذا الرجل من العَدَم بقصةٍ تؤكد شكوكي. يبدو أنه كفء فيما يفعله. فلتُجرِّبه.»

عندئذٍ بدأ جاوديان يستجوبني، وكانت أسئلتُه شاملةً أدق التفاصيل. كنتُ أعرف القدر الكافي فقط، ولم يكن لديَّ المزيد للخوض فيه، لكني أظن أنني قد جعلته يُصدقني. فلديَّ ذاكرة فسيحة، وكنت قد التقيتُ في الماضي بعشرات الصيادين والمُستكشِفين الرواد، واستمعت إلى حكاياتهم؛ لذا استطعت التظاهر بمعرفة مكانٍ ما حتى وإن لم أكن قد زُرته بالفعل. وفوق ذلك، كنتُ ذات مرة على وشك أداء مهمةٍ في مُحيط تنجانيقا، وقد درستُ تلك المنطقة الريفية آنذاك بدقة تامة.

سألني جاوديان أخيرًا: «تقول إنك تستطيع بمساعدتنا أن تُثير متاعب للبريطانيين على الحدود الثلاثة؟»

فقلت: «أستطيع أن أنشر النار إذا أشعلها شخص آخر.»

«ولكن توجَد آلاف القبائل التي ليس بينها أيُّ صلات.»

«كلهم أفارقة. يُمكنك أن تؤكد صِدق كلامي. الشعوب الأفريقية كلها مُتشابهة في وجهٍ واحد؛ أنها يُمكن أن تُصاب بالجنون، وإذا جُن جنون أحدها، تنتقل العدوى إلى البقية. والإنجليز يعرفون هذا جيدًا جدًّا.»

سألني: «أين ستشعلُ الشرارة الأولى؟»

«حيث الوقودُ أشدُّ قابليةً للاشتعال. في الأعلى شمالًا بين الشعوب المُسلمة. لكن يجب أن تُساعدوني هناك. فأنا لا أعرف شيئًا عن الإسلام، وأظن أنكم على درايةٍ به.»

سألني: «لماذا؟»

فأجبته: «بسبب ما فعلتموه بالفعل.»

كان شتوم يترجِم كلامي طَوال هذا الوقت، وقد أوصل مضمونه كما هو إلى حدٍّ كبير. لكنه تصرَّف في إجابتي الأخيرة وغيَّرها من تلقاء نفسه. ترجمَها قائلًا: «لأنَّ الهولندي يظنُّ أننا نملك ورقة رابحة مهمة في التعامُل مع العالم الإسلامي.» ثم خفض صوته ورفع حاجبيه، وقال كلمة ألمانية تشبه كلمة «أونمانتل».

رمقني الآخر بنظرة توجُّس سريعة. وقال لشتوم: «من الأفضل أن نواصل حديثنا على انفراد يا سيدي الكولونيل. إذا سمح لنا السيد براندت، فسنترُكه بعض الوقت ليُضيِّف نفسه.» ودفع صندوق السيجار نحوي، وقام الاثنان وخرجا من الغرفة.

سحبتُ مقعدي إلى الموقد، وكنتُ أتمنى أن أغفو قليلًا. فالتوتر الذي ساد المحادثة التي خُضناها على العشاء أشعرني بالتعب الشديد. لقد قَبِل هذان الرجلان انضمامي إليهما بعدما صدَّقا هويتي المُنتحَلة وكل ادعاءاتي. وصدَّق شتوم أنني هولندي، مع أنه ربما كان يَظنني نذلًا. لكني كنتُ أمشي على خيطٍ رفيع جدًّا. لم أستطع أن أندمج تمامًا في الدور الذي كنتُ أنتحِله؛ لأنني عندئذٍ لن أجني أي نفعٍ من وجودي هناك. كان عليَّ أن أُحافظ على يقظة تفكيري طَوال الوقت، وأن أجمع بين مظهرِ رجلٍ بويري قروي وسلوكه، وعقلية ضابط استخبارات بريطاني. وإذا تضارب هذا الدورُ مع ذاك في أي لحظة، سأثير أشد شكوكهم يقظةً وفتكًا.

لن يرحمني شتوم عندئذٍ. كان ذاك الرجل الضخم قد بدأ يُثير إعجابي، مع أنني كنتُ أكرهه. في حين كان واضحًا أنَّ جاوديان رجل مُحترم كريم الأصل مهذَّب. ولو كنا في ظروفٍ مختلفة، لكان من الممكن أن أعمل معه؛ لأنه كان ينتمي إلى العشيرة التي كنتُ أنتمي إليها. أمَّا ذلك الآخر، فكان تجسيدًا لكلِّ ما يجعل ألمانيا مكروهة، لكنه لم يكن ألمانيًّا عاديًّا على الإطلاق، ولم أستطع منع نفسي من الإعجاب به. فقد لاحظتُ أنه لم يكن يُدخن أو يشرب المشروبات الكحولية. كان يبدو أنَّ ضخامة جسده ليست مرتبطةً بأي انغماسٍ في شهوات جسدية. كانت القسوة هوايته، حسب كلِّ ما سمعتُه عنه في جنوب غرب أفريقيا الألمانية، لكنه كان يتَّسِم بسماتٍ أخرى، بعضها جيد، وكان قلبه مُشتعلًا بتلك الوطنية المجنونة التي أصبحت بمنزلة ديانة. تساءلتُ لماذا لم يتولَّ منصبًا ميدانيًّا قياديًّا رفيعًا، مع أنه كان مشهورًا في الماضي بأنه جنديٌّ كفء. ولكن من المُرجح على أي حال أنه كان رجلًا عظيم الشأن في اختصاصه، أيًّا ما كان؛ لأنَّ وكيل الوزارة كان يتحدث

بنبرة متواضعة في حضرته، ولأنَّ رجلًا عظيمًا جدًّا بمكانة جاوديان كان يُعامله باحترام واضح. لا بد أنَّ العقل الكامن في ذاك الرأس الهَرَمي المضحك يُشع ذكاءً.

بينما كنتُ جالسًا بجوار الموقد، كنت أسترجع الأحداث لأتذكر ما إذا كنتُ قد حصلت على أي خيط أسترشد به في مهمتي الحقيقية. وبدا لي أنني لم أحصل على أي شيء بعدُ. كان شتوم قد تحدث عن امرأةٍ تُدعى فون آينم مهتمةٍ بالإدارة التي يعمل فيها، وربما تكون هي المرأة نفسها التي تُدعى هيلدا التي ذكرها لوكيل الوزارة في اليوم السابق. لم أستخلِص من ذلك شيئًا مفيدًا. من المحتمل أن تكون زوجة وزير أو سفير لها نفوذ في السياسة العُليا. ليتني استطعتُ أن أسمع الكلمة التي همس بها شتوم لجاوديان، والتي جعلته ينتفض وينظر لي بارتياب! لكني لم أسمع سوى هذرمةٍ بشيء على غرار «أونمانتل»، ولم أكن أعرف أي كلمة ألمانية كهذه.

دفعتني حرارة الموقد إلى غفوة خفيفة، وبدأتُ أتساءل حالِمًا عمَّا كان الآخرون يفعلونه. إلى أين كان بلنكيرون ذاهبًا بذلك القطار، وماذا كان يفعل في تلك اللحظة؟ لقد خالَط سفراء ومسئولين ذوي نفوذ ومكانة بارزة، أتساءل إن كان اكتشف أي شيء. وماذا كان بيتر يفعل؟ كنتُ أتمنَّى من كل قلبي ألَّا يُسيء التصرف؛ لأنني كنت أظن أنَّه ربما لم يفهم حساسية مهمتنا حقًّا. وأين كان ساندي أيضًا؟ من المُرجَّح أنه يحمل دِلاءً في مخزن الحمولة بسفينةٍ بضائع ساحلية يونانية في بحر إيجة. ثم تخيلتُ كتيبتي مرابِطةً عند مكانٍ ما على الخط الفاصل بين هولوتش ولاباسيه، تدكُّ الألمان بغارةٍ تلو الأخرى، في حين كنتُ أنا داخل حدود الألمان بنحو خمسمائة ميل.

كانت هذه خاطرة هزلية، هزلية جدًّا لدرجة أنها أيقظتني. حاولتُ بلا جدوى أن أجد طريقةً لأؤجِّج نيران هذا الموقد؛ إذ كانت ليلة باردة، فنهضت وأخذت أتمشى في أرجاء الغرفة. كانت توجَد صور شخصية لرجل وامرأة كبيرَين مُحترمَين، ربما كانت لوالدَي جاوديان. كذلك كانت توجَد صور مُكبَّرة لأعمالٍ هندسية، وصورة جيدة لبسمارك. وبالقُرب من الموقد، كان يوجَد جرابٌ يحوي خرائط ملفوفة على بكرات.

سحبتُ إحداها عشوائيًّا. كانت خريطة جيولوجية لألمانيا، وقد حددتُ موقعي عليها بعد مشقة. كنت بعيدًا جدًّا عن هدفي، والأسوأ أنني كنتُ بعيدًا تمامًا عن الطريق المؤدي إلى الشرق. كان الذهاب إلى هناك يتطلَّب مني أن أذهب إلى بافاريا أولًا، ثم أدخل النمسا. لاحظتُ أنَّ نهر الدانوب يجري شرقًا، وتذكرتُ أنَّ ذلك كان أحد الطرق المؤدية إلى القسطنطينية.

ثم جربتُ خريطة أخرى. كانت هذه الخريطة تغطي مساحة واسعة؛ إذ كانت تغطي أوروبا كلها من نهر الراين حتى بلاد فارس شرقًا. خمنتُ أنها مُصمَّمة لتُوضح مسارات السكك الحديدية في بغداد، والطرق المستقيمة المباشرة من ألمانيا إلى بلاد الرافدين. كانت تحمل علامات، وعندما دققتُ النظر عن قُرب، رأيتُ تواريخ مكتوبة في عجالة بقلم رصاص أزرق، كما لو كانت تُشير إلى مراحل رحلةٍ ما. كانت التواريخ تبدأ في أوروبا، وتستمرُّ مباشرة إلى داخل آسيا الصغرى، ثم جنوبًا إلى سوريا.

وثب قلبي من صدري فرحًا لوهلة؛ لأنني ظننتُ أنني وقعتُ مصادفةً على الخيط الذي كنتُ أريده. لكني لم أتفحَّص تلك الخريطة بإمعان قط. فقد سمعتُ وقْع خطواتٍ في الممر، وتركت الخريطة تتدحرج إلى الأعلى بمنتهى الرفق، واستدرتُ بعيدًا. وعندما فُتح الباب، كنتُ مُنحنيًا فوق الموقد أُحاول إشعال غليوني.

كان جاوديان هو مَن فتح الباب، وجاء ليطلُب منِّي الانضمام إليه هو وشتوم في غرفة مكتبِه.

وفي طريقنا إلى هناك، وضع يدَه على كتفي بلُطف. أظن أنه خمَّن أنَّ شتوم قد أرهبني وأساء مُعاملتي، فأراد أن يُطمئنني بأنه صديق لي، ولم تكن لدَيه لغة أخرى يعبِّر بها عن ذلك سوى تَربيتَةٍ على ظهري.

كان شتوم متخذًا وضعيتَه القديمة؛ إذ كان متكئًا بمرفقَيه على رفِّ المدفأة، وكان فكُّه الكبير الضخم بارزًا.

قال: «أصغِ إليَّ. أنا والسيد جاوديان نميل إلى الاستفادة منك. ربما تكون دجَّالًا يتظاهر بما يفوق قُدراته، وعندئذٍ ستقع في مأزقٍ جهنمي، ولا تلومنَّ إلا نفسك. وإذا كنت وغدًا مخادعًا، فلن تكون لديك فرصة للخداع. سنحرص على ألَّا نترك لك أي فرصةٍ لهذا. وإذا كنت أحمق، فستعاني أشدَّ معاناة. أمَّا إذا كنتَ رجلًا صالحًا، فستحظى بفرصةٍ جيدة، وقد تنجح، وإذا نجحت، فلن ننسى ذلك. غدًا سأعود إلى المنزل، وستأتي معي لتتلقى أوامرك.»

حاولتُ الوقوف منتصبًا كالجنود وأداء التحية العسكرية.

تحدث جاوديان بنبرةٍ دمثة كما لو كان يريد تعويضي عن نبرة شتوم الاستبدادية. قال: «نحن رجال نُحب وطننا ألمانيا يا سيد براندت. صحيح أنك لستَ من أبناء ذلك الوطن، لكنك على الأقل تكره أعداءه. لذا فنحن حلفاء، وبيننا ثقة مُتبادلة كالحلفاء. نصرُنا مُقدَّر بأمرٍ من الرب، ونحن مجرد أدوات في يدَيه.»

ترجم شتوم الكلام في جملةٍ واحدة، وكانت نبرته جادة وصارمة جدًّا. ثم رفع يده اليمنى، وكذلك جاوديان، مثل رجل يحلف يمينًا، أو قسٍّ يبارك جماعة من المُصلين.

عندئذٍ أدركتُ شيئًا من سرِّ قوة ألمانيا. فهي قد أنجبت طيِّبين وخبيثِين، أوغادًا ونبلاء، لكنها استطاعت أن تزرع شيئًا من التعصُّب فيهم جميعًا.

الفصل السادس

حماقات من الرجلين نفسيهما

كنت أقف عاريًا تمامًا صباح اليوم التالي في غرفة النوم القارسة البرودة تلك مُحاولًا الاستحمام بنحو ربع جالون من الماء، حين فوجئتُ بشتوم يدخل عليَّ. سار نحوي بخطواتٍ واسعة وحدَّق بوجهي. كنتُ أقصر منه بنحو نصف رأس، كما أن الرجل لا يشعر بأنه في أقوى حالاته حين يكون بلا ثياب؛ لذا كان متفوقًا عليَّ من كل الجوانب.

قال مزمجرًا: «لديَّ سبب يجعلني أعتقد أنك كاذب.»

شددتُ غطاء السرير ولففتُه حولي لأنني كنت أرتعش من البرد، ولأنَّ المناشف الألمانية كانت صغيرة ورقيقة كمناديل الجيب. أعترف بأنني كنتُ في حالة من الذُّعر.

كرَّر قائلًا: «كاذب! أنت وذاك الخنزير بينار.»

حاولتُ بأقصى جهدي أن أبدو غاضبًا فظًّا، وسألته عمَّا فعلناه ليعتقد ذلك.

قال: «لقد كذبت؛ لأنك قلتَ إنكما لا تعرفان الألمانية. يبدو أنَّ صديقك يعرف منها ما يكفي ليتحدَّث بأشياء تُعَد خيانةً لحكومتنا، ويزدري مقدساتنا.»

أعاد إليَّ ذلك بعضًا من رباطة الجأش.

«قلتُ لك إنني أعرف بضع كلمات. لكني أخبرتك بأنَّ بيتر يستطيع التحدُّث بها قليلًا. أخبرتُك بذلك أمسِ في المحطة.» شعرتُ بالامتنان من أعماق قلبي لحُسن حظي الذي جعلني أقول تلك الملحوظة العابرة.

بدا واضحًا أنه تذكَّر؛ إذ صارت نبرتُه أكثر تأدبًا قليلًا.

قال: «أنتما زوج حقير. وإذا كان أحدُكما وغدًا، فلماذا لا يكون الآخر مثله؟»

قلت: «لستُ مسئولًا عن بيتر.» شعرت بأنني نذل لأنني قلتُ ذلك، لكنَّ هذا كان اتفاقنا منذ البداية. «صحيح أنني أعرفه صيادًا بارعًا ورجلًا شجاعًا منذ سنين. وأعرف

أنه قاتَلَ ببسالة ضد الإنجليز. لكني لا أعرف أكثر من ذلك. عليك أن تحكم عليه بنفسك. ماذا فعل؟»

حكى لي شتوم؛ لأنهم أبلغوه بما حدث عبر الهاتف في صباح ذلك اليوم. وبينما كان يحكي لي، تَكرَّم بالسماح لي بأن أرتدي بنطالي.

فعل بيتر ما كنتُ أتوقَّعه بالضبط. فبعدما تركناه وحده في اليوم السابق، شعر بالملل، ثم أتى بتصرُّفات طائشة. ألحَّ على الملازم حتى أقنعه بأن يصحبه لتناول العشاء بالخارج في مطعمٍ كبير في برلين. وهناك، بعدما أثارته الموسيقى والأضواء — التي كانت أشياء جديدة على صيادٍ قروي من جنوب أفريقيا — ولشعوره بالملل الشديد من رفيقه بكلِّ تأكيد، بدأ يثمل. كان ذلك يحدث سابقًا بمعدل مرةٍ كل ثلاث سنوات تقريبًا منذ أن عرفتُ بيتر، ودائمًا ما كان يحدث للسبب نفسه. كان بيتر عندما يشعر بالملل والوحدة في بلدةٍ ما، ينغمس في الشراب حتى يثمل. صحيح أنَّ رأسه كان جامدًا كالصخر، لكنه كان يصل إلى الحالة المنشودة بمزج عشوائي لمجموعة مختلفة من المشروبات. كان سلوكه يظلُّ مُهذبًا جدًّا عندما يثمل، ولا يتحول إلى العنف على الإطلاق، لكنه غالبًا ما كان يُطلِق العِنان للسانِه تمامًا. وهذا ما حدث في مطعم فرنسيسكانا.

بدأ بإهانة الإمبراطور، على ما يبدو. شرب نخبًا في صحته، لكنه قال إنه يُذكِّره بخنزيرٍ وحشي أفريقي، ومن ثم جرح مشاعر الملازم الذي كان معه. ثم اعترض أحد الضباط — الذي كان ذا رُتبة عالية جدًّا، وكان جالسًا إلى طاولة مجاورة — على حديثه بصوتٍ عالٍ جدًّا، فردَّ بيتر ردًّا وقحًا بلغةٍ ألمانية محترمة. بعدئذٍ عمَّت حالة من الفوضى. نشبت مشادَّة أو ما شابه، افترى فيها بيتر بأقذع الألفاظ على الجيش الألماني وكل أمهات أفراده وأمهات أمهاتهم. لا أعرف كيف لم يُطلِق أحدٌ النار عليه أو يطعنه بسكين، إلا أنَّ الملازم أعلن بأعلى صوته أنه رجل بويريٌّ مجنون. على أي حال، كانت الخلاصة أنَّ بيتر اقتيد إلى أحد السجون، وتُركتُ أنا في مأزق حرِج.

كنتُ قد ارتديتُ معظم ثيابي حينئذٍ، وأصبحت أجرأ. فقلت بحزم: «لا أُصدق أي كلمة من ذلك. هذه كلها مؤامرة لوصمِه بالعار وتجنيده وإرساله ليُقاتِل على الجبهة.»

لم يستشط شتوم غضبًا كما كنت أتوقع، بل ابتسم.

قال: «هذا قَدَره منذ البداية، منذ أن رأيتُه. لم يكن لينفعنا إلَّا بأن يكون رجلًا ببندقية على الجبهة. كبشًا نُضحِّي به أمام المَدافع، ليس إلَّا. هل تتصوَّر أيها الأحمق أنَّ هذه الإمبراطورية العظيمة ستشغل بالها، في خضمِّ حربٍ عالمية، بنصبِ أفخاخ لقروي جاهل من جنوب أفريقيا؟»

قلت: «أنا بريء منه. وإذا صحَّ ما تقوله عن حماقته، فلا علاقة لي بها. لكنه كان رفيقي وأتمنَّى له الخير. ماذا تعتزمون أن تفعلوا به؟»

قال بالْتِواءةٍ خبيثة بفمه: «سنُبقيه تحت المُراقبة. فأنا أظن أنه يُخفي أكثر مما يُظهِر. سنتحرَّى عن ماضي السيد بينار. وماضيك أنت أيضًا يا صديقي. فنحن نضعك أنت أيضًا قيد المراقبة.»

تصرفتُ عندئذٍ أفضل تصرُّفٍ ممكن؛ إذ كنت قد فقدتُ صوابي من شدة القلق والاشمئزاز.

صرخت قائلًا: «اسمَعْني أيها السيد، لقد فاض بي الكيل. أتيتُ إلى ألمانيا وأنا أكره الإنجليز وأتحرَّق شوقًا لأُوجِّه إليهم ضربةً من أجلكم. لكنكم لم تُعطوني مبررًا كافيًا لأحبَّكم. فطَوال اليومَين الماضِيَين، لم أرَ منكم سوى الشك والإهانة. والرجل المهذب الوحيد الذي قابلتُه هو السيد جاوديان. ولأنني مؤمِن بأنَّ ألمانيا تعجُّ بالكثير من أمثاله؛ فأنا مُستعد للمُضي قُدمًا في هذه المهمة، وبذل قصارى جهدي فيها. لكني أقسم بالربِّ إنني حتى لن أُحرِّك إصبعي الصغيرة من أجلك.»

حدَّق بي دقيقة بكلِّ ثبات. ثم قال أخيرًا بنبرة مهذبة: «يبدو هذا صادقًا. من الأفضل أن تنزل وتشرب قهوتك.»

أصبحتُ في أمانٍ مؤقتًا، لكن حالتي المعنوية كانت سيئةً جدًّا. فماذا سيحدث لبيتر المسكين؟ لم يكن بوسعي أن أفعل له شيئًا حتى لو أردت، وفوق ذلك، كان واجبي الأول إتمام مهمتي. أوضحتُ له ذلك من البداية في لشبونة، ووافق عليه، لكنها مع ذلك كانت فكرةً وحشية بغيضة. لقد أصبح ذاك الكفء المُخضرم تحت رحمة أبغض شعوب الأرض إلى قلبه. كان عزائي الوحيد أنهم لا يستطيعون أن يُلحِقوا به أذًى جسيمًا. فإذا أرسلوه إلى الجبهة، وهذا أسوأ ما كانوا يستطيعون فعله، فسيهرب؛ لأنني كنتُ مُستعدًّا لأراهن على أنه سيتجاوز أي خطوطٍ قتالية مُهلِكة. كنتُ أنا أيضًا مُستاءً من الأمر. فلم أدرك قيمة رفقته بالنسبة إليَّ إلَّا عندما عرفت أنني سأُحرَم منها. لقد صرتُ وحدي تمامًا، وكنتُ متضايقًا من ذلك. بدا لي أنَّ احتمالية الانضمام إلى بلنكيرون وساندي أصبحت كاحتمالية السفر إلى القمر.

أُمِرتُ بعد الفطور بأن أستعد. وعندما سألت عن الوجهة التي سأذهب إليها، نصحَني شتوم بألَّا أتدخل فيما لا يَعنيني، لكني تذكرتُ أنه تحدَّث في الليلة الماضية عن اصطحابي إلى منزله وإعطائي أوامري. وتساءلت عن مكان منزله ذلك.

ربَّت جاوديان على ظهري عندما كنَّا على وشك الانطلاق، وضغط على يديَّ ليُطمئِنَني. كان رجلًا طيبًا ورائعًا جدًّا، وكنتُ أشعر بالغثيان كلما تذكرتُ أنني أخدعه. ركبنا السيارة الرمادية الكبيرة نفسها، وكان خادم شتوم جالسًا بجوار السائق. كان صباحًا ذا صقيع قارس، وكانت الحقول الجرداء مُغطَّاة بطبقة من الصقيع الأبيض، وكانت أشجار التنوب مكسوةً بمسحوق جليدي ناعم من الحُبَيبات البيضاء ككعكة زفاف مكسوة بطبقةٍ من السكر المسحوق. سلكنا طريقًا مختلفًا عمَّا سلكناه في الليلة السابقة، وبعد مسيرة ستة أميال، وصلنا إلى بلدة صغيرة فيها محطة قطار كبيرة. كانت وصلةً بين عدة سككٍ على خطٍّ رئيسي، وبعد خمس دقائق من الانتظار وجدنا قطارنا. كنَّا وحدَنا في العربة مرةً أخرى. لا بدَّ أنَّ شتوم كان لدَيه نفوذ ضخم يستغله بصورة غير مشروعة؛ لأن القطار كان مزدحمًا.

عشتُ ثلاث ساعاتٍ أخرى من الملل التام. فلم أجرؤ على التدخين، ولم يكن بإمكاني سوى التحديق إلى الخارج من النافذة. سرعان ما وصلنا إلى بلدة ريفية جبلية يكسوها الكثير من الثلج. كنا آنذاك في الثالث والعشرين من ديسمبر، ومع أننا كنَّا في وقتِ حرب، فقد شعرتُ بأجواء عيد الميلاد نوعًا ما. فرأيتُ فتيات يحملنَ أشجارًا دائمة الخضرة، وعندما توقَّفنا في إحدى المحطات، كان مظهر الجنود الحاصلين على إجازةٍ يوحي بأنهم عائدون لقضاء عطلة عيد الميلاد. كان وسط ألمانيا أكثر بهجةً من برلين أو الأجزاء الغربية. أعجبني مظهر الفلاحين العُجُز، والنساء المُكتسيات بأفضل ثيابهن الأنيقة، لكني لاحظتُ أيضًا أنهن كُن شاحبات ونحيفات جدًّا. لم يكن يأتي أي سياح مُحايدِين إلى الريف؛ لذا كانت الأمور هنا متروكةً على طبيعتها دون تدخُّل، على عكس الحال في العاصمة.

حاول شتوم أن يتحدَّث إليَّ أثناء الرحلة. استطعتُ أن أرى غايته. صحيح أنه كان يستجوبني قبل ذلك، لكنه أصبح يريد أن يستدرجني إلى محادثةٍ عادية. لم تكن لدَيه أي فكرة عن كيفية تحقيق ذلك. فقد كان إمَّا متسلطًا ومستفزًّا، كرقيبٍ يُدرِّب مُجندِين جُددًا، وإما دبلوماسيًّا بشكلٍ مفضوح جدًّا إلى حدٍّ يجعل أيَّ أبلهَ يأخذ حِذره تحسُّبًا لأي خداع. هذه هي نقطة ضعف الرجل الألماني. ليست لدَيه موهبة الاندماج مع صنوفٍ مختلفة من الرجال. فهو كائن جامد، حتى إنه لا يستطيع أن يستشعر ما بداخل أمثاله من البشر. ربما يكون ذكيًّا جدًّا، كما كان شتوم، لكنه لا يحمل أي فكرة عن سيكولوجية أيٍّ من مخلوقات الرب. لا يوجَد في ألمانيا من يستطيع الخروج من عباءته والاندماج مع الآخرين إلَّا اليهود؛ ولهذا إذا أمعنت النظر في تلك المسألة، فستجد أنَّ اليهود هم من يقودون معظم المؤسسات الألمانية.

توقفنا بعد منتصف النهار في إحدى المحطات لتناوُل الغداء. تناولنا وجبةً دسمة وشهية جدًّا في المطعم، وعندما كنا على وشك الانتهاء من طعامنا، دخل علينا ضابطان. قام شتوم وأدى التحية العسكرية وانتحى بهما جانبًا ليتحدَّث إليهما. ثم عاد وجعلني أتبعه إلى غرفة انتظار، وأمرني بالبقاء فيها إلى أن يستدعيني. لاحظت أنه نادى حمَّالًا وأوصد الباب حين خرج.

كانت غرفة باردة جدًّا، ولم يكن فيها أي نار للتدفئة، وظللت منتظرًا هناك عشرين دقيقة دون أن أفعل أي شيء. كنتُ حينئذٍ أعيشُ ساعةً بساعة، ولم أشغل بالي بذلك التصرف الغريب. كان يوجَد مجلدٌ لجداول المواعيد على أحد الأرفف، فأخذت أقلِّب في صفحاته بلا هدف حتى صادفتُ خريطة كبيرة لمسارات السكك الحديدية. حينئذٍ خَطَر ببالي أن أحاول معرفة الوجهة التي كنا ذاهِبين إليها. كنتُ قد سمعت شتوم يشتري تذكرتَين لمكانٍ يسمَّى شفاندورف، وعثرت عليه بعد كثير من البحث. كان يقع بعيدًا جنوبًا في بافاريا، وبقدْر ما استطعتُ أن أكتشف، كان يقع على بُعد أقل من خمسين ميلًا من نهر الدانوب. أسعدني ذلك جدًّا. فإذا كان شتوم يعيش هناك، فالأرجح أنه سيتَّخِذ الترتيبات اللازمة لأسافر من هناك عبر خط السكة الحديدية الذي رأيتُه ممتدًّا إلى فيينا، ومنها إلى الشرق. بدا لي أنني قد أصل إلى القسطنطينية في النهاية رغم كل ما حدث. لكنني كنت أخشى أن يكون هذا إنجازًا بلا قيمة؛ فماذا بوسعي أن أفعل بعدما أصل إلى هناك؟ لقد كانوا يتعجلون إخراجي من ألمانيا، وما زلت لم أحصل على أي خيط أسترشِد به.

فُتِح الباب ودخل شتوم. بدا أنه قد ازداد ضخامة في تلك الفترة التي تركني فيها، وأصبح أكثر تشامخًا. وكانت عينه تشعُّ فخرًا أيضًا.

قال: «براندت، أنت على وشك أن تنال أعظم شرف تنزَّل على أيِّ أحدٍ من بَني عِرقك على الإطلاق. جلالة الإمبراطور كان مارًّا من هنا، وتوقَّف بضع دقائق. لقد شرَّفني باستقبالي، وحين سمع قصتي، أعرب عن رغبتِه في لقائك. ستتبعني إلى حضرته. لا تخَف. فجلالتُه رءوف كريم. كن رجلًا وأنت تُجيب عن أسئلته.»

تبعتُه بنبضٍ مُتسارع. فها هي ذي مصادفة رائعة لم أحلم بها قادني إليها حُسن حظي. كان يوجَد على الجانب البعيد من المحطة قطارٌ مُتوقف مكوَّن من ثلاث عربات كبيرة مُلونة بلَون الشوكولاتة، مزخرفة باللون الذهبي. وكان على الرصيف المجاور له مجموعةٌ صغيرة من ضباط طِوال القامة في أرديةٍ طويلة باللونَين الأزرق والرمادي. بدا أن

مُعظمهم من كبار السن، وخُيِّل لي أنني أتذكَّر منهم وجهًا أو اثنَين من صورٍ فوتوغرافية رأيتُها سابقًا في الصحف المصورة.

وبينما كنَّا نقترب منهم، تفرقوا وتركونا وجهًا لوجهٍ مع رجل واحد. كان ذا قامةٍ أقصر بقليلٍ من المتوسط، وكانت كلها مكسوة بمعطفٍ سميك ذي ياقة من الفرو. كان يعتمرُ خوذة فضية تحمل نسرًا في أعلاها، وكانت يده اليسرى مرتكزة على سيفه. كان أسفلَ الخوذة وجهٌ بلون الورق الرمادي، تلمعُ فيه عينان فضوليتان جادَّتان لا تَكُفَّان عن الحركة، تحتهما هالات داكنة. كنتُ متيقنًا كلَّ التيقُّن من هويته. فهذه الملامح كانت أشهر ملامح في العالَم منذ ملامح نابليون.

وقفتُ منتصبًا جامدًا مثل مكبس المدفع وأديتُ التحية. كنت رابط الجأش تمامًا ومتلهفًا للغاية. فلطالما كنتُ مستعدًّا لمجابهة أي أخطار من أجل لحظةٍ كهذه.

سمعت شتوم يقول: «جلالة الإمبراطور، هذا هو الهولندي الذي تحدثتَ عنه.»

سأله الإمبراطور: «ما اللغة التي يتحدث بها؟»

جاء الرد: «الهولندية، ولكن لأنه جنوب أفريقي؛ فهو يتحدث الإنجليزية أيضًا.»

بدا لي أنَّ الوجه الماثل أمامي قد تشنَّج بإيماءةٍ سريعة من الألَم. ثم خاطبني بالإنجليزية.

«لقد أتيتَ من أرضٍ لم تُصبح حليفةً لنا بعدُ لتعرض علينا المحاربة في صفِّنا؟ أقبلُ الهدية وأرحِّب بها مُعتبرًا إيَّاها فأل خير. كنت سأمنح بَني عِرقك حُريتهم، ولكن كان بينكم حمقى وخونة أساءوا الحُكم عليَّ. لكنني سأمنحكم تلك الحرية رغمًا عنكم. هل يوجَد الكثير من أمثالك في بلدك؟»

كذبتُ قائلًا بكلِّ ابتهاج: «الآلاف يا مولاي. أنا واحد من كثيرين يؤمِنون بأنَّ نجاة بني عِرقي مرهونة بانتصاركم. وأرى أنَّ هذا النصر يجب ألَّا يتحقَّق في أوروبا وحدَها. لا توجَد فرصة لتحقيقه في جنوب أفريقيا حاليًّا؛ لذا نتطلَّع إلى أجزاء أخرى من القارة. ستنتصِرون في أوروبا. وقد انتصرتم في الشرق بالفعل، والآن يبقى أن تضربوا الإنجليز حيث لا يمكنهم صدُّ الضربة. إذا أخذنا أوغندا، فستسقط مصر. ومن بعد إذنك، سأذهب إلى هناك لأُثير متاعب لأعدائكم.»

سرى طيفُ ابتسامةٍ خفيفة عبر الوجه المُرهَق. كان وجهه ينمُّ عن أنه ينام قليلًا، وأنَّ أفكاره مُستحوذة عليه ككابوس. قال: «هذا جيد. قال رجل إنجليزي يومًا ما إنه سيستدعي «العالَم الجديد» ليعدل ميزان «القديم». أمَّا نحن الألمان، فسنستدعي الأرض

كلها لكبح أفعال إنجلترا الشائنة. اخدمنا كما ينبغي، ولن ننسى أن نكافئك بمكافأة سخيَّة.»

ثم سألني فجأة: «هل قاتلتَ في حرب جنوب أفريقيا الأخيرة؟»

قلت: «نعم يا سيدي. كنتُ تحت إمرة ذلك المدعو سماتس الذي اشترته إنجلترا الآن.»

سألني بلهفة: «ما الخسائر التي لحقت بأبناء بلدك؟»

لم أكن أعرف، لكني جازفتُ بالتخمين. «نحو عشرين ألفًا في الميدان. لكننا فقدْنا أكثر من ذلك بكثيرٍ بسبب المرض، وفي معسكرات الاعتقال اللعينة لدى الإنجليز.»

تشنَّج وجهه بإيماءةِ ألَمٍ مرة أخرى.

قال بصوت مبحوح: «عشرون ألفًا. مجرد حَفنة قليلة. فنحن اليوم نفقد مثل هذا العدد في مناوشة واحدة في المُستنقعات البولندية.»

ثم انفعل بشدة.

قال: «لم أسعَ إلى الحرب ... بل فُرضَت عليَّ ... بذلتُ جهدًا مضنيًا من أجل السلام ... دماء الملايين في رقبة إنجلترا وروسيا، وإنجلترا بالأخص. سيتنزل عليها عقاب الربِّ ولو بعد حين. كُلُّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ. لم أُخرِج سيفي من غِمده إلَّا دفاعًا عن نفسي، وأنا بريء من أي ذنب. هل يعرف قومك هذا؟»

قلت: «العالَم كله يعرفه يا مولاي.»

عندئذٍ أعطى لشتوم يدَه واستدار ليرحل. كان آخرُ ما رأيتُه منه جسدًا يتحرك كالسائرين نيامًا، دون أي حيوية في خطوته، وسط حاشيته الطويلة. شعرتُ آنذاك بأنني أنظر إلى موقفٍ أشدَّ تراجيديةً بكثيرٍ من أي مسرحيةٍ تراجيدية رأيتُها تؤدَّى أمامي من قبل. كنتُ أرى رجلًا فتح أبواب الجحيم، فمسَّته أهوالها. لم يكن رجلًا عاديًّا؛ إذ شعرت في حضرته بانبهار، ولم يكن هذا لمجرد أنني رأيتُ تسلطًا من شخصٍ اعتاد أن يأمر وينهى. فما كان هذا ليُبهرني؛ لأنني لم أقبل سيدًا لي من قبل. بل لأنني رأيت أمامي إنسانًا، على عكس شتوم وبقية أشباهه، يستطيع الاندماج مع الآخرين والشعور بهم. كانت هذه هي المفارقة الكامنة في الموقف. فشتوم لم يكن ليهتم إطلاقًا بكلِّ مذابح التاريخ. لكنَّ هذا الرجل، الذي يتزعم أمَّةً كاملة من أمثال شتوم، كان يدفع أثناء الحرب ثمن الهبات التي جعلته ناجحًا أثناء السلام. كان لدَيه خيال وأعصاب، وكان خياله مُلتهبًا جدًّا وأعصابه مرتعشة. لم أكن لأقبل أن أكون مكانه ولو عُرض عليَّ عرشُ الكون كله ...

كان القطار يمضي بنا مُسرعًا نحو الجنوب طَوال فترة ما بعد الظهيرة، وكان يسير أغلب الوقت وسط ريفٍ من التلال والوديان المشجَّرة. كان شتوم، مقارنةً بسلوكياته

السابقة، دمثًا جدًّا. لا بد أنَّ سيده الإمبراطور كان رءوفًا به، فقرر أن يمنحني جزءًا من هذه الرأفة. لكنه كان حريصًا على التيقُّن من أنني لم أُسئ الفهم.

إذ قال: «جلالته رحيم، كما قلت لك.»

وافقته الرأي.

قال بأسلوبٍ وعظي: «الرحمة امتياز حصري للملوك، أمَّا لنا نحن الأقل شأنًا، فهي مجرد زينةٍ يُمكننا الاستغناء عنها.»

أومأت بالإيجاب.

واصل قائلًا: «أما أنا فلستُ رحيمًا»، وكأنني لم أكن أعرف ذلك. وأضاف: «إذا وقف أي رجلٍ في طريقي، أدهسه بلا تردد. هذا دأْب الألمان. هذا ما جعلَنا عظماء. نحن لا نخوض حربًا بالقفازات الرقيقة والكلام الناعم، بل بفولاذٍ صُلب وأدمغة صُلبة. نحن الألمان سنعالِج داء الضعف والهشاشة المُصاب به العالَم. الأمم تثور علينا. أفٍ لهم! ليسوا سوى لحمٍ طري، واللحم لا يمكنه أن يُقاوِم الحديد. سيشقُّ نَصلُ المحراث اللامع طريقَه عبر أفدنةٍ من الطين.»

سارعتُ إلى إضافةِ أنَّ آرائي مُتفقة معه في ذلك.

فقال: «ما قيمة آرائك بحقِّ الجحيم؟ لستَ سوى قروي غبي ساذج من سهول جنوب أفريقيا ...» وأضاف: «لكنكم أيها الهولنديون البليدون تُصبحون بمنزلة معدنٍ نافعٍ حالما نتولَّى نحن الألمان تشكيله!»

كان المساء الشتوي يُخيِّم علينا، ورأيتُ أننا قد خرجنا من التلال وأصبحنا في ريفٍ مستوٍ. كان يظهر بين الحين والآخر امتدادٌ نهريٌّ واسع، وعندما نظرتُ خارجًا عند إحدى المحطات، رأيتُ كنيسة مُضحِكة تحمل شيئًا شبيهًا بثمرة البصل فوق قمة برجِها. كانت تكاد تبدو وكأنها مسجد، حسبما أذكر من صور المساجد. تمنيتُ لو أعطيت الجغرافيا مزيدًا من الاهتمام في أيام صباي.

توقفنا بعد قليل، وخرجنا من القطار يتقدَّمني شتوم. لا بد أنَّ القطار قد توقف خصوصًا من أجله؛ لأننا توقفنا عند بلدة صغيرة تافهة لم أستطع معرفة اسمها. كان ناظر المحطة في الانتظار، وقد انحنى وأدَّى التحية، وكان بالخارج سيارة ذات مصابيح أمامية كبيرة. في اللحظة التالية كنَّا ننساب بسرعة وسط غابات مُظلِمة حيث كان الثلج أشد كثافة بكثيرٍ مما كان في الشمال. كان الهواء مُحمَّلًا بصقيع خفيف، وكانت الإطارات تنزلق وتتزحلق إلى الأمام وجانبًا عند منعطفات الطرق والنواصي.

لم تكن المسافة إلى وِجهتنا طويلة. صعدنا تلًّا صغيرًا وتوقفنا فوقه عند باب قلعة سوداء كبيرة. كانت القلعة تبدو ضخمة جدًّا في ذاك الليل الشتوي، في ظلِّ عدم انبعاث أي ضوء من أي مكان في واجهتها. فتح البابَ رجلٌ عجوز استغرق وقتًا طويلًا في فتحه، ونال الكثير من اللعنات بسبب بطئِه. كان المكان من الداخل عريقًا وعتيقًا جدًّا. أشعل شتوم الضوء الكهربائي، فوجدنا أنفسنا في ردهة كبيرة تحوي صورًا شخصيةً سوداء باهتة لرجالٍ ونساء يرتدون ثيابًا قديمة الطراز، وقرون غزلان ضخمة على الجدران.

لم يكن بالمكان كثيرٌ من الخَدَم على ما يبدو. قال الرجل العجوز إنَّ الطعام جاهز، فذهبنا دون إضاعة مزيدٍ من الوقت إلى غرفة الطعام، وكانت غرفة أخرى فسيحة ذات جدران حجرية خشنة فوق ألواحٍ من الكسوة الخشبية تُغطي الجزء السفلي منها، ووجدتُ بعضًا من اللحم البارد على المنضدة بجوار جذوةٍ كبيرة من النيران. سرعان ما أحضر الخادم بيضًا مخفوقًا مَقليًّا بلحم الخنزير، وتعشَّينا به مع اللحم البارد. أتذكَّر أنَّ الغرفة لم يكن فيها شيء نشربُه سوى الماء. لم أفهم كيف كان شتوم يُحافظ على حيوية جسده الضخم بكمية الطعام المُعتدلة جدًّا التي كان يأكلها. فقد كان من نوعية الرجال الذين يتوقَّع المرء أنهم يتجرَّعون كمياتٍ كبيرة من الجعة بنهمٍ، ويلتهِمون فطيرة كاملة في جلسةٍ واحدة.

عندما انتهَينا، رنَّ شتوم الجرس واستدعى الرجل العجوز وأخبره بأننا سنجلس في غرفة المكتب بقية المساء. قال له: «يمكنك أن توصِد الأبواب والنوافذ وتخلد إلى النوم متى شئت، ولكن احرص على أن تكون القهوة جاهزة في الساعة السابعة صباحًا بالضبط.»

كنتُ أشعر منذ دخولي ذاك المنزل بعدم الارتياح وكأنني في سجن. كنت هناك وحدي، في هذا المكان الضخم، مع رجلٍ يُمكنه أن يكسر رقبتي إذا شاء، بل وكان مُستعدًّا لذلك بالفعل. عندئذٍ بدت لي برلين، وبقية الأماكن التي كنتُ فيها من قبل، ريفًا مفتوحًا مقارنةً بهذا المنزل؛ ففيها كنتُ أشعر بأنني أستطيع التحرك بحرية، والهروب في أسوأ الأحوال. لكني هنا كنتُ محبوسًا، وكان عليَّ أن أُذكِّر نفسي كل دقيقة بأنني موجود هناك بصِفتي صديقًا وزميلًا. الحقيقة أنني كنتُ خائفًا من شتوم، ولا أُمانع الاعتراف بذلك. كان التعامُل معه تجربةً جديدة في حياتي، ولم تُعجبني. لو أنه فقط قد شرب بعض المُسكِرات وأسرف قليلًا في شربها، لأصبحتُ أكثر ارتياحًا.

صعدنا دَرجًا يؤدي إلى غرفة في نهاية ممرٍّ طويل. أوصد شتوم الباب خلفه ووضع المفتاح على الطاولة. أبهرتني تلك الغرفة؛ إذ لم تكن متوقعة تمامًا. فعلى عكس الطابق

السُّفلي الذي كان خاليًا من الزينة والزخارف إلى حدٍّ قابض للنفس، كانت تلك الغرفة تعجُّ بكل مظاهر الفخامة والترف والألوان والضوء الساطع. كانت كبيرة جدًّا، لكن سقفَها منخفض، وجدرانها مليئة بتجاويف صغيرة تحوي تماثيل بداخلها. كانت أرضيتُها مغطاةً بسجادة رمادية سميكة من الوبر المخملي، وكراسيها مُنخفضة ليِّنة مُنجَّدة كأثاثِ مَخادع السيدات الراقيات. كانت المدفأة مُتقدة بنيران مُبهجة، والهواء محمَّلًا بأريجٍ يُشبه رائحة بَخور أو خشب صندل مُحترق. رأيتُ على رفِّ المدفأة ساعة فرنسية، وعرفتُ منها أنَّ الساعة آنذاك كانت الثامنة وعشر دقائق. ووجدتُ في كلِّ مكانٍ على الطاولات الصغيرة وفي الخزانات كميةً وفيرة من الحُلي الصغيرة، ورأيتُ حواجز خشبية مؤطَّرة بتطريزٍ جميل. حتى ليظنُّها المرء للوهلة الأولى غرفة استقبال خاصة بسيدة.

لكنها لم تكن كذلك. فسرعان ما أدركتُ الفارق. فذلك المكان لم يشهد أي لمسةٍ أنثوية قط. بل كانت غرفة رجل شَغوف بالبهارج، ولدَيه مَيل منحرف إلى الأشياء الأنثوية الرقيقة. كان ذلك هو الجزء المُكمِّل لوحشيته الفظة. بدأتُ أرى الجانب الشاذ من شخصية مُضيفي؛ ذاك الجانب الذي طالما قالت الشائعات إنه ليس خفيًّا لدى الجيش الألماني. عندئذٍ بدَت الغرفة لي مكانًا مؤذيًا جدًّا، وصرتُ أشد خوفًا من شتوم من أيِّ وقتٍ مضى.

كانت سجادة المدفأة بساطًا فارسيًّا قديمًا رائعًا، وكانت كلها مكسوة بألوانٍ خضراء ووردية باهتة. وبينما كان واقفًا عليها، بدا شكله الضخم الفظ غير متناسِق تمامًا معها. بدا كأنه يتمرغ بين ثنايا دفئها ونعومتها، وتنشَّق بعُمق كحيوانٍ راضٍ قانع. ثم جلس إلى منضدة للكتابة ذات أدراج، وفتح درجًا موصدًا، وأخرج منه بعض الأوراق.

قال: «الآن سنتفق على تفاصيل مهمتك يا صديقي براندت. ستذهب إلى مصر، وهناك ستتلقَّى أوامرك من شخصٍ ستجد اسمَه وعنوانه في هذا الظرف.» ثم رفع قطعةً مُربعة من ورق مقوًّى رمادي اللون تحمل ختمًا كبيرًا في زاويتها، وعليها بعض الكلمات المُرمَّزة المنقوشة بالرَّوسَم، وقال: «هذه البطاقة ستكون تصريح مرورك. ستُظهِرها للرجل الذي تسعى إلى لقائه. حافظ عليها بعناية تامة. ولا تستخدمها إلَّا بأوامر، أو للضرورة القصوى. إنها شارتك التي تُثبت أنك عميل مُعتمَد لدى الإمبراطور الألماني.»

أخذت البطاقة والظرف ووضعتهما في حافظة جيبي.

وسألته: «إلى أين سأذهب بعد مصر؟»

«هذا لم يتضح بعد. ربما ستتجه إلى النيل الأزرق. رضا — الرجل الذي ستقابله — سيرشدك. فمصر عشٌّ لعملائنا الذين يعملون بسلام تام تحت أعين الاستخبارات البريطانية.»

قلت: «أنا مستعد. ولكن كيف سأصل إلى مصر؟»

«ستسافر عبر هولندا ولندن. ها هو مسارك»، وأخرج ورقةً من جيبه. ثم أضاف: «جوازات سفرك جاهزة وستُسلَّم إليك عند الحدود.»

كانت هذه ورطة مفاجئة. فقد كان من المُقرر أن أُنقَل إلى القاهرة بالبحر، ما كان سيستغرِق أسابيع، والرب وحدَه يعلم كيف سأنتقل من مصر إلى القسطنطينية. رأيتُ كل خططي تتساقط وتتمزق إرْبًا إرْبًا أمام عيني، في الوقت الذي كنتُ أحسبها تسير فيه على ما يُرام.

لا بدَّ أنَّ شتوم فسَّر النظرة التي علَت وجهي عندئذٍ بأنها خوف.

إذ قال: «لا داعي للخوف. لقد أبلغنا الشرطة الإنجليزية بأن يبحثوا عن جنوب أفريقي مَشبوه يُدعى براندت، أحد مُتمردي كتيبة ماريتس. ليس من الصعب إيصالُ مثل هذا التلميح إلى الجهة المُناسبة. لكنَّ الوصف لن يكون منطبقًا عليك. فاسمُك سيكون فان دير ليندن، تاجر مُحترم من جزيرة جاوا عائد إلى دياره ليرعى مزارعه بعد زيارة إلى سواحل بلده الأصلي. من الأفضل أن تحفظ ملف بياناتك الجديدة عن ظهر قلب، لكني أضمَن لك أنْ لا أحد سيطرح أي أسئلة عليك. فنحن نتدبَّر مثل هذه الأمور بعناية في ألمانيا.»

ظللتُ مُحدقًا إلى النار، في حين كان رأسي يتخبَّط بين أمواج تفكير عنيف. كنتُ أعرف أنهم لن يتركوني أغيب عن أنظارهم إلى أن يرَوني في هولندا، وحالَما أصل إلى هناك، فلن توجَد أي إمكانيةٍ للعودة. كنت أعرف أنني حين أغادر هذا المنزل، لن أحظى بأي فرصة للإفلات من مراقبتهم. ولكني كنتُ قد قطعت شوطًا طويلًا في طريقي إلى الشرق؛ إذ كان نهر الدانوب لا يبعُد عنِّي أكثر من خمسين ميلًا بأي حال، وكان هذا الطريق مُمتدًّا إلى القسطنطينية. كنتُ في موقف ميئوس منه تمامًا. ولو حاولت الهرب، فسيمنعني شتوم، ومن المُرجَّح أن ألحق ببيتر في معتقلٍ جحيمي ما.

كانت تلك من أصعب اللحظات التي مررتُ بها في حياتي. كنتُ واقعًا في حيرةٍ تامة مُطلَقة، كفأر في مصيدة. بدا لي أنَّ الخيار المتاح الوحيد هو العودة إلى لندن وإخبار السير والتر بأنَّ اللعبة قد انتهت. وقد كان هذا مريرًا مرارةَ الموت.

رأى وجهي وضحك. قال: «هل تخذلك شجاعتك أيها الهولندي الصغير؟ هل تخاف الإنجليز أيها الجبان؟ سأُخبرك بشيءٍ يطمئنك. لا أحد في العالم يستحقُّ أن تخافه إلَّا أنا. إذا فشلت، فسيكون لديك سبب وجيه لترتعِد خوفًا. وإذا خدعتني، فستندم على أنك وُلدتَ أصلًا.»

كان وجهه المُتهكم القبيح مُحدِّقًا إليَّ من فوقي عن قُرب. ثم مدَّ يدَيه وأحكم قبضتَيه على كتفيَّ كما فعل في عصر أول يوم الْتقيتُه فيه.

لا أتذكَّر ما إذا كنتُ قد ذكرتُ من قبل أنَّ إحدى الإصابات التي لحِقت بي في معركة لوس كانت شظية أصابتني عند موضعٍ مُنخفض من قفاي. صحيح أنَّ الجرح قد الْتأم إلى حدٍّ كبير، لكني كنتُ أشعر بآلام في هذا الموضع في الأيام الباردة. ويبدو أنَّ أصابعه قد وصلت إلى هذا الموضع، فشعرتُ بألمٍ فظيع.

ثمة شعرةٌ رقيقة جدًّا تفصل بين اليأس والغضب العنيف. كنتُ على وشك التخلِّي عن المهمة، لكنَّ الألم المفاجئ الذي شعرتُ به في كتفي أعادني إلى هدفي مُجددًا. لا بدَّ أنه رأى الغضب في عينيَّ؛ إذ صارت عيناه تُشعَّان وحشية.

صاح قائلًا: «الجرذ يريد أن يعض. لكنه وجد سيدَه. قف ثابتًا بلا حراك أيها الجرذ التافِه. ابتسِم، وفرِّج أسارير وجهك، وإلَّا سحقتك. هل تجرؤ على العبوس في وجهي؟»

أطبقتُ أسناني ولم أتفوَّه بكلمةٍ واحدة. كنت أشعر باختناق في حلقومي، وما كنتُ لأستطيع أن أنطق حرفًا واحدًا لو حاولت.

ثم أفلتني وهو يبتسِم ابتسامةً عريضة كقرد.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء، ولكمتُه بيسراي بين عينَيه.

ظلَّ لحظةً حتى استوعب ما حدث؛ لأنني لا أظنُّ أنَّ أحدًا قد تجرأ ورفع يدَه عليه منذ أن كان طفلًا. نظر إليَّ وهو يرمش بوداعة. ثم صار وجهه أحمر كنيران مُستعرة.

قال بهدوء: «بحقِّ الربِّ في سماه. لأقتلنَّك»، ورمى نفسه فوقي كالجبل.

كنتُ أتوقَّع هذا التصرُّف منه، وتفاديتُ الهجوم. كنتُ هادئًا تمامًا في تلك اللحظة، لكني كنتُ عاجزًا جدًّا. فالرجل كان له ذراع بطولِ ذراع الغوريلا، وكان أثقل وزنًا منِّي بنحو ٢٨ رطلًا. ولم يكن جسده ليِّنًا أيضًا، بل بدا صُلبًا كالجرانيت. وفوق ذلك، كنتُ خارجًا للتوِّ من المستشفى، وكنت أفتقر إلى التدريب اللازم، ما جعل موقفي سخيفًا. كان سيقتلني بالتأكيد إن استطاع، ولم أرَ شيئًا يمنعه من ذلك.

كانت فرصتي الوحيدة أن أمنعه من إحكام قبضتَيه عليَّ؛ لأنه كان يستطيع أن يعتصر ضلوعي بينهما في ثانيتَين. ارتأيتُ أنني أخفُّ حركةً منه، وكان بصري ثاقبًا. كنتُ قد تعلمتُ قليلًا من فنون القتال من بلاك مونتي في كيمبرلي، ولكن لا يوجد فنٌّ قتالي في الدنيا يُمكن أن يمنع رجلًا ضخمًا من إحكام سيطرته عاجلًا أو آجلًا على رجلٍ أقلَّ حجمًا منه في حيِّزٍ ضيق. وكان هذا هو مكمن الخطر.

ظللنا نتعارك ونتحرك بخطواتٍ مكتومة إلى الخلف والأمام على السجادة الناعمة. لم يكن يعرف كيف يحمي جسده، فسددتُ إليه الكثير من اللكمات الناجحة.

ثم رأيتُ شيئًا غريبًا. فكلما ضربتُه، أغمضَ عينَيه وبدا كأنه يتوقف لحظيًّا. خمَّنتُ سبب ذلك. لقد عاش حياته كلها صاحب اليد العليا، ولم يلقَ مقاومةً من أحد. لم يكن جبانًا إطلاقًا، بل دائمًا ما كان مُستأسدًا معتديًا، ولم يتعرَّض لأي ضربة في حياته. أمَّا في تلك اللحظة، فكان يُضرَب بجديةٍ حقيقية، ولم يُعجبه ذلك. لذا فقدَ تركيزه، وجُنَّ جنونُه تمامًا.

ظللتُ مُنتبهًا إلى الساعة بنصفِ عينٍ. واعتراني الأمل آنذاك، وكنت أتحيَّن الفرصة المناسبة. كان الخطر يكمن في أن أتعب قبله وأُصبح تحت رحمته.

ثم تعلَّمتُ حقيقةً لم أنسها قط. إذا كنتَ تقاتل رجلًا ينوي قتلك، فمن المُرجَّح أن يتغلب عليك ما لم تكن أنت أيضًا عازمًا على قتلِه. لم يكن شتوم يعرف أي قواعد لهذه اللعبة، ونسيتُ أن آخُذ ذلك في حسباني. ففجأة، وبينما كنتُ أراقب عينَيه، سدد لي ركلة قوية في بطني. ولو كانت تلك الركلة قد أصابت هدفها، لانتهت هذه القصة نهايةً مفاجئة. لكني بفضلِ رحمة الرب كنتُ أتحرك جانبًا عندما سددها، ولم يُصِبني منها شيء سوى أنَّ حذاءه الثقيل قد خدش فخذي اليُسرى فقط.

خدشها في الموضع الذي كانت مُعظم الشظايا قد استقرت فيه، وشعرتُ بإعياءٍ لحظيٍّ من شدة الألم وتعثرت. ثم وقفت على قدميَّ مجددًا، ولكن بشعورٍ جديد يسري في دمائي. كان عليَّ أن أسحق شتوم تمامًا، وإلَّا فلن أنعم بالأمان مرةً أخرى أبدًا.

استمددتُ قوةً هائلة من هذا الغضب البارد الجديد الذي انتابني. شعرت بأنني يستحيل أن أتعب، وظللتُ أتراقص حوله بخطواتٍ رشيقة، وأنهالُ على وجهه باللكمات حتى صار الدم يتدفَّق منه. لم يكن من المُجدي لي أن أستهدف صدره الضخم المُغطَّى ببطانة كثيفة من الثياب؛ لذا لم أحاول تسديد لكمات إلى صدره.

بدأ ينخر وتثاقلَت أنفاسه. قلتُ له بلهجة إنجليزية صريحة فصيحة: «أيها النذل اللعين، سأوسعك ضربًا حتى تخور قواك تمامًا»، لكنه لم يفهم ما كنتُ أقوله.

ثم منحني فرصتي أخيرًا. فقد تعثَّر في طاولة صغيرة ففقدَ بعضًا من توازُنه، وبَرَز وجهه إلى الأمام. فلكمتُه في طرف ذقنه بكلِّ قوتي. عندئذٍ انهار وتكوَّم على نفسه وتدحرج، فأسقط مشكاةً واصطدم بجرَّةٍ خزفية كبيرة فانشطرت إلى نصفَين. كان رأسه مطروحًا تحت المكتب ذي الأدراج الذي أخرج منه تصريح مروري، وما زلتُ أتذكر ذلك.

الْتقطتُ المفتاح وفتحت الباب. ثم هذَّبتُ شعري ورتبتُ هندامي أمام إحدى المرايا المُذهَبة. كان غضبي قد تلاشى تمامًا، ولم يعد لديَّ أيُّ ضغينة تجاه شتوم. كان رجلًا ذا صفات لافتة، وكانت هذه الصفات كفيلة بأن توصِله إلى أعلى مكانة في العصر الحجري. أمَّا في العصر الحالي، فقد عفا الزمان عليه وعلى أمثاله.

خرجتُ من الغرفة، وأوصدتُ الباب خلفي، وبدأت الشوط الثاني من رحلاتي.

الفصل السابع

موسم عيد الميلاد

كان كل شيءٍ مرهونًا بأن يكون الخادم موجودًا في الردهة. فقد أفقدتُ شتوم وعيَه مؤقتًا، لكني لم أستطع أن أخدع نفسي وأقنعها بأنه سيظل ساكنًا هكذا طويلًا، وحين يستعيدُ وعيَه، سيركل الباب ويُحطمه إلى شظايا. لذا كان يجب أن أخرج من المنزل فورًا دون أي تأخير، وإذا كان الباب موصدًا والرجل العجوز نائمًا، فأنا هالك لا محالة.

لقيتُه عند أسفل الدَّرج، حيث كان حاملًا شمعة.

«سيدك يُريدني أن أبعث ببرقيةٍ مهمة. أين أقرب مكتب للتلغراف؟ يُوجَد واحد في القرية، أليس كذلك؟» تحدثتُ هنا بأفضل لغةٍ ألمانية أعرفها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها بهذه اللغة منذ أن عبرتُ الحدود.

قال: «القرية تقع على بُعد خمس دقائق عند آخِر الطريق. هل ستتأخر يا سيدي؟»

قلت: «سأعود في غضون رُبع ساعة. لا توصِد الأبواب حتى أعود.»

ارتديتُ معطفي الفضفاض وخرجتُ إلى الشارع حيث كانت ليلةً صافية مليئة بالنجوم. تركتُ حقيبتي على دكةٍ خشبية في الردهة. صحيح أنها لم تكن تحوي أي شيء قد يُعرِّضني للخطر، لكني كنتُ أتمنى أن آخُذ منها فرشاة أسنان وبعض التبغ.

وهكذا بدأتُ واحدة من أشد المغامرات جنونًا يُمكنكم تخيُّلها. لم أستطع الكفَّ عن التفكير في مُستقبلي، ولكن كان عليَّ أن أتعامَل مع المسألة خطوةً خطوة. ركضتُ إلى آخر الشارع، ووقْع أقدامي يُقرقع على الثلج الصلب، وأخذتُ أعتصرُ دماغي محاولًا وضع خطةٍ لما سأفعله في الساعة التالية.

وجدتُ القرية؛ كانت عبارة عن ستة منازل مع مبنًى كبير بعض الشيء يُشبه النُّزُل. كان القمر بازغًا، وبينما كنتُ أقترب، رأيتُ مكانًا شبيهًا بمتجر. كانت توجَد أمام بابه سيارة صغيرة مضحكة ذات مقعدَين ومُحرِّك يُخرخر، وخمنتُ أنَّ هذا هو نفسه مكتب التلغراف.

دخلتُ وحكيتُ قصتي لامرأةٍ بدينة كانت ترتدي نظارة متدلية على أنفها وتتحدَّث إلى شاب.

هزَّت رأسها بالنفي، وقالت: «فات الأوان. السيد حاكم القلعة يعرف هذا جيدًا. لا يُمكن إجراء اتصالٍ من هنا بعد الساعة الثامنة. إذا كانت المسألة عاجلة، فعليك الذهاب إلى شفاندورف.»

فسألتها وأنا أبحث عن حُجة للخروج من المحل بطريقةٍ لائقة: «كم تبعُد هذه؟»

قالت: «سبعة أميال، ولكن معنا هنا فرانز وعربة البريد. فرانز، هلَّا تتكرَّم وتُقِل الرجل المحترم بجانبك في السيارة.»

ردَّ الشاب ذو المظهر الخجول بتمتمةٍ بدَت لي أنها موافَقة، وأنهى كأسًا من الجعة. كان يبدو من عينَيه وسلوكه أنه شِبه ثمل.

شكرتُ المرأة وخرجت إلى السيارة؛ لأنني كنتُ متلهفًا لاستغلال هذا الحظ السعيد غير المتوقَّع. ثم سمعت مديرة المكتب تأمر فرانز بألَّا يتركني منتظرًا، وسرعان ما خرج وارتمى متثاقلًا على مقعد السائق. بدأنا السير بسلسلةٍ من المُنحنيات يمينًا ويسارًا كمنحنيات أجساد النساء المُثيرات، حتى اعتادت عيناه الظلام.

قطعنا في البداية شوطًا طويلًا على الطريق السريع المُستقيم الواسع الذي كان مُحاطًا من أحد جانبَيه بأشجار، ومن الجانب الآخر بحقول ثلجية تذوب وسط الضباب. ثم بدأ يتكلَّم، وتباطأ أثناء كلامه. لم يكن ذلك مُلائمًا لي إطلاقًا، وفكرتُ بجدية في أن أرمِيَه من السيارة وأتولى قيادتها. كان واضحًا أنه رجل ضعيف البنيان، ومُعفًى من التجنيد الإجباري، وكنتُ أستطيع فعل ذلك بيدٍ واحدة. ولكن من حُسن حظي أنني تركتُه وشأنه.

قال: «قبعتك هذه جميلة يا سيدي.» وخلع قبعته الزرقاء ذات الحافة الأمامية البارزة، التي أفترضُ أنها كانت جزءًا من الزي الرسمي الموحَّد لسائقي عربات البريد، ووضعها على ركبتِه. فنفش الهواء كتلةً كثيفةً من شعره الأصفر الشاحب.

ثم أخذ قُبعتي بهدوء، ووضعها بقوة على رأسه مُعتمرًا إيَّاها.

قال: «بذلك سأكون سيدًا نبيلًا.»

لم أقل شيئًا، لكنني اعتمرتُ قبعتَه وانتظرت.

واصل قائلًا: «هذا معطف فاخر يا سيدي. يُلائم القبعة. هذه هي نوعية الثياب التي طالما تمنيتُ اقتناءها. سيحل عيد الميلاد المقدس بعد يومَين، وعندئذٍ ستُمنَح الهدايا. أرجو من الرب الكريم أن يُرسِل إليَّ معطفًا كمعطفك!»

قلت بطريقةٍ ودودة: «يُمكنك أن تُجربه لترى كيف يبدو عليك.»

أوقف السيارة باهتزازة وخلع عنه معطفه الأزرق. وسرعان ما أجرينا التبادل. كان في مثل طولي تقريبًا، وكان معطفي ملائمًا لجسده إلى حدٍّ كبير. ارتديتُ معطفه الذي كان ذا ياقةٍ كبيرة تُقفَل بأزرار حول الرقبة.

ظل الأبله يُهندِم نفسه كفتاة. كان الشراب والخُيَلاء قد هيَّآه لارتكابِ أي حماقة. فقاد السيارة باستهتار بعض الوقت لدرجة أنه كاد يُوقعنا في مصرفٍ مائي على جانب الطريق. مررنا بعدة أكواخ إلى أن تباطأ عند الكوخ الأخير.

قال: «لي صديقة تعيش هنا. ستُحب جيرترود رؤيتي بهذه الثياب الجميلة التي أعطاني إياها السيد الودود. انتظرني، لن أتأخَّر.» وخرج من السيارة مسرعًا ودخل حديقة الكوخ الصغيرة متمايلًا.

أخذتُ مكانه وتحركتُ بمنتهى البطء إلى الأمام. ثم سمعت الباب يُفتَح، وصوت ضحكاتٍ وأصوات أشخاص عالية. ثم أغلق الباب فنظرت إلى الوراء ورأيت أنَّ الأبلهَ قد غاص تمامًا في مسكن صديقته جيرترود تلك. وعندئذٍ لم أُطِلِ الانتظار أكثر من ذلك، وانطلقت قُدمًا بالسيارة بأقصى سرعة.

لم تكد تمضي خمس دقائق حتى بدأَت تلك السيارة اللعينة تُتعبني؛ إذ انفكَّت صامولة في نظام توجيهها العتيق. نزعتُ مصباحًا من خُطَّافه، وتفحصت نظام التوجيه، وأصلحت العُطل، لكنَّ ذلك استغرق مني رُبع ساعة. كان الطريق السريع عندئذٍ مُمتدًّا وسط غابة كثيفة، وكنتُ ألاحظ بين الحين والآخر مساراتٍ فرعية مؤدِّية إلى اليمين. وبينما كنتُ أفكر في الانعطاف إلى أحدها — لأنني لم أكن أرغب في الذهاب إلى شفاندورف — سمعتُ ورائي صوت سيارةٍ كبيرة يقودها سائقها بشراسة.

اتجهت إلى الجانب الأيمن — وحمدًا للرب أنني تذكرتُ قاعدة الطريق — وواصلتُ القيادة بأسلوبٍ مُلتزم، متسائلًا عمَّا سيحدث. سمعتُ صوت الضغط على مكابح السيارة القادمة من خلفي، ثم تباطُئها. وفجأة رأيتُ غطاء مُحركها الرمادي الكبير يتجاوزني، فالتفتُّ، وعندئذٍ سمعتُ صوتًا مألوفًا.

كان المُتحدث هو شتوم، وبدا كأنه شيء مدهوس. وجدتُ فكَّه معلَّقًا بضمادةٍ داعمة؛ لذا تساءلتُ عمَّا إذا كنتُ قد كسرته، وكانت عيناه مُتورمتَين بشكلٍ جميل وشبه مقفولتَين من شدة التورُّم. وهذا هو الذي أنقذني، هذا وغضبه العارم. كانت ياقة معطف ساعي البريد تُحيط بذقني، فكانت تُخبِّئ لحيتي، وكانت قبعته مُستقرة على جبيني بإحكام.

تذكرتُ ما قاله بلنكيرون عن أنَّ الطريقة الوحيدة للتعامل مع الألمان هي الخداع المجرد الصريح. وقد كان خداعي مجردًا وصريحًا للغاية؛ لأنه كان كلَّ ما تبقَّى لديَّ.

زأر قائلًا بقدرِ ما سمح له فكُّه: «أين الرجل الذي أقللتَه من أندرسباخ؟»

تظاهرتُ بأنني ميتٌ من الخوف، وتحدثتُ وأنا أُحاول بقدر المستطاع أن أقلِّد نبرة ساعي البريد العالية المُتقطعة.

قلت بصوتٍ مرتعش: «لقد ترجَّل من السيارة قبل ميل يا سيدي حاكم القلعة. كان رجلًا وقحًا أراد أن يذهب إلى شفاندورف، ثم غيَّر رأيه.»

«أين أيها الأحمق؟ قُل لي أين نزل بالضبط وإلَّا سأكسر رقبتك.»

«في الغابة على هذا الجانب الذي يقع فيه كوخ جيرترود … على اليسار. تركته يركض وسط الأشجار.» وضعتُ في صوتي كل الرُّعب الذي أعرفه، ولم يكن كله مجرد تمثيل.

قال السائق: «إنه يقصد كوخ هنريكس، يا سيدي الكولونيل. هذا الرجل يتودَّد إلى ابنته.»

أصدر شتوم أمرًا، فرجعتِ السيارة الكبيرة إلى الوراء، وحين التفتُّ، رأيتها تستدير. ثم تسارعَتْ وسارت بسرعة إلى الأمام، وسرعان ما ذابت وسط الظلال. وبذلك تجاوزت العقبة الأولى.

ولكن لم يكن لديَّ وقتٌ لأُضيعه. فشتوم سيقابل ساعي البريد ويعرف منه الحقيقة، وسوف يهرع ورائي لمُطاردتي في أي لحظة. سلكتُ المنعطف الأول، وانطلقت بأقصى سرعة على طريقٍ ضيق وسط الغابة. ارتأيتُ أنَّ الأرض الصُّلبة لن تُظهِر إلَّا قدرًا ضئيلًا جدًّا من آثار سيري، ورجوتُ بذلك أن يظن مُطاردي أنني ذهبت إلى شفاندورف. لكنَّ المخاطرة بذلك لن تكون آمِنة، وعقدتُ العزم على أن أُخرِج السيارة من الطريق في أقرب وقتٍ وأتركها وألجأ إلى الغابة. أخرجتُ ساعتي، وقدَّرتُ بحسبةٍ بسيطة أنني يُمكن أن أمنح نفسي عشر دقائق.

كنتُ أقرب ما أكون من الإمساك بي. وسرعان ما صادفتُ رقعةً من أرضٍ براح وعرة تنحدِر بعيدًا عن الطريق، وتحمل بقعًا سوداء متفرقة خمَّنتُ أنها حفرٌ لاستخراج الرمل. توقفتُ مقابل إحدى تلك الحفر، وأدرتُ السيارة نحو حافة الحفرة، ثم ترجَّلتُ منها، وشغَّلت المحرك مرة أخرى، ورأيتها تسقطُ بمقدمتها في غياهب الحفرة. سمعتُ صوت ارتطام بالماء، ثم ساد صمت مُطبق. مددتُ عنقي إلى الأمام فوق الحفرة، فلم أرَ شيئًا سوى ظلامٍ دامس، وعلامات العجلات في الموضع الذي داسته عند حافة الحفرة. كانوا

سيجدون أثر مسار السيارة في ضوء النهار، ولكن كان العثور عليها شِبه مستحيل في هذا الوقت من الليل.

ثم ركضتُ عبر الطريق ودخلت الغابة. فعلتُ ذلك في آخِر لحظة قبل فوات الأوان؛ لأنَّ أصداء صوت الارتطام بالماء لم تكد تتلاشى حتى سمعتُ صوت سيارةٍ أخرى. استلقيتُ ممددًا في مُنخفَض أسفل أجمة متشابكة من شُجيرات العليق المكسوة بثلوج كثيفة، ونظرتُ من بين أشجار الصنوبر إلى الطريق المضاء بنور القمر. كانت تلك سيارة شتوم مرة أخرى، وما أرعبَني أنها توقفت على بُعد مسافة قريبة جدًّا من حفرة الرمل.

رأيتُ مصباحًا كهربائيًّا يدويًّا يومض، وترجَّل شتوم بنفسه من السيارة، وتفحَّص آثار مسار سيارتي على الطريق السريع. والحمد للرب أنَّ الآثار كانت لا تزال موجودة هناك، ولكن لو أنه حاول أن يواصل تفحُّصها لمسافة ستِّ ياردات أخرى، لرآها تتَّجه إلى حفرة الرمل. ولو حدث ذلك، لَمشَّط الغابة المجاورة وعثر عليَّ لا محالة. كان في السيارة رجل ثالث يرتدي قُبعتي ومعطفي. لقد دفع ساعي البريد المسكين ثمنًا باهظًا لخيلائه.

ظلوا وقتًا طويلًا قبل أن يتحركوا بالسيارة مجددًا، وانتابني شعور كبير بالارتياح حين انطلقوا بأقصى سرعة على الطريق بحثًا عنِّي. ركضتُ وتوغلتُ أكثر في الغابة حتى وجدتُ دَربًا، واستنتجتُ من السماء التي رأيتها بوضوح في بقعةٍ خالية من الأشجار أنَّه سيأخذني إلى الغرب مباشرة تقريبًا. لكن لم يكن هذا هو الاتجاه الذي أريده؛ لذا ابتعدتُ عن المكان بزاويةٍ قائمة، وسرعان ما لقيتُ طريقًا آخر، فعبرته بسرعة. بعدئذٍ عِلقتُ في مكانٍ لَعِين أشبه بحظيرةٍ مُسيَّجة، واضطُررت إلى أن أتسلَّق سياجًا تلو الآخر من أوتادٍ خشبية خشنة مُتضافرة معًا بأغصان من شجر الصفصاف. ثم لقيتُ بقعة مرتفعة في الأرض، ووجدتُ نفسي على تلة منخفضة من أشجار الصنوبر بدَت ممتدة لأميال. كنت طَوال هذا الوقت أمضي بوتيرة لا بأس بها، وقبل أن أتوقف للراحة، قدَّرتُ أنني أصبحتُ على بُعد ستة أميال من حفرة الرمل.

كان عقلي أنشط قليلًا الآن؛ فطوال الشوط الأول من الرحلة، لم أكن أفعل شيئًا سوى الترنُّح بين تصرُّفات عفوية فجائية. صحيح أنَّ هذه التصرُّفات العفوية حالَفَها حُسن حظٍّ استثنائي، ولكن لم يكن من الممكن أن أظل هكذا إلى الأبد. وكما كان البويريُّ القديم يقول حين يقع في مأزق: «سأضع خطة»، صار عليَّ الآن أن أضع خطة.

حالما بدأتُ أفكر، أدركتُ موقفي الميئوس منه. فها أنا ذا وحدي في منتصف الشتاء وسط جنوب ألمانيا بلا أي شيءٍ معي سوى الثياب التي كانت على جسدي، والتي كان من

بينها معطف وقُبعة ليسا مِلكي أصلًا. وكان ورائي رجل يتعطَّش إلى قتلي، وسرعان ما سيندلع استنفارٌ عام للبحث عنِّي في كل مكان. كنت قد سمعتُ أنَّ الشرطة الألمانية في غاية الكفاءة، ولم أرَ أي فرصةٍ للنجاة منهم. وإذا أمسكوا بي، فسيُردونني قتيلًا بالرصاص لا محالة. سألت نفسي عن تُهمتي، وأجبتُ قائلًا: «لأنني لكمتُ ضابطًا ألمانيًّا.» لم يكن باستطاعتهم أن يتهموني بالتجسُّس؛ لأنهم، على حدِّ علمي، كانوا لا يملكون أي دليل على ذلك. كنت مجرد رجلٍ هولندي استشاط غضبًا واندفع لينفِّس عن غضبه. ولكن إذا كانوا قد عاقبوا إسكافيًّا بتمزيقه إرْبًا إرْبًا لأنه ضحك على مُلازم ثانٍ — كما حدث في زابيرن — قدَّرتُ أنَّ الشنق لن يكون كافيًا لعقاب رجلٍ كسر فكَّ كولونيل.

وما زاد الطين بِلة أنَّ غايتي لم تكن الهرب — مع أنَّ هذا في حد ذاته كان صعبًا جدًّا — بل كانت الوصول إلى القسطنطينية، على بُعد أكثر من ألف ميل، وارتأيتُ أنني لا يُمكن أن أدخلها متشردًا هكذا. كان يجب أن أدخلها بصفتي مُرسَلًا إلى هناك، لكنني أهدرتُ فرصتي. لو كنت كاثوليكيًّا، لصليتُ للقديسة تيريزا؛ لأنها كانت ستتفهم متاعبي.

اعتادت أُمي أن تقول إنَّ المرء حين يشعر بالإحباط واليأس، سيجد شفاء في إحصاء النِّعَم التي يَحظى بها. لذا بدأتُ أحصي نِعَمي. كان أولاها أنني قد أحرزتُ تقدمًا جيدًا في رحلتي؛ لأنَّني كنتُ واثقًا من أنَّ نهر الدانوب لا يبعُد عني بأكثر من أربعين ميلًا. والثانية أنني كنتُ أحمل تصريح المرور الذي أعطاني إياه شتوم. صحيح أنني لم أكن أعرف كيف يمكنني استخدامه، لكنه كان بحوزتي على أي حال. والأخيرة أنني كنتُ أحمل مالًا وفيرًا — ثلاثة وخمسون جنيهًا ذهبيًّا إنجليزيًّا، وما يُعادل ثلاثة جنيهات بأوراق نقدية ألمانية كنتُ قد غيَّرتُها في الفندق. وأيضًا سويتُ حسابي مع السيد العزيز شتوم. وتلك كانت أكبر نعمةٍ بينها كلها.

ارتأيتُ أنني يُستحسَن أن أنام قليلًا؛ لذا بحثت عن حفرةٍ جافة بعض الشيء أسفل جِذر شجرة بلوط، وحشرتُ نفسي فيها. كان الثلج سميكًا في تلك الغابة، وكنتُ مُبتلًّا تمامًا حتى رُكبتي. لكني تمكنتُ من النوم بضع ساعات، ثم نهضتُ ونفضتُ جسدي تزامنًا مع بزوغ ضوء الفجر الشتوي عبر قِمم الأشجار. كانت خطوتي التالية هي الحصول على فطور، وكان يجب أن أعثر على مَسكنٍ ما.

وجدتُ طريقًا في الحال تقريبًا، كان طريقًا سريعًا كبيرًا يمتد شمالًا وجنوبًا. هرولتُ عليه في الصباح القارس لأنشِّط دورتي الدموية، وسرعان ما بدأتُ أشعر بتحسُّن بسيط. بعد ذلك بقليل رأيتُ قمة برج كنيسة، ما كان يعني وجود قرية. قدَّرتُ أنَّ شتوم من

المستبعد أن يكون قد اقتفى أثري بعد، ولكن كان من المحتمل طول الوقت أن يكون قد حذَّر كل القرى المُحيطة بنا بالهاتف، وأن يكونوا عاكفِين على البحث عني. ولكن لم يكن هناك مفرٌّ من المخاطرة؛ لأنني كنتُ أحتاج إلى طعام.

تذكرتُ أننا كنَّا آنذاك في اليوم الذي يسبق عيد الميلاد، وأنَّ الناس سيكونون في عطلة. كانت القرية كبيرة بعض الشيء، ولكن في تلك الساعة — التي كانت قد تجاوزت الثامنة مباشرة — لم يكن في الشارع أحد سوى كلبٍ متجول. اخترتُ أبسط متجر استطعتُ العثور عليه، كان واحدًا من تلك المتاجر العامة التي يبيعون فيها كل شيء، ووجدت هناك صبيًّا يزيل الأستار لفتح المحل. ذهب الصبيُّ ليحضر امرأة عجوزًا جدًّا، فجاءت تعرج من الخلف، مُرتدية نظارتها.

قالت بنبرة ودودة: «طاب صباحك»، وخلعتُ قبعتي تحيةً لها. رأيتُ من انعكاس صورتي في قِدرٍ صغيرة أنني أبدو مُحترمًا إلى حدٍّ ما بالرغم من ليلتي التي قضيتُها في الغابة.

حكيتُ لها قصةً مُختلَقة عن أنني جئتُ مشيًا من شفاندورف لأرى أُمي في مكانٍ من وحي خيالي يُدعى جودنفيلد، مُعوِّلًا على جهل القرويين بأي مكانٍ على بُعد أكثر من خمسة أميال من منازلهم. قلت إنَّ أمتعتي قد ضاعت ولم يكن عندي وقتٌ للانتظار حتى العثور عليها؛ لأنَّ إجازتي قصيرة. كانت السيدة العجوز مُتعاطفة وغير مرتابة. باعت لي رطلًا من الشوكولاتة، وعلبةً من البسكويت، وأكثر من نصفِ الجزء الخلفي من فخذ خنزير، وعلبتَين قصديريَّتَين من السردين، وحقيبة ظَهر لأحمل فيها تلك الأشياء. واشتريتُ أيضًا بعض الصابون ومشطًا وشفرة حلاقة رخيصة، ودليلًا سياحيًّا صغيرًا نشرته شركةٌ في لايبزج. وبينما كنتُ مغادرًا رأيتُ ما بدا كأنه ثياب معلقة في الجزء الخلفي من المحل، فاستدرتُ لإلقاء نظرة عليها. كانت من نوعية الثياب التي يرتديها الألمان في جولات المشي الصيفية التي كانوا يخوضونها، أي: عباءات صيدٍ طويلة مصنوعة من مادة صوفية سميكة خضراء يُسمونها «لودن». فاشتريتُ واحدة، وقبعة خضراء من اللباد، وعصا تسلُّق ليكون الطقم كاملًا. ثم تمنيتُ للسيدة العجوز وبضائعها عيد ميلاد سعيدًا، وغادرتُ متخذًا أقصر طريقٍ مباشر إلى خارج القرية. كان في الشارع بضعة أشخاص قليلين آنذاك، ولكن بدا أنهم لم يُلقوا لي بالًا.

دخلت الغابة مجددًا ومشيتُ ميلَين، ثم توقفتُ لأفطر. لم أكن أشعر بأنَّ حالتي البدنية جيدة إطلاقًا، وكنت زاهدًا في مُؤَني، باستثناء قطعة بسكويت وبعض الشوكولاتة.

كنت ظمآن جدًّا، ومشتاقًا لشُرب شاي ساخن. اغتسلتُ في بِركةٍ جليدية، وحلقتُ لحيتي بعذابٍ لا يُحتمَل. فتلك الشفرة كانت الأسوأ من نوعها، وظلَّت عيناي تدمعان طول مدة الحلاقة من شدة الألم. ثم خلعت معطف ساعي البريد وقُبعته، ودفنتُهما أسفل بعض الشجيرات. صرتُ آنذاك مترجلًا ألمانيًّا حليق اللحية بعباءةٍ وقبعة خضراوين، وعصا مشيٍ سخيفة بطرفٍ مكسو بالحديد، على غرار المترجِّلين الذين يجوبون أرجاء ألمانيا الوطن بالآلاف في الصيف، لكنهم يكونون نادرين بعض الشيء في منتصف الشتاء.

كان من حُسن حظي أنني اشتريتُ الدليل السياحي؛ إذ كان يحتوي على خريطةٍ كبيرة لبافاريا استرشدتُ بها. كان من المؤكد أنني لا أبعُد عن نهر الدانوب أكثر من أربعين ميلًا، نحو ثلاثين ميلًا تقريبًا. اتضح لي أنَّ الطريق المار عبر القرية التي قد تركتها كان سيأخذني إليه. كان عليَّ فقط أن أمشي جنوبًا، وكنت سأصل إلى النهر قبل حلول الليل. وبقدرِ ما استطعتُ أن أكتشف، كانت توجد تفرعات طولية بارزة من الغابة تمتد حتى النهر، وعقدتُ العزم على أن ألزم الغابة. ففي أسوأ الأحوال، كنتُ سأقابل واحدًا أو اثنين من سكان الغابة، وكانت عندي قصة محبوكة بما يكفي لإقناعهم. أمَّا لو سلكت الطريق السريع، فقد أتعرض لأسئلةٍ مُحرجة.

عندما انطلقتُ مجددًا شعرت بتصلُّبٍ شديد، وبدا أنَّ البرد يشتد. ووضعني ذلك في حيرة؛ لأنني لم أكن أكترث بالبرد كثيرًا من قبل، ولم يكن يشغل بالي أبدًا؛ لأنَّ جسدي كان دافئًا بالفطرة. فليلةٌ شتوية قارسة في سهوب هضبة جنوب أفريقيا كانت أبرد بكثيرٍ من أي مكان طرقتُه حتى الآن في أوروبا. ولكن في تلك اللحظة، كانت أسناني تصطكُّ، وبدا أنَّ النخاع يتجمَّد في عظامي.

كان النهار قد بدأ مشرقًا صافيًا، ولكن سرعان ما خيَّمت مجموعةٌ من الغيوم الرمادية المُتحركة على السماء، وبدأت ريح آتية من الشرق تُصفر. وبينما كنتُ أمشي متعثرًا وسط الشجيرات المكسوة بالجليد، ظللتُ أتوق إلى أماكن دافئة مشرقة. تذكرتُ الأيام الطويلة في سهوب جنوب أفريقيا عندما كانت الأرض كصحنٍ أصفر كبير تتخلَّله طرق بيضاء مُمتدة حتى الأفق، ومزرعة بيضاء صغيرة تنعم بدفء الشمس في وسطه، بمياهها الزرقاء المُتجمِّعة عند سدِّها، ورُقَعها الخضراء الزاهية من البرسيم الحجازي. تذكرتُ تلك الأيام اللافحة على الساحل الشرقي، عندما كان البحر كصدَفَةِ اللؤلؤ، وكانت السماء متوهجة باللون الفيروزي. لكنَّ الأهم من ذلك كله أنني تذكرت فترات الظهيرة

الدافئة العبقة التي كان المرء يقضيها في الرحلات الطويلة الشاقة، حين كان يغفو في ظلِّ العربة ويشم رائحة دخان الحطب المنبعث من النار التي يطهو الأولاد العشاء عليها.

عدتُ من هذه التخيلات المُبهجة إلى الحاضر البغيض؛ إلى الغابة الكثيفة الثلجية، والسماء المُنخفضة، والثياب المبللة، والعيش طريدًا، والمُستقبل القاتم. شعرتُ باكتئابٍ شديد، ولم أستطع التفكير في أي نِعَم أُحصيها. وخطر لي فجأة أنني قد أُصاب بالإعياء.

عند نحو منتصف النهار، استفقتُ مفزوعًا على شعورٍ بأنني مُطارَد عن كثب. لا أستطيع أن أشرح كيف انتابني هذا الشعور ولماذا، باستثناء أنه أقرب إلى غريزة تتكوَّن لدى الرجال الذين عاشوا كثيرًا في مناطق ريفية برية. حينئذٍ أصبحت حواسي، التي كانت مخدرة، مفعمة باليقظة والحيوية فجأة، وبدأ دماغي يعمل بسرعةٍ مُضاعَفة.

سألتُ نفسي ماذا كنتُ سأفعل لو كنتُ مكان شتوم، بغلٍّ في قلبي، وفكٍّ مكسور أتلهَّفُ للثأر ممَّن كسره، وصلاحيات ونفوذ بلا حدود. من المؤكد أنه وجد السيارة في حفرة الرمل، ورأى آثار أقدامي في الغابة المُقابلة. لم أكن أعرف مدى براعتِه هو ورجاله في اقتفاء أثرٍ ما، لكني كنتُ أعرف أنَّ أي زنجي عادي يستطيع تتبُّعها بسهولة. لكن شتوم على أي حال لم يكن بحاجةٍ إلى ذلك. فقد كان هذا بلدًا متحضرًا مليئًا بالطرق والسكك الحديدية. وكان من المؤكَّد أنني سأخرج من الغابة في وقتٍ ما وفي مكانٍ ما. كان يستطيع وضع كل الطرق تحت المراقبة، ويُمكنه بمكالمةٍ هاتفية واحدة أن يجعل كلَّ مَن في نطاق دائرة نصف قطرها خمسون ميلًا من حولي يبحثون عنِّي. وفوق ذلك، كان سرعان ما سيعثُر على أثري في القرية التي زرتُها صباح ذلك اليوم. عرفت من الخريطة أنها تُسمَّى «جريف» بالألمانية، على غرار الكلمة الإنجليزية المشابهة التي تعني «الحزن العميق»، وكان من المُرجَّح أن ينطبق هذا الاسم حرفيًّا على ما سيحدُث لي.

سرعان ما وصلتُ إلى ربوة صخرية بارزة إلى خارج الغابة. فصعدت إلى قمَّتها وأنا ما زلتُ مختبئًا تمامًا، ونظرتُ حولي بحذَر. رأيتُ بعيدًا ناحية الشرق واديَ نَهرٍ يضمُّ حقولًا واسعة وقمم أبراج كنائس. أمَّا نحو الغرب والجنوب، فكانت الغابة مُمتدة في تموُّج متصل من قِممِ أشجار جليدية برية دون انقطاع. لم تكن هناك علامة على وجود حياة في أي مكان، ولا حتى طائر، لكني كنتُ متيقنًا تمامًا من أنَّ الغابة كان فيها رجال يسيرون سريعًا في أثري، وأنَّ هروبي منهم مُستحيل.

لم يكن لديَّ خيار سوى أن أواصل إلى أن تخور قواي تمامًا من التعب أو أقع في قبضتهم. قررتُ أن أمضي في طريقي جنوبًا مع الانحراف قليلًا نحو الغرب؛ لأنَّ الخريطة

أظهرت لي أنَّ هذا أسرع طريق إلى نهر الدانوب. لم أشغل بالي بالتفكير فيما سأفعله عند الوصول إلى هناك. كان كلُّ هدفي الآن هو بلوغ النهر، وليكُن ما يكون بعدئذٍ.

كنتُ مُتيقنًا في تلك اللحظة من أنني مُصاب بالحمَّى. كانت إرثًا باقيًا من أفريقيا في عظامي، وقد ظهرت أعراضها عليَّ بضع مراتٍ عندما كنتُ مع الكتيبة في هامبشاير. كانت تلك النوبات السابقة قصيرة؛ لأنني كنتُ أعرف بقدومها، وكنت أتناول جرعةً من مادة الكينين المضادة لها سلفًا. لكني في تلك اللحظة كنتُ بلا كينين، وبدا أنني على وشك نوبة ثقيلة. أشْعرَني هذا ببؤسٍ شديد وغباء فظيع، وكدتُ أرتكب خطأً فادحًا يُوقعني في قبضتهم.

فجأة وجدتُ نفسي على طريق، وكنتُ سأعبره بلا تبصُّر في اللحظة التي مرَّ فيها أمامي رجلٌ على دراجةٍ ببطء. ولحُسن حظي كنتُ متواريًا في ظلِّ أجمة مُتشابكة من أشجار البهشية، وأنه لم يكن ناظرًا في اتجاهي، مع أنه كان على بُعد أقل من ثلاث ياردات. زحفتُ إلى الأمام لأستطلع الأمر. فرأيتُ نحو نصف ميل من طريقٍ مُمتد مباشرة عبر الغابة، ووجدتُ عليه راكبَ درَّاجة عند كل مائتي ياردة. كانوا يرتدون زيًّا عسكريًّا، وبدا من سلوكهم أنهم حرَّاس.

كان هذا يعني شيئًا واحدًا فقط. أنَّ شتوم قد وضع كل الطرق تحت الحراسة، وحصرني في ركنٍ ضيق من الغابة. لم تكن هناك أي فرصة لأعبر الطريق دون أن يُلاحظني أحد. وبينما كنتُ منبطحًا هناك بقلبٍ مُحبَط يائس، انتابني شعور فظيع بأنني ربما أكون مُلاحَقًا من ورائي، وبأنني في أي لحظة سأُصبح محاصَرًا بين نارَين.

بقيتُ هناك أكثر من ساعة دافنًا ذقني في الثلج. لم أرَ أي مخرج، وكنتُ أشعر بإعياء شديد لدرجة أنني كنتُ أبدو غير مُبالٍ. ثم جاءت فرصتي من السماء فجأة.

اشتدَّتِ الريح وهبَّت عاصفة ثلجية شديدة من الشرق. وفي غضون خمس دقائق صارت كثيفة جدًّا لدرجة أنني لم أستطع رؤية الجانب الآخر من الطريق. في البداية ظننتُها محنة جديدة تُفاقِم متاعبي، ثم أدركت المنحة الكامنة فيها ببطء شديد. فنزلتُ الحد الجانبي المائل للطريق مُتسللًا، وتأهبتُ للعبور إلى الجانب الآخر.

كدتُ أصطدم بأحد راكبي الدراجات بالخطأ. صرخ وسقط عن دراجته، لكني لم أنتظر لأتحرى ما حدث. دبَّت في أوصالي قوة مفاجئة وانطلقتُ كالسهم إلى داخل الغابة الواقعة على الجانب الآخر. كنت أعرف أنَّ الركام الثلجي الذي يترسَّب من الرياح سرعان ما سيبتلعني ويُواريني عن أنظارهم، وكنت أعرف أنَّ الثلج المتساقط سيخفي آثار أقدامي. لذا مضيت قُدمًا بأقصى سرعة مُمكنة.

لا بد أنني قد ركضتُ أميالًا قبل أن تنطفئ شعلة النشاط المفاجئ، وتوقفتُ من شدة الضعف البدَني. لم أكن أسمع صوتًا سوى صوت ارتطام الثلوج المتساقطة بالأرض، وبدا أنَّ الرياح قد تلاشت، وكان المكان مهيبًا وهادئًا جدًّا. لكن يا إلهي! كم كان الثلج يتساقط بغزارة! صحيح أنَّ أغصان الأشجار كانت تحجزُ جزءًا منه، لكنه مع ذلك كان يتراكم بشدة في كلِّ مكان. شعرت بأنَّ ساقيَّ مصنوعتان من الرصاص، وكان رأسي يحترق، وكان كل جزء في جسدي يكتوي بآلامٍ نارية حارقة. ظللت أمشي مُتعثرًا كالأعمى، دون أي فكرة عن أي اتجاه، عازمًا فقط على مواصلة المشي حتى النهاية. فقد كنتُ أعلم أنني إذا استلقيتُ على الأرض مرة فلن أقوم مجددًا أبدًا.

كنتُ مولعًا بالقصص الخيالية في أيام صباي، ومعظم القصص التي كنتُ أتذكرها كانت عن الغابات الألمانية الضخمة والثلج ومواقد الفحم وأكواخ الحطَّابين. كنت أتوق في الماضي إلى رؤية هذه الأشياء، وفي تلك اللحظة كنتُ عالقًا تمامًا وسط أعماقها. كانت تلك القصص تتضمن ذئابًا أيضًا، وتساءلتُ بلامبالاة عمَّا إذا كنتُ سأصادف قطيعًا منها. شعرتُ بأنني أُصاب بدوار. سقطتُ مرارًا، وكنت أضحك ببلاهةٍ كلما سقطت. وفي إحدى المرات وقعتُ في حفرة، ورقدتُ بعض الوقت في قعرها أُقهقه. لو كان أي شخصٍ وجدني آنذاك، لحسبني مختلًّا.

كان شفق الغابة يزداد خفوتًا، لكني لم ألحظ ذلك. بدأ الليل يُخيِّم، وسرعان ما سيُطبق عليَّ، ليل لا يحمِل لي صباحًا. كان جسدي يمشي دون توجيهٍ من دماغي؛ لأنَّ عقلي كان مليئًا بالجنون. كنت كرجلٍ ثَملٍ يواصل الركض لأنه يعلم أنه سيسقط إذا توقف، وكنتُ في تحدٍّ مع نفسي على ألَّا أستلقي، خصوصًا في هذا التوقيت. فلو كنتُ استلقيتُ، لشعرتُ بالألم في رأسي أشد. كنتُ ذات مرة أرتحلُ راكبًا طوال خمسة أيامٍ في منطقةٍ ريفية وأنا مُصاب بالحمَّى، وبدا لي حينئذٍ أنَّ الشجيرات المسطحة انصهرت معًا مُكوِّنةً سرابًا واحدًا كبيرًا، وكانت ترقص الرقصة الرباعية أمام عينيَّ. لكني حافظتُ على بعضٍ من قواي العقلية آنذاك. أمَّا في تلك اللحظة، فكنت أبله تمامًا، وكنتُ أزداد بلاهةً مع كل لحظة تمر.

ثم بدا أنَّ الأشجار قد انتهت وأصبحتُ أمشي على أرض مستوية. كانت رقعة خالية من الأشجار، ولمحتُ أمامي بصيصًا من الضوء. أعادني هذا التغيير إلى وعيي، وشعرت فجأة بنيران متقدة في رأسي وعظامي بشدة رهيبة، وأحسستُ بوهن في أطرافي. كنت أتوق

إلى النوم، وراودني شعور بأنَّ أمامي مكانًا مناسبًا للنوم. تحركتُ نحو الضوء، وسرعان ما رأيت ملامح عامةً لكوخٍ من خلال ستار من الثلج المتساقط.

لم يكن لديَّ أي خوف؛ فكل ما كنت أشعر به هو اشتياق لا يُحتمَل إلى الاستلقاء. شققتُ طريقي ببطء شديد نحو الباب وطرقتُه. كنت واهنًا جدًّا لدرجة أنني بالكاد استطعتُ رفع يدي.

سمعتُ أصواتًا في الداخل، ورأيتُ طرف الستارة يُرفَع من وراء النافذة. ثم فُتِح الباب ورأيت أمامي امرأةً ذات وجهٍ نحيف لطيف.

قالت: «مرحبًا»، في حين كان أطفالٌ يختلسون النظر إليَّ من وراء تنورتها.

رددتُ قائلًا: «مرحبًا». ثم اتكأتُ على عِضادة الباب، وفقدتُ قُدرتي على الكلام.

رأت حالتي هكذا. فقالت: «تفضل بالدخول أيها السيد. أنت مريض، وهذا الجو ليس مناسبًا لرجل مريض.»

دخلتُ وراءها بخطًى متعثرة ووقفتُ أقطُر ماءً وسط المطبخ الصغير، في حين كان ثلاثة أطفال يُحدقون بي مُتعجِّبين. كان مكانًا فقيرًا، قليل الأثاث، لكنه كان يحوي نيرانًا متوهِّجة مشتعلة في حطب الكانون. منحتني صدمة الدفء دقيقةً من رباطة الجأش اللحظية التي تأتي أحيانًا في منتصف نوبة الحمَّى.

قلت: «أنا مريض يا أُماه، وقد مشيتُ طويلًا في العاصفة وضللتُ طريقي. أنا من أفريقيا، حيث المناخ حار، وطقسكم البارد أصابني بالحُمَّى. سأتعافى منها في يومٍ أو اثنَين إذا أمكنك أن تُعطيني فراشًا.»

قالت: «على الرحب والسعة، لكني سأُعدُّ لك قهوة أولًا.»

خلعتُ عباءتي التي كانت تقطر ماءً، وجثمتُ بالقرب من الموقد. أعطتني قهوة، صحيح أنها كانت قهوة رديئة كثيرة الماء، ولكن من حُسن حظي أنها كانت ساخنة. كان الفقر باديًا بوضوح في كل شيء رأيته هناك. شعرت بأنَّ أمواج الحُمى بدأت تجتاح دماغي مجددًا، وبذلتُ جهدًا كبيرًا لأُرتِّب أوضاعي قبل أن يطغى عليَّ تأثيرها. أخرجتُ تصريح شتوم من محفظة جيبي بمشقَّة.

قلت: «هذا تصريحي الرسمي. أنا عضو في الاستخبارات الإمبراطورية، وعملي يُحتِّم عليَّ أن أتحرك في الخفاء. إذا سمحتِ لي يا أماه، سأنام حتى أتحسن، ولكن يجب ألَّا يعرف أحد أنني هنا. إذا أتى أي شخص، يجب أن تنكري وجودي.»

نظرَت إلى الختم الكبير على التصريح كما لو كان تعويذة.

وقالت: «أجل، بالطبع، ستأخذ الفراش الموجود في العلية، وستُترك في سلام إلى أن تتحسن. ليس لدينا جيران قريبون، والعاصفة ستغلق الطرق. سألتزم الصمت، أنا والصغار.»

كان رأسي قد بدأ يدور، لكني بذلت جهدًا أخيرًا.

قلت: «يوجد طعام في حقيبة ظهري؛ بسكويت ولحم خنزير وشوكولاتة. أرجو أن تأخُذيه لكِ. وها هو بعض المال لتشتري طعام عيد الميلاد للصغار.» وأعطيتُها بعض الأوراق النقدية الألمانية.

لا أتذكر ما حدث بعد ذلك جيدًا. أظن أنها ساعدتني لأصعد سلمًا إلى العلية، وخلَعَت عنِّي ثيابي، وأعطتني رداء نوم خشنًا سميكًا. ويبدو على ما أتذكر أنها قبَّلت يدي، وكانت تبكي. قالت: «لقد أرسلك الرب الكريم. الآن سيجد الصغار تلبيةً لصلواتهم، ولن يتجاهل المسيح الصغير بابنا.»

الفصل الثامن

صنادل إسن

رقدتُ أربعة أيامٍ كجذع شجرة في ذاك الفراش في العلية. سكَنَت العاصفة، وحلَّ الدفء، وذاب الثلج. كان الأطفال يلعبون عند أبواب البيوت ويتسامرون حول النيران ليلًا. من المؤكد أنَّ زبانية شتوم كانوا يُحاصرون كل الطرق، ويؤرِّقون حيوات عابري السبيل الأبرياء. ولكن لم يقترب أحد من الكوخ، وأخذَت الحُمى مجراها حتى زالت وأنا مستلقٍ في سلام.

كانت نوبة حادة، لكنها غادرتني في اليوم الخامس، واستلقيتُ واهنًا كهُريرة صغيرة أحدِّق إلى عوارض السقف الخشبية وكُوة السقف الصغيرة. كان مكانًا قديمًا مليئًا بشقوق تُسرِّب إليه تيارات الهواء، لكنَّ صاحبة الكوخ قد كدَّست الكثير من جلود الغزلان والبطانيات على فراشي وأبقتني دافئًا. كانت تأتي إليَّ بين الحين والآخر، وفي إحدى المرات أحضرت إليَّ مشروبًا من أعشاب مُرَّة أنعشني كثيرًا. كان كل ما استطعتُ تناوله صحنًا صغيرًا من عصيدة خفيفة القوام، وبعض الشوكولاتة المصنوعة من الألواح التي كانت في حقيبة ظهري.

استلقيتُ وغفوتُ طوال النهار سامعًا ثرثرةً خافتة بين الأطفال في الأسفل، ومع كل ساعة تمر كنت أستردُّ مزيدًا من عافيتي. فالملاريا تزول من الجسد سريعًا مثلما تُصيبه سريعًا، وتتركه دون أي آثار، وإن كانت هذه واحدة من أشد النوبات التي تعرضتُ لها في حياتي. انشغل رأسي بالتفكير وأنا مُستلق، وشرَدَت أفكاري في مسارات عجيبة. إحدى الأفكار الغريبة التي راودتني أنَّ شتوم، بكلِّ أفعاله، بدا كأنه ذكرى أُلقيَت في غرفةٍ للمهملات في عقلي ببابٍ موصَد عليها. بدا لي أنه ليس مخلوقًا من الحاضر، بل ذكرى قديمة أستطيع تأمُّلها بهدوء. فكرتُ كثيرًا في كتيبتي وهزليةِ وضعي الحالي. كنت أتحسَّن بالفعل كما ترَون؛ لأنني أصبحتُ أصف وضعي بالهزلي لا المأساوي.

لكن كان جُل تفكيري مُنصبًّا على مهمتي. كانت طوال ذاك اليوم الشنيع الذي عشتُه في الثلج تبدو مجرد هزل. وكانت الكلمات الثلاث التي كتبَها هاري بوليفانت على عجلٍ ترقصُ في رأسي رقصة جامحة مجنونة. كانت ماثلة أمامي في هذه اللحظة، لكني كنت أتأملها بهدوء وعقلانية، رغم ضآلتها.

أتذكر أنني أخذتُ كل واحدة منها على حدة وظللتُ أفكر فيها مليًّا طوال ساعات. «قصر الدين»، لم أجد شيئًا يُمكن استخلاصه من ذلك. «سرطان»، كان لها معانٍ أكثر من اللازم، وكلها مُبهمة. رمز .v. I، كان هذا هو الأصعب بين كل تلك الكلمات الغامضة.

كنت طول الوقت قبل ذلك أظن أنَّ I ترمز إلى حرف آي الأبجدي. واعتقدت أنَّ v ترمز إلى كلمة «فون» الألمانية بالتأكيد، ففكرتُ في الأسماء الألمانية التي تبدأ بحرف آي، مثل إنجولشتاد وإنجبورج وإنجنول، وما إلى ذلك. وهكذا أعددت قائمة بنحو سبعين اسمًا حين كنت في المتحف البريطاني قبل أن أغادر لندن.

أمَّا في هذه اللحظة، فقد خطر ببالي فجأة أنَّ I ترمز إلى الرقم واحد باللغة اللاتينية. وعبثًا حاولتُ، دون تفكيرٍ حقيقي فيما أفعل، أن أُترجم كلمة «واحد» إلى الألمانية.

ثم كدتُ أسقط من فوق الفراش. فقد اتَّضح لي أنَّ هذا الرمز يعني فون آينم؛ الاسم الذي سمعته في منزل جاوديان، الاسم الذي نطق به شتوم من خلف يده، الاسم الذي من المُرجح أن يكون «هيلدا» هو الجزء الأول منه. كان ذلك اكتشافًا فارقًا، أول بصيص ضوء حقيقي وجدته. كان هاري بوليفانت يعرف أنَّ اللغز يحمِل في صميمِه رجلًا أو امرأة باسم فون آينم. وكان شتوم قد تحدَّث عن تلك الشخصية نفسها باحترام، وأشار إلى أنها مُرتبطة بالمهمة التي اقترحتُ تنفيذها في إثارة الأفارقة المسلمين. إذا وجدتُ فون آينم فسأقترب كثيرًا من حل اللغز. تُرى ما الكلمة التي همس بها شتوم لجاوديان وأفزعَت ذلك الرجل الفاضل؟ كانت شيئًا على غرار «أونمانتل». إذا استطعت فقط أن أستوضحها، فسأحل اللغز.

أظن أنَّ هذا الاكتشاف قد أتم شفائي. على أيِّ حال، كنتُ في مساء اليوم الخامس — الذي كان يوافق الأربعاء ٢٩ ديسمبر — قد تعافيتُ بما يكفي لأنهض من الفراش. وعندما حل الظلام، وصار الوقت متأخرًا بما يضمن عدم قدوم زائرين، نزلت إلى الطابق السفلي واتخذت مقعدًا بجوار النار مُتدثرًا بعباءتي الخضراء.

وبينما كنتُ جالسًا مع المرأة هناك في ضوء النار، والأطفال الثلاثة ذوو الرءوس البيضاء يحدقون إليَّ بعيونٍ دائرية مفتوحة عن آخرها، ويبتسِمون عندما أنظر نحوهم؛

تحدَّثَت إليَّ. كان رَجُلها قد رحل للمشاركة في الحرب على الجبهة الشرقية، وفي آخر مرة تلقَّت خطابًا منه، كان عالقًا في مُستنقع بولندي، ومشتاقًا إلى غابات موطنه الجافة. لم تكن مهتمةً كثيرًا بالصراع الجاري. كان لها بمثابة فعلٍ إلهيٍّ، كصاعقة من السماء، أخذ منها زوجها، وقد يُرمِّلها ويُيتِّم أطفالها قريبًا. لم تكن تعرف شيئًا عن أسبابه وأغراضه، وكانت تحسب الروس أمةً ضخمة من مُتوحشين وثنيِّين لم يعتنقوا المسيحية قط، وسيلتهمون الديار الألمانية إذا لم يوقفهم الرب الكريم والجنود الألمان الشجعان. حاولتُ جاهدًا أن أعرف ما إذا كان لديها أي فكرة عمَّا يجري في الغرب، لكنها لم تكن تعرف أي شيء، باستثناء وجود مشكلة مع فرنسا. أظن أنها لم تكن تعرف دور إنجلترا في الصراع. كانت روحًا طيبة لا تحمل مرارةً تجاه أي أحد، ولا حتى الروس إذا تركوا زوجها سالمًا.

أدركتُ في تلك الليلة حماقة الحرب وجنونها. فعندما رأيت آثار الدمار الهائل الذي تعرَّضَت له بلدة إيبر، وسمعت حكاياتٍ شنيعة عمَّا فعله الألمان، كنتُ أتمنَّى أن أرى أرضهم كلها وقد تُرِكت للخراب والدمار. كنت أرى أننا لا يُمكن أن نُنهي الحرب نهاية لائقة من دون أن نُذيق هؤلاء الهون الهمجيين من نفس كأسهم. لكنَّ كوخ الحطَّاب هذا شفاني من تلك الكوابيس. أصبحتُ مؤيدًا لمعاقبة المُذنِبين والعفو عن الأبرياء. كان واجبنا أن نشكر الرب، ونُبقي أيادينا نظيفة من الجرائم الشنيعة التي ارتكبتها ألمانيا بدافعٍ من جنونها. فما الفائدة التي قد تعود على قوم مسيحيين من حرق أكواخ صغيرة فقيرة كهذه، وترك جثث الأطفال على جانب الطريق؟ فالقدرة على الضحك والرحمة هما الشيئان الوحيدان اللذان يُميزان الإنسان عن الوحوش.

كان المكان فقيرًا فقرًا مُدقعًا كما قلت. كان جلد وجه المرأة مشدودًا بقوةٍ على عظامه، وكان رقيقًا شفافًا إلى حدٍّ ينمُّ عن سوء التغذية، فخَّمنتُ أنها لم تكن تحصل على الإعانة السخية التي تتحصل عليها زوجات الجنود في إنجلترا. كان يبدو أن الأطفال يحظَون بتغذيةٍ أفضل، لكن ذلك كان بتضحيةٍ من أُمِّهم. بذلت كل ما بوسعي لإدخال البهجة في نفوسهم. قصصتُ عليهم حكاياتٍ طويلة عن أفريقيا والأسود والنمور، وأحضرتُ قطعًا من الخشب ونحتُّ منها ألعابًا. وبفضل براعتي الشديدة في استخدام السكين، نحتُّ مُجسمات أنيقة جدًّا على شكلِ قردٍ وظبيٍ وخرتيت. وذهب الأطفال إلى الفراش وهم يحتضنون تلك الألعاب التي أظنُّ أنها أول ألعاب يحصلون عليها في حياتهم.

كان واضحًا لي أنني يجِب أن أرحل في أقرب وقتٍ ممكن. فكان عليَّ مواصلة مهمتي، وفوق ذلك، كنتُ سأظلم المرأة ببقائي. فقد كنت معرَّضًا في أي لحظةٍ لأن يعثروا عليَّ هنا، وحينئذٍ ستواجه المرأة متاعب بسبب إيوائي عندها. سألتُها عمَّا إذا كانت تعرف مكان نهر الدانوب، وفوجئتُ بإجابتها. قالت: «ستصل إليه في غضون ساعة سيرًا على الأقدام. الدرب عبر الغابة يمتدُّ مباشرة إلى العبَّارة.»

غادرت في صباح اليوم التالي بعد الفطور. كانت السماء تُمطر مطرًا خفيفًا، وكنت أشعر بهزال شديد. وقبل رحيلي، منحتُ مُضيفتي وأطفالها جنيهَين ذهبيَّين إنجليزيَّين لكلٍّ منهم. قلت: «هذا ذهب إنجليزي لأنني أُضطر إلى السفر وسط أعدائنا واستخدام عُملاتهم. لكنَّ الذهب قيِّم، وإذا ذهبتِ إلى أي بلدة، فسيُغيرونه لكِ. لكنني أنصحك بأن تضعيه في جوربك وألَّا تستخدميه إلا إذا فشلت كل محاولاتك الأخرى للحصول على نقود. يجب أن تُحافظي على منزلك ليبقى قائمًا؛ لأنَّ السلام سيحلُّ يومًا ما، وسيعود رَجُلك من الحرب.»

ثم قبَّلتُ الأطفال وصافحت المرأة، وانطلقت مبتعدًا نحو آخر الرقعة الخالية من الأشجار. صاحوا قائلين: «إلى اللقاء»، ولكن كان من المُستبعَد أن ألقاهم مجددًا أبدًا.

كان الثلج قد تلاشى تمامًا في كل مكان، باستثناء رُقَع صغيرة في المنخفضات العميقة. وكانت الأرض كإسفنجةٍ مُشبعة بالماء، على حين كانت بعض قطرات المطر البارد تنحرِف إلى داخل عينيَّ. وبعد نصف ساعة من المشي المُتثاقل المتواصِل، بدأت الأشجار تتضاءل، وسرعان ما خرجتُ من بينها إلى نتوء دائري من أرضٍ مفتوحة مكسوة بشجيراتٍ قزمة من العرعر. وكان السهل يمتدُّ أمامي، ورأيتُ نهرًا عريضًا فائضًا على بُعد ميل.

جلستُ ونظرت إلى الأفق بكآبة. كانت نشوة اكتشافي الذي توصلتُ إليه في اليوم السابق قد انطفأت. فقد تبيَّن لي أنَّ المعلومة التي اكتشفتُها مصادفةً كانت بلا قيمة؛ لأنني لم أكن أستطيع الاستفادة منها. كان من المُرجح أنَّ تلك المرأة التي تُدعى هيلدا فون آينم، لو كانت موجودة بالفعل وتحمل السر الكبير، تعيش في قصر كبير في برلين، وكان احتمال حصولي على أيِّ شيءٍ منها مستبعدًا كاحتمالِ دعوتي إلى تناول العشاء مع القيصر مثلًا. خطر ببالي أنَّ بلنكيرون ربما يستطيع أن يفعل شيئًا ما، ولكن أين بلنكيرون بحق السماء؟ ارتأيتُ أنَّ السير والتر سيُثمِّن تلك المعلومة، ولكن لم يكن بإمكاني الوصول إلى السير والتر. كان عليَّ أن أمضي قُدمًا إلى القسطنطينية، لأُفلت بذلك ممن يُمسكون بزمام الأمور بالفعل. لكن إذا بقيت، فلن يكون بإمكاني فعل شيء، ولم أكن أستطيع البقاء.

كان عليَّ أن أمضي قُدمًا، ولم أكن أعرف سبيلًا إلى ذلك. بدت كل الطُّرق مسدودة أمامي، وكنت عالقًا في حيرة شديدة لم يقع فيها أي إنسان من قبل.

كانت حيرتي تلك بسبب أنني كنتُ على قناعة داخلية تامَّة بأنَّ شتوم لن يتركني وشأني. فأنا أعرف معلوماتٍ قد تؤذيهم، بالإضافة إلى أنني جرحت كبرياءه. من المؤكد أنه سيمشِّط الريف كله إلى أن يجدني، ولا شك أنه سيجدني لو أطلتُ الانتظار. ولكن كيف لي أن أعبر الحدود؟ لن ينفعني تصريح المرور الذي أحمِله؛ لأنني كنتُ متيقنًا من أنَّهم أرسلوا رقمَه بالتلغراف إلى كل أقسام الشرطة في ألمانيا منذ وقتٍ طويل، وسأجلب لنفسي المتاعب إذا أبرزته. لكني أيضًا لم أكن أستطيع عبور الحدود بأي قطارٍ بدونه. كنتُ أعرف من دراستي للدليل الإرشادي السياحي أنني حالما أصل إلى النمسا، قد أجد الوضع أقل تشددًا، وأتحرك بسهولةٍ أكبر. ففكرتُ في أن أجرب عبور الحدود من عند تيرول، وفكرتُ في عبورها من عندِ بوهيميا أيضًا. لكنَّ هذين المكانين كانا بعيدين جدًّا، وكانت احتمالات القبض عليَّ في طريقي إلى هناك كثيرة.

كنتُ آنذاك في يوم الخميس الموافق الثلاثين من ديسمبر، أي: اليوم قبل الأخير من السنة. وكان من المفترض أن أكون في القسطنطينية في السابع عشر من يناير. القسطنطينية! كنتُ أحسب نفسي بعيدًا عنها حين كنتُ في برلين، لكنها في تلك اللحظة صارت تبدو بعيدةً بُعد القمر عن الأرض.

لكنَّ ذلك النهر الكبير الكئيب الممتد أمامي كان يؤدي إليها. وبينما كنت أنظر إليه، لفت انتباهي منظرٌ عجيب. فعند الأفق الشرقي البعيد، حيث كانت المياه تنساب حول زاوية أحد التلال، رأيتُ ذيلًا طويلًا من الدخان. تضاءلت ألسنة الدخان حتى تلاشت، وبدا أنها كانت منبعثة من قاربٍ مُتوارٍ تمامًا خلف زاوية التل، لكني استطعت رؤية قاربين ظاهرين آخرين على الأقل. لذا كان من المؤكد أنَّ هذا قطار طويل من صنادل مجرورة بقاطرةٍ بحرية.

نظرتُ ناحية الغرب ورأيتُ موكبًا آخر كهذا يظهر تدريجيًّا. ففي البداية ظهرت باخرة نهرية كبيرة — لا يُمكن أن يقلَّ وزنها عن ألف طن — تلَتها سلسلة من الصنادل. أحصيتها فوجدتُ ما لا يقل عن ستة صنادل بالإضافة إلى القاطرة. كانت تحمل حمولةً ثقيلة، ومن المؤكد أنَّ الجزء الغاطس من جسم تلك الصنادل في الماء كان كبيرًا، لكن عمق النهر الفائض كان كافيًا لاستيعابه وزيادة.

فكرتُ لحظةً، وعندئذٍ أدركتُ ماهية ما كنتُ أنظر إليه. فقد حكى لنا ساندي ذات مرة، في أحد النقاشات التي يخوضها الناس في المستشفى، كيف كان الألمان يمدُّون

حملتهم في البلقان بالذخيرة. كانوا مُتيقِّنين تمامًا من سحقِ صربيا من المحاولة الأولى، وكان عليهم إيصال المدافع والقذائف إلى حليفهم التركي العزيز الذي كانت إمداداته الأولى في طريقها إلى النفاد. قال ساندي إنهم أرادوا السيطرة على السكك الحديدية، ولكن كانوا أكثر رغبةً في السيطرة على النهر، وحرصوا على تحقيق ذلك في غضون أسبوع واحد. أخبرنا بأنَّ عددًا لا حصر له من الصنادل التي كانت تُحمَّل بالذخيرة في مصانع ويستفاليا الكبيرة كان ينتقل عبر القنوات من نهر الراين أو نهر إلبه إلى الدانوب. وفور وصول أول صندل إلى تركيا، استقبل الأتراك سيلًا منتظمًا من بقية الصنادل الأخرى بأسرع وتيرةٍ مناسبة، لقُدرتهم على تفريغ الحمولات المحمَّلة على متنها. وقال ساندي إنَّ تلك الصنادل لم تكن تعود فارغة، بل كانت ترجع مُحمَّلة بالقطن التركي واللحم البقري البلغاري والذُّرة الرومانية. لا أعلم من أين جاء ساندي بهذه المعلومات، لكني كنتُ أرى الدليل عليها أمام عينيَّ.

كان منظرًا عجيبًا، وكنتُ أَصِرُّ بأسناني غضبًا من رؤية كل هذه الكميات من الذخائر مُتجهة بكلِّ سلامٍ هكذا إلى العدو. فقد قدَّرتُ أنها ستفتح جحيمًا على فِتياننا المساكين في جاليبولي. ثم خطرت ببالي فكرة وأنا أنظر إلى الصنادل، وراودني معها بصيص ضئيل من الأمل.

كانت الطريقة الوحيدة أمامي للخروج من ألمانيا هي المغادرة مع صُحبةٍ موثوقة إلى حدٍّ يضمن عدم تعرُّضي لأي أسئلة. كان ذلك واضحًا جدًّا. فلو سافرتُ إلى تركيا ضِمن حاشية القيصر مثلًا، فسأكون آمنًا كالرسائل والطرود البريدية، ولكن لو سافرت وحدي، فسأهلكُ لا محالة. كان عليَّ، لكي أستطيع التحرك داخل ألمانيا بلا قيود إن جاز القول، أن أنضم إلى قافلةٍ تحظى بصلاحيات التنقُّل بحُرية. وقد كانت أمامي قافلةٌ كهذه، وهي صنادل إسن.

بدت هذه فكرة مجنونة؛ لأنني خمَّنتُ أنَّ ذخائر الحرب ستكون مُحاطةً بحماية مشددة كحياة الرئيس هيندنبرج نفسه. لكني طمأنتُ نفسي بأنني سأصير في أمانٍ أكبر حالَما أصل إلى تلك القافلة. فإذا كنتَ تبحث عن هاربٍ من التجنيد، لن تُفتش عنه في حانة الكتيبة. وإذا كنت تُلاحق لصًّا، فلن تبحث عنه في سكوتلاند يارد.

كان ذلك منطقًا سليمًا، ولكن كيف يُمكن أن أصعد على متن هذه الصنادل؟ فمن المُرجح أنَّ تلك القوارب البغيضة كانت تقطع مائة ميل كاملة بلا توقف، وبالتأكيد كان

شتوم سيجدني قبل وقتٍ طويل من وصولي إلى أيٍّ من محطاتها. وحتى إذا سنحت لي فرصةٌ كهذه، فكيف لي أن أحصل على إذن بالسفرِ معهم؟

حددتُ الخطوة الأولى بوضوح، وهي النزول إلى ضفة النهر في الحال. لذا انطلقتُ ماشيًا بسرعة عبر الحقول الموحلة المبتلة حتى صادفتُ طريقًا، وجدتُ قناتَي الصرف الجانبيتَين فائضتَين بالماء حتى كادتا أن تلتقِيا عند منتصفه. كان الطريق سيئًا جدًّا إلى حدٍّ مَنَحني أملًا في أن يكون عدد المرتحِلين عليه قليلًا. وبينما كنت أمشي متثاقلًا، كان بالي مشغولًا بالتفكير في احتمالية نجاحي في السفر مُختبئًا على متن أحد تلك الصنادل. قلت لنفسي إنني إذا اشتريت طعامًا، فقد أحظى بفرصةٍ لأختبئ آمنًا مُستريحًا في أحد تلك الصنادل. فهم لن يُفرغوا شيئًا من حمولتها إلى أن يبلغوا نهاية رحلتهم.

وفجأة لاحظتُ أنَّ الباخرة، التي كانت جنبًا إلى جنبٍ معي في تلك اللحظة، بدأت تتحرك نحو الشاطئ، وعندما وصلتُ إلى أعلى رابية غير مرتفعة كثيرًا، رأيتُ عن يساري قريةً ذات مبانٍ متناثرة بها كنيسة ومحطة إنزال صغيرة. كانت البيوت تقع على بُعد ربع ميل من مجرى النهر، وكان بينها طريق مُستقيم محفوف بأشجار الحور.

سرعان ما أصبحت المسألة واضحةً بما لا يدع مجالًا للشك. لقد كان موكب الصنادل يقترب من التوقُّف التام. شقَّت القاطرة الكبيرة طريقها بمُقدمتها نحو الرصيف ورَسَت بجواره، حيث كان عمق المياه كافيًا في هذا الموسم الفيضاني. ثم أشار قائدها إلى الصنادل فبدأت هي الأخرى تُلقي مراسيها، ما دلَّ على وجود رجُلَين على الأقل على متن كلٍّ منها. تحرَّكت بعض الصنادل بوتيرةٍ أبطأ قليلًا من البعض الآخر، وبذلك بدت السلسلة أشبه بقطارٍ ملتوٍ يقف وسط مجرى النهر. أخرجت القاطرة ممرًّا يوصلها بالبر، ورأيتُ من موضعي ستة رجال يُغادرونها حاملين شيئًا على أكتافهم.

كان من المؤكد أنَّ ذلك الشيء الذي يحملونه جثة. لا بد أنَّ أحد أفراد الطاقم قد مات، وأنَّ هذا التوقُّف كان من أجل دفنه. شاهدتُ الموكب يتحرك نحو القرية، وخمنتُ أنهم سيستغرقون بعض الوقت هناك، مع أنهم ربما يكونون قد بَعثوا ببرقيةٍ قبل وصولهم يطلبون فيها حَفر قبرٍ. على أي حال، ارتأيتُ أنهم سيتأخَّرون بما يكفي لأحصل على فرصة.

كنت قد قررتُ اتباع المسار الجريء. كان بلنكيرون قد قال إنَّ غشَّ الألمان مُستحيل، ولكن من الممكن الاحتيال عليهم بالتظاهر الخادع. قررتُ أن أحتال عليهم بأجرأ خدعة. فإذا كان الريف كله يطارد ريتشارد هاناي، فإنَّ ريتشارد هاناي سيتمشى وسط مُطارديه

متظاهرًا بأنه صديق لهم. وذلك لأنني تذكرتُ تصريح المرور الذي أعطاني إيَّاه شتوم. فإذا كان لهذا التصريح أي قيمة، فسيكون كافيًا لإقناع ربان السفينة.

كانت هذه خطوة محفوفة بآلاف الأخطار طبعًا. فربما يكون أهالي القرية قد سمعوا عنِّي وأخبروا طاقم السفينة بقصتي. لذا قررت ألَّا أذهب إلى هناك، بل ألتقي بالبحارة وهم عائدون إلى الباخرة. أو ربما يكون الرُّبان قد تلقى تحذيرًا وعرف رقم تصريح المرور الذي أحمله، وعندئذٍ سأقع في قبضة شتوم قريبًا جدًّا. أو ربما يكون الربان رجلًا جاهلًا لم يرَ تصريحًا استخباراتيًّا من قبل ولا يعرف معناه، وسيرفض نقلي بموجبِ الالتزام الحرفي بالتعليمات التي لدَيه. عندئذٍ يمكن أن أنتظر حتى وصول قافلة أخرى.

كنتُ قد حلقتُ لحيتي وهذبت مظهري بعض الشيء قبل أن أغادر الكوخ. اعتزمتُ أن أترقَّب خروج الرجال من الكنيسة، وأن أنتظر على تلك البقعة من الطريق السريع المُستقيم التي كان طولها ربع ميل. خمنتُ أنَّ الربان سيكون معهم بالتأكيد. ولاحظتُ بسرورٍ أنَّ القرية كانت تبدو خاوية جدًّا. كنت أحمل تصوراتٍ شخصية عن البافاريين أنهم رجال مقاتلون، ولكن لا بد أن أقول، بحُكم ملاحظاتي، إنَّ قلة قليلة منهم قد بقوا في ديارهم.

استغرقَتِ الجنازة ساعات. لا بد أنهم اضطُرُّوا إلى حفر القبر؛ إذ ظللتُ منتظرًا بالقرب من الطريق وسط أجمةٍ من أشجار الكرز، بقدمَين غائصتَين بعمق بوصتَين في الوحل والماء، حتى شعرت بالبرد واخترق عظامي. دعوت الرب ألَّا تعاودني الحُمى؛ لأنني لم أبرح الفراش إلا منذ يومٍ واحد فقط. لم يكن متبقيًا في حقيبتي سوى القليل جدًّا من التبغ، لكنني أشعلتُ غليونًا لنفسي، وأكلت واحدة من كعكات الشوكولاتة الثلاث التي كنت لا أزال أحملها.

وأخيرًا، وبعد منتصف النهار بوقتٍ طويل، رأيت أفراد طاقم الباخرة عائدين. كانوا سائرين اثنين اثنين، وشكرت الرب حين لم أرَ أحدًا من أهل القرية معهم. مشيتُ نحو الطريق واتجهت إلى أعلاه حتى لاقيتُ طليعة الموكب، رافعًا رأسي لأقصى ما أستطيع.

سألتهم: «أين ربانكم؟» فرفع أحد الرجال إبهامه بسرعةٍ وأشار به إلى الخلف من فوق كتفِه. كان الآخرون يرتدون قمصانًا ثقيلة من الصوف وقبعات محبوكة، ولكن كان يوجَد رجل في المؤخرة يرتدي زيًّا عسكريًّا.

كان رجلًا قصيرًا عريضًا ذا وجهٍ مُحمَّلٍ بتأثيرات الطقس السيئ، وعينٍ مهمومة.

قلت له وأنا آمُلُ أن تكون نبرتي مزيجًا حكيمًا ما بين السلطوية والاسترضاء: «هل لي أن أحادثك على انفراد أيها السيد الربان؟»

أومأ لرفيقه، فمضى وتركنا وحدَنا.

سألني بشيءٍ من نفاد الصبر: «ماذا تريد؟»

قدمتُ له تصريح المرور الذي كنتُ أحمله. اتَّضح، والحمدُ للرب، أنه قد رأى شيئًا كهذا من قبل؛ إذ اكتسى وجهه في الحال بتلك النظرة الغريبة التي دائمًا ما ترتسِم على وجه شخصٍ ذي سلطة حين يقابل شخصًا ذا سلطة مِثله. تفحص التصريح عن كثب، ثم رفع عينَيه.

قال: «ماذا بعدُ يا سيدي؟ لقد رأيت أوراق اعتمادك الآن. ماذا يُمكنني أن أفعل لك؟»

سألته قائلًا: «أظن أنك مُتجه إلى القسطنطينية؟»

رد قائلًا: «القوارب ستصل إلى روسجق فقط. وهناك ستُنقَل الحمولة إلى السكة الحديدية.»

«ومتى ستصلون إلى روسجق؟»

«في غضون عشرة أيام، إذا لم نتعرَّض لحوادث. ولكن دعنا نقول اثني عشر يومًا على سبيل الاحتياط.»

قلت: «أريد مُرافقتكم. فمهنتي، أيها السيد الربان، أحيانًا ما تُحتِّم عليَّ السفر عبر مساراتٍ أخرى غير المسار الشائع. هذه رغبتي الآن. فأنا من حقي الاستعانة بفرعٍ آخر من مؤسسات حكومة بلدنا لمُساعدتي. وهذا هو سبب طلبي.»

كان واضحًا جدًّا أنَّ ذلك لم يُعجبه.

قال: «يجب أن أُرسل برقية بخصوص ذلك. فلديَّ تعليمات بألَّا أسمح لأي شخصٍ باستقلال الباخرة، ولا حتى رجل مثلك. آسف يا سيدي، ولكن يجب أن أحصل على تصريح أولًا قبل أن أُلبِّي رغبتك. وفوق ذلك، فزورقي ليس مجهزًا لذلك. من الأفضل أن تنتظر الدفعة التالية وتطلب من درايزر أن يُقلَّك. لقد فقدتُ والتر اليوم. كان مريضًا حين ركب معنا — بمرضٍ في القلب — ولم يقتنع بأخذ استراحة. ومات الليلة الماضية.»

سألته: «أهو الذي كنتم تدفنونه؟»

«بالضبط. كان رجلًا طيبًا وابن عم زوجتي، والآن لم يعُد عندي مهندس. بل مجرد صبيٍّ أحمق من هامبورج. أتيتُ للتوِّ من إرسال برقية إلى مُلاك زورقي لأطلب رجلًا جديدًا، ولكن حتى لو جاء بأسرع قطار، فربما لن يلحق بنا قبل فيينا أو حتى بودابست.»

رأيتُ بارقة الأمل أخيرًا.

قلت: «سنذهب معًا، وألغِ هذه البرقية. فأنا مُهندس يا سيادة الربان، وسيُسعدني أن أعتني بمراجلك إلى أن نبلغ روسجق.»

نظر إليَّ بارتياب.

قلت: «أنا صادق فيما أقول. قبل الحرب كنتُ مهندسًا في دامارلاند. كان التعدين تخصُّصي، لكني تلقيتُ تدريبًا عامًّا جيدًا، وأعرف ما يكفي لتسيير زورق نهري. اطمئن. أعدك بأنني سأعمل بكلِّ كدٍّ نظير ركوبي معك.»

زالت نظرة الارتياب من وجهه، وعندئذٍ بدا وجهه الحقيقي، وجه بحَّار ألماني شمالي صادق ودود.

صاح قائلًا: «إذن هيا تعالَ باسم الرب، وسنعقد صفقة. سألغي البرقية. صحيح أنني أحتاج إلى تصريح من الحكومة لأُقِلَّ راكبًا، لكني لا أحتاج إلى تصريح لتعيين مهندس جديد.»

أرسل أحد مساعديه إلى القرية مجددًا ليلغي برقيته. وجدتُ نفسي على متن الزورق في غضون عشر دقائق، وبعد عشر دقائق أخرى كنَّا في منتصف النهر، وكانت الصنادل المقطورة تصطفُّ خلفنا ببطء. كانوا يُعِدون لي قهوة في القَمرة، وبينما كنت أنتظرها، أخذتُ منظار الربان وتفحصت المكان الذي غادرتُه في القرية.

رأيتُ أشياء غريبة. فعند أول طريق صادفته بعد خروجي من الكوخ، وجدتُ أشخاصًا يركبون دراجات يتحركون بسرعة. كان يبدو أنهم يرتدون زيًّا عسكريًّا. وعلى الطريق الموازي التالي، الذي كان ممتدًّا عبر القرية، رأيت راكبي دراجات آخَرين. ولاحظتُ أيضًا وجود عدة أشخاص يبدو أنهم كانوا يمشِّطون الحقول المتداخلة.

اتضح لي عندئذٍ أنَّ أفراد الطوق الأمني الذي فرضه شتوم قد بدءوا البحث عني أخيرًا، وشكرتُ حظي على أن لا أحد من أهل القرية قد رآني. لقد أفلتُّ في الوقت المناسب لأنَّ شتوم كان سيجدني في غضون نصف ساعة فقط لو بقيت في القرية.

الفصل التاسع

عودة الشارد

قبل أن أنام في تلك الليلة، ظللتُ أعمل ساعاتٍ طِوالًا في غرفة المحرك. كان الزورق يعمل بالزيت، وبحالة جيدة جدًّا؛ لذا بدا أنَّ مهمتي لن تكون شاقة. لم يكن يُوجَد أحد يمكن أن يوصَف بأنه مهندس، لم يكن يوجَد سوى رجلَين فقط من هامبورج كانا مُتدرِّبَين في ترسانةٍ لإنشاء السفن قبل ذلك بعام، بالإضافة إلى عمال الفرن. كانا رجُلَين مُهذبَين، ومُصابَين بالسل، وكانا يفعلان ما أطلبه منهما ولا يتحدثان كثيرًا. لو أن أحدًا رآني عند حلول موعد نومي آنذاك، وأنا أرتدي السترة الزرقاء، والخف المنزلي الليِّن، والقبعة المسطحة — التي كانت كلها أغراضًا تخصُّ والتر الراحل — لأقسم أنني نشأت من صغري على تشغيل مُحركات القوارب النهرية، في حين أنني قد اكتسبتُ جُل معرفتي بتشغيلها أثناء رحلة في نهر الزمبيزي، عندما ثمل المهندس المختص الأصلي وسقط في الماء بين التماسيح.

كان الربان — وكانوا يدعونه شينك — تائهًا في هذه الوظيفة. فكان فريزيًّا وبحارًا من الطراز الأول مُتخصصًا في المياه العميقة، ولكن لأنه كان يعرف دلتا الراين، وبسبب تجميد الرحلات البحرية التجارية الألمانية حتى نهاية الحرب؛ فقد أوكلوا إليه هذه المهمة. كان يشعر بالمَلل منها، ولم يكن يفهمها جيدًا. كانت خرائط النهر تُحيره، ومع أنَّ الملاحة النهرية أسهل؛ لأنَّ مسارات الأنهار تكون جليَّة تمامًا على مدى مئات الأميال، كان يشعر بقلقٍ دائم حيال توجيه الزورق وقيادته. وبدا واضحًا أنه كان سيشعر بارتياح أكبر بكثيرٍ لو كان يستكشف طريقه بصعوبة عبر مياه مصبِّ نهر إمس الضحلة، أو يُواجه رياحًا شمالية شرقية في بحر البلطيق الضحل. كان يسحب خلفه ستة صنادل، لكنَّ فيضان الدانوب الغزير كان يُسهِّل مهمته، إلَّا عند الإبطاء. كان يوجَد رجلان على كلِّ صندل، وكانوا يأتون إلى متن القاطرة كل صباح لأخذ حصص الإعاشة. كانت هذه مهمة غريبة؛

لأننا لم نكن نتوقف من أجلها قطُّ ما دام ذلك ممكنًا. فكلُّ صندل كان له قارب تجديف صغير، وكان الرجال يجدفون به إلى الصندل التالي ويستقلُّون القارب الخاص بذلك الصندل، وهكذا دواليك وصولًا إلى القاطرة. كنا نجد ستة رجال يأتون في القارب الخاص بالصندل الأقرب لنا ويحملون المؤن للباقِين. كان معظم الرجال شبانًا فريزيين بطيئي الكلام، ذوي شعرٍ رملي اللون، أشبه بالرجال الذين يُصادفهم المرء على ساحل إسكس.

ولَمَّا كان شينك بحارًا مُتخصصًا في المياه العميقة، ومن ثَم كان مبتدئًا في هذه الوظيفة، فقد انسجمت معه. كان رجلًا طيبًا ومُستعدًّا تمامًا لاستيعاب التلميحات وتقبُّلها؛ لذا، وقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة منذ صعودي على متن السفينة، كان يحكي لي كل مشكلاته، وكنتُ أبذل قصارى جهدي لإدخال البهجة عليه. وقد توالت المشكلات بكثرة؛ لأن الليلة التالية كانت ليلة رأس السنة.

كنتُ أعلم أن تلك الليلة هي موسمٌ للاحتفالات والبهجة في اسكتلندا، لكنَّها في ألمانيا لا تُقارَن بمثيلتِها في اسكتلندا. حتى شينك نفسه، مع أنه كان مسئولًا عن حمولات ثمينة، وكان يسابق الزمن للوصول في الموعد المُحدد، كان مُقتنعًا تمامًا بأن الرجال لا بد أن يُمنحوا إذنًا للاستمتاع باحتفال صاخب. وصلنا قبل حلول الظلام مباشرة إلى جوار مدينة متوسطة الحجم، لم أعرف اسمها قط، وقررنا أن نرسو هناك الليلة. كان الاتفاق أن يبقى رجلٌ واحد في كل صندل من أجل الحراسة، على أن يأخذ زميله إجازة مُدتها أربع ساعات على البرِّ. ثم يعود ويحل محلَّ صديقه، الذي سيأخذ بدوره الإجازة نفسها. كنتُ أعرف سلفًا أنني سأشهد بعض اللهو والفوضى عند عودة الدفعة الأولى من الرجال، لكنني لم أجرؤ على الاحتجاج. كنت متلهفًا بقلقٍ شديد لتخطِّي الحدود النمساوية؛ لأنني كنتُ أشعر بأننا قد نتعرض للتفتيش هناك، لكنَّ شينك كان يعتبر الاحتفال برأس السنة أمرًا مهمًّا جدًّا، لدرجة أنني كنتُ سأعرِّض نفسي لمشادة معه لو حاولت أن أجادله.

كانت النتيجة كما توقعت. جاءت الدفعة الأولى من الرجال إلى متن السفينة نحو منتصف الليل، غير واعِين بالدنيا من شدة السُّكْر، على حين تخلَّف الآخرون وجاءوا يتسكعون في أوقاتٍ مختلفة من صباح اليوم التالي. بقيتُ على متن الزورق لأسبابٍ واضحة، لكن الوضع صار مقلقًا للغاية في اليوم التالي، واضطُررتُ إلى النزول إلى البر مع الربان لنحاول جمع بقية المتخلِّفين. تمكنا من جمعهم كلهم باستثناء اثنين، وراودني شعور بأنَّ هذين الاثنَين ما كانا ينويان العودة قط. صحيح أنني، لو كنتُ أعمل في وظيفةٍ سهلة كهذه على قارب نهري، ما كنتُ لأرغب في الهرب إلى وسط ألمانيا وأنا أعلم تمام

العلم أنَّ أفضل مصيرٍ ينتظرني هو التجنيد الإجباري وإرسالي إلى الحرب في الخنادق، لكنَّ خيال الفريزيين أضيق من خيال سمك الحدوق. كان المُتخلِّفان من حراس الصنادل، وأتصور أنَّ رتابة حياتهما قد أرهقت أعصابهما.

كان الربان يستشيط غضبًا؛ لأنه كان يعاني نقصًا في العمالة أصلًا. كان سيُجنِّد بعضًا من أهل البلدة عنوة، لكنه لم يجد فيها أي فائض من الرجال، لم يجد سوى صبية وعجائز. ولأنني كنت أساعد في تسيير الرحلة؛ كنت أنا أيضًا مستاءً جدًّا، وغمرتُ السكارى بمياه الدانوب المثلجة، متفوهًا بأقذع الألفاظ التي أعرفها في الهولندية والألمانية. كان صباحًا قارس البرودة، وبينما كنا نهرع غاضبين في الشوارع المجاورة للنهر، أتذكر أنني سمعتُ في تلك الأثناء صوت طقطقة رتيبة من إوزات برية كانت تحلق فوق رءوسنا، وتمنيتُ أن أطلق النار عليها. قلت لأحد الرجال — وكان أشدهم إزعاجًا لي — إنه عار على الإمبراطورية العُظمى، ولا يصلح إلَّا للقتال مع الإنجليز الحقراء.

قال الربان: «يا رب السماء! لا يُمكننا التأخر أكثر من ذلك. يجب أن نتدبر أمرنا بالأفراد المُتاحِين بأفضل طريقة ممكنة. يمكنني الاستغناء عن رجلٍ واحد من طاقم متن الباخرة، وعليك أن تتخلى عن واحدٍ من عمال غرفة المحرك.»

اتفقنا على ذلك، وبينما كنا نُهرع عائدين إلى القارب لاهثين بعض الشيء، لمحتُ شخصًا جالسًا على دكةٍ بجوار مكتب الحجز على الرصيف البحري. كان شخصًا ممشوقًا يرتدي حُلة قديمة باللون الكاكي، وبدا لي أنها حُلة بالية مُستعملة فقدَت شكل الزي العسكري منذ أمدٍ بعيد. كان ذا وجه لطيف، وكان يدخن بهدوء وسكون، متأملًا النهر والقوارب وإيانا، نحن الرجال الصاخبين، بعينَين هادئتَين وديعتَين. انتابتني دهشةٌ بالغة أشد ممَّا لو كنت رأيت الجنرال فرنش جالسًا هناك بمظهرٍ غريبٍ لا مثيل له في الدنيا.

حدَّق الرجل إليَّ دون أن يُبيِّن أنه تعرَّف هويتي. كان ينتظر إشارة منِّي ليتكلم.

تحدثت بسرعة باللغة السوتية؛ لأنني خشيتُ أن يفهم الربان الهولندية.

سألته: «من أين جئت؟»

قال بيتر: «سجنوني، وهربت. أنا متعب يا كورنيليس، وأريد مواصلة الرحلة بقارب.»

قلت له: «تذكر أنك عملت لديَّ في أفريقيا. أنت عائد إلى الوطن للتو من داماralاند. أنت ألماني اغترب ثلاثين عامًا عن وطنه. تستطيع الاعتناء بأفران مراجل القوارب، وعملت في المناجم.»

ثم تحدثت إلى الربان.

«ها هو رجل كان يعمل لديَّ يا كابتن شينك. من حُسن حظنا الهائل أننا صادفناه. صحيح أنه عجوز وليس ذكيًّا جدًّا، لكني أضمن لك أنه عامل جيد. يقول إنه سيأتي معنا، ويُمكنني الاستعانة به في غرفة المحرك.»

قال له الربان: «قف.»

وقف بيتر، خفيفًا ممشوقًا نحيفًا صلبًا كالفهد. والبحَّارة لا يحكمون على الرجال وفق حجمهم ووزنهم.

قال شينك: «سيُلبِّي الغرض»، وفي الدقيقة التالية كان يعيد ترتيب طاقمه، ويوبِّخ العرابدة المُتخلفين بقسوة. شاءت المصادفة ألا أستطيع إبقاء بيتر معي، واضطُررت إلى إرساله إلى أحد الصنادل، ولم يكن لديَّ وقت للحديث معه إلا ببضع كلمات قليلة، حين أخبرته بأن يُمسك لسانه، وأن يتظاهر بالغباء ليؤكد السُّمعة المأخوذة عنه. كان ذلك الاحتفال اللعين برأس السنة قد أحدث فوضى عارمة في الطاقم كله، وكنتُ أنا والربان نشعر بإنهاك شديد قبل أن نصحح الأوضاع.

أتى ذلك بنتيجةٍ نافعة من ناحيةٍ ما. فقد عبرنا الحدود في ظهيرة ذلك اليوم، ولم أُدرك ذلك إلا حين شاهدتُ رجلًا بزيٍّ رسميٍّ غريب يصعد إلى متن القارب، وينسخ بعض الأرقام على جدول زمني، وأحضر إلينا رسائل وطرودًا بريدية. ولأنَّ وجهي كان مُتسخًا، وحالتي العامة توحي بالانهماك في العمل؛ لم أكن أبدو شخصًا مُريبًا حتمًا. دوَّن أسماء الرجال الموجودين في الصنادل، وأعطيناه اسم بيتر على أنه الاسم المدوَّن في دفتر طاقم السفينة: أنطون بلوم.

قال الربان: «لا بد يا سيد براندت أنك تستغرب أن يتفحصك شرطيٌّ، وأنت الذي تُصدر أوامر لكثير من الشرطيين بالتأكيد.»

هززتُ كتفيَّ. وقلت: «هذه مِهنتي. غالبًا ما يُحتِّم عليَّ عملي أن أمضي مُخفيًا هويتي الحقيقية عمن يعملون تحت إمرتي.» لاحظتُ أنني كنتُ أكسب احترام الربان. فقد أعجبَته طريقة قيادتي للرجال وإلزامهم بممارسة عملهم؛ لأنَّني كنتُ متمرسًا من قبلُ في قيادة الزنوج.

في وقتٍ متأخر من مساء يوم الأحد ذلك، مررنا عبر مدينة كبيرة قال لي الربان إنها فيينا. كانت تبدو مُمتدة أميالًا طويلة، ومضاءة بأنوار ساطعة كالسيرك. ثم أصبحنا وسط سهولٍ شاسعة، وصار الهواء قارس البرودة. كان بيتر قد جاء مرةً واحدة إلى متن القارب لأخذ جرايته، لكنه عادة ما كان يترك هذه المهمة لشريكه؛ لأنه كان يفضل التواري تمامًا

عن الأنظار. ولكن في صباح أحد الأيام — الخامس من يناير على ما أظن، عندما عبرنا بودابست، وكنا نمضي وسط سهولٍ فسيحة مشبَعة بالماء تحمل نُدفًا متناثرة من الثلج — قرر الربان أن يجعلني أتفحص حمولات الصنادل. فذهبتُ مدجَّجًا بقائمة ضخمة مكتوبة بالآلة الكاتبة وتفقدتُ الصنادل، بدءًا من المؤخرة. وجدتُ مخزونًا قديمًا فاخرًا من الأسلحة الفتاكة، معظمها رشاشات وقِطَع حربية ميدانية، وقذائف كافية لتفجير شبه جزيرة جاليبولي. كانت كل أنواع القذائف متوافرة، بدءًا من القذائف المدوية الكبيرة المُخصَّصة للمدافع عيار ١٤ بوصة، إلى قنابل البنادق وقذائف مدافع الهاون. شعرتُ بغثيان شديد حين رأيت كل هذه الأشياء الفتاكة تُجهَّز للقضاء على رفاقنا، وتساءلت إن كنتُ سأؤدي أعظم خدمة لوطني إذا دبرتُ انفجارًا هائلًا يُدمرها كلها. لكن من حُسن حظي أن حسي المنطقي ذكَّرني بمهمتي وواجبي، وجعلني ألتزم بهما.

كان بيتر في وسط القافلة، وقد وجدته متضايقًا جدًّا، وكان أكثر ما يُضايقه أنه كان ممنوعًا من التدخين. كان رفيقه شابًّا ذا عينَين دائريتَين واسعتَين، وأمرتُه بأن يعكف على المراقبة ريثما نراجع أنا وبيتر القوائم.

قال بيتر: «كورنيليس، يا صديقي العزيز، توجَد هنا ألعاب جميلة جدًّا. وإذا أُتيحَ لي مفتاحُ ربط وساعتان من العمل دون مقاطعة، أستطيع أن أحول رشاشات ماكسيم هذه إلى مجرد دراجات غير مؤذية. ما رأيك في أن نجرب؟»

قلت: «فكرتُ في ذلك بالفعل، لكنه لن يُلبِّي غرضنا. فنحن في مهمةٍ أكبر من مجرد تدمير قوافل ذخيرة. أريد أن أعرف كيف وصلتُ إلى هنا.»

ابتسم بيتر بانصياعه الاستثنائي كأنه طفل في إحدى مدارس الأحد.

قال: «بكل بساطة يا كورنيليس. تصرفتُ بحماقة في المقهى، لكنهم حكَوا لك ذلك بالفعل. اسمع، كنتُ غاضبًا ولم أفكر. لقد فصلوني عنك، ورأيتُ أنهم سيُعاملونني كأنني حثالة. لذا استشطت غضبًا؛ لأنني، كما قلت لك، لا أُحب الألمان.»

نظر بيتر بحُب إلى المَزارع الجرداء الصغيرة المُتناثرة عبر السهل المجري.

قبعت طوال الليل في الحبس بلا طعام. وفي الصباح أطعموني واقتادوني مئات الأميال في القطار إلى مكانٍ يُسمَّى نويبورج، على ما أظن. كان سجنًا كبيرًا مليئًا بالضباط الإنجليز ... تساءلتُ في نفسي مرارًا في طريقي إلى هناك عن سبب هذه المعاملة؛ لأنني لم أستطع أن أجد أي معنًى لها. فإذا كانوا يريدون مُعاقبتي لأنني أهنتُهم، فقد واتتْهم فرصة لإرسالي إلى الخنادق. ما كان أحد ليستطيع الاعتراض عندئذٍ. وإذا كانوا يرَونني

غير مفيد، فقد كان بإمكانهم إعادتي إلى هولندا. ما كنتُ لأستطيع أن أمنعهم. لكنهم عامَلوني كما لو كنتُ رجلًا خطرًا، مع أنَّ كل سلوكهم السابق كان يُظهِر أنهم يرَونني أحمق. لم أستطع أن أفهم الأمر.

«لكن لم أكد أقضي ليلةً واحدة في ذلك المكان المُسمَّى نويبورج حتى أدركت السبب. لقد أرادوا إبقائي تحت المُراقبة ليتيقنوا من حقيقتك يا كورنيليس. توصلتُ إلى هذا الاستنتاج هكذا. قلت لنفسي إنهم قد كلَّفوك بعملٍ مهم جدًّا جعلهم يُطلِعونك على سرٍّ كبير. لا بأس في ذلك إلى الآن. كان واضحًا أنهم يحملون انطباعًا جيدًا عنك، حتى ذلك الرجل المدعو شتوم، بالرغم من فظاظته. لكنهم لم يكونوا يتبيَّنون هويتك على نحوٍ تام، وأرادوا وسيلةً للتيقُّن من حقيقتك. فوجدوا ضالَّتهم في بيتر بينار. كان بيتر بالنسبة إليهم مجرد أحمق، وإذا كان يوجَد أي سِر يُمكن إفشاؤه دون قصد، عاجلًا أو آجلًا، فبيتر هو من سيُفشيه. وعندئذٍ يَمدون إحدى أذرعهم الطُّولَى ويوقفونك فورًا، أينما كنتَ. لذا يجب أن يُبقوا بيتر العجوز تحت أعينهم.»

قلت: «يبدو هذا احتمالًا معقولًا جدًّا.»

قال بيتر: «بل حقيقة مؤكدة. وعندما اتضح ذلك لي تمامًا، عقدت العزم على الهرب. كان أحد أسباب ذلك أنني رجل حُر ولا أحب أن أبقى حبيسًا في سجن، لكن السبب الرئيسي أنني لم أكن واثقًا من نفسي. خشيت أن أغضب وأفقد صوابي مجددًا يومًا ما، وأن أقول أشياء غبية تضر كورنيليس. لذا كان من المؤكد تمامًا أنني يجب أن أهرب.»

وأضاف: «الآن يا كورنيليس، سرعان ما لاحظتُ وجود نوعَين من السجناء هناك. كان يوجَد سجناء حقيقيون، مُعظمهم إنجليز وفرنسيون، وكان يُوجَد سجناء «مُزيفون». كانوا يُعامَلون كالآخرين ظاهريًّا، لكنهم في الحقيقة كانوا يحظَون بمعاملةٍ مختلفة، كما لاحظتُ سريعًا. كان بينهم رجل يتظاهر بأنه ضابط إنجليزي، وآخر يدَّعي أنه كندي فرنسي، وكان الآخرون يصفون أنفسهم بأنهم روس. لم يشكَّ فيهم أحد من السجناء الحقيقيين، لكنهم كانوا جواسيس مدسوسين وسطهم ليحيكوا مؤامرات هروبٍ من أجل استدراج المساكين إليها، وضبطهم مُتلبِّسين أثناء هروبهم، وليحتالوا لاستخلاص معلومات سرية قد تكون قيِّمة. هذا هو التصوُّر الألماني عن كيفية تحقيق المكاسب. لستُ جنديًّا بريطانيًّا لأظن أنَّ الرجال كلهم شرفاء. فأنا أعرف أنَّ بينهم أوغادًا بشِعِين؛ لذا سرعان ما فهمت هذه اللعبة. أغضبتني بشدة، لكنها نفعتني في خطتي. قررتُ الهرب يومَ وصلت إلى نويبورج، وفي يوم عيد الميلاد كانت لديَّ خطة جاهزة بالفعل.»

«بيتر، أنت عجوز مُذهل. هل تعني أنك كنتَ واثقًا تمامًا من أنك تستطيع الفرار وقتما تشاء؟»

«بكل تأكيد يا كورنيليس. سأشرح لك، لقد كنت وغدًا شقيًّا في شبابي، وأعرف بعض الخبايا الداخلية للسجون. يمكن أن تكون السجون على شكل قلاعٍ حصينة عملاقة، أو على شكل محبسٍ صغير مُشيَّد بالطين وصفائح الحديد المُموَّج في سهول جنوب أفريقيا البدائية، ولكن دائمًا ما يكون لها مفتاح ورجل يحمِله، وهذا الرجل يُمكن التغلُّب عليه. كنت أعرف أنني أستطيع الهرب، لكني لم أتخيَّل أن هروبي سيكون بهذه السهولة. كان ذلك بسبب السجناء المُزيفين، أصدقائي الجواسيس.»

«أقمتُ صداقات قوية معهم. وفي ليلة عيد الميلاد، كنا غارقين معًا في الصخب والمرح. أعتقد أنني اكتشفتُ حقيقة كل واحدٍ منهم منذ اليوم الأول. تباهيتُ أمامهم بماضيَّ وكل ما فعلته من قبل، وأخبرتهم بأنني سأهرب. فدعموني ووعدوني بالمساعدة. وفي صباح اليوم التالي، كانت خطتي جاهزة. وفي العصر، بعد الغداء مباشرة، اضطُررت إلى الذهاب إلى غرفة القائد. كانوا يُعاملونني معاملةً مختلفة قليلًا عن الآخرين؛ لأنني لم أكن أسيرَ حربٍ، وكنت أذهب إلى هناك لأخضع لاستجوابٍ وأتلقى شتائم تصِفني بأنني هولندي غبي. كان المكان هناك بلا حراسة مشددة؛ لأنَّ الغرفة كانت في الطابق الثاني، بعيدة عدة ياردات عن أي دَرَج. كان يوجَد في الممر الواقع خارج غرفة القائد نافذةٌ بلا قضبان، وعلى بُعد أربع أقدام من النافذة، كان يوجَد غُصن متين مُتفرع من شجرة كبيرة. قلت لنفسي إنَّ المرء يُمكن أن يصل إلى ذلك الغصن، وإذا كان نشطًا كالقرد، فربما يُمكنه النزول من الشجرة إلى الأرض. لم أكن أعرف ماذا ينتظرني بعد ذلك، لكني بارع في التسلُّق يا كورنيليس.»

«أخبرتُ الآخرين بخطتي. وقد نالت إعجابَهم، ولكن لم يعرض أحدٌ منهم المجيء معي. كانوا في غاية الشهامة؛ إذ قالوا إنَّ الخطة خُطتي، وإنني أنا من ينبغي أن يحصد ثمارها؛ لأنَّها ستُفضَح بالتأكيد لو حاول أكثر من شخصٍ الهروب. وافقتُهم الرأي وشكرتهم، والدموع في عينيَّ. ثم أخرج أحدهم خريطة بمنتهى السرية. حددنا الطريق الذي سأسلكه؛ لأنني ادعيتُ أنني ذاهب مباشرةً إلى هولندا. كان طريقًا طويلًا، ولم يكن معي مال؛ لأنهم أخذوا كل جُنيهاتي الذهبية عند اعتقالي، لكنهم وعدوني بجمع تبرُّعات فيما بينهم ليُساعدوني لبدء رحلتي. بكيتُ مرةً أخرى من شدة الامتنان. كان ذلك يوم الأحد، اليوم التالي بعدَ عيد الميلاد، وعقدتُ العزم على المحاولة عصر يوم الأربعاء.»

«الآن، يا كورنيليس، لعلك تتذكَّر، حين أخذَنا الملازم لنرى السجناء البريطانيين، أنه أخبرنا بالكثير عن مجريات الأمور في السجون. أخبَرَنا كيف يحبُّون القبض على الرجال متلبِّسين أثناء الهروب، ليتسنَّى لهم معاملتهم بقسوةٍ بضميرٍ مطمئن. فكرت في ذلك، واستنتجتُ أن أصدقائي سيكشفون كل شيء للقائد، وأنهم سيكونون في انتظاري لاصطيادي مُتلبسًا يوم الأربعاء. وافترضتُ أنهم سيخفِّفون مراقبتهم إيَّاي حتى ذلك الحين؛ لأنهم سيعتبرونني صيدًا مضمونًا ...»

«لذا خرجتُ من النافذة في اليوم التالي. كان ذلك بعد ظهر يوم الإثنين ...»

قلت بإعجاب: «كانت هذه ضربة جريئة.»

قال بيتر بتواضُع: «كانت الخطة جريئة، لكنها لم تكن بارعة. لم يكن معي أي مالٍ سوى سبعة ماركات، ولم يكن بحوزتي إلَّا قالب من الشوكولاتة. لم يكن لديَّ معطف، وكانت الثلوج تتساقط بغزارة. وفوق ذلك، لم أستطع النزول من فوق الشجرة؛ لأنَّ جذعها كان أملس، خاليًا من الفروع كشجرة الأوكاليبتوس. ظننتُ لوهلةٍ أنني سأُضطر إلى الاستسلام، وكنتُ تعيسًا.»

«ولكن كان لديَّ مُتَّسع من الوقت؛ لأنني ارتأيتُ أنهم لن يلاحظوا غيابي قبلَ حلول الليل، وإذا أُعطيَ الإنسانُ وقتًا، يستطيع أن يفعل مُعظم الأشياء. مع الوقت وجدتُ فرعًا مُمتدًّا إلى خارج الجدار الخارجي للفناء، مُتدليًا فوق النهر. فتبعته، ثم سقطت منه إلى النهر. كان الارتفاع الذي سقطتُ منه عاليًا بعض الشيء، وكانت المياه جارفة بشدة وكدت أغرق. كنتُ أفضِّل يا كورنيليس أن أسبح في نهر ليمبوبو، وسط كل تماسيحه، على ذلك النهر الجليدي. لكني تمكنت من الوصول إلى البر والْتقاط أنفاسي مُستلقيًا بين الشجيرات ...»

«بعد ذلك سار الأمر بسهولة، مع أنني كنتُ أشعر ببردٍ شديد. كنت أعلم أنهم سيبحثون عني في الطرق الشمالية، كما أخبرتُ أصدقائي؛ لأن لا أحد كان يُمكن أن يتخيَّل أنَّ هولنديًّا جاهلًا سيتَّجه جنوبًا بعيدًا عن أهله. لكني كنتُ قد تعلمت ما يكفي من الخريطة لأعرف أن طريقنا يقع في الجنوب الشرقي، وكنت قد حددتُ موقع هذا النهر الكبير.»

سألته: «هل كنتَ تأمُل في اللحاق بي والسفر معي؟»

«لا يا كورنيليس. ظننتُ أنك ستكون مسافرًا في عربات الدرجة الأولى، بينما سأكون أنا ماشيًا على قدميَّ متثاقلًا منهكًا. لكني كنتُ مُصممًا على الوصول إلى المكان الذي تحدثت

عنه (ماذا تسميه؟ القسطنطية؟) حيث تكمُن مهمتنا الكبرى. ارتأيتُ أنني سأصل إلى هناك في الوقت المناسب.»

قلت له: «أنت مُحنَّك ذو عزمٍ شديد كأهل طروادة يا بيتر، ولكن أكمِل. كيف وصلتَ إلى المرسى الذي وجدتك عنده؟»

قال مُنهمكًا في التأمُّل: «كانت رحلة شاقة. لم يكن من السهل تجاوز عوائق الأسلاك الشائكة التي كانت تُحيط بنوبيبورج، نعم، حتى على الجانب الآخر من النهر. لكني وصلتُ أخيرًا إلى الغابة، وبذلك صرت آمنًا؛ لأنني ارتأيتُ أن لا ألمانيَّ يستطيع أن يُضاهيني في ريفٍ بري. فأفضلُ الألمان، حتى أهل الغابات منهم، ليسوا سوى أطفالٍ في فنون حياة البراري مقارنةً بي ... كانت متاعبي مقتصرةً على الجوع والبرد. ثم صادفت تاجرًا متجولًا بيروفيًّا (كان بيتر يقصد بذلك بائعًا متجولًا يهوديًّا بولنديًّا)، وبعتُ له ثيابي واشتريت منه هذه الثياب. لم أكن أريد التخلِّي عن ثيابي لأنها كانت أفضل، لكنه أعطاني عشرة ماركات ضِمن الصفقة. وبعد ذلك ذهبتُ إلى إحدى القرى وأكلتُ بنَهَم.»

سألته: «هل طاردك أحد؟»

«لا أظن ذلك. فقد اتَّجهوا شمالًا، كما توقعت، وكانوا يبحثون عني في محطات القطار التي كان أصدقائي قد حددوها لي. مشيتُ بسعادة ووضعت على وجهي قناعًا من الجرأة واللامبالاة. فعندما كنتُ أرى امرأة أو رجلًا ينظر إليَّ بارتياب، كنتُ أتجه إليهم فورًا وأحدثهم. كنتُ أحكي لهم قصة حزينة، وكان الجميع يصدقونها. كنت أدَّعي أنني هولندي فقير عائد إلى وطنه سيرًا على الأقدام ليرى أُمَّه المُحتضَرة، وأنَّ بعض الناس قالوا لي إنني سأجد محطة القطارات الرئيسية المؤدية إلى هولندا بجوار الدانوب. التقيتُ أناسًا كرماء منحوني طعامًا، وامرأة منحتني نصف مارك وتمنَّت لي رحلة موفَّقة ... ثم وصلت إلى النهر في اليوم الأخير من العام، ووجدت العديد من السكارى.»

«هل كان هذا هو الوقت الذي قررتَ فيه أن تستقل أحد القوارب النهرية؟»

«أجل يا كورنيليس. حالَما علمت بوجود القوارب، رأيت مَكمَن فرصتي. لكني كدتُ أسقط أرضًا من شدة ذهولي عندما رأيتُك تصل إلى البر. كان هذا من حُسن حظي يا صديقي ... كنت أفكر مليًّا في الألمان، وسأُخبرك بالحقيقة. الجرأة فقط هي التي يمكن أن تُربِكهم. فهم شعب مجتهد جدًّا. سيفكرون في كل الصعوبات المُحتملة، لكن ليس كل الصعوبات المُمكنة. ليس لدَيهم خيال واسع. إنهم كالقاطرات البخارية التي يجب أن تلتزم بمساراتٍ محددة. لذا يستطيعون العثور على أي رجلٍ يُطاردونه ما دام واقعًا في

مساراتهم، أمَّا إذا ارتحل إلى ريفٍ مفتوح، فسيقعون في حيرة تامة. لذا عليك بالجرأة يا صديقي، الجرأة دائمًا. تذكَّر أنهم أُمَّة ترتدي النظارات، ما يعني أنهم يُمعِنون النظر دائمًا.»

سكت بيتر ليُحدِّق بإعجابٍ إلى أسراب الإوز التي كانت متخذةً شكل الرقم سبعة، وصفوف البجع البرِّية التي دائمًا ما كانت تحلق عبر تلك السهول. شحذَت قصته معنوياتي بشدة. فقد ظلَّ الحظ حليفًا لنا على نحوٍ يفوق كل التصورات، وراودني بصيص من الأمل في إتمام المهمة كنت أفتقده من قبل. حصلتُ بعد ظُهر ذلك اليوم أيضًا على دَفعة معنوية أخرى. فقد صعدت إلى سطح الباخرة لآخُذ نفسًا من الهواء ووجدته باردًا جدًّا بعد حرارة غرفة المحرك. فناديتُ أحد عمال متن الباخرة ليحضر لي عباءتي من قَمرة القيادة؛ العباءة نفسها التي كنتُ اشتريتها في أول صباح لي في قرية جريف.

صاح الرجل قائلًا بالألمانية: «دير جرون مانتل؟» (أي: العباءة الخضراء)، وصرختُ قائلًا: «نعم». ولكن بدا أنَّ صدى الكلمات كان يتردَّد في أُذنيَّ، وبعدما أعطاني العباءة بوقتٍ طويل، وقفت أُحدق شاردًا في الأفق من فوق سور الباخرة.

لقد أيقظ صوته وَترًا من الذاكرة، أو بالأحرى أبرَز شيئًا كان مُبهمًا ضبابيًّا من قبل. لقد نطق الكلمات التي كان شتوم قد تفوَّه بها من خلف يدِه لجاوديان. فأنا قد سمعتُ آنذاك شيئًا مثل «أونمانتل»، ولم أفهمه إطلاقًا. أمَّا في تلك اللحظة، فكنت مُتيقنًا من تلك الكلمات كيقيني من وجودي. لقد كانت «جرون مانتل»، أو «العباءة الخضراء». كانت «العباءة الخضراء»، أيًّا ما كانت ماهية ما تُشير إليه بالتحديد، هو الاسم الذي لم يكن شتوم يُريدني أن أسمعه، والذي يُمثِّل تميمةً خاصة بالمهمة التي اقترحتُها آنذاك، والذي ارتبط ارتباطًا ما بالشخصية الغامضة المُسمَّاة فون آينم.

أبهجني هذا الاكتشاف كثيرًا. قلتُ لنفسي إنني تمكنتُ من التوصل إلى كمٍّ رائع من المعلومات في أيامٍ قليلة جدًّا، بالنظر إلى الصعوبات التي واجهتها. وهذا يُبيِّن ما يستطيع المرء إنجازه بأقل الأدلة إذا ظلَّ يفكر فيها مرارًا وتكرارًا …

بعد ذلك بصباحَين، رسَونا بجوار أرصفة الميناء عند بلجراد، وانتهزتُ الفرصة لأُحرِّك ساقيَّ وأتمشى قليلًا. كان بيتر قد نزل إلى البر ليُدخِّن، وتجوَّلنا في الشوارع المقصوفة المُدمَّرة بجوار النهر، وتأملنا الأقواس المُحطَّمة لجسر السكة الحديدية الكبير الذي كان الألمان يعملون بجديةٍ على إصلاحه وترميمه. كان يوجَد جسر عائم مؤقت كبير لينقل أجزاء السكة الحديدية عبر النهر، لكني قدَّرتُ أنَّ الجسر الرئيسي سيكون جاهزًا في

غضون شهرٍ واحد. كان نهارًا صافيًا باردًا أزرق، وعندما كان المرء ينظر جنوبًا، كان يرى قممًا متتالية للتلال المُغطاة بالثلوج. كانت شوارع الجزء الأبعد عن البحر لا تزال سليمةً إلى حدٍّ ما، وكانت توجَد محلات مفتوحة يُمكن الحصول على طعام منها. أتذكر أنني سمعت كلامًا بالإنجليزية، ورأيت ممرضاتٍ من الصليب الأحمر قادمات من محطة القطار في حراسة جنود نمساويين.

كنتُ سأبتهِج جدًّا لو استطعتُ مُحادثتهن على انفراد. فكرتُ في الأبطال الشجعان الذين كانت هذه المدينة عاصمتهم، وكيف نجحوا ثلاث مرات في مقاومة النمساويين وطردِهم من أراضيهم إلى الضفة الأخرى من الدانوب، ثم انهزموا بسبب الخيانة الخسيسة ممَّن كانوا يزعمون أنهم حلفاؤهم. شعرتُ أنا وبيتر بأنَّ ذلك الصباح الذي أمضيناه في بلجراد قد أعطانا هدفًا جديدًا في مهمتنا بطريقةٍ ما. فأخذنا على عاتقنا أن نُعرقل عجلة هذا الطاغوت الدموي الوحشي الذي يسحق الأمم البطولية الصغيرة، ويسلُبها الحياة.

وبينما كنَّا نستعِد للإبحار مجددًا، وصلت زُمرة مميزة من الرجال إلى رصيف الميناء. كانت تضمُّ كل أنواع الأزياء العسكرية؛ الألماني والنمساوي والبلغاري، وكان وسطهم رجل سمين يرتدي معطفًا من الفرو وقبعة سوداء من اللباد. وقفوا يشاهدون رفع مراسي الصنادل، وقبل أن يبدأ تحرُّك الصنادل نحو الاصطفاف، سمعتُ محادثتهم. كان صاحب معطف الفرو يتحدَّث بالإنجليزية.

قال: «أرى أنَّ هذا خبر جيد جدًّا يا سيدي الجنرال؛ فإذا فرَّ الإنجليز من جاليبولي، يُمكننا استخدام هذه الشحنات الجديدة للمعركة الكبرى. أظنُّ أنه لن يمرَّ وقت طويل قبل أن نرى الأسد البريطاني يُغادر مصر بمخالب متقرِّحة.»

ضحك الجميع. ثم ردوا قائلين: «ربما نحظى بشرفِ رؤية هذا المشهد عمًّا قريب.»

لم أهتم كثيرًا بالمحادثة، بل لم أُدرك إلَّا بعد أسابيع أنَّ هذه كانت أول بشائر الإخلاء الكبير لرأس «سد البحر» في جاليبولي. ما أسعدني كانت رؤية بلنكيرون، هادئًا تمامًا كحلَّاقٍ وسط هؤلاء الأشخاص النافذين المُتأنِّقين. فبذلك كان يوجَد اثنان من أفراد مهمتنا على مقربةٍ من بلوغ هدفهما.

الفصل العاشر

كوخ حديقة سليمان الأحمر

وصلنا إلى روسجق في يوم العاشر من يناير، لكننا لم نرسُ في ذلك اليوم إطلاقًا. فقد حدثت مشكلة ما في ترتيبات تفريغ الشحنة، أو على الأرجح في السكة الحديدية التي كانت ستُستخدَم لنقلها، وظلَّت السفينة تتمايل بنا طوال النهار في النهر العكر بعيدًا عن البر. وفوق ذلك، أُصيبَ الربان شينك بالملاريا، وبحلول المساء، صار جسده أزرق ومرتعشًا، وساءت حالته بشدة. ولأنه قد نفعني وأحسن معاملتي، قررتُ أن أقف بجانبه. لذا أخذت أوراق باخرته ومستندات بيانات الحمولة، وتوليتُ الإشراف على نقل الحمولة إلى قطار البضائع. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أتعامَل فيها مع مهمةٍ كهذه، وكنت أعرف الكثير بالفعل عن عمل الرافعات البخارية. أخبرته بأنني سأواصل المضيَّ إلى القسطنطينية وسأصحب بيتر معي، ووافق. فقد كان سيُضطر إلى الانتظار في روسجق ليتسلَّم الشحنة التي سيعود بها، وبذلك كان يستطيع تعيين مهندس جديد بسهولة.

ظللتُ أعمل طوال أصعب أربع وعشرين ساعة في حياتي لإنزال الحمولة إلى البر. كان ضابط الإنزال بلغاريًّا، وكفئًا للغاية، ولكن كان ينقصه أن يجعل السكك الحديدية تجلب إليه الشاحنات التي كان يحتاج إليها. كانت توجَد مجموعة من ضباط نقلٍ ألمان مُتعطشين لممارسة سلطتهم، وكانوا يتدخلون فيما لا يعنيهم طوال الوقت، ويعاملون الجميع بوقاحةٍ فظيعة. تبنَّيتُ أسلوبًا متشامخًا متغطرسًا في التعامُل معهم، ولمَّا كان القائد البلغاري بجانبي، فقد استطعتُ إسكاتهم بعد نحو ساعتَين من السباب واللعنات.

لكنَّ المشكلة الكبرى حدثت في صباح اليوم التالي، عندما انتهيتُ تقريبًا من تحميل الحمولة كلها على متن الشاحنات.

جاء ضابط شاب على حصانٍ مُرتديًا زيًّا استنتجتُ أنه زي عسكري تركي، وكان معه ياور. لاحظتُ الحراس الألمان يُحيُّونه تحية عسكرية؛ لذا فهمت أنه ذو شأنٍ كبير

نوعًا ما. اقترب مني وسألني بلهجةٍ ألمانية مهذبة جدًّا عن مستندات الشحنة. أعطيته إياها، فأمعن النظر فيها، وعلَّم على بعض الأصناف بقلم رصاص أزرق. ثم سلَّمها ببرود إلى الياور وتحدث إليه بالتركية.

قلت له: «أصغ إليَّ، أريد استعادة هذه المستندات. لا يُمكنني الاستغناء عنها، وليس لدينا وقت نُضيعه.»

قال مبتسمًا: «حالًا»، وتركني وانصرف.

لم أعترض؛ إذ قلتُ لنفسي إنَّ الشحنة متجهة إلى الأتراك، ومن الطبيعي أن يكون لهم الحق في تحديد كيفية التعامُل معها. كان التحميل قد انتهى تقريبًا عند عودة الضابط المهذب. أعطاني مجموعة جديدة من مستندات الشحنة مكتوبة بتنسيق مُنمَّق بالآلة الكاتبة. ولاحظت بنظرةٍ واحدة أنَّ بعض الأصناف المهمة قد حُذفَت.

صِحت قائلًا: «اسمع، هذا مرفوض. أَعِد إليَّ المستندات الأصلية. هذا لا ينفعني.»

رد بغمزة لطيفة، وابتسم كملاكٍ داكن من ملائكة السارافيم، ومدَّ لي يده. فرأيت فيها لفافة من المال.

قال: «هذه من أجلك. إنه العُرف المعتاد.»

كانت هذه هي المرة الأولى على الإطلاق التي يحاول فيها أحد رشوتي، ما جعل دمي يغلي كالمِرجَل من شدة الغضب. لقد فهمتُ حيلته بكل وضوح. ستدفع تركيا الكثير لألمانيا مقابل تلك الشحنة، ومن المرجَّح أن تكون قد دفعت فاتورتها بالفعل، لكنها بذلك ستدفع مبلغًا مضاعَفًا نظير الأشياء غير المُدرَجة في مستندات الشحنة، وستدفع لهذا الرجل وأصدقائه. كنت أعرف أنَّ الأساليب الشرقية في إبرام الصفقات مشوبة ببعض الفساد، لكني لم أكن أتوقَّع أن يصل إلى هذا الحد.

قلت: «أصغ إليَّ أيها السيد، لن أتحرك قيد أنملة من هذا المكان حتى أحصل على المستندات الأصلية الصحيحة. وإذا لم تُعطني إيَّاها، فسأُخرِج كل المحتويات من الشاحنات وأكتب قائمة جديدة. إمَّا أن تكون معي قائمة صحيحة، وإما ستبقى الشحنة هنا إلى يوم القيامة.»

كان رجلًا مَمشوقًا مبالِغًا في التأنق، ولم يكن يبدو غاضبًا بقدرِ ما كان متحيرًا.

قال وهو يمدُّ يدَه مجددًا: «أنا أعرض عليك ما يكفي.»

عندئذٍ زأرتُ بعلوِّ صوتي. «إذا حاولت رشوتي أيها العقَّاد الضئيل اللعين، فسأُنزِلك عن هذا الحصان وأرميك في النهر.»

أصبح يفهمني بوضوح. فبدأ يطلق السباب والتهديدات، لكنني قاطعتُه.

قلت له: «تعالَ معي إلى القائد أيها الفتى»، ومشيتُ بعيدًا وأنا أُمزِّق أوراقه المكتوبة بالآلة الكاتبة أثناء سيري، وأنثرها ورائي كأنها ذيلٌ من النثار الورقي.

أحدثنا ضجةً شديدة في مكتب القائد. قلت إنَّ عملي، بصفتي ممثلًا للحكومة الألمانية، هو تسليم الشحنة إلى المُرسَل إليه في القسطنطينية سليمةً كاملة كما هي. وأخبرته بأنني لستُ معتادًا أن أؤدي عملي بمستنداتٍ مُتلاعَبٍ فيها. لم يسَعه سوى أن يتفق معي، لكنَّ ذاك الشرقي الغاضب كان واقفًا هناك بوجهٍ ثابت كتمثال بوذا.

قال له القائد: «معذرة يا سيد راستا، لكنَّ هذا الرجل مُحِقٌّ.»

رد بعُبوس قائلًا: «لديَّ تفويض من اللجنة بتسلُّم الشحنة.»

فقلت: «ليست عندي تعليمات بهذا. الشحنة مُرسَلة إلى قائد المدفعية في جتالجة، الجنرال فون أوسترتسي.»

هزَّ الرجل كتفيه. وقال: «حسنًا إذن. سوف أتحدث إلى الجنرال فون أوسترتسي لاحقًا، أمَّا هذا الرجل الذي يستهزئ باللجنة، فسيكون عندي كلام كثير له.» وخرج بخطواتٍ واسعة كصبيٍّ وقح.

ابتسم القائد المنزعج. وقال لي: «لقد أسأتَ إلى سيادته، وهو عدو سيئ. كل أعضاء تلك اللجنة الملاعين سيئون. أنصحك بألَّا تواصل رحلتك إلى القسطنطينية.»

«وأتركُ ذلك الحثالة ذا القبعة الحمراء ينهب الشاحنات في الطريق؟ لا، شكرًا. سأواصل حتى أضمن وصولها سالمة إلى جتالجة، أو أيًّا كان اسم مستودع المدفعية.»

قلتُ أكثر من ذلك بكثير، لكن هذه ترجمة مختصرة لما قلتُه بالألمانية. ففي الحقيقة استخدمتُ المرادف الألماني لكلمة «أحمق» بدلًا من كلمة «حثالة»، لكني استخدمت تعبيراتٍ أخرى كانت ستُبهِج صديقي التركي الشاب لو كان سمِعها. عندما أسترجِع ذلك الموقف، يبدو لي أنه كان من السُّخف أن أُثير كل هذه الضجة على أسلحةٍ كانت ستُستخدَم ضد أبناء وطني أصلًا. لكني لم أكن أرى ذلك آنذاك. فكبريائي المِهنية كانت ثائرة، ولم أستطع تحمُّل المشاركة في صفقةٍ مشبوهة.

قال القائد: «حسنًا، أنصحُك بأن تذهب مسلحًا. سنُعيِّن لك حراسةً لحماية الشاحنات بالطبع، وسأنتقي لك رجالًا أكْفاء. لكنهم قد يسطون عليك رغم ذلك. لا أستطيع مساعدتك حالَما تتجاوز الحدود، لكنني سأرسل برقية إلى أوسترتسي، وسيتَّخذ الإجراءات اللازمة إذا وقعت أي مشكلة. ما زلتُ أرى أنه كان من الحكمة أن تُرضي السيد راستا.»

وبينما كنتُ مغادرًا أعطاني برقية. «هذه برقية مُرسَلة إلى ربانك الكابتن شينك.» فدسستُ الظرف في جيبي وخرجت.

كان شينك مريضًا جدًّا؛ لذا تركتُ له رسالةً صغيرة. انطلق القطار في الساعة الواحدة حاملًا اثنَين من الجنود الاحتياطيين الألمان في كل شاحنة، وأنا وبيتر في عربةٍ مُخصصة للأحصنة. سرعان ما تذكرتُ برقية شينك، التي كانت لا تزال في جيبي. فأخرجتُها وفتحتُها وأنا أنوي إرسالها إليه من أول محطةٍ نتوقف عندها. لكني غيرتُ رأيي حين قرأتها. كانت مُرسَلةً إليه من مسئولٍ ما في ريجنسبورج، طالبًا منه القبض على رجلٍ يُدعى براندت، يُعتقَد أنه صعد على متن باخرة في أبستافن في يوم ٣٠ ديسمبر، وإعادته بأول قارب.

صفَّرتُ وأريتُ بيتر إيَّاها. كان واضحًا أننا كلما أسرعنا في الوصول إلى القسطنطينية كان ذلك أفضل لنا، ودعوتُ الرب أن نصل إلى هناك قبل أن يعيد صاحب البرقية إرسالها، ويجعل القائد يُبلِغ الرسالة قبل وصولنا، فيعترضوا طريقنا في جتالجة. فقد كنتُ مصممًا بشدة على موقفي بخصوص هذه الذخائر، وكنت مستعدًّا لخوض أي مخاطرة من أجل إيصالها سالمةً إلى مالكها الحقيقي. لم يستطع بيتر أن يفهم موقفي إطلاقًا. كان لا يزال راغبًا بشدة في إلحاق تلفٍ بالِغٍ بالذخائر أثناء نقلها. ولكن لا عجب في ذلك؛ فسلامة الشحنة لم تكن ضِمن اختصاص بيتر المهني، وكبرياؤه لم تكن مُهدَّدة. كانت رحلتنا بطيئة بُطئًا قاتلًا. لقد كانت بشعة في بلغاريا أصلًا، ولكن حين عبرنا الحدود عند مكانٍ يُدعى مصطفى باشا، اصطدمنا بالخمول الحقيقي للشرق. من حُسن الحظ أنني صادفتُ ضابطًا ألمانيًّا كان يعي أهمية الإسراع، وعلى كل حال، كان من مصلحته ضمان نقل الشحنة إلى وجهتها. وفي صباح يوم السادس عشر، بعدما كنتُ أنا وبيتر نعيش كالخنازير على خبز أسود وطعام مُعلَّب لعين، أصبحنا نرى بحرًا أزرق عن يميننا، وأدركنا أنَّ نهاية الرحلة باتت قريبةً بلا شك.

كانت الرحلة قُرب نهايتها مرحةً من منظورٍ آخر. فعندما توقفنا عند محطةٍ ما، وكنا نتمشى قليلًا على الرصيف لنُحرك أرجُلنا، رأيتُ شخصًا مألوفًا يقترب. كان راستا، ومعه ستة من رجال الدرك الأتراك.

ناديتُ بيتر، وتسلَّقْنا بصعوبةٍ إلى الشاحنة المجاورة لعربة الأحصنة التي كنا فيها. كنتُ أتوقع خطوة كهذه نوعًا ما، وأعددتُ لها خطة سلفًا.

جاء إلينا التركي مُتبخترًا وخاطبنا. قال: «يُمكنكما العودة إلى روسجق. سأتولى أنا زمام الأمور منكما هنا. أعطِياني الأوراق.»

سألته ببراءة: «هل هذه جتالجة؟»

قال بعجرفة: «هذه نهاية علاقتكما بالشحنة. أسرِعا، وإلَّا فستواجِهان عواقب وخيمة.»

قلت: «أصغِ إليَّ يا بُني؛ أنت طفل ولا تعرف شيئًا. سأُسلِّم الشحنة إلى الجنرال فون أوسترتسي ولا أحد سواه.»

صاح قائلًا: «أنت في تركيا، وستُطيع الحكومةَ التركية.»

قلت: «سأطيع الحكومة بالتأكيد، ولكن إذا كنتَ أنت الحكومة، فأستطيع تشكيل حكومةٍ أفضل بمريلة أطفالٍ وخُشخيشة.»

قال شيئًا لرجاله، فأنزلوا بنادقهم عن أكتافهم.

قلت: «رجاء لا تبدأ إطلاق النار. ففي هذا القطار اثنا عشر حارسًا مسلحًا مُستعدون لأخذ أوامرهم منِّي. وفوق ذلك، فأنا وصديقي بارعان قليلًا في إطلاق النار.»

صاح قائلًا وهو يستشيط غضبًا: «أحمق! أستطيع إحضار كتيبة كاملة في غضون خمس دقائق بأمرٍ منِّي.»

فقلت: «ربما يكون هذا صحيحًا، لكن تأمَّل الوضع. أنا جالس على كمية من التولوين تكفي لنسفِ هذا الريف. إذا تجرأتَ على الصعود إلى متن القطار، فسأطلق عليك النار. وإذا استدعيتَ كتيبتك، فسأُخبرك بما سأفعله. سأطلق هذه المتفجرات، وأعتقد أنهم عندئذٍ سيلملمون أشلاءك أنت وكتيبتك من شبه جزيرة جاليبولي.»

حاوَلَ استعراض قوته وترهيبي بأسلوبٍ أجوف غير مُقنِع، وتحدَّيتُه أن ينفِّذ تهديده. رأى أنني كنتُ جادًّا فيما أقول، فلانت شدتُه.

قال: «إلى اللقاء أيها السيد. لقد حظيتَ بفرصةٍ عادلة ورفضتها. سنلتقي مجددًا عمَّا قريب، وستندم على وقاحتك.»

مشى بعيدًا بتبختُر، وبالكاد منعتُ نفسي من أن أركض وراءه. كنت أريد أن أُمسك جسده بإحكامٍ على ركبتي وأصفعه على مؤخرته.

وصلنا سالِمين إلى جتالجة، واستقبلنا فون أوسترتسي بحفاوة كما لو كنا شقيقَيه ورجعنا إليه بعد غيابٍ طويل. كان مثالًا نموذجيًّا لضابط المدفعية؛ إذ لم يكن يشغل باله سوى مدافعه وقذائفه. اضطُررت إلى الانتظار نحو ثلاث ساعات ريثما يراجع محتويات الشحنة ويطابقها بالفواتير، ثم أعطاني إيصالًا ما زال بحوزتي حتى الآن. أخبرته بما فعله راستا، واتفق معي في أنني فعلت الصواب. لم يجعله ذلك يستشيط غضبًا مثلما

توقعت؛ لأنه قد تسلَّم شحنته سالمةً على أيِّ حال. كل ما هنالك أنَّ الأتراك البائسين اضطُروا إلى دفع ثمن الشحنة كلها مرتَين.

قدَّم لنا أنا وبيتر الغداء، وكان مهذبًا جدًّا، وراغبًا في الحديث عن الحرب. كنت أتمنَّى أن أسمع ما كان يريد قوله؛ لأنَّ هذا كان سيُطلعني على بعض خبايا حملة ألمانيا في الشرق، لكنني لم أجرؤ على الانتظار. فقد تصل برقية تُجرِّمني من روسجق في أي لحظة. وأخيرًا أعارنا سيارة لتُقِلنا إلى المدينة التي كانت على بُعد بضعة أميال.

وهكذا شهدَت الساعة الثالثة وخمس دقائق من مساء السادس عشر من يناير دخولَنا أنا وبيتر القسطنطينية دون أي شيءٍ سوى الثياب التي كنَّا نرتديها.

كانت معنوياتي مرتفعة؛ لأنني قد بلغت وجهتي الأخيرة بنجاح رغم كل الصعوبات، وكنتُ أتطلع بجنونٍ إلى لقاء صديقيَّ، لكني مع ذلك أُصبتُ بخيبة أمل شديدة من أول نظرة إلى المدينة. لستُ متيقنًا تمامًا من ماهية توقعاتي السابقة لها، ربما كنت أتصورها مدينةً شرقية شبيهة بعالم الجن الخيالي، تكتسي كلها برخام أبيض ومياه زرقاء، تعج بأتراك مهيبين يرتدون أردية بيضاء، وحوريات مُحجبات، وورود وعنادل، وفرقة من عازفي الآلات الوترية تعزف موسيقى عذبة. كنتُ ناسيًا أنَّ الشتاء واحدٌ تقريبًا في كل مكان. كان يومًا مشوبًا بمطرٍ خفيف ورياح جنوبية شرقية، وكانت الشوارع أشبه بأحواض طويلة من الوحل. كان أول جزء صادفته منها أشبه بضاحيةٍ استعمارية قاتمة قذرة؛ إذ كان يعجُّ ببيوت خشبية وسقوف من الحديد المموَّج، وعدد لا حصر له من أطفال شاحبين متَّسخين. أتذكر أنني وجدتُ هناك مقبرة، حيث كانت قبعاتٌ تركية مُعلقة على رأسِ كل قبر. ثم ولجنا إلى شوارع ضيقة منحدرة تؤدي إلى مجرًى مائي أشبَهَ بقناةٍ كبيرة. رأيتُ ما افترضتُ أنه مساجد ومآذن، وكانت مُبهرة كمداخن المصانع. وبعد بعض الوقت عبرنا جسرًا، ودفعنا بنسًا مقابل نَيل شرف عبوره. لو كنت أعرف آنذاك أنَّ ذلك هو القرن الذهبي الشهير، لكنتُ نظرت إليه باهتمامٍ أكبر، لكني لم أرَ شيئًا سوى صنادل كثيرة متآكلة بفعلِ العث، وبعض القوارب الصغيرة الغريبة تُشبه الجنادل. ثم دخلنا شوارع أكثر ازدحامًا؛ حيث وجدنا عربات أجرة متهالكة تجرها خيول عجاف تخشخش عبر الوحل. رأيت رجلًا عجوزًا واحدًا يُشبه تصوري عن الأتراك، لكن معظم السكان كانوا أشبه بالرجال ذوي الثياب القديمة في لندن. كلهم باستثناء الجنود، الذين كانوا أتراكًا وألمانًا، وكانوا أقوياء البنية حِسان الهندام.

كان بيتر ماشيًا بجواري يخوض بقدمَيه في الوحل ككلبٍ وفيٍّ، دون أن يتفوَّه بأي كلمة. ولكن بدا واضحًا أنه لم يكن يستحسن تلك العاصمة الرطبة القذرة.

وإذا به يقول فجأة: «هل تعرف أننا مُلاحَقون يا كورنيليس؟ منذ اللحظة التي أتينا فيها إلى تلك البلدة الكريهة الرائحة.»

كان بيتر لا يُخطئ أبدًا في شيء كهذا. أفزعني هذا الخبر بشدة، خوفًا من أن تكون البرقية قد وصلت إلى جتالجة. ثم ارتأيت أنَّ هذا غير ممكن؛ لأنَّ فون أوسترتسي لو كان يريد القبض عليَّ ما كان ليتكبَّد عناء مُلاحقتي خلسة. كان ذلك هو صديقنا راستا على الأرجح.

وجدتُ عبَّارة راتشيك بعدما سألت جُنديًّا عنها، وأخبرني بحار ألماني هناك بمكان البازار الكردي. أشار نحو أعلى شارعٍ منحدر ممتدٍّ بمحاذاة بنايةٍ عالية من مخازن كلُّ نوافذها مكسورة. كان ساندي قد قال إنَّ البازار يقع على اليسار إذا كان المرء متجهًا إلى أسفل الشارع؛ لذا فمن المؤكد أنه يقع على اليمين عندما نكون متجهين نحو الأعلى. غصنا داخل الشارع، ووجدناه أقذر مكانٍ على الإطلاق. كانت الرياح تهبُّ نحو أعلاه مُحدِثة صفيرًا، وتثير القمامة في الهواء. وكان يبدو مكتظًّا بالسكان؛ إذ وجدنا عند كل الأبواب مجموعاتٍ من الأشخاص جالسين القرفصاء، مُغطِّين رءوسهم، مع أننا لم نرَ أي نوافذ تقريبًا في الجدران الصمَّاء.

كان الشارع مُلتويًا وممتدًّا إلى ما لا نهاية. كان يبدو في بعض الأحيان أنه يتوقف، ثم يجد فجوة في البناء المقابل له فيشقُّ طريقَه خلالها. وجدنا أغلبه غارقًا في ظلام شِبه دامس، باستثناء بصيصٍ من الشفق الرمادي يتخلَّله بين الحين والآخر في المواضع القليلة التي كان عَرضُ الشارع عندها معقولًا. لم يكن من السهل العثورُ على منزل في هذا الظلام، وبحلول الوقت الذي قطعنا فيه رُبع ميل، بدأتُ أخشى أن نكون قد مرَرْنا عليه بالفعل دون أن نُلاحظه. لم يكن من المُجدي أن نسأل أي شخصٍ من الحشود التي كنا نلتقيها. فقد كان يبدو أنهم لا يفهمون أي لسانٍ مُتحضر.

وأخيرًا تَعثَّرنا به مصادفة؛ كان مقهًى مُتهدمًا يحمل كلمة «إيه كوبراسو» مكتوبة فوق بابه بخطٍّ غريب يفتقر إلى التمرُّس. وكان في داخله مصباح متَّقد، ورجلان أو ثلاثة يُدخنون على طاولات خشبية صغيرة.

طلبنا قهوة، لكنها كانت سوداء ثقيلة كالعسل الأسود، فلعنها بيتر. أحضرها إلينا رجل زنجي، وقلت له بالألمانية إنني أريد محادثة السيد كوبراسو. لم يُرْعِني انتباهًا، فصرختُ فيه بصوتٍ أعلى، وعندئذٍ خرج رجل من الجزء الخلفي من المقهى على أثر الضجيج.

كان رجلًا سمينًا عجوزًا بعض الشيء ذا أنف طويل، تمامًا كالتجار اليونانيين الذين يُشاهَدون على ساحل زنجبار. أشرتُ له فتقدَّم نحوي متهاديًا بخطواتٍ متثاقلة، ومبتسمًا بتزلُّف. ثم سألته ماذا سيأخذ، فأجابني بلهجة ألمانية شديدة التلعثم قائلًا إنه يريد شرابًا سكريًّا مركَّزًا.

قلت: «أنت السيد كوبراسو. لقد أردتُ أن أُرِي صديقي هذا المكان. فهو قد سمع عن كوخ حديقتك والمرح الذي هناك.»

فقال: «السيد مخطئ. فليس لديَّ أي كوخ كهذا.»

قلت: «هراء؛ فأنا أتيتُ إلى هنا من قبل يا بُني. أتذكر كوخك الخلفي وكثيرًا من ليالي المرح التي عشتها هناك. ماذا كنتم تسمُّونه؟ أوه، تذكرت؛ كوخ حديقة سليمان الأحمر.»

وضع إصبعه على شفتِه ليُسكتني، وبدا خبيثًا للغاية. قال: «السيد يتذكر ذلك. لكنَّ ذلك كان في الأيام الخوالي السعيدة قبل اندلاع الحرب. المكان مُغلق منذ فترةٍ طويلة. فالناس هنا أفقر من أن يرقصوا ويغنوا.»

قلت له: «لكني أريد إلقاء نظرة أخرى عليه»، ودسستُ في يده جنيهًا ذهبيًّا إنجليزيًّا.

نظر إليه متفاجئًا وتغيَّر أسلوبه. قال: «سيادته أمير، وسألبِّي رغبته.» صفَّق بيدَيه فظهر الزنجي، وبإيماءةٍ منه حل محلَّه خلف نَضَد جانبي صغير.

قال: «اتبعاني»، وقادنا عبر زقاق طويل كريه الرائحة كان غارقًا في الظلام، مرصوفًا رصفًا غير متساوٍ. ثم فتح بابًا موصدًا، فأمسكَته دوامةٌ من الرياح ودفعته نحونا مجددًا.

ثم دخلنا ووجدنا أنفسنا ننظر إلى فناءٍ صغير وضيع؛ كان مُحاطًا من أحد جانبَيه بجدارٍ مُنحنٍ عالٍ يبدو عتيقًا، يحمل شقوقًا تتخلَّلها شجيرات نامية. كانت توجَد بعض نباتات الآس الضامرة في أُصُص مكسورة، ووجدنا أعشابًا من القراص قد نَمَت في أحد الأركان. رأينا عند أحد طرفَيه مبنًى خشبيًّا يُشبه كنيسةً مُنشقة، لكنه كان مطليًّا بلونٍ قرمزي قاتم مُتسخ. كانت نوافذه ومناوره سوداء من كثرة الدنس، وكان بابه، المربوط بحبل، يتأرجح مع الريح.

قال كوبراسو بفخر: «انظروا إلى مقصورة الاستراحة.»

قلتُ متظاهرًا بشعورٍ من الحنين: «هذا هو المكان القديم. يا لها من أوقاتٍ تلك التي قضيتُها فيه! أخبِرْني يا سيد كوبراسو، هل تفتحه في الوقت الحاضر لأي سبب؟»

وضع شفتَيه الغليظتَين في أُذني.

وقال: «إذا كنت ستلتزم الصمت أيها السيد، فسأُخبرك. يُفتَح أحيانًا، لكن ليس كثيرًا. فالرجال يجب أن يُرفِّهوا عن أنفسهم، حتى في وقت الحرب. يأتي بعض الألمان هنا للاستمتاع والترفيه عن أنفسهم، وفي الأسبوع الماضي للتو، استضفنا عرض باليه الآنسة سيسي. الشرطة توافق على ذلك، لكن ليس كثيرًا؛ لأنَّ هذا ليس وقتًا مناسبًا للإفراط في المرح. سأبوح لك بسر. بعد ظهر غد سيشهد المكان هنا رقصًا، رقصًا رائعًا! لا أحد يعرف هذا سوى قِلة من زبائني. خَمِّن من سيأتي إلى هنا؟»

حنى رأسه ليقترب منِّي أكثر، وقال هامسًا:

«فرقة رفاق الأوقات الوردية.»

قلت بنبرة احترام لائقة: «أوه، حقًّا»، مع أنني لم أفهم قصده.

«هل تريد المجيء أيها السيد؟»

قلت: «بالتأكيد. سيأتي كِلانا. فنحن من أشدِّ مُحبي الأوقات الوردية.»

«إذن تعاليا غدًا في الساعة الرابعة بعد الظهر. امشيا قُدمًا في اتجاهٍ مستقيم عبر المقهى، وستجدان رجلًا في انتظاركما ليفتح الباب الموصد. أنتما وافدان جديدان هنا، أليس كذلك؟ خُذا نصيحة أنجلو كوبراسو واجتنِبا الشوارع بعد حلول الليل. فإسطنبول في الوقت الحاضر ليست مكانًا آمِنًا للرجال المُسالمين.» طلبتُ منه أن يرشح لنا فندقًا مناسبًا، فسرد علينا قائمة طويلة بسرعة، واخترت منها فندقًا بدا متواضعًا من اسمه، يتماشى مع شكل ثيابنا العجيب. لم يكن بعيدًا؛ إذ كان يقع يمينًا عند قمة التل على بُعد مائة ياردة فقط.

عندما خرجنا من باب مقهاه، كان الليل قد بدأ يسدل أستاره. لم نكد نقطع عشرين ياردة حتى اقترب منِّي بيتر بشدة وظلَّ يتلفَّت كظبي طريد.

قال بهدوء: «نحن مُلاحَقان عن كثب يا كورنيليس.»

وبعد عشر ياردات أخرى كنا عند مُفترَق طرق، حيث وجدنا «ساحة» صغيرة أمام مسجدٍ كبير بعض الشيء. رأيتُ في الضوء المُتضائل حشدًا من الناس بدا أنهم قادمون نحوَنا. سمعتُ صوتًا عاليًا يصيح مهذرمًا بكلماتٍ حماسية، وبدا لي أنني سمعت ذلك الصوت من قبل.

الفصل الحادي عشر

رفاق الأوقات الوردية

ناضلنا حتى أوَينا إلى ركنٍ عند نتوءٍ بارز من أحد المباني إلى الشارع. كانت فرصتنا الوحيدة لنحمي ظهرَينا أن نقف بحيث يكون ذاك النتوء الحجري حائلًا بيننا وبينهم. لم يستغرق ذلك سوى ثوانٍ معدودة. ففي لحظةٍ كنا نتحسَّس طريقنا وحدَنا في الظلام، وفي اللحظة التالية كنا مُلتصقَين بجدارٍ وسط حشد من الغوغاء تصدر منهم أصوات غليظة تتدفَّق من حولنا.

استغرقتُ لحظةً أو اثنتَين لأُدرك أننا كنا نتعرض لهجوم. فكل رجل لديه في مؤخرة رأسه هاجس مُرعب خاص به، ودائمًا ما كان هاجسي أن يُطاردني حشدٌ غاضب. كنت أكره تلك الفكرة، بكلِّ ما تحمله من فوضى، وشجار أعمى، وإحساس بانفعالات جامحة مختلفة عن تلك التي تصدر من وغدٍ واحد فقط. كان عالمًا مُظلمًا بالنسبة إليَّ، وأنا لا أحب الظلام. لكنني في كوابيسي لم أتخيل شيئًا كهذا من قبل. الشارع النتن الضيق، والرياح الثلجية التي كانت تُثير القاذورات في الهواء، ولُغتهم غير المفهومة، وغمغمتهم الجشَّاء المتوحشة، وجهلي التام بأسباب كلِّ هذا؛ كلها أشياء أشعرتني بألَمٍ في بطني من شدة الخوف.

قلتُ لبيتر، الذي كان قد أخرج المسدس الذي أعطاه إيَّاه القائد في روسجق: «لقد وقعنا في مأزق شديد هذه المرة يا صديقي.» كان هذان المسدسان سلاحنا الوحيد. صحيح أنَّ الرجال المُحتشدين رأَوهما وتراجعوا، ولكن لو قرروا الانقضاض علينا، فلن ينفعنا المُسدسان في التصدي لهم.

كان صوت راستا قد توقف. فقد أدى دوره، وتنحَّى جانبًا. كان الحشد يصيح ويُردد كلمتَي «أوليمان» و«خُفية» باستمرار. لم أكن أعرف معناهما آنذاك؛ لأنهم كانوا يقولونهما بالعثمانية، لكني صرتُ أعرف الآن أنهم كانوا يُطاردوننا لأننا ألمان وجواسيس.

فرعاع القسطنطينية كانوا لا يُحبون أسيادهم الجدد. بدت مفارقةً غريبة لنا أنا وبيتر أن نُقتَل لأننا ألمان. وكان من المُرجَّح أننا سنُقتَل. فقد سمعتُ من قبل أنَّ الشرق مكان مُناسب لقتل الآخرين بكل سهولة؛ إذ لم تكن هناك صحف فضولية ولا شُرطة شريفة نزيهة.

تمنيتُ من الرب لو كنتُ أعرف ولو كلمة تركية واحدة. لكني أسمعتهم صوتي ثواني عندما سكتَ الضجيج لحظيًّا، وصحتُ قائلًا إننا بحاران ألمانيان أحضرا مدافع كبيرة إلى تركيا، عائدان إلى وطننا في اليوم التالي. سألتهم ما الجُرم الذي يظنون أننا فعلناه بحق السماء؟ لا أعرف ما إذا كان فيهم أي أحدٍ قد فهم الألمانية، وعلى أي حال، لم يُسفِر كلامي إلَّا عن جلبةٍ من الصيحات سادت فيها كلمة «خفية» المشئومة تلك.

حينئذٍ أطلق بيتر النار فوق رءوسهم. كان مضطرًّا إلى ذلك؛ لأنَّ أحدهم كان قابضًا بأظافره على حلقومه. فأتانا الرد بصلصلةِ وابلٍ من الرصاص على الحائط من فوقنا. بدا كأنهم يريدون أخذنا أحياء، وكنتُ مقتنعًا تمامًا بأنَّ هذا ينبغي ألا يحدث. فقد كنت أفضِّل أن تنتهي حياتي نهايةً دموية في شجار بالشارع على أن أُصبح تحت رحمة ذلك القاتل المأجور الأجوف.

لا أعرف إطلاقًا ماذا حدث بعدئذٍ. اندفعت مجموعة منهم نحوي، فأطلقتُ النار. ولوَلَ أحدهم وصرخ بأعلى صوته، وشعرتُ في اللحظة التالية بأنني أُختَنق. ثم توقف الشجار فجأة، ورأيت بصيصًا متذبذبًا من الضوء في تلك الحفرة المعتمة.

لم أمر بلحظات أسوأ من هذه طول حياتي. صحيح أنني كنتُ عالقًا في غموضٍ شديد حين كنت مطارَدًا في الأسابيع الماضية، لكني لم أكن أواجه خطرًا وشيكًا كهذا. وحتى عندما كنتُ أواجه خطرًا ماديًّا مُلحًّا حقيقيًّا، كما حدث في لوس، كان الخطر واضحًا على أيِّ حال. كان المرء يُدرك ما هو مقبل عليه. لكني هنا كنت أمام تهديدٍ لم أستطع تسميتَه، ولم يكن مُستقبليًّا، بل كان مُلحًّا يخنق رقابنا بالفعل.

لكني لم أشعر إطلاقًا بأنه كان حقيقيًّا تمامًا. فطقطقة اصطدام طلقات المسدس بالجدار، كأنها مُفرقعات نارية كثيرة، والوجوه التي كانت محسوسةً دون أن تكون مرئية في الظلام الدامس، والضجيج الذي كان مجرد هراء غير مفهوم، كلها أشياء كانت تحمِل طابع الجنون الذي تتَّسِم به الكوابيس. وحده بيتر، الذي لم يتوقف عن السباب بالهولندية بجواري، هو الذي كان حقيقيًّا. ثم جاء الضوء وجعل المشهد أشد غرابة!

كان مُنبعثًا من بضعة مشاعل يحملها رجال بربريون ذَوو هراوات طويلة، شقوا طريقهم وسط هؤلاء الرعاع عَنوة. اصطدم وهَجُه المرتعش بالجدران المُنحدرة فأنشأ

ظلالًا مُخيفة عليها. وكانت الرياح تؤرجح ألسنة اللهب فتحوِّلها إلى شرائط طويلة تتلاشى في صورة شررٍ متناثر كالمروحة.

وعندئذٍ سُمِعَت كلمة جديدة في الحشد. فقد صرخ أحدهم قائلًا: «الغجر»، لكن ليس غضبًا، بل خوفًا.

لم أستطع رؤية الوافدين الجُدد في البداية. فقد كانوا مُستترين في الظلام الدامس تحت مظلةٍ من النور؛ لأنهم كانوا يحملون مشاعلهم عاليًا عند أقصى امتداد لأذرعهم. كانوا هم أيضًا يصرخون صرخات بربرية حادة يختتمونها أحيانًا بفيضٍ من الكلام السريع. كان يبدو أنَّ كلامهم ليس موجهًا إلينا، بل إلى الحشد المحيط بنا. راودني أمل مفاجئ؛ إذ شعرت بأنهم كانوا في صفِّنا لسبب لا أعرفه.

لم يَعُد الحشد متكالبًا علينا. كان ينفضُّ بسرعة، وسمعت صوت الاشتباك أثناء هروب الرجال إلى شوارع جانبية. خطر ببالي في البداية أنَّ هؤلاء من الشرطة التركية. لكن تغير رأيي عندما ظهر قائدهم في بقعةٍ من الضوء. لم يكن يحمِل أي مشعل، بل مجرد هراوة طويلة كان يهوي بها مرارًا على رءوس من لم يستطيعوا الهرب بسبب شدة تزاحمهم.

كان ذلك أغرب ظهور يُمكن تصوره، بل كان أشبه بظهور الأشباح. رجل طويل القامة، مُكتسٍ بثيابٍ من الجلد، عاري الساقَين، مُنتعلٌ صندلًا. كانت لدَيه جديلةٌ من قماش قرمزي اللون معلقة بكتفَيه، وكان رأسه مُغطًّى من أعلاه إلى ما فوق عينَيه بقلنسوة ضيقة من جِلد أحد الحيوانات، ولها ذيلٌ يتأرجح خلفها. كان يتحرك بخطواتٍ وثَّابة كحيوان بري، مواصلًا التحدُّث بنبرةٍ رتيبة عالية غريبة بثَّت رعبًا شديدًا في نفسي.

أدركت فجأة أنَّ الحشد قد انفضَّ تمامًا. لم يكن أمامنا سوى هذا الشخص ورفاقه الستة الذين كان بعضهم يحمل مشاعل، وكانوا كلهم يرتدون ثيابًا من الجلد. لكنَّ الشخص الذي بدا قائدهم هو فقط الذي كان يعتمر القلنسوة الضيقة، أمَّا البقية، فكانوا حسيري الرءوس، وكان لهم شعر طويل مُتشابك.

كان الرجل يصرخ في وجهي بكلامٍ غير مفهوم. كانت عيناه زجاجيتَين، كمن يُدخِّن القنب، ولم تكن ساقاه تتوقفان عن الحركة أبدًا ولو ثانية واحدة. ربما تظنون للوهلة الأولى أنَّ شخصًا كهذا مجرد دجال أو مشعوذ، ولكن لم يكن فيه أي شيء هزلي. بل كان به شيء مُخيف وشرير وغير طبيعي، ولم أكن أشعر إطلاقًا بأيِّ رغبةٍ في الضحك.

ظلَّ أثناء صراخِه يشير بهراوته نحو أعلى الشارع الذي كان يمتد صعودًا إلى جانب التلة.

قال بيتر: «إنه يقصد أن نتحرك. من أجل الرب دعنا نبتعِد عن هذا الطبيب المشعوذ.»

لم أستطع فهم مقصده، ولكن شيئًا واحدًا كان واضحًا لي. أنَّ هؤلاء المجانين أنقذونا مؤقتًا من راستا وأصدقائه.

ثم فعلت شيئًا في غاية السخافة. أخرجتُ جنيهًا ذهبيًّا إنجليزيًّا ومددتُ يدي به إلى القائد. خطر ببالي أن أُعبِّر عن امتناني له، ولأنَّ الكلمات لم تُسعفني؛ اضطُررت إلى التعبير عنه بالفعل.

أنزل عصاه على معصمي، فسقطتِ العملة وظلَّت تلفُّ في مزراب الشارع. اتَّقد الشرر في عينَيه وجعل هراوته تُدندن حول رأسي. شتمني، ومع أنني كنتُ بارعًا في التلفظ بالشتائم، لم أفهم أي كلمةٍ من سُبابه، ثم صاح في أتباعه فجعلوا يَسبونني هم أيضًا. اتضح لي عندئذٍ أنني أهنته إهانةً قاتلة، وأثرتُ عشَّ زنابير أسوأ من عصابة راستا.

وجدتُ نفسي أنا وبيتر نركض فورًا بدافعٍ تلقائيٍّ مشترك بيننا. فنحن لم نكن نسعى إلى إثارة أي مشكلاتٍ ضد هؤلاء الرجال المَمسوسين من الشيطان. ركضنا نحو أعلى الزقاق الضيق الشديد الانحدار وفي أعقابنا هذا الحشد من المُختلِّين. كان يبدو أنَّ المشاعل قد انطفأت؛ لأنَّ المكان كان حالك السواد كالقار، وظلِلْنا نتعثر في أكوامٍ من الفضلات، ونتخبط في مياه المصارف الجارية. كان الرجال من خلفنا على مسافةٍ قريبة، وشعرتُ أكثر من مرة بعصًا على كتفي. لكنَّ الخوف أعطانا أجنحة، وفجأة وجدنا أمامنا وهجًا من الضوء، ورأينا شارعنا ينفتح على طريقٍ رئيسي. وقد رأى الآخرون ذلك أيضًا لأنهم تباطئوا. وقُبيل أن نصل إلى الضوء بقليل، توقفنا ونظرنا حولنا. لم نسمع صوتًا ولم نرَ شيئًا خلفنا في الزقاق المظلم الذي كان منحدرًا إلى الأسفل نحو المرفأ.

قال بيتر وهو يتحسَّس أطرافه بحثًا عن أي كدمات: «هذا بلد غريب يا كورنيليس. أشياء كثيرة جدًّا تحدُث في وقتٍ قصير جدًّا. لقد انقطعت أنفاسي.»

كان يبدو أنَّ الشارع الكبير الذي صادفناه مُمتد على طول قمة التل. كان فيه مصابيح وعربات أجرة بطيئة ومحلات بدت متحضرة الشكل كثيرًا. سرعان ما وجدنا الفندق الذي أرشدَنا إليه كوبراسو؛ كان مبنًى كبيرًا يقع في باحةٍ، وله رواقٌ متهالك جدًّا، وشيش أخضر كان يصلصل برتابةٍ كئيبة في رياح الشتاء. تبيَّن لي، كما كنت أخشى، أنه مكتظٌّ للغاية، وكان أغلب روَّاده من الضباط الألمان. واستطعتُ بعد مشقةٍ أن أُقابل المالك،

الذي كان يونانيًّا كالمعتاد، وأخبرته بأن السيد كوبراسو أرسلنا إلى هناك. لم يتأثر بذلك إطلاقًا، وكنا سنُلقَى في الشارع لولا أنني تذكرت تصريح المرور الذي أعطاني إياه شتوم.

وهكذا شرحت له أننا قد أتينا من ألمانيا بشحنة ذخائر، ونريد غرفتَين لليلة واحدة فقط. أريته التصريح وتبجَّحت بشدة حتى صار مهذبًا، وقال إنه سيفعل أفضل ما بوسعه من أجلنا.

لكنَّ هذا الأفضل كان أسوأ ما يكون. فقد تشاركنا أنا وبيتر غرفة صغيرة لا تحوي إلَّا سريرَيْ تخييم، وقليلًا من قطع الأثاث، ونوافذ مكسورة تتسرَّب من خلالها رياح صافرة. تناولنا عشاء بائسًا من لحم ضأنٍ قاسِي الألياف، مسلوق مع الخضراوات، وجبن أبيض ذي رائحة قوية بما يكفي لإحياء الموتى في قبورهم. لكني حصلت على زجاجة ويسكي مقابل جنيهٍ ذهبي إنجليزي، وتمكنَّا من إشعال الموقد في غرفتنا، وإغلاق شيش النوافذ بإحكام، ودفَّأنا قلوبنا بشراب مُخمَّر من الويسكي والسُّكَّر. ثم خلدنا إلى فراشَينا، ونمنا هامدَين بلا حراكٍ كجذوع الشجر اثنتي عشرة ساعة. فطول رحلتنا من روسجق كان نومُنا متقطعًا مُضطربًا.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي ونظرتُ من النافذة المكسورة فوجدتُ الثلج يتساقط. استطعتُ بعد جهدٍ مُضنٍ أن أعثر على خادم، وجعلته يُحضر إلينا بعضًا من القهوة التركية الشبيهة بالعسل الأسود. كان كِلانا مكتئبًا جدًّا. قال بيتر: «أوروبا مكان بارد وضيع، ولا تستحق القتال من أجلِها. توجَد أرض واحدة فقط صالحة للرجل الأبيض، وهي جنوب أفريقيا.» كنتُ في ذلك الوقت أوافقه الرأي بشدة.

أتذكر أنني جلستُ على حافة فراشي أُقيِّمُ موقفنا. لم يكن الوضع باعثًا على التفاؤل. فقد بدا أننا كنا نجلب على أنفسنا عداوات متتالية بسرعةٍ جنونية. فبادئ ذي بدء، كنا مُطارَدين من راستا، الذي أهنتُه إهانة لن ينساها سريعًا. كان لديه حشد من الرعاع الأتراك، وحتمًا سيصل إلينا عاجلًا أو آجلًا. ثم هناك ذلك المخبول ذو القلنسوة الجلدية. لم يكن يُحب راستا، وخمَّنتُ أنه وأصدقاءه غريبي الأطوار مُنتمون إلى حزبٍ ما مُعادٍ للأتراك الشبان. لكنه على الجانب الآخر لم يكن يُحبنا نحن أيضًا، وارتأيتُ أننا سنقع في ورطة كبيرة إذا التقيناه مجددًا. وأخيرًا، كنا مُلاحَقين من شتوم والحكومة الألمانية. قد لا تمر سويعات، في أحسن الأحوال، قبل أن يجعل سُلطات روسجق تتعقبنا. سيكون من السهل عليهم تتبُّع طريقنا من جتالجة، وحالما يصلون إلينا، سنَهلِك لا محالة. كنا نواجه

قائمة سوداء كبيرة من الأعداء، وكان يبدو أنَّ التغلب عليهم مستحيل وإن حالفَنا حظُّ الدنيا كله.

كان واضحًا تمامًا لي أننا إذا لم نستطع العثور على ملاذٍ آمن، والتخلُّص من كل مُطاردينا المُختلفين خلال هذا اليوم، فسينتهي أمرنا إلى الأبد. ولكن أين كان يُمكن أن نجد ملاذًا بحقِّ السماء؟ فكِلانا لم يكن يعرف ولو كلمة من لغة البلد، ولم أرَ أي طريقة ممكنة للتنكُّر في شخصياتٍ جديدة. لذا كنا نحتاج إلى أصدقاء ومساعدة، وفكرتُ مليًّا، لكنني لم أتوصَّل إلى أيِّ مكانٍ قد أجد فيه مَن يُساعدني. كنت متيقنًا من وجود بلنكيرون في مكانٍ ما، ولكن أنَّى كان لي أن أتَّصِل به؟ أمَّا ساندي، فكنتُ فاقدًا الأمل تمامًا في نجاحه أصلًا. فمنذ البداية كنتُ أرى أنَّ خطته هي الأكثر جنونًا بين خططنا كلنا، وأنها ستفشل حتمًا. من المُرجَّح أنه كان في مكانٍ ما في آسيا الصغرى، وسيصل بعد شهرٍ أو اثنَين إلى القسطنطينية، ويسمع في إحدى الحانات حكاية الرجلين الهولندِيَّين البائسَين اللذَين اختفيا سريعًا جدًّا بلا أي أثر.

ارتأيتُ أنَّ ذلك اللقاء المُرتقَب في مقهى كوبراسو لن يكون مفيدًا. كان يُمكن أن يكون على أحسن ما يُرام لو كنَّا قد جئنا إلى هنا دون أن يعرف أحد بوجودنا، ولو كان بإمكاننا أن نواصل التردُّد عليه في هدوء ريثما يجدنا بلنكيرون. لكنَّ ذلك كان يستلزم أن نحظى بمُتسعٍ من الوقت وبعض السرِّية، في حين كنَّا مُطارَدين من قطيع من كلاب الصيد. كان المكان في غاية الخطورة بالفعل. فلو أظهرنا أنفسنا هناك فسنقع في قبضة راستا، أو الشرطة العسكرية الألمانية، أو المجنون ذي القلنسوة الجِلدية. كان من رابع المستحيلات أن نبقى منتظرين هكذا ريثما نقابل بلنكيرون، وهو ما كان احتمالًا مُستبعدًا.

فكرت بشيءٍ من الحسرة في أنَّ اليوم كان السابع عشر من يناير؛ يوم لقائنا المرتقب. كانت لديَّ آمال عريضة طول الطريق عبر نهر الدانوب في أنني سألتقي بلنكيرون — لأنِّي كنت أعرف أنَّه سيكون موجودًا في الموعد المُحدد — وأنني سأُعطيه المعلومات التي حالفني الحظ في جمعها، وأضمها إلى ما اكتشفه هو، فنُكوِّن الصورة الكاملة التي كان السير والتر متلهفًا لمعرفتها. ورأيت أنَّنا بعدئذٍ لن نجد صعوبةً في الهرب عن طريق رومانيا والعودة إلى وطننا عبر روسيا. كان لديَّ أمل في أنني سأعاود الانضمام إلى كتيبتي في فبراير بعدما أكون قد أديتُ مهمةً بطولية لا تقل عمَّا يفعله أي شخصٍ آخر في ميدان المعركة. ولكن بدا أنَّ معلوماتي ستموت معي، إلَّا إذا استطعتُ العثور على بلنكيرون قبل المساء.

ناقشتُ الأمر مع بيتر، واتفق معي في أنَّنا في ورطةٍ كبيرة. قررنا أن نذهب إلى مقهى كوبراسو بعد ظُهر ذلك اليوم، ونترك البقية للحظ. ما كنا لنستفيد شيئًا من التسكُّع في الشوارع؛ لذا لزمنا غرفتنا طوال الصباح، وظللنا نتبادل حكاياتٍ قديمة عن مغامراتنا في الصيد لنُشتت أذهاننا عن التفكير في الحاضر البغيض. تناولنا بعض الطعام في منتصف النهار؛ إذ أكلنا لحم ضأن باردًا ونفس الجُبن، وأنهينا زجاجة الويسكي. ثم دفعت الفاتورة لأنني لم أكن أجرؤ على البقاء هناك ليلةً أخرى. وقُرابة الساعة الثالثة والنصف نزلنا إلى الشارع، دون أدنى فكرة عن مأوانا التالي.

كان الثلج يتساقط بغزارة، وكان هذا من حُسن حظنا. لم يكن بيتر المسكين لدَيه معطف ثقيل؛ لذا ذهبنا إلى متجر يهودي واشترينا معطفًا جاهزًا رديئًا جدًّا بدا كأنه مُصمَّم لرجلٍ مُنشقٍّ عن الكنيسة. لم يكن ثمة جدوى من توفير أموالي في الوقت الذي بدا فيه المستقبل حالك السواد. جعل الثلج الشوارع خاوية، وانعطفنا نحو أسفل الزقاق الطويل المؤدي إلى عبَّارة راتشيك، فوجدناه هادئًا تمامًا. أظن أننا لم نقابل أي إنسان حتى وصلنا إلى محل كوبراسو.

مشينا مباشرة عبر المقهى الذي كان فارغًا، وسِرنا عبر الردهة المُظلمة حتى أوقف بابُ الحديقة مسيرنا. طرَقتُه ففُتح متأرجحًا على مفصلِه. وجدنا الفناء القاتم، الذي كان آنذاك موحِلًا من بِرَك الثلج الذائب، ورأينا وهجًا من الضوء عند مقصورة الاستراحة عند الجانب الآخر. وكذلك سمِعنا مداعبةً لأوتار بعض آلات الكمان، وصوت كلام بشري. دفعنا مالًا للزنجي الواقف عند الباب، وانتقلنا من هواء النهار القارس إلى داخل صالةٍ متوهجة مبهرجة.

كان هناك أربعون أو خمسون شخصًا يشربون القهوة والشراب السكري، ويملئون الهواء بأدخنة تبغ اللاذقية. كان معظمهم أتراكًا يرتدون ثيابًا أوروبية وطرابيش، ولكن كان بينهم بعض الضباط الألمان، وأناسٌ بدَوا مدنِيين ألمانًا، يُحتمَل أنهم كانوا موظفين مدنيين في فيلق سلاح الخدمات، وميكانيكيين من الترسانة. وجدنا امرأة مُرتدية حُليًّا مبهرجة رخيصة تُمرر أصابعها بعزفٍ بشِع على البيانو، ورأينا عدة نساء صاخبات برفقة الضباط. جلستُ أنا وبيتر بتواضُع في أقرب ركن، حيث رآنا كوبراسو العجوز وأرسل إلينا قهوة. جاءت إلينا فتاة تبدو يهودية وتحدَّثت بالفرنسية، لكنني هززتُ رأسي بالرفض، فابتعدَت عنَّا مجددًا.

بعد قليل صعدَت فتاة إلى خشبة المسرح ورقصت، لكنها كانت رقصة سخيفة خالية تمامًا من أي تناغُم بين صوت الدفوف والْتواءات جسدها. لقد رأيتُ نساء مَحلِّيات يؤدين

الرقصة نفسها بأداءٍ أفضل في قرية بموزمبيق. غنَّت فتاة أخرى أغنية ألمانية بسيطة عاطفية عن الشعر الذهبي وأقواس قزح، وصفَّق لها الألمان الحاضرون. كان المكان مزدانًا بكثيرٍ من الشرائط المبهرجة اللامعة، ومبتذلًا جدًّا لدرجة أنه جعلني ضجرًا؛ إذ كنتُ آتيًا إليه بعد أسابيع من السفر الشاق. نسيتُ أنَّ ذلك المكان، في حين قد يكون للآخرين مجرد قاعة رقص صغيرة سوقية، كان لنا محفوفًا بالأخطار كوَكرٍ لقُطاع الطرق.

لم يكن بيتر يشاركني حالتي المزاجية. كان مهتمًّا جدًّا بالمكان، مثلما كان يهتم بكل شيءٍ جديد. كان عبقريًّا في الاستمتاع باللحظة.

أتذكر أنني رأيتُ هناك ستارًا مسرحيًّا يحمل رسمةً غير مُتقَنة لبحيرة زرقاء، ومعها تلال بعيدة شديدة الخُضرة. ومع اشتداد كثافة دخان التبغ، واستمرار الصرير الصادر من آلات الكمان، بدأَت هذه الصورة المبهرجة تأسر لُبي. بدا كأنني أنظر من نافذة إلى منظر صيفي جميل خالٍ من أي حروب أو أخطار. بدا كأنني كنت أشعر بدفء الشمس، وأشم أريج أزهار من الجُزُر. ثم أدركتُ أنَّ رائحة غريبة قد تسللت إلى الجو.

كان يُوجَد عند طرفَي القاعة مجامر متقدة لتدفئتها، وكانت رائحة الدخان الضئيل المنبعث منها تُشبه رائحة البخور. كان أحدهم يضع مسحوقًا في اللهب منذ بعض الوقت؛ لأنَّ المكان أصبح هادئًا تمامًا فجأة. ظلَّت أصوات الكمان مستمرة، لكنها كانت بعيدة جدًّا كأنها مجرد صدًى. انطفأت الأنوار كلها باستثناء بقعةٍ من الضوء على خشبة المسرح، وفوجئتُ بعدوِّي ذي القلنسوة الجلدية يخطو إلى تلك البقعة.

كان معه ثلاثة آخرون. سمعتُ من خلفي همسًا بالكلمات نفسها التي كان كوبراسو قد قالها في اليوم السابق. كان هؤلاء المخبولون يُدعَون «رفاق الأوقات الوردية»، وكان كوبراسو قد وعدنا بأنهم سيُقدمون رقصًا رائعًا.

تمنيتُ من الرب ألَّا يرَونا؛ لأنهم أرعبوني في الليلة الماضية. كان بيتر يشاركني الشعور نفسه، وانكمشنا على أنفسنا بشدة في ذلك الركن المظلم. لكن الوافدين الجدد لم يلاحظونا.

وفي غمضة عين تحولت مقصورة الاستراحة من مجرد صالون مبتذل، كالذي قد يراه المرء في شيكاغو أو باريس، إلى مكان يسوده الغموض، أجل، والجمال أيضًا. تحول حقًّا إلى كوخ حديقة سليمان الأحمر، مع أننا لم نكن نعرف هوية ذاك الرجل الرائع الذي كان المكان يحمل اسمه. كان ساندي قال لنا إنَّ أطراف الأرض تتلاقى هنا في هذا المكان، وكان مُحقًّا. لم أعُد واعيًا إطلاقًا بأيٍّ من جيراني الجالسين بالقرب مني — الألماني البدين،

والتركي ذي المعطف الطويل، واليهودية الرثة الشعثاء — ولم أعد أرى سوى أجساد غريبة تقفز في دائرة من الضوء، أجساد خرجت من أعمق ظلام لتأتي بسحرٍ عظيم.

رمى قائدهم شيئًا ما في المجمرة، فاندلعت شرارة مروحية كبيرة من ضوء أزرق. كان يتراقص مكوِّنًا دوائر بجسده، وكان يغني شيئًا عاليًا حادًّا، في حين كان رفاقه يُشكِّلون جوقةً بنبرتهم الرتيبة العميقة. لا أعرف اسم تلك الرقصة. كنت قد رأيت الباليه الروسي قُبيل الحرب مباشرة، وذكَّرني أحد الرجال المُشاركين فيه بهذا الرجل. لكنَّ الرقصة نفسها لم تكن مهمَّة إطلاقًا على أي حال. لم تكن الأصوات ولا الحركة ولا الرائحة هي التي ألقت بتعويذةٍ ساحرة على الحاضرين، بل شيء أقوى تأثيرًا بكثير. ففي لحظةٍ واحدة، وجدتُ نفسي قد انتُشِلتُ من الحاضر بأخطاره المُملة، وأصبحت أمام عالَمٍ ينضح بالحيوية والنضارة والجمال. لم تعُد الستارة المسرحية المُبهرجة موجودة. بل صارت نافذة أنظر منها، وأُحدق إلى أجمل منظر طبيعي على وجه الأرض، مُضاء بنورِ الصباح الصافي النقي.

كان يبدو جزءًا من سهول أفريقيا، لكن لم يكن كأي سهلٍ رأيته في حياتي. كان أوسع وأكثر طبيعيةً وجاذبية. في الحقيقة كنتُ أنظر إلى أيام شبابي الأولى. كنتُ أشعر بنوعٍ من راحة البال الخالدة التي لا يعرفها إلا صبي في فجرِ صباه. لم أعد أشعر بأي خوفٍ من هؤلاء السَّحَرة. كانوا سحرة لطفاء جلَبوني إلى عالمٍ من الخيال.

ثم تساقطت قطراتٌ من الموسيقى رويدًا من الصمت المُطبق هناك. كان وقعُها كمياهٍ تتساقط داخل كوبٍ من ارتفاع عالٍ، وكان كلٌّ منها يحمل الطابع الأصلي لنقاء الصوت. لقد نسينا سحر النغمات المُفرَدة بسبب تناغمات موسيقانا المعقدة. السكان الأفارقة المحليون يعرفون ذلك، وأتذكَّر رجلًا مثقفًا أخبرني ذات مرة بأنَّ اليونانيين لدَيهم هذا الفن نفسه. بدت لي تلك النغمات أجراسًا فضيةً انطلقت من فضاء بلا حدود، وكانت فاتنة ومثالية جدًّا بما يفوق قُدرة أي كلمات دنيوية على أن تليق بها. أتوقَّع أنَّ تلك كانت الموسيقى التي تصدح بها نجوم الصباح حين تُغني معًا.

ثم تغيَّر كل ذلك ببطءٍ شديد جدًّا. تحول الوهج الأزرق إلى أرجواني، ثم إلى أحمر قانٍ غاضب. وتناسجت النغمات معًا رويدًا رويدًا حتى شكَّلت تناغمًا؛ تناغمًا شرسًا هائجًا. واستفقتُ مجددًا على الراقِصين المُتَّشحين بالجلد وهم يلوحون من دائرتهم للمتفرجين.

صار مَغزى الرقصة واضحًا تمامًا آنذاك. تلاشى كل الطابع الشبابي المتأنق، وصار في الهواء شغف يعصف به؛ شغف وحشي شنيع لا ينتمي إلى النهار ولا الليل، ولا إلى الحياة ولا الموت، بل إلى العالم الواقع في المنتصف بينهما. شعرت فجأة بالراقصين وقد تحولوا إلى

مخلوقاتٍ شنيعة شيطانية متوحشة لا صِلة لها بالبشر. بدا أنَّ الروائح القوية المتصاعدة من المجمرة تحمِل نفحةً من دماء مُهرَقة حديثًا. انطلقَت صرخات من المُستمعين؛ صرخات غضب وشهوة ورُعب. سمعتُ امرأةً تنشج باكية، ووجدت بيتر يتشبَّث بذراعي بقوة، مع أنه كان أشد صلابةً من أيِّ إنسان.

أدركتُ آنذاك أنَّ «رفاق الأوقات الوردية» هؤلاء هم الشيء الوحيد الذي يستحقُّ أن نخاف منه في الدنيا. بدا لي راستا وشتوم مجرد شخصَين ساذجَين ضعيفَين مُقارنةً بهم. تحولت النافذة التخيُّلية، التي كنت أنظر منها، إلى جدار سجن، وصرتُ أرى هذا الجدار بكل تفاصيله، حتى الملاط بين كُتَلِه الحجرية الضخمة. يستطيع هؤلاء الشياطين في غضون ثانيةٍ واحدة أن يتشمَّموا رائحة أعدائهم ويعثروا عليهم كالدجَّالين البغيضين. شعرتُ بأنَّ عينَيْ قائدهم المُتقدتَين تبحثان عني في الظلام. كان بيتر يدعو الرب بجواري بصوتٍ مسموع، وكدتُ أن أخنقه ليصمت. فثرثرتُه اللعينة كانت ستفضحنا؛ إذ بدا لي أنَّ المكان لم يعُد فيه سوانا نحن وأولئك السحرة.

ثم انكسرت التعويذة فجأة. فُتح الباب بقوة واندفعت عصفة شديدة من رياح جليدية عبر القاعة، وأثارت معها سُحبًا من رماد المجامر. سمعتُ أصواتًا عالية في الخارج، واندلعَت ضجة في الداخل. ساد المكانَ ظلمةٌ حالكة للحظة، ثم أضاء أحدهم واحدًا من المصابيح ذات الشعلة بالقُرب من خشبة المسرح. لم يكشف الضوء إلَّا عن القذارة العادية التي يتَّسِم بها صالون وضيع؛ فلم أرَ سوى وجوه بيضاء وعيون ناعسة ورءوس شعثاء. وكان الستار المسرحي هناك بكلِّ بهرجته.

كان رفاق الأوقات الوردية قد رحلوا. لكنني رأيتُ عند الباب رجالًا واقفين في ثيابٍ عسكرية، وسمعتُ ألمانيًّا يُتمتم من مسافةٍ بعيدة قائلًا: «حراس أنور الشخصيُّون»، وقد سمعته بوضوح لأنَّ سمعي كان حادًّا للغاية، مع أنني لم أكن أرى بوضوح. غالبًا ما يكون هذا هو الحال حين يستفيق المرء فجأة من نوبة فقدان للوعي.

خلا المكان فورًا. سقط أتراك وألمان بعضهم فوق بعض من شدة التدافع، في حين كان كوبراسو يندب وينتحب. بدا أن لا أحد كان يوقفهم، ثم أدركتُ السبب. فهؤلاء الحراس كانوا قادِمين من أجلنا. لا بد أنَّ هذا شتوم قد توصَّل إلينا أخيرًا. لقد تعقبتنا السلطات حتى عثرت علينا، وانتهى أمرنا أنا وبيتر.

إنَّ الاشمئزاز المفاجئ يهوي بمعنويات المرء إلى الحضيض. لذا بدوتُ غير مُبالٍ كثيرًا. لقد هلكنا، وقُضي الأمر. كانت هذه قسمة الرب، على حدِّ قول الأتراك، ولم يكن أمامنا سوى الخضوع لها. لم أُفكر مطلقًا في الهرب أو المقاومة. لقد انتهت اللعبة تمامًا ونهائيًّا.

أشار إلينا رجل بدا يحمِل رتبة رقيب، وقال شيئًا لكوبراسو، الذي أومأ بدوره بالإيجاب. وقفنا على أقدامنا بمشقةٍ ومشينا نحوهم مترنحين. اقتادنا رجلان أحاطا بنا من الجانبَين عبر الفناء، ومشَينا خلال الطرقة المُظلمة والمتجر الفارغ، ثم خرجنا إلى الشارع الجليدي. كانت في انتظارنا عربة مُغلقة، وأشاروا لنا بدخولها. كانت تبدو مثل عربة نقل السجناء بالضبط.

جلس كِلانا ساكنًا بلا حراك واضعًا يدَيه على ركبتيه، كأننا تلميذان مُتغيبان عن المدرسة دون إذن. لم أكن أعرف الوجهة التي سأذهب إليها، ولم أكن مُباليًا. بدا أنَّ العربة كانت تسير بنا مُترجرجة مُدمدِمة نحو أعلى التل، ثم لاحظتُ وهج الشوارع المضاءة.

قلت: «قُضي الأمر يا بيتر.»

ردَّ قائلًا: «أجل يا كورنيليس»، وكان هذا هو كل حديثنا.

وأخيرًا — بعد ساعات حسبما بدا — توقَّفنا. فتح أحدهم الباب وخرجنا، لنجد أنفسنا في ساحةٍ يُحيط بها مبنًى مظلم ضخم. خمَّنت أنَّ ذلك هو السجن، وتساءلتُ عمَّا إذا كانوا سيعطوننا بطانيات؛ لأنَّ البرد كان مهلِكًا.

دخلنا من بابٍ ووجدنا أنفسنا في قاعة حجرية كبيرة. كانت دافئة جدًّا، مما جعلني أكثر تفاؤلًا بشأن زنزاناتنا. أشار رجل يرتدي زيًّا عسكريًّا إلى الدَّرج، فصعدناه بخطواتٍ متثاقلة مُنهَكة. كان ذهني خاويًا تمامًا، حتى إنني عجزتُ عن تكوين انطباعاتٍ واضحة، أو التكهُّن بالمستقبل بأي طريقة. قابلَنا سجانٌ آخر، واقتادنا عبر ردهةٍ حتى توقفنا عند باب. تنحى جانبًا وأشار لنا بالدخول.

خمنت أنَّ هذه غرفة مدير السجن، وأننا سنخضع لاستجوابنا الأول. كان رأسي أغبى من أن أستطيع التفكير، وقررتُ أن ألتزم الصمت التام. أجل، حتى لو حاولوا تعذيبي بكسر أصابعي. لم تكن عندي أي قصة يُمكن أن أحكيها أصلًا، لكني عقدت العزم على عدم الإفصاح عن أي شيء. وبينما كنتُ أدير مقبض الباب، تساءلتُ بلامبالاة عن نوعية التركي الشاحِب أو الألماني ذي الرقبة المنتفخة الذي سنجده في الداخل.

كانت غرفة جميلة ذات أرضية خشبية مصقولة، وكانت فيها جذوة كبيرة من نيران متقدة في المدفأة. كان بجوار النار رجلٌ مُستلقٍ على أريكة، ورأيتُ طاولة صغيرة مسحوبة إلى جانبه. كان على تلك الطاولة كوب صغير من الحليب، وعدد من أوراق اللعب ممدودة في صفوف.

ظللتُ محدقًا ببلاهة إلى المنظر حتى رأيت شخصًا ثانيًا. كان ذلك هو الرجل ذا القلنسوة الجِلدية، قائد المجانين الراقصين. تراجعتُ أنا وبيتر فجأة حين رأيناه، ثم وقفنا ساكنَين بلا حراك.

وذلك لأنَّ الراقص قَطَع الغرفة في خطوتَين واسعتَين، وقبض على كلتا يديَّ بإحكام.

صاح قائلًا: «ديك، يا صديقي، أنا في غاية السعادة بلقائك مجددًا!»

الفصل الثاني عشر

أفراد المهمة الأربعة يرَون ضوءاً في مهمتهم

شعرتُ بذهني يموج بمشاعر مُتلاحقة من عدم التصديق والارتياح الهائل وتلك البهجة الشديدة التي تنتاب المرء نتيجةً لوقتٍ عصيب مرَّ به سابقًا. فقد خرجتُ فجأة من أعماق مياهٍ حالكة السواد إلى سكون لا يُصدَّق. ارتميتُ على أقرب كرسي وحاولت أن أفكَّ طلاسم شيءٍ أصعب من أن تصِفه كلمات.

قلت حالَما التقطتُ أنفاسي: «ساندي، أنت شيطان متجسِّد في شكل إنسان. لقد أذقْتني أنا وبيتر رُعبًا لم نرَه في حياتنا.»

قال: «كانت هذه هي الطريقة الوحيدة يا ديك. لو لم أَسِر في أعقابكما نابحًا كالكلب أمس، لكان راستا قد أمسك بكما قبل وقتٍ طويل من وصولكما إلى فندقكما. لقد جعلتماني أعيش وقتًا عصيبًا من القلق عليكما، وبذلتُ جهدًا مُضنيًا لأحضركما إلى هنا سالِمين. لكن كل ذلك انتهى الآن. خذا راحتكما كأنكما في منزلكما يا أطفالي.»

صرختُ قائلًا غيرَ مُصدِّق: «انتهى!» فقد كان عقلي لا يزال ذاهلًا. وقلت: «ما هذا المكان؟»

«يُمكنك أن تُسميه بيتي المتواضع»، كان المتحدث هو بلنكيرون بصوته الدمث الناعم. وأضاف: «كنا نستعدُّ لك يا حضرة الميجور، لكني لم أسمع بصديقك إلَّا أمس فقط.»

عرَّفتُه ببيتر.

قال بلنكيرون: «سُررت بلقائك يا سيد بينار. حسنًا، كما كنت أقول، أنتما آمِنان تمامًا هنا، لكنكما أفلتُّما بأعجوبة. فقد كان من المقرر رسميًّا اعتقالُ رجلٍ هولندي اسمه براندت بعد ظُهر اليوم، وتسليمه إلى السلطات الألمانية. وعندما تبدأ ألمانيا الاهتمام بذلك الهولندي، ستجد صعوبةً في الحصول على جسده، لكنَّ هذا هو البطء العقيم المُعتاد من

نظام مُستبدٍّ شرقي. وإلى أن يحين ذلك الوقت، لن يعود الهولندي موجودًا. سيكون قد انتهى عند منتصف الليل بلا ألَم، كما يقول شاعركم.»

قلت متلعثمًا: «لكني لا أفهم. من اعتقلنا؟»

قال ساندي: «رجالي. لدَينا هنا القليل من نفوذ كسبناه بطُرُق غير شرعية، ولم يكن من الصعب تدبُّر المسألة. سيعكف مولندورف العجوز على التحري عن الأمر غدًا، لكنه سيجد اللُّغز أصعب من أن يستطيع فهمه. هذه ميزة حكومةٍ تُديرها عصبة من المغامرين. ولكن ربَّاه، لم يكن لدينا أي مُتسع من الوقت يا ديك. لو كان راستا قد أمسك بك، أو لو كان الألمان كُلِّفوا باختطافك، لباءت مساعيك بالفشل التام. لقد عشتُ ساعاتٍ من القلق صباح اليوم.»

كانت المسألة أصعب من أن أفهمها. نظرت إلى بلنكيرون وهو يخلط أوراق اللعب خاصته بابتسامته الناعسة المألوفة، وساندي بملابسه التي كانت كملابس قاطع طريقٍ في مسرحية ميلودرامية، ووجهه المشوق البُنيِّ كثمرة الجوز، وذراعَيه العاريتَين الموشومتَين بالكامل بحلقاتٍ قرمزية، وجِلد الثعلب المشدود بإحكام على جبينِه وأُذنيه. كان العالم من حولي لا يزال ككابوس، ولكن الحلم كان يزداد بهجةً مع الوقت. لم ينطق بيتر بكلمة واحدة، ولكني رأيتُ عينَيه مثقلتَين من كثرة الأفكار التي تلوح فيهما.

رفع بلنكيرون نفسه عن الأريكة، ومشى متهاديًا نحو خزانة.

قال: «لا بد أنكما جائعان يا أولاد. ما زالت أمعائي تُتعبني بشدة كالمعتاد، ولا آكل أكثر مما يأكله السنجاب. لكني خزَّنت كمياتٍ من الطعام؛ لأنني خمنتُ أنكما سترغبان في الْتهام بعض الأكل بعد أسفاركما.»

أخرجَ من الخزانة بضعًا من فطائر ستراسبورج، وجبنًا، ودجاجة باردة، ورغيفًا من الخبز، وثلاث زجاجات من الشمبانيا.

قال ساندي بانتشاء: «شمبانيا. وخالية من السكر، ومن نوع «هايدسيك» أيضًا! نحن محظوظان يا ديك يا صديقي.»

لم أستقبل وجبةً في حياتي بترحابٍ أشدَّ ممَّا استقبلتُ به هذه؛ فقد كنا نتضوَّر جوعًا في ذلك الفندق القذر قبل مجيئنا. ولكن كان الشعور بأنني طريد ما زال يُراودني، وسألتُ عمَّا إذا كان الباب مؤمَّنًا.

قال ساندي: «اطمئن. رجالي مُنتشرون على الدَّرَج وعند البوابة. وما دام زمام الأمور بحوزة جماعةٍ أخوية تركية، فيُمكنك أن تراهن على أنَّ الآخرين سيتحاشَون الاقتراب. لقد

مُحِي ماضيك، وتلاشى تمامًا، وستبدأ صباح غدٍ بصفحة جديدة. بلنكيرون هو الرجل الذي يستحق الشكر على ذلك. كان مُتيقنًا تمامًا من أنك ستصل إلى هنا، لكنه أيضًا كان مُتيقنًا من أنك ستصِل متعجِّلًا ومن خلفك الكثير ممَّن يُلاحقونك. لذا اتخِذ التدابير اللازمة لتتملَّص منهم خلسةً وتبدأ بهوية جديدة.»

قال بلنكيرون: «اسمُك الآن هو ريتشارد هاناو، وُلدتَ في مدينة كليفلاند بولاية أوهايو، لأبوَين ألمانِيَّين. أحد ألمع مهندسي التعدين، وقُرَّة عين جوجنهايم. وصلتَ بعد ظُهر اليوم من كونستانتسا والتقيتك عند مرسى سفينة البريد والركاب والشحن. ستجد الملابس الخاصة بهذه الشخصية التنكُّرية في غرفة نومك المجاورة. لكني أظنُّ أنَّ كل هذا يُمكن أن ينتظر؛ لأنني مُتلهف للتطرُّق إلى مهمتنا. فلسنا هنا في رحلةٍ ترفيهية يا سيادة الميجور؛ لذا أرى أن نتجاهل المغامرات الشائقة التي تُشبه حكايات الروايات الرخيصة. صحيح أنني أتحرَّق شوقًا لسماعها، ولكن يُمكن تأجيلها. أريد أن أعرف ما أسفرت عنه تحرياتنا المشتركة.»

أعطاني أنا وبيتر سيجارين، وجلسنا على كرسِيَّين بمساند أمام نيران المدفأة. جلس ساندي القرفصاء عاقدًا ساقَيه على سجادة المدفأة، وأشعل غليونًا خشبيًّا قديمًا كريه الرائحة بعدما أخرجَه من جِرابٍ ما وسط الثياب الجلدية التي كانت تكسوه. وهكذا بدأت المحادثة التي لم تُفارق بالي طوال أربعة أسابيع محمومة.

قال بلنكيرون: «إذا كان لي أن أتجرأ وأبدأ، فهذا لأنني أظن أنَّ قصتي هي الأقصر. يجب أن أعترف لكم أيها السادة بأنني قد فشلت.»

أنزَل طرفَيْ فمِه عابسًا حتى بدا أشبَهَ بمزيجٍ بين فنانٍ كوميدي في قاعة موسيقية وطفلٍ مريض.

قال: «إذا كنتَ تبحث عن شيءٍ ما في قعر سياج شجري، فلن تُمشِّط الطريق راكبًا سيارةً سريعة. بل ولن تحتاج إطلاقًا إلى إلقاء نظرة علوية من طائرة. هذا المَثَل ينطبق على حالتي. لقد كنتُ محلقًا وسط السُّحُب، وكنت أمضي بأقصى سرعة على الطُّرُق السريعة، لكن ما كنتُ أريده كان قابعًا في مزراب الطريق طول الوقت، ولم أُلاحظه بطبيعة الحال ... لقد اتبعتُ النهج الخاطئ يا سيادة الميجور. كنتُ أعلى وأرقى ممَّا ينبغي. كنت أطوف أوروبا بطريقةٍ استعراضية كأنني أحد أفراد سيرك بارانوم، وأُعايش جنرالات وأشخاصًا ذوي نفوذ ومكانة عالية. صحيح أنَّني جمعتُ كثيرًا من المعلومات، واكتشفت بعض الأشياء العابرة الشائقة للغاية بخصوص السياسة العُليا. لكنَّ ما كنتُ أبحث عنه لم يكن

موجودًا في نطاقي؛ لأنَّ أولئك الذين كانوا يعرفونه ما كانوا ليُفصحوا عنه. ففي مثل هذا المجتمع، لا يسكرون ويثرثرون بعد كأسهم العاشرة. لذا أظن أنني لا أستطيع تقديم أي شيءٍ يُسهِم في إراحة بال السير والتر بوليفانت، باستثناء الجزم بأنه مُحقٌّ تمامًا في ظنونه. أجل يا سيد، لقد أصاب كبد الحقيقة. ثمة اقتراحٌ إعجازي هائل يُتداول في تلك المناطق، لكنَّ المُروِّجين له يتكتمون عليه فيما بينهم. لا يضمُّون أحدًا إليهم منذ البداية إلَّا للضرورة القصوى.»

سكت بلنكيرون ليُشعل سيجارًا جديدًا. كان أنحفَ ممَّا كان حين غادر لندن، وصارت لدَيه انتفاخاتٌ أسفل عينَيه. أتصور أنَّ رحلته لم تكن مُرفهة بقدرِ ما ادَّعى. أضاف: اكتشفت شيئًا واحدًا؛ أنَّ آخرَ حلمٍ ستتخلَّى عنه ألمانيا هو حلم السيطرة على الشرق الأدنى. وهذا ما لا يأخذه رجال دولتِكم في حسبانهم بالقدْر الكافي. إنها مُستعدة للتخلِّي عن بلجيكا وإقليم الألزاس واللورين وبولندا، ولكن ربَّاه! لن تتخلى أبدًا عن الطريق المؤدي إلى بلاد الرافدَين إلَّا إذا أمسكتموها من حلقومِها وجعلتموها تُفلِته رغمًا عنها. السير والتر مواطن ذو بصيرة قوية جدًّا، ويرى حقيقة الموقف بوضوحٍ تام. في أسوأ الأحوال، سيتخلَّى القيصر عن الكثير من المناطق التي يسيطر عليها في أوروبا، وسيبدو ذلك كأنه انتصار كبير للحلفاء، لكنه لن يُهزَم إذا حافَظ على الطريق المؤدي إلى الشرق آمِنًا في قبضته. ألمانيا كالعقرب؛ تلدغ بذيلها، وذلك الذيل يمتدُّ بعيدًا في أعماق آسيا.

«أدركت ذلك بوضوح، واكتشفت أيضًا أنَّ الحفاظ على سلامة هذا الذيل لن يكون سهلًا عليها. تركيا تؤرِّقها قليلًا، كما ستكتشفون قريبًا. لكنَّ ألمانيا تظن أنها تستطيع تدبُّر أمر تركيا، ولن أقول إنها لا تستطيع ذلك. هذا مرهون بالأوراق التي تُمسكها، وهي تظنُّها رابحة. حاولتُ أن أعرف ماهية هذه الأوراق، لكنهم لم يُعطوني شيئًا سوى هراء مُضلل. اضطُررتُ إلى التظاهر بأنني مُقتنع؛ لأنَّ وضع جون إس لم يكن قويًّا إلى حدٍّ يسمح له بتخطِّي حدود الأدب واللياقة. حين كنتُ أسأل أحد المسئولين، كان يبدو حكيمًا ويتحدث عن قوة الأسلحة الألمانية والتنظيم الألماني وعمل الأركان العسكرية الألمانية. اعتدتُ أن أهزَّ رأسي بالموافقة وأُبدي حماسي لهذه الاستعراضات المُثيرة، لكنَّ هذا كلَّه كان مجرد مداهنة. إن لدَيهم حيلة في جعبتهم، هذا ما أعرفه يقينًا، لكني لا أستطيع إطلاقًا أن أعرف ماهية هذه الحيلة بالضبط. أدعو الربَّ أن يكون ذكاؤكم قد فاق ذكائي يا أولاد.»

كانت نبرته حزينة للغاية، وكنتُ من الوضاعة بما جعلني أشعر بشيء من السعادة. فقد كان هو المحترف الأوفر حظًّا. ارتأيتُ أنها ستكون مزحةً مضحكة إذا اتضح أنَّ الهاوِيَ قد نجح فيما فشل فيه الخبير.

نظرت إلى ساندي. ملأ غليونه مرةً أخرى، وشدَّ قلنسوته الجِلدية إلى الوراء كاشفًا عن حاجبَيه. ولأنَّ شعره كان طويلًا أشعث، ووجهه كان عالِيَ العظم الوجني، وحاجبَيه كانا مصبوغَين؛ فقد بدا أشبَهَ بمُلَّا مجنون.

قال: ذهبت مباشرة إلى سميرنا. لم يكن الأمر صعبًا لأنني، كما تعرف، قد أقمتُ علاقات كثيرة مع عدة أشخاص في رحلاتي السابقة. وصلت إلى اليونان على أنني مُرابٍ من الفيوم، ولكن كان لديَّ هناك أصدقاء يُعتمد عليهم، وفي مساء اليوم نفسِه كنتُ غجريًّا تركيًّا، عضوًا في أشهر أخويةٍ في غرب آسيا. كنت عضوًا سابقًا فيها منذ وقت طويل، وأنا وزعيمها إخوة بالدم؛ لذا تقمَّصت الدور فورًا بكل سهولة. لكني اكتشفتُ أنَّ أخوية «رفاق الأوقات الوردية» لم تعُد كما كنت أعرفها في عام ١٩١٠. فآنذاك كانت مؤيدة تمامًا لحركة «الشباب الأتراك» والإصلاح، لكنها صارت تتوق إلى النظام القديم، وأصبحت الأمل الأخير للمذهب التقليدي المُحافظ. لم تعُد تؤيد أنور وأصدقاءه، وليست مسرورةً بجمال الألمان الفاتن. وجدتُها تدافع عن الإسلام والتقاليد القديمة، ويُمكن وصفُها بأنها تجمُّع قومي مُحافِظ. لكنها تحظى بنفوذ استثنائي في الولايات التركية، ولا يجرؤ أنور ولا طلعت على التدخُّل في شئونها. الشيء الخطير فيها أنها لم تكن تقول أو تفعل شيئًا حسبما يبدو. بل كانت تكتفي بتحيُّن لحظتها المناسبة ومُراقبة الوضع.

لك أن تتخيَّل أنَّ مثل هذه المجموعة بالذات كانت الأنسب لغرضي. فقد كنتُ على درايةٍ قديمة بحِيَلها وعاداتها المألوفة؛ لأنها رغم كل تمسُّكها بالتعاليم الدينية المحافظة كانت تُمارس السحر كثيرًا، وتدين بنصفِ قوتها للجوِّ الغامض الخارق المُحيط بها. فهؤلاء «الرفاق» كانوا يستطيعون انتزاع قلوب الأتراك العادِيِّين برقصاتهم. وقد رأيتَ بنفسك قليلًا من إحدى رقصاتنا بعد ظُهر اليوم يا ديك، كانت رائعة، أليس كذلك؟ كانوا يستطيعون الذهاب إلى أيِّ مكانٍ دون أن تُوجَّه إليهم أي أسئلة. كانوا يعرفون ما يُفكِّر فيه الرجل العادي؛ لأنهم كانوا أفضل شُعبة استخباراتية في الإمبراطورية العثمانية، أفضل بكثيرٍ من أفراد «خُفية» أنور. وكانوا محبوبين أيضًا؛ لأنهم لم يركعوا قط أمام النمسا، أي: الألمان الذين يمتصُّون دماء الإمبراطورية العثمانية من أجل أهدافهم الخاصة. كان من الممكن أن يدفع أعضاء اللجنة أو أسيادهم الألمان حياتهم ثمنًا لمحاولة المِساس بنا؛

لأننا كنَّا مُلتصقين بعضنا ببعض كالعلقيَّات، ولم نكن مُعتادين التهاون في أي تهديدٍ يوجَّه إلينا مهما كان تافهًا.

حسنًا، لك أن تتخيَّل أنني كنت أذهب إلى حيث أريد بكل سهولة. فثيابي وكلمة المرور السرية كانت تسمح لي بدخول أي مكان. سافرتُ من سميرنا بخط السكة الحديدية الجديد إلى باندرمة الواقعة على ساحل بحر مرمرة، ووصلتُ إلى هناك قبل عيد الميلاد مباشرة. كان ذلك بعد إخلاء منطقتَي أنزاك وسوفلا، لكنني سمعتُ أنَّ القصف المدفعي يشتد في رأس سد البحر. شرعتُ في العبور من باندرمة إلى تراقيا في باخرةٍ ساحلية. وعندئذٍ حدث شيء مُضحك غير عادي، حين هوجمت بطوربيد.

لا بد أنَّ هذه تقريبًا كانت آخِر محاولة لغواصة بريطانية في تلك المياه. لكنها أصابتنا بمنتهى الدقة. أمهلتنا عشر دقائق لنلجأ إلى القوارب، ثم أغرقت الباخرة القديمة المنكوبة وعلى متنِها حمولة قيِّمة من قذائف عيار ست بوصات في قاع المياه. لم يكن على متنها الكثير من الركاب؛ لذا كان من السهل أن نصل إلى البر في قوارب السفينة. بقيت الغواصة على السطح تُراقبنا ونحن نولول وننَدب بالطريقة الشرقية الأصلية، ورأيتُ الربان من مسافةٍ قريبة جدًّا في برج قيادة الغواصة. خمِّن، تُرى مَن كان؟ تومي إليوت، جاري الذي يسكن على جانب التلَّة المقابل لي في موطننا.

فاجأتُ تومي أشدَّ مفاجأة في حياته. فبينما كنا نمرُّ جواره باحتكاكٍ بسيط مع غواصته، بدأت أعزف لحن «فلاورز أوف ذا فورست» — النسخة القديمة منها — على الآلة الوترية العتيقة التي كنتُ أحمِلها، وغنيتُ كلماتها بكل وضوح. جحظت عينا تومي، وصَرَخ فيَّ بالإنجليزية ليعرف مَن أنا بحقِّ السماء. أجبتُه بأقوى لهجة اسكتلندية كانت عصيةً تمامًا على فهمِ أي شخصٍ في الغواصة أو في قاربنا. صحتُ قائلًا: «يا سيد تومي، لماذا ترمي سمكريًّا متجولًا محترمًا في بحرٍ بارد؟ سأعطيك جزاءك المُستحَق على هذه الفعلة الوضيعة حين ألتقيك على قمة تلةِ كيردون في المرة القادمة.»

عندئذٍ عرفني تومي في لحظة. ضحك حتى بكى، وبينما كنا نبتعد بالقارب عن غواصته، صَرَخ فيَّ باللهجة نفسها قائلًا: «تسلُّق التلال المنحدرة يحتاج إلى قلبٍ شجاع.» أرجو من الربِّ أن يكون تومي حكيمًا ولا يُخبر والدي، وإلَّا فسيُصاب الرجل العجوز بنوبة قلبية. فهو لم يستحسن ترحالاتي المتسكعة قط، ويعتقد أنني مستقر بأمانٍ في الكتيبة.

حسنًا، اختصارًا لقصة طويلة، وصلتُ إلى القسطنطينية، وسرعان ما تمكنتُ من الاتصال ببلنكيرون. والباقي أنت تعرفه. والآن لنتطرق إلى المهمة. كنتُ محظوظًا نوعًا ما، ولكن ليس أكثر من ذلك؛ لأنني لم أتوصَّل إلى الحقيقة الكاملة إطلاقًا. لكنني حللتُ أول ألغاز هاري بوليفانت. فقد عرفت معنى «قصر الدين».

كان السير والتر مُحقًّا، كما أخبرنا بلنكيرون. ثمة تهييج شديد للمسلمين، شيءٌ ما يتحرك على وجه المياه. لا يُخفون ذلك. فتلك الصحوات الدينية تتكرَّرُ كل فترة زمنية، وقد حان موعد إحداها الآن تقريبًا. وهم واضحون تمامًا بخصوص تفاصيلها. يقولون إنَّ نبيًّا من سلالة النبي مُحمد قد ظهر، وسيُعيد إلى الخلافة أمجادها القديمة، وإلى الإسلام نقاءه القديم. أقواله منتشرة في كل مكانٍ في العالم الإسلامي. وكل المؤمنين الحنفاء المُتشدِّدين يحفظونها عن ظهر قلب. ولهذا السبب يتحملون الفقر المُدقع والضرائب الباهظة غير المعقولة، ولهذا السبب أيضًا يَنضمُّ شبانهم بأعداد غفيرة إلى الجيوش، ويموتون في جاليبولي وجنوب القوقاز دون تذمُّر. يعتقدون أنهم على أعتاب خلاصٍ عظيم.

أول شيء اكتشفتُه أنَّ حركة «الشبان الأتراك» ليس لها علاقة بذلك. فهم غير محبوبين وغير متمسكين بتعاليم الإسلام التقليدية، وليسوا أتراكًا حقيقيين. لكنَّ ألمانيا لها علاقة. لا أعرف كيف، لكني رأيتُ بوضوح شديد أنَّ ثمة تلميحات مستترة إلى أنَّ ألمانيا شريكة في هذه الحركة. وهذا الاعتقاد هو الذي يحافظ على استمرار النظام الحاكم الحالي. فالمواطن التركي العادي يكره اللجنة، لكنه يحمل توقعات عجيبة ضالة تجعله ينتظر خيرًا من ألمانيا. لذا ليس صحيحًا أنَّ أنور والبقية يتحملون مسئولية نفوذ الألمان المكروهين، بل الألمان هم من يتحملون مسئولية نفوذ اللجنة المكروهة. والورقة التي تكتسب بها ألمانيا نفوذها غير الشرعي هي أنَّها شريكة في قدوم المُخلِّص الجديد، لا أكثر.

إنهم يتحدثون عن تلك المسألة بصراحة تامة. وتُسمَّى «كعبة الحرية». أمَّا النبي نفسه، فيُعرَف باسم «زمرد»، ووزراؤه الأربعة أيضًا مُسمَّون بأسماء جواهر كريمة؛ زفير وياقوت ولؤلؤ وتوباز. ستسمعون أسماءهم كثيرًا في الأحاديث المتداولة في المدن والقرى بقدرِ ما تسمعون أسماء الجنرالات في إنجلترا. ولكن لم يكن أحد يعرف مكان زمرد أو متى سيكشف عن نفسه، مع أنَّ رسائله كانت تصِل كل أسبوع إلى المؤمِنِين به. كل ما استطعتُ معرفته أنه وأتباعه قادمون من الغرب.

«لعلكم تتساءلون الآن، ماذا عن «قصر الدين»؟ لقد وضعني ذلك في حيرةٍ رهيبة لأنني لم أجد أحدًا يستخدم هذا المصطلح. بيت الرب! مصطلح عادي جدًّا، تمامًا كما

تجد طائفةً جديدة في إنجلترا تُطلق على نفسها اسم «كنيسة المسيح». ولكن بدا أن لا أحد يستخدمه.»

«لكني بمرور الوقت اكتشفتُ وجود دائرة داخلية ودائرة خارجية في هذا اللغز. فكل عقيدة لها جانب خفي يُحجَب عن عموم الناس. وقد صادفتُ هذا الجانب في القسطنطينية. توجَد مسرحية تركية شهيرة جدًّا تُسمَّى «قصر الدين»؛ واحدة من تلك المسرحيات القديمة التي تسرد معجزات القديسين بأسلوبٍ شبه كوميدي، ولها مغزًى مجازي، ويُطلِقون عليها في تركيا «أورتا أويون» (أي: المسرحيات التي تؤدَّى وسط دائرة من الجمهور)، وتستغرق قراءتها أسبوعًا. تحكي هذه المسرحية عن قدوم نبي، وقد وجدتُ أنَّ النخبة المختارة من المسلمين يتحدثون عن ذلك الوحي الجديد بالمُصطلحات الواردة في المسرحية. العجيب أنَّ النبي في تلك الحكاية يلقى عونًا من إحدى النساء القليلات اللواتي لهن شأن كبير في سِيَر القديسين في الإسلام. هذا هو مغزى الحكاية، وجزء منها يحمل طابعًا فكاهيًّا، لكنها أساسًا لغزٌ ديني. ووجدت أيضًا أنَّ النبي فيها لا يُدعى زمرد.»

قلت: «أعرف. يُدعى «ذا العباءة الخضراء».»

هبَّ ساندي واقفًا من فوره، تاركًا غليونه يسقط في المدفأة.

صاح قائلًا: «كيف عرفت هذا بحقِّ السماء؟»

عندئذٍ حكيتُ لهم عن شتوم وجاوديان والكلمات الهامسة التي كانا يريدان ألَّا أسمعها. كان بلنكيرون يرمقني بنظرةٍ مُحدِّقة، على غير المعتاد من شخص دائمًا ما كان يبدو شارد العينَين، وكان ساندي قد أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

قال: «ألمانيا في صميم الخطة إذن. كان هذا اعتقادي منذ البداية. إذا أردنا العثور على «كعبة الحرية»، فلا جدوى من التنقيب عنها بين أفراد «اللجنة» أو في الولايات التركية. السِّرُّ في ألمانيا. كان ينبغي ألَّا تعبر الدانوب يا ديك.»

قلت: «هذا ما أخشاه إلى حدٍّ ما. ولكن على الجانب الآخر، من الواضح أنَّ ذلك السِّرَّ آتٍ إلى الشرق حتمًا، عاجلًا لا آجلًا. فأنا أفترض أنهم لا يستطيعون تحمُّل إطالة التأخير قبل تسليم البضاعة. إذا استطعنا البقاء هنا، فلا بد أننا سنجد طرف الخيط … لديَّ دليل آخر. لقد حللتُ لغزَ هاري بوليفانت الثالثَ.»

كانت عينا ساندي تلتمِعان بشدة، ووجدتُ نفسي أمام مستمعين مُتلهِّفين.

قلت: «هل قلت إنَّ حكاية قصر الدين فيها امرأة حليفة للنبي؟»

قال ساندي: «نعم، ماذا في ذلك؟»

«لا شيء، باستثناء أنَّ الأمر نفسه ينطبق على ذي العباءة الخضراء. يُمكنني أن أعطيكم اسمَها.»

أحضرتُ قطعةً من الورق وقلم رصاص من مكتب بلنكيرون وناولتهما إلى ساندي.

«اكتب الكلمة الثالثة التي قالها لنا هاري بوليفانت.»

فكتب «v. I.» في الحال.

عندئذٍ أخبرتهم بالاسم الآخر الذي تحدث عنه شتوم وجاوديان. وحكيتُ لهم عن اكتشافي الذي توصلتُ إليه وأنا مُستلقٍ في كوخ الحطاب.

«I لا ترمز إلى حرف «آي» الأبجدي، بل إلى الرقم واحد اللاتيني. الاسم هو فون آينم؛ هيلدا فون آينم.»

قال ساندي برقَّة: «الرحمة على روح هاري العزيز الطيب. لقد كان شابًّا في غاية الذكاء. هيلدا فون آينم؟ مَن هي وأين مكانها؟ لأننا إذا وجدناها، فقد أنجزنا المهمة.»

عندئذٍ تحدث بلنكيرون. قال: «أظن أنني أستطيع تنويركم بخصوص هذا أيها السادة. فما رأيتها إلا أمس. إنها سيدة فائقة الجمال. وللمصادفة أيضًا، إنها مالكة هذا المنزل.»

بدأنا أنا وساندي نضحك. فقد كان من المُضحك للغاية أننا ارتحلنا مُتخبطين عبر أوروبا، وحططنا الرحال في مقرِّ اللغز الذي انطلقنا لحلِّه تحديدًا، دون أي مكانٍ آخر.

لكن بلنكيرون لم يضحك. كانت ملامحه قد اكتست جدية شديدة عند ذِكر هيلدا فون آينم، وتفاجأت من منظر وجهه، فتوقفتُ عن الضحك.

قال: «لا يُعجبني ذلك أيها السادة. ليتكما ذكرتما أي اسمٍ آخر على أرض الرب. لم أُمضِ وقتًا طويلًا في هذه المدينة، لكنه كان كافيًا لتقييم القادة السياسيين المُختلفين. ليسوا مُبهرين للدرجة. أظن أنهم لن يصمدوا في وجه ما يُمكن أن نُريهم إيَّاه في الولايات المتحدة. لكني التقيتُ السيدة فون آينم، وتلك السيدة مختلفة تمامًا. من يفهمها يحتاج إلى ذكاءٍ خارق بعض الشيء.»

سألته: «مَن هي؟»

«حسنًا، هذا بالتحديد ما لا أستطيع أن أعرفه. كانت مُنقِّبة عظيمة عن الآثار في أطلال البابليِّين والحيثيين، وتزوجت دبلوماسيًّا انتقل إلى الأمجاد السماوية قبل ثلاث سنوات. المهم ليس ماضيها، بل حاضرها، وهي امرأة ذكية للغاية.»

لم يُحبطني إجلال بلنكيرون لها. بل شعرت بأنَّ مهمتنا قد انحصرت أخيرًا في نطاق واضح نوعًا ما؛ لأنني كنتُ قد كرهت التخبط العشوائي في الظلام. سألته أين تعيش.

قال بلنكيرون: «لا أعرف. لن تجد أناسًا مُتلهِّفين لإشباع فضولك الطبيعي بشأن السيدة فون آينم بلا مُبرر.»

قال ساندي: «أستطيع معرفة ذلك. هذه ميزةُ أن يحظى المرء بعصابة كعصابتي. أمَّا الآن، فيجب أن أغادر؛ لأنَّ يومَ عملي لم ينتهِ بعد. ديك، يجب أن تخلد أنت وبيتر إلى الفراش حالًا.»

سألته بدهشة: «لماذا؟» كان ساندي يتحدث بنبرة طبيبٍ ناصح.

«لأنني أريد ثيابكما؛ تلك التي على جسديكما الآن. سآخُذها معي وأنا أُغادر، ولن ترياها مجددًا.»

قلت: «لديك ذوق غريب في التذكارات.»

«بل قل إنها الشرطة التركية. التيار في البوسفور قوي جدًّا، وهذه البقايا المُحزنة التي تبقَّت من رجُلَين هولنديين ضلَّا طريقهما ستجرفها المياه غدًا إلى قُرب سراي بورنو. ففي هذه اللعبة يجب أن يُسدَل الستار بدقةٍ وإحكام بعد نهاية كل مشهد، إذا كنت لا تريد متاعب لاحِقة جراء أي خيوطٍ تُترك بلا إحكام.»

الفصل الثالث عشر

الانتقال إلى مجتمع راقٍ

خرجتُ من ذلك المنزل في صباح اليوم التالي متأبطًا ذراع بلنكيرون، ينتابني شعور بأنني كائن مختلف عن ذاك المخلوق الذي كان يشعر بالوحدة، ويبحث بلا جدوى عن ملاذٍ آمنٍ في اليوم السابق. فبادئ ذي بدء، كنتُ مرتديًا ثيابًا رائعة أنيقة. فقد كنت أرتدي حُلة كُحلية ذات أكتافٍ مربعة مبطنة، وربطة عنق سوداء أنيقة، وحذاء ذا نتوء بارز عند مقدمته، وقبعة بُنِّية. وكنت أرتدي فوق ذلك معطفًا مبطنًا بفروِ الذئب. كنت أمسك عكازًا أنيقًا مصنوعًا من الروطان، وأحمل واحدًا من سيجار بلنكيرون في فمي. كنا قد جعلنا بيتر يُهذِّب لحيته، ومع ثيابه البسيطة الملونة بالأبيض والأسود، بدا بعَينَيه الطيِّعتَين وصوته الهادئ خادمًا وقورًا جدًّا. كان بلنكيرون العزيز قد أنجز مهمة إلباسنا بأناقةٍ مبهرة؛ لأنه، لو كنتم ستُصدقون ذلك، قد أحضر الملابس معه طوال طريق رحلته من لندن. أدركت عندئذٍ لماذا كان هو وساندي يُنقِّبان في خزانة ملابسي. كان ساندي من اشترى حُلةَ بيتر، ولم يكن مقاسها مضبوطًا كمقاس حُلتي. لم أجد صعوبةً في اللكنة. فأيُّ رجلٍ نشأ في المستعمرات يستطيع أن يجعل لسانه يتحدَّث الأمريكية بنُطقٍ شبهِ سليم، وأثنيتُ على نفسي لأنني استطعتُ مُحاكاة لهجة الغرب الأوسط بشكلٍ مقبول جدًّا.

كانت الرياح قد اتجهت جنوبًا، وكان الثلج يذوب بسرعة. رأيتُ رقعة زرقاء من السماء فوق آسيا، ونظرتُ بعيدًا ناحية الشمال فوجدتُ كتلًا من السُّحُب البيضاء تنجرِف فوق البحر الأسود. وبعدما كانت المدينة في اليوم السابق تبدو أحقر المدن، صارت تكتسي في تلك اللحظة بجمالٍ غريب، جمال الآفاق المُفاجئة، وألسنة المياه الرمادية التي كانت تتلوَّى أسفل ضفافٍ مُزينة بأشجار السرو. إنَّ مزاج المرء مُرتبط ارتباطًا قويًّا بتقديره للمناظر الطبيعية. وهكذا شعرت بأنني رجُل حرٌّ مرة أخرى، وصارت الرؤية واضحة أمام عيني.

كان ذاك الشارع خليطًا من كل الجنسيات الموجودة على وجه الأرض. كان فيه جنود نظامِيُّون أتراك يعتمِرون خوذَهم المخروطية العجيبة الملوَّنة باللون الكاكي، ومجندون ذَوو مظهر بربري لا تربطهم صلة بأوروبا. وكان هناك فِرَق من جنود ألمان يعتمرون قبعاتٍ عسكرية لينة مسطحة، ويحدِّقون ببلاهة إلى المناظر الجديدة عليهم، ويسارعون لأداء التحية العسكرية لأي ضابطٍ على رصيف المشاة. مرَّ بنا أتراكٌ في عرباتٍ مُغلقة، وأتراك على ظهور خيولٍ عربية أصيلة، وأتراك بدَوا كأنهم قادمون من عصر النبي نوح. لكنَّ الرعاع هُم مَن كانوا يلفتون الأنظار؛ رعاع بربريون للغاية وفي غاية النحافة والبؤس. لم أرَ في حياتي مثل هذه الحشود المتزاحِمة من الشحاذين، وكان المرء يمشي في ذلك الشارع مُحاطًا بتوسلاتٍ تطلب الصَّدَقات بكلِّ لهجات «برج بابل». تصرفتُ أنا وبلنكيرون كأننا سائحان مُهتمان. كنا نتوقف ونضحك على أحد الرجال، ونُقدِّم فلسًا لرجلٍ ثانٍ، مُتفوهين ببعض التعليقات بنبرةٍ غربية عالية.

ذهبنا إلى أحد المقاهي واحتسَينا فنجانًا من القهوة. جاء شحاذٌ وسألَنا صَدَقة. كانت محفظة بلنكيرون مقفلة طوال هذا الوقت، لكنه في تلك اللحظة فتحها وأخرج منها بعض النيكلات الصغيرة وألقى خمسةً منها على الطاولة بقوة. صاح الرجل داعيًا بحلول البركة على بلنكيرون وأخذ ثلاثة نيكلات. فأخذ بلنكيرون الاثنَين الآخرَين ودسَّهما في جيبه بمنتهى السرعة.

استغربتُ ذلك، وقلتُ إنني لم أرَ من قبل شحاذًا يُعيد باقي الصدقة. لم يقل بلنكيرون شيئًا، وبعد قليلٍ واصلنا المسير ووصلنا إلى جوار المرفأ.

وجدنا هناك عدة زوارق قاطرة راسية بجانبه، وبضعة مراكب أكبر حجمًا، واستنتجتُ أنَّ تلك المراكبَ قواربُ فاكهة كانت تُبحِر في بحر إيجة في الماضي. كانت تبدو متآكلة جدًّا بفعلِ العُث من شدة الإهمال. توقفنا عند أحدها وشاهدنا رجلًا معتمرًا قلنسوةً ليلية زرقاء يَجدِل مجموعةً من الحبال معًا. رفع عينَيه مرة ونظر إلينا، ثم واصل عمله.

سأله بلنكيرون عن موطنه، لكنه هزَّ رأسه لأنه لم يفهم لهجته. جاء شرطي تركي وحدَّق بنا بارتيابٍ حتى فتح بلنكيرون معطفه، كأنه غير قاصد، وأظهَر مربعًا صغيرًا جدًّا من شارةٍ مُعلَّقة بثيابه، فأدَّى له الشرطي التحية العسكرية حين رآه. فشل بلنكيرون في محادثة البحَّار، فرمى له ثلاثةً من سيجاره الأسود.

قال: «أظن يا صاح أنك تستطيع التدخين ما دمتَ لا تستطيع الكلام.»

ابتسم الرجل ابتسامةً عريضة والْتقف الثلاثة في الهواء ببراعة. ثم فاجأني بأنه ألقى أحدَها مُعيدًا إيَّاه.

نظر بلنكيرون بتساؤلٍ مُتحير إلى السيجار المُلقى على الرصيف. وقال: «هذا الصبي خبير في تذوُّق التبغ.» وبينما كنا نهمُّ بالانصراف، رأيتُ الشرطي التركي يلتقِطه ويضعه داخل قبعته.

عدنا عبر الشارع الطويل الواقع على قمة التل. كان هناك رجل يبيع ثمار برتقالٍ على صينية، وتوقف بلنكيرون ليلقي نظرةً عليها. لاحظت أنَّ الرجل خلط البرتقال مُكوِّنًا مجموعة من خمس عشرة واحدة. تحسَّس بلنكيرون البرتقالات كما لو كان يود التيقُّن من أنها سليمة، وأزاح اثنتَين منها جانبًا. فأعادهما الرجل فورًا إلى المجموعة، دون أن يرفع عينَيه إطلاقًا.

قال بلنكيرون ونحن نواصل سيرنا: «هذا ليس موسم شراء الفاكهة. تلك البرتقالات مُتعفنة كثمار البشملة.»

لم أستطع تخمين المغزى من كل ذلك إلَّا عندما صرنا على مشارف عتبة بابنا.

قلت له: «هل انتهى عملك الصباحي؟»

سألني ببراءة: «تمْشِيتنا الصباحية؟»

«لقد قلت «العمل».»

ابتسم بفتور. وقال: «توقعتُ أنك ستفهم ذلك. حسنًا، نعم، ولكن ما زال مُتبقيًا أن أقلِّب بعض الأمور في رأسي. امنحني نصف ساعة وسأكون في خدمتك يا حضرة الميجور.»

بعد ظُهر ذلك اليوم طها لنا بيتر غداءً شهيًّا رائعًا، ثم تجاذبت مع بيتر أطراف محادثة حميمية.

قال: «عملي هو الحصول على معلومات، ودائمًا ما أُجري استعدادات كبيرة قبل الشروع في مهمةٍ صعبة. كنت عاكفًا مع السير والتر على تدبير كل شيءٍ مُسبقًا طول الوقت الذي قضيتُه في لندن، أثناء تظاهري بتوجيه انتقادات لاذعة إلى الحكومة البريطانية. كنا نلتقي في أماكن غريبة وفي كل أوقاتِ الليل. أسستُ شبكةً كبيرة من العلاقات في هذه المدينة قبل وصولي، وبالأخص أنشأتُ شبكة لتبادل المعلومات مع وزارة خارجيتكم عن طريق رومانيا وروسيا. أفترضُ أنَّ أصدقاءنا سيعرفون كل شيءٍ عمَّا اكتشفناه في غضون يومٍ أو اثنَين.»

عندئذٍ فتحت عينيَّ على اتساعهما.

«أجل بالطبع. ليست لديكم أدنى فكرة، أيها البريطانيون، عن مدى يقظة جهازكم الاستخباراتي. أعتقد أنه الأفضل بين كل استخبارات الدول المشاركة في الحرب بلا شك.

صحيح أنكم لم تتحدثوا عنه قط في وقت السلم، وتجنَّبتم الأساليب الاستعراضية للألمان. لكنَّ شبكته راسخة بكفاءة وإحكام بالفعل. أظن أنكم تستطيعون معرفة كل ما يحدث تقريبًا في كل ركنٍ من العالم في غضون يومٍ واحد فقط من حدوثه. ليس معنى كلامي أنَّ مسئوليكم يستخدمون تلك المعلومات كما ينبغي. فأنا لا أثق كثيرًا في عصابة ساستكم. لا شك أنَّ ألسنتَهم فصيحة جدًّا، لكنَّ تلك الفترة الصاخبة العنيفة لا تحتاج إلى فصاحة. إن بلاغة وليام جنينجز بريان تصبح بلا قيمة في أوقات الحرب. فالمُعترَك السياسي كحظيرة دجاج، مَن بداخله يتصرفون كما لو أنَّ حظيرتهم الضيقة هي العالَم كله. لكنَّ أخطاء الساسة لا تعني عدم وجود توجيهٍ جيد يُرشِد خطواتهم. ولو كانت أمامي مهمة صعبة ينبغي إنجازها، وكان لي أن أختار مُساعدين، لوقع اختياري على قسم الاستخبارات في الأدميرالية البريطانية. نعم يا سيدي، أرفع قُبعتي لرجال الاستخبارات السرية في حكومتكم.»

سألته بدهشة: «هل أمدُّوك بجواسيس جاهزين هنا؟»

قال: «لا بالطبع. لكنهم أعطَوني المفتاح، وأجريت أنا ترتيباتي بنفسي. في ألمانيا دفنتُ نفسي في أعماق الأجواء المحلية ولم ألفت الانتباه إليَّ قط. اتبعت هذه الحيلة؛ لأنني كنتُ أبحث عن شيءٍ ما داخل ألمانيا نفسها، ولم أُرِد أي معلوماتٍ من مصادر أجنبية. صحيح أنني فشلتُ فيما نجحتَ فيه أنت، كما تعلم. لكن حالما عبرتُ الدانوب بدأتُ أفتح خطوط اتصالاتي، ولم أُمضِ يومَين هنا حتى وجدت هاتفي لا يكفُّ عن الرنين. سأشرح لك المسألة لاحقًا؛ لأنه عمل بسيط ورائع. لديَّ أجمل شفرة رسائل … لا، ليست من ابتكاري. بل من ابتكار حكومتك. يستطيع بها أي شخص، سواء أكان ساذجًا أم أبله أم خرِفًا، أن يحمل رسائلي — لقد رأيتَ بنفسك بعضًا منها اليوم — لكنَّ تعيين الشفرة يتطلَّب بعض الذكاء، وحل الشفرة لاستخلاص المعلومة يستلزم تحليلًا عميقًا من جانبي. ستسمع المسألة بكل تفاصيلها يومًا ما؛ لأنني أظن أنها ستُعجبك.»

سألته: «كيف تستخدِمها؟»

«حسنًا، أتلقى معلوماتٍ مبكرة عمَّا يحدث في هذه المنطقة الشبيهة بحقل الكرنب. وكذلك أتلقى معلوماتٍ موثوقة عن بقية أوروبا، وأستطيع إرسال رسالةٍ إلى السيد «س» في بتروجراد والسيد «أ» في لندن، أو السيد «د» في نيويورك إذا شئت. فأي شيءٍ يَنقصُ هذا ليكون كمكاتب البريد إذن؟ لقد أصبحتُ أوسع الرجال اطلاعًا في القسطنطينية؛ لأنَّ الجنرال العجوز ليمان لا يسمع معلوماتٍ إلا من جانبٍ واحد فقط، ومعظمها أكاذيب،

على حين يُحبِّذ أنور عدم الاستماع إلى أي شيء. حتى إنني أستطيع إعطاءهما معلومات مفيدة عمَّا يحدث عند عتبة بابهم ذاتها؛ لأنَّ صديقنا ساندي زعيم قيادي في أنجح جماعةٍ من المُحتالين المتمرسين في استخلاص الأسرار من صدور الرجال بحِيَل مختلفة. لولا مساعدتهم لَما أحرزتُ تقدمًا يُذكَر في هذه المدينة.»

قلت: «أُريدك أن تُخبرني بشيءٍ يا بلنكيرون. لقد عشتُ متنكرًا بهوية زائفة طول الشهر الماضي، وهذا يُجهِد أعصابي بشدةٍ حدَّ التلف. هل هذه الوظيفة مُتعبة جدًّا؟ لأنها إن كانت كذلك، أظن أنني قد أتراجع عن خوضها.»

بدا مُنهمكًا في تفكير عميق. وقال: «لا يُمكنني وصف عملنا بأنه مُريح إطلاقًا في أي وقت. فعليك أن تبقى متيقظًا، ودائمًا ما تكون معرَّضًا لكثيرٍ من الأخطار بغتةً دون سابق إنذار. ولكن مقارنةً بالأخطار الكائنة في مثل تلك الوظائف، أرى هذا العمل سهلًا. فكل ما علينا أن نبقى على طبيعتِنا. نرتدي ثيابنا العادية، ونتحدث بالإنجليزية، ونتصنع ابتسامةَ تيدي روزفلت، وليس فيها أي داعٍ إلى مواهب تمثيلية. الأوقات التي وجدتُ فيها الوظيفة صعبةً كانت هي تلك التي استلزمَت منِّي أن أكون طبيعيًّا، وأندمج مع مَن حولي وأفعل كل ما يفعلونه، وأُضطر في الوقت نفسه إلى فعل أشياء منافية لطبيعتي. ليس سهلًا أن تذهب إلى وسط المدينة للعمل وتتناول شرابًا مع السيد كارل روزنهايم، وفي الساعة التالية تنشغل بتدمير أصدقاء السيد روزنهايم. ليس سهلًا أن تُواصِل تمثيل دورٍ مختلف تمامًا عن نمط حياتك العادية. لم أجرب هذا من قبل. فدائمًا ما كان نهجي أن أبقى على طبيعتي. لكنك جربته يا حضرة الميجور، وأظن أنك وجدتَه مُرهِقًا.»

قلت: ««مرهقًا» كلمة هينة. لكني أريد أن أعرف شيئًا آخر. أرى النهج الذي اخترتَه مِثاليًّا. لكنه جامد للغاية لا يمكن تغييره بأي حال. فهو يُحتِّم علينا التزامًا شديدًا به، ولن يكون تركه سهلًا.»

قال: «حسنًا، هذه هي النقطة التي كنتُ سأذكرها. كنت سأُنبِّهك إلى هذا الأمر تحديدًا. عندما انطلقت نحو مهمتي كنت متوقعًا مواجهة موقف كهذا. قلت لنفسي إنني إذا لم أتقمص دورًا واضحًا للغاية يُوهِم الآخرين بأشياء زائفة عنِّي، فلن أنال الأسرار التي كنتُ أحتاج إليها. علينا أن نكون في قلب المعمعة، ونُسهِم بمشاركةٍ فعلية ولا نكتفي بالمشاهدة. لذا قررتُ أن أتظاهر بأنني مُهندس كبير، وادعيتُ أنَّ جون إس بلنكيرون كان من أعظم مهندسي الولايات المتحدة يومًا ما. تحدثتُ بتباهٍ عمَّا يُمكن تحقيقه في بلاد الرافدَين لسحقِ البريطانيين هناك، وإلقائهم بمياه النهر لتجرفهم. لاقى كلامي

استحسانًا. كانوا على عِلم بسُمعتي باعتباري خبيرًا هيدروليكيًّا، ووجدتُهم متحمِّسين جدًّا لضمِّي إليهم. أخبرتهم أنني أريد مساعدًا، وحكيت لهم عن صديقي ريتشارد هاناو، واصفًا إياه بأنه ألماني أصيل كطبقِ حساء الملفوف، وأخبرتُهم بأنه قادم عبر روسيا ورومانيا محايدًا خيِّرًا، لكنه عندما يصل إلى القسطنطينية سيتخلى عن حياده ويضاعف إحسانه الخيِّر. لقد تلقَّوا تقارير عنك عبر برقياتٍ من الولايات المتحدة؛ لأنني رتبتُ لهذا قبل أن أغادر لندن. لذا ستلقى ترحيبًا واحتضانًا كجون إس بالضبط. كلانا لديه وظيفة يُمكنه الاحتفاظ بها، والآن وأنت ترتدي هذه الثياب الجميلة تبدو نسخةً طبق الأصل من ألمعِ المهندسين الأمريكيين ... لكن لا يُمكننا التراجع. فإذا أردنا المغادرة إلى كونستانتسا الأسبوع المقبل فسيكونون مُهذبين جدًّا معنا، لكنهم لن يسمحوا لنا بذلك أبدًا. علينا أن نمضي قُدمًا في هذه المغامرة ونستكشف طريقنا بحذر حتى بلاد الرافدين، على أمل أن يظل الحظ حليفنا ... الرب وحده يعلم كيف سنخرج منها، ولكن يُحبَّذ ألا يذهب المرء إلى المتاعب بنفسه. وكما قلتُ من قبل، إنني أومن بالعناية الإلهية الحكيمة الخيِّرة، ولكن عليك أن تمنحها فرصة.»

يجب أن أعترف بأنَّ الاحتمال الذي لاح أمامي في الأفق صدمني وجعلني مترددًا. قد يتركوننا نقاتل؛ بل والأسوأ أنهم قد يجعلوننا نقاتل بَني بلدنا وحلفاءنا. تساءلتُ عمَّا إذا كان من الأفضل أن نهرب فورًا، وقلت له ذلك.

هزَّ رأسه بالرفض. وقال: «لا أتفق مع ذلك. فنحن أولًا لم نُكمل تحرياتنا. صحيح أننا عرفنا مكان «ذي العباءة الخضراء» تحديدًا، بفضلك، لكننا ما زلنا نجهل الكثير عن هذا الرجل المقدس. وثانيًا، لن يكون الوضع سيئًا بقدر ما تظن. فهذه المعركة تفتقر إلى التماسُك يا سيدي. لن تستمر إلى الأبد. وأحسب أنَّ الوضع سيشهد منعطفًا غريبًا قبل أن يُدركنا الموت ونبلغ جنات الخلد. على أي حال، الأمر جدير جدًّا بالمخاطرة.»

ثم جاء ببعض الأوراق ورسم لي مخططًا لتوزيعات القوات التركية. لم أكن أعرف إطلاقًا أنه دارس الحرب بتفصيل شديد هكذا؛ إذ كان شرحه وافيًا كمحاضرة من أحد ضباط الأركان. أوضحَ أنَّ الوضع لم يكن مبشرًا للأتراك إطلاقًا في أي مكان. فالقوات التي سُرِّحت من جاليبولي كانت تحتاج إلى الكثير من الإحلال والتجديد، وستكون بطيئةً في الوصول إلى حدود القوقاز، التي كانت معرضةً للتهديد الروسي. أمَّا جيش سوريا، فكان تقريبًا مجرد حشدٍ من الرعاع تحت قيادة جمال المُختل. لم يكن هناك أي احتمالية لشنِّ غزوٍ حقيقي على مصر. ولم يبدُ الوضع باعثًا على التفاؤل نوعًا ما إلَّا في بلاد الرافدَين،

بسبب الأخطاء الفادحة للاستراتيجية البريطانية. ثم قال: «وأؤكد لك بكلِّ ثقةٍ أنَّ الخليفة التركي العجوز إذا حشد ما مجموعُه مليون رجل، فإنه قد خسر ٤٠ في المائة منهم بالفعل. وإذا كنتُ عرافًا مكشوفًا عنه الحجاب، فإنه سيخسر المزيد قريبًا جدًّا.»

مزَّق الأوراق، وتكلَّم عن السياسة باستفاضة. قال: «أظن أنني فهمتُ جوهر حركة «الشبان الأتراك» ولجنتهم الأثيرة. هؤلاء الصبية ليسوا أكْفاء إطلاقًا. صحيح أنَّ أنور ذكي جدًّا، وشجاع بالتأكيد. فهو مُستعد لمواصلة القتال بعنادٍ حتى آخِر قطرة من دمه، لكنه لا يرى الصورة الكبرى يا سيدي. لا يفهم تعقيدات وظيفته كأنه طفل رضيع؛ لذا يتلاعَب الألمان به، إلى أن يفقد صوابه ويقفز هائجًا كالبغل. وطلعت كلبٌ نزِقٌ يريد أن يُوسِع البشر كلهم ضربًا بهراوة. هذان الولدان كلاهما لديهما من الإمكانات ما كان جديرًا أن يجعلهما راعيَيْ بقر كُفأَيْن في الأيام الخوالي، وربما كانا سيكسبان رزقهما في الغرب بأن يكونا شقِيَّين مُسلحَين مأجورَين لدى إحدى نقابات العمال. فهُما يكادان يشبهان جيسي جيمس أو الولد بيلي راعي البقر، باستثناء أنهما تربية جامعات ويستطيعان الثرثرة بلُغات مختلفة. لكنهما يفتقران إلى القُدرة التنظيمية اللازمة لإدارة التصويت الأيرلندي في انتخابات إحدى الدوائر مثلًا. لا يشغلان بالَيهما إلَّا بالأسلحة والعنف، والناس بدءوا يسئمون أسلوب تنظيم «اليد السوداء» الاستعراضي العنيف الذي ينتهجانه. فهما لا يفرضان سيطرتهما على الشعب إلَّا بقوةِ السلاح. أصحاب العقول الحكيمة الهادئة في اللجنة صاروا يخجلون منهما، وثعلب عجوز مثل داود يبقى متواريًا إلى أن تحين لحظته المناسبة. الآن لا داعي إلى القول إنَّ عصابة كهذه عليها أن تبقى مترابطةً معًا بحبلٍ واحد، وإلَّا فسيُعلَّق أفرادها بحبل المشنقة كلٌّ على حدة. ليست لهم أي سيطرة على المُواطن التركي العادي إلَّا لأنهم نَشِطون وهو خانع، ولأنَّ أسلحتهم عامرة بالذخيرة.»

سألته: «ماذا عن الألمان هنا؟»

ضحك بلنكيرون. وقال: «ليسوا على وفاقٍ تام معهم. لكن «الشبان الأتراك» يدركون أنهم بدون الدعم الألماني سيُشنَقون مثل هامان، وكذلك الألمان لا يقدرون على تحمُّل عواقب التخلِّي عن حليفٍ لهم. تخيَّل ما سيحدُث إذا سئمت تركيا اللعبة وعقدَتْ سلامًا منفصلًا وحدَها. سيصبح الطريق إلى بحر إيجة مفتوحًا أمام روسيا. سيأخذ فرديناند ملك بلغاريا بضاعته المستهلكة إلى السوق الأخرى فورًا دون أن يضيِّع يومًا واحدًا في التفكير. ستجد رومانيا تنضم إلى صف الحلفاء. ستكون ضربةً قاصمة لسيطرة الألمان على الشرق الأدنى بعدما كانوا يُعوِّلون على تلك السيطرة لتحقيق النصر. يقول القيصر إنهم يجب أن يمنعوا ذلك بأي ثمن، ولكن كيف سيتحقق ذلك؟»

اكتسى وجه بلنكيرون بجدية واجمة شديدة مجددًا. وقال: «لن يتحقق ذلك إلَّا إذا كان لدى ألمانيا ورقة رابحة. صحيح أنَّ لعبتها قريبةً جدًّا من الفشل، ولكن ما زال لديها فرصة. وهذه الفرصة تكمُن في امرأة ورجل عجوز. أعتقد أنَّ صاحبة منزلنا أذكى من أنور وليمان. إنها المتحكمة الحقيقية في الأحداث. عندما أتيتُ إلى هنا، ذهبتُ إليها، وعليك أن تفعل الشيء نفسه سريعًا. إنني متلهِّف لأعرف الانطباع الذي ستأخذه عنها؛ لأنني لا أمانع الاعتراف بأنها أبهرتني بشدة.»

قلت: «يبدو أنَّ مهمتنا ما زالت بعيدةً جدًّا عن خط النهاية.»

قال بلنكيرون: «بل لم تبدأ تقريبًا.»

رفع هذا الكلام معنوياتي بشدة؛ لأنني أدركتُ أنَّ الصيد الذي كنَّا نحاول اقتناصه تلك المرة كان الأكبر على الإطلاق. وأنا شخص اقتصادي، بمعنى أنني إذا كنتُ سأُشنَق مقابلَ شيء ما، فيجب أن يكون مقابلُ عنقي قيِّمًا.

ثم بدأت أعايش تجارب متنوعة بعدئذٍ. كنتُ أستيقظ صباحًا وأنا أتساءل أين ينبغي أن أكون ليلًا، لكني كنت سعيدًا جدًّا بتلك الحيرة. أصبحتُ أرى ذا العباءة الخضراء وكأنه أسطورة خرافية. عجزتُ بطريقةٍ ما عن الوصول إلى أي تصوُّر ثابت في رأسي عن شكله. كان أقربُ ما توصلتُ إليه صورةَ رجل عجوز ذي عمامة يخرج من زجاجة وسط غيمة من الدخان، وهي صورة كنت أتذكَّرها من قصص «ألف ليلة وليلة» حسبما حكاها لي أحد الأطفال. لكن إذا كان الرجل غامضًا، فالسيدة كانت أشدَّ غموضًا. فتارةً كنتُ أتخيَّلها عجوزًا ألمانية شمطاء سمينة، وتارة أخرى أتصورها جامدة الملامح كناظرة مدرسة بشفتَين رفيعتَين ونظَّارة. لكن كان عليَّ إضفاء لمسة شرقية على الصورة؛ لذا جعلتُها شابة صغيرة وأضفيتُ عليها لمسةً طفيفة من شكلِ حوريةٍ واهنة مُحجبة. كنتُ طول الوقت أحاول استخلاص معلومات من بلنكيرون عن هذا الموضوع، لكنه كان يُطبِق فمَه كمصيدة الفئران. كان يترقب حدوث مشكلة جسيمة من وراء تلك المسألة، ولم يكن يريد التحدُّث عنها سلفًا.

كنا نعيش في سلام وسكون. كان يخدمنا اثنان من جماعة ساندي؛ لأنَّ بلنكيرون قد اتخذ قرارًا صائبًا جدًّا بطردِ الخَدَم الأتراك، وكانا يعملان بجدٍّ شديد تحت أنظار بيتر، حتى أدركت أنني لم أحظَ برعايةٍ جيدة كهذه في حياتي من قبل. تمشيت في المدينة برفقة بلنكيرون، متحليًا باليقظة، متحدثًا بتأدُّب شديد. في الليلة الثالثة تلقَّينا دعوة لتناول العشاء في منزل مولندورف؛ لذا ارتدَينا أفضل ثيابنا وانطلقنا في سيارة أجرة عتيقة. كان

بلنكيرون قد أحضر معه حُلة من حُللي الشخصية، ووجدتُ مُلصَق خيَّاطي منزوعًا منها، ووُضع مكانه مُلصَق خياطٍ من نيويورك.

كان الجنرال ليمان والسفير مترنيش قد سافرا شمالًا بالقطار إلى نيش للقاء القيصر، الذي كان في جولة في تلك الأنحاء؛ لذا كان مولندورف أكبر مسئول ألماني في المدينة. كان رجلًا نحيفًا ذا وجه يُشبه وجوه الثعالب، ذكيًّا بعض الشيء، لكن كان مغرورًا للغاية، ولم يكن محبوبًا جدًّا سواء بين الألمان أو الأتراك. كان يتعامل معنا بتأدُّب، ولكن عليَّ الاعتراف بأنني شعرت بذعرٍ شديد حين دخلت الغرفة؛ لأنَّ أول رجل رأيتُه هناك كان جاوديان. ارتأيتُ أنه ما كان ليتعرَّفني حتى لو كنتُ مرتديًا نفس الثياب التي ارتديتها حين كنت برفقة شتوم؛ لأنَّ بصره كان ضعيفًا جدًّا. لكني على أيِّ حال لم أكن معرَّضًا لأيِّ خطر ببذلتي الرسمية وشعري المُمشط إلى الوراء، ولكنتي الأمريكية الممتازة. أغدقت عليه ثناءً بالغًا بصفته زميلًا لي في مجال الهندسة، وترجمت جزءًا من محادثة هندسية متخصصة جدًّا بينه وبين بلنكيرون. كان جاوديان يرتدي زيه العسكري، وازداد إعجابي بمظهرِ وجهه الصادق عن أي وقتٍ مضى.

لكنَّ الحدث العظيم كان رؤية أنور. كان رجلًا ممشوق القوام ببنيانٍ كبنيان راستا، متأنقًا جدًّا، دقيقًا للغاية في انتقاء ثيابه، ذا وجه بيضاوي ناعم كوجهِ فتاة، وحاجبَين أسودَين مستقيمَين رفيعَين بعض الشيء. كان يتحدث الألمانية بطلاقة، وكان أسلوبه مثاليًّا؛ إذ لم يكن وقحًا ولا متعجرفًا. وكذلك لاحظتُ فيه عادةً طيبة؛ إذ كان يناشد كلَّ الجالسين حول الطاولة أن يؤكدوا كلامه، وبذلك كان يُشرِك الجميع في الحديث. ليس معنى هذا أنه كان كثير الكلام، لكني وجدتُ كل كلامه حكيمًا عقلانيًّا، وكان يقوله بأسلوب مبتسم. عارَض مولندورف بضع مرات، ورأيت أنَّ كليهما لم يكن يُحب الآخر. لم أشعر بأنني أريده صديقًا؛ فقد كان أبرد ممَّا أتحمل ومصطنعًا للغاية، وكنتُ مُتيقنًا تمامًا من أنني لا أريده عدوًّا بعينَيه السوداوين الثابتتَين هاتَين. لكن لم يكن مُجديًا أن أنكر سماته الجيدة. فذلك الرجل الضئيل كان ذا شجاعة باردة كفولاذ السيوف الأزرق المصقول الممتاز.

أتصوَّر أنني أحرزتُ بعض النجاح في ذلك العشاء. فأوَّلًا كنت أستطيع التحدث بالألمانية، وبذلك كانت لي أفضلية على بلنكيرون. وثانيًا كنت في حالة مزاجية جيدة، وكنت مستمتعًا حقًّا ببذل كل جهدي في تمثيل دوري. تحدَّثوا بتشامخٍ ومبالغة شديدة عمَّا فعلوه وما سيفعلونه، وكان أنور متحمسًا بشدة في حديثِه عن جاليبولي. أتذكر أنه قال

إنه كان يستطيع تدمير الجيش البريطاني كله لولا جُبن شخصٍ ما، فرمقه مولندورف بنظرةٍ غاضبة عندئذٍ. تحدثوا عن بريطانيا وكل أفعالها بحنقٍ لاذع جدًّا لدرجة أنني استنتجتُ أنهم كانوا مرعوبين، ما أسعدني بشدة. ويؤسِفني القول إنَّ كلامي أنا شخصيًّا عن ذلك الموضوع لم يخلُ من التعليقات اللاذعة. فقد قلتُ عن بلدي أشياء يَندى لها الجبين، لدرجة أنني أستيقظ في الليل أحيانًا وأتصبَّب عرقًا حين أتذكرها.

بدأ جاوديان يتطرق إلى استخدام الطاقة المائية في الحرب، وهذا منحني فرصة.

قلت: «في بلدي عندما نريد التخلص من جبل، نزيله بالماء. فلا شيء على وجه الأرض يصمد أمام الماء. الآن، ومع كل احترامي لكم أيها السادة، ولأنني ما زلت مُستجدًّا تمامًا في الفنون العسكرية؛ أتساءل أحيانًا لماذا لا أجد اهتمامًا أكبر باستخدام ذلك السلاح الربَّاني في الحرب الحالية. صحيح أنني لم أذهب إلى أي جبهات حرب من قبل، لكنني درستُ بعضها من الخرائط والصحف. انظروا مثلًا إلى موقع قواتكم الألمانية في فلاندرز، حيث تحظَون بالأراضي المرتفعة. لو كنتُ جنرالًا بريطانيًّا، أعتقد أنني سرعان ما كنتُ سأجردكم من أفضلية ارتفاع موقعكم.»

سأل مولندورف: «كيف؟»

«حسنًا، كنت سأزيله بالماء. كنت سأجرف بالماء أربع عشرة قدمًا من التراب وصولًا إلى الحجر. توجد مجموعة كبيرة من مقالع الفحم خلف الجبهة البريطانية حيث يُمكنهم توليد الطاقة، وأعتقد أنَّهم يحظَون هناك بإمدادات مائية وفيرة من الأنهار والقنوات. أؤكد لك أنني كنتُ سأزيلكم بالماء في غضون أربع وعشرين ساعة فقط، نعم، رغم كل مدافعكم الكبيرة. لا أفهم لماذا لم يُطبِّق البريطانيون تلك الفكرة. فقد كان لديهم بعض المهندسين الممتازين.»

كان أنور منتبهًا ومتأهبًا جدًّا للمشاركة في الحديث، أسرع بكثير من جاوديان. استجوبني بطريقةٍ أظهرَت أنه كان يعرف كيفية التعامل مع موضوع هندسي مُتخصص، مع أنه ربما لم يكن مُلمًّا بالكثير من المعرفة التخصصية. وفي اللحظة التي همَّ فيها بإعطائي نبذة موجزة عن الفيضان في بلاد الرافدين، أحضر إليه أحد الياوران رسالة قصيرة، فهبَّ واقفًا.

قال: «لقد ثرثرتُ طويلًا. مُضيفي الكريم، أنا مضطر إلى تركك. وأيها السادة جميعًا، تقبلوا اعتذاري ووداعي.»

وقبل أن يُغادر، سألني عن اسمي وكتبَه. قال بلُغةٍ إنجليزية سليمة جدًّا: «هذه مدينة خَطِرة على الغرباء يا سيد هاناو. لديَّ صلاحيات بسيطة كافية لحماية صديق، ويُمكن أن تعتبرها تحت تصرفك.» قال ذلك بتعالٍ كأنه ملكٌ يَعِد أحد رعيته بإسداء صنيع له.

كنتُ مُتسليًا جدًّا بهذا الرجل الضئيل البنية، ومنبهرًا بعض الشيء أيضًا. قلتُ هذا لجاوديان بعد رحيل أنور، لكن ذلك الإنسان المحترم لم يُوافقني الرأي.

قال: «لا أحبه. صحيح أننا حليفان، لكننا لسنا صديقَين. فهو ليس ابنًا حقيقيًّا للإسلام، الذي يتسم بالنُّبل، ويحتقر الكاذبين والمُختالين الفخورين، وخائني العِشرة.»

كان هذا حُكمَ رجلٍ صادق على ذلك المهدي المنتظر. وفي الليلة التالية سمعتُ حُكمًا آخر من بلنكيرون على شخصيةٍ أعلى شأنًا من أنور. كان قد خرج وحيدًا وعاد متأخرًا جدًّا في تلك الليلة بوجهٍ شاحب ومهموم من الألم. تفاقم عُسر الهضم لديه بسبب الطعام الذي أكلناه — والذي لم يكن سيئًا من نوعه إطلاقًا — والرياح الشرقية الباردة. ما زلتُ أستطيع تخيله وهو يغلي الحليب على مصباح كحولي، في حين كان بيتر يُسخِّن له الماء على موقدٍ من طراز بريموس. كان يعبِّر عمَّا يشعر به بكلماتٍ بشعة.

«أقسم بربِّي، أيها الميجور، إنني لو كنت مكانك بمعدة سليمة، لغزوتُ العالم كله. لكني أؤدي عملي بنصفٍ واحد فقط من عقلي؛ لأنَّ النصف الآخر منشغل بأمعائي. صرتُ كالطفل الذي كان لديه ثعلب ينهش أعضاءه الحيوية، كما وَرَد في الكتاب المقدس.»

غلى حليبه وبدأ يرتشفه.

قال: «ذهبتُ للقاء صاحبة منزلنا الجميلة. فقد استدعتني وذهبت بخطًى عرجاء وجعبة عامرة بالمخططات؛ لأنها متمسكة للغاية ببلاد الرافدين.»

سألتُه بلهفة: «هل عرفتَ أي شيء عن ذي العباءة الخضراء؟»

«لا، لكني توصلت إلى استنتاج واحد. أظن أنَّ النبي المنحوس لن يطيق تلك المرأة. أظنه سرعان ما سيتمنى الموت ودخول الجنة. فلو افترضنا أنَّ الرب خلق شيطانًا على هيئة أنثى، فهي السيدة فون آينم.»

ارتشف القليل من حليبه مجددًا بوجهٍ متجهم.

قال: «هذا ليس تأثير عسر الهضم الذي أعانيه في أمعائي أيها الميجور. بل حُكم من واقع تجربة حياتية ناضجة؛ لأنني ذو بصيرة رصينة ثاقبة، حتى وإن كانت معدتي مضطربة. وقد استنتجتُ بعد تفكير عميق أن تلك المرأة مجنونة خبيثة، لكن خبثها هو السِّمة الأساسية.»

الفصل الرابع عشر

السيدة ذات الطرحة

لم تقع عيناي على ساندي منذ تلك الليلة الأولى. فقد كان مختفيًا تمامًا، وكنت أنا وبلنكيرون ننتظر أي خبرٍ بفارغ الصبر. صحيح أنَّ مهمتنا نحن الاثنَين كانت تسير على ما يُرام؛ لأننا كنا سنتَّجه شرقًا نحو بلاد الرافدَين قريبًا، لكننا إذا لم نعرف المزيد عن ذي العباءة الخضراء، فستبوء رحلتنا بفشلٍ ذريع. ولم نستطع معرفة أي شيء عن ذي العباءة الخضراء؛ لأننا لم نجد أي أحدٍ يُلمح إلى وجوده بقولٍ أو فِعل، وبالطبع كان من المُستحيل أن نطرح أسئلةً من تلقاء أنفسنا. كان أملنا الوحيد هو ساندي؛ لأنَّ ما كنا نريد معرفته هو مكان النبي وخططه. اقترحتُ على بلنكيرون أن نبذل المزيد للتودد إلى السيدة فون آينم، لعلنا نعرف منها أي شيء، لكنه أطبق فمه بإحكام كمصيدة الفئران.

قال: «لا جدوى من ذلك لنا. فتلك أخطر امرأة على وجه الأرض، وإذا خالَجَها أي شك في أننا نعرف شيئًا عن مخططاتها العزيزة على قلبها، فسيلقون بنا في قاع البوسفور قريبًا جدًّا.»

بدا كل هذا منطقيًّا جدًّا، ولكن ما الذي سيحدث إذا أرسلوا كلَينا بالفعل إلى بغداد بتعليماتٍ بجرف البريطانيين بمياه النهر؟ كان الوقت ينفد منا بسرعة، وارتأيت أننا قد لا نستطيع البقاء في القسطنطينية أكثر من ثلاثة أيام أخرى. شعرت بنفس الإحساس الذي راودني في تلك الليلة الأخيرة مع شتوم حين كان على وشك إرسالي إلى القاهرة، ولم أجد مهربًا من ذلك. حتى بلنكيرون كان قلقًا. ظل يلعب بأوراق اللعب دون توقف، ولم يكن راغبًا في الكلام. حاولت أن أعرف شيئًا من الخدم، لكنهم إما كانوا لا يعرفون شيئًا، وإما غير راغبين في إخباري بشيء، وأظن أن الاحتمال الأول كان الأرجح. كذلك ظللتُ أتلفت حولي أثناء سيري في الشوارع، لكني لم أرَ أي أثر للمعاطف الجلدية أو الآلات الوترية

العجيبة في أي مكان. بدا أنَّ «رفاق الأوقات الوردية» كلهم قد تبَّخروا في الهواء، وبدأت أتساءل عمَّا إذا كان لهم وجودٌ من قبل أصلًا.

جعلني القلق متململًا لا أطيق السكون، ودفعني هذا التململ إلى الرغبة في مُمارسة بعض الرياضة. ارتأيت أنني لن أستفيد من التمشية في أرجاء المدينة. فالطقس قد أصبح عاصفًا مرة أخرى، وقد سئمت الروائح الكريهة والقذارة وحشود الناس الملدوغين من البراغيث. لذا حصلتُ أنا وبلنكيرون على حصانَين تركيين من خيول سلاح الفرسان كان لهما رأسان طويلان، وخرجنا بهما عبر الضواحي إلى الريف المفتوح.

كنا بعد الظهيرة آنذاك، وكان الجو رماديًّا مشوبًا بمطر خفيف، مع بدايات ضبابٍ بحري حجَب الشواطئ الآسيوية المُطلَّة على المضيق. كان من الصعب أن نجد أرضًا مفتوحة لنركض بالحصانين؛ إذ كنا مُحاطين برُقَع زراعية صغيرة لا حصر لها، وبحدائق البيوت الريفية. لزمنا الأرض المرتفعة فوق البحر، وعندما وصلنا إلى رقعة من الروابي المتموجة، صادفنا فِرقًا من جنود أتراك يحفرون خنادق. وكلما أطلقنا العِنان لحصانَينا، كنا نُضطر إلى التوقُّف فجأة لنتفادى الاصطدام بإحدى هذه الفِرق، أو بقطعةٍ مُمتدة من الأسلاك الشائكة. وجدنا لفائف هذه الأسلاك البغيضة ملقاةً طليقة في كل مكان، وكاد بلنكيرون أن يتعثر في إحداها ويتعرض لسقوط بشع من فوق حصانه. وطوال الوقت كان هناك حراس يوقفوننا باستمرار، وكنا نُضطر إلى إظهار تصاريح المرور الخاصة بنا. لكن تلك الجولة نفعتنا رغم ذلك، وبثَّت الحيوية في أجسادنا، وبحلول وقت العودة إلى المنزل، تزايد شعوري بأنني رجل أبيض.

عدنا أدراجنا مهرولِين في الشفق الشتوي القصير، متجاوزين الأراضيَ المشجرة المحيطة بفلل بيضاء، وكنا نتوقف كل بضع دقائق بسبب عربات النقل وسرايا الجنود التي كنا نلقاها. كانت الأمطار قد هطلت بغزارة شديدة، وكنا ممرَّغين بالبلل والوحل على صهوة حصانينا ونحن نزحف عبر الدروب الموحلة. وبينما كنا مارَّين بجوار فيلا محاطة بسور أبيض مرتفع، انبعثت نحونا رائحةُ دخانِ حطبٍ طيبة، فشعرت بحنين إلى السهوب المحترقة في جنوب أفريقيا. والتقطَت أذناي كذلك رنينًا من أوتار إحدى آلات السنطور، ولا أعرف لماذا ذكَّرني هذا بالوقت الذي قضيته بعد الظهر في كوخ حديقة كوبراسو قبل بضعة أيام.

أوقفت حصاني واقترحتُ أن نتفقد الفيلا، لكن بلنكيرون رفض بانزعاج وغضب شديدَين.

قال: «آلات السنطور شائعة هنا كالبراغيث. لن يروقك ما سيحدث حين تُفتِّش حظائر شخصٍ ما وتجد صبيًّا سائسًا يُسلي أصدقاءه بعزف بعض الموسيقى. فهُم لا يُحبون الزوار في هذا البلد، وستجلب على نفسك المتاعب إذا تجاوزت جدران هذا السور. أظن أنه حرملك خاص بنسرٍ رومي عجوز.» كان «النسر الرومي» لفظًا مميزًا خاصًّا به يستخدمه لوصف الأتراك؛ لأنه قال إنه في صباه كان لديه كتاب تاريخ طبيعي يحمل صورةً لطائر يُدعى النسر الرومي، فظل يصف الشعب العثماني بهذا اللفظ لتطابُق الكلمة الإنجليزية المعبرة عن تركيا والديوك الرومية، ولم يستطع التخلُّص من تلك العادة.

لم أقتنع بكلامه؛ لذا حاولتُ تمييز المكان لآتي إليه لاحقًا. بدا أنه يقع على بُعد نحو ثلاثة أميال من المدينة، في نهاية ممرٍّ ضيقٍ شديد الانحدار على الجانب المُواجِه للبرِّ من التل المطلِّ على مضيق البوسفور. تخيلتُ أنَّ وجيهًا ذا شأن يعيش هناك؛ لأننا صادفنا بعد الفيلا بمسافةٍ قصيرة سيارة خاوية كبيرة تسير نحو الأعلى بهدير صاخب من مُحركها، وخطر ببالي أنَّها تخص الفيلا المسوَّرة.

في اليوم التالي كان بلنكيرون يُعاني ألمًا شديدًا بسبب عسر الهضم. وعند منتصف النهار تقريبًا، اضطُر إلى الاضطجاع ليستريح، ولمَّا لم يكن أمامي شيء أفضل أفعله، أخرجت الحصانَين مجددًا وأخذت بيتر معي. كان من المضحك رؤية بيتر في سرج عسكري تركي، راكبًا الحصان بالركاب البويري الطويل، مُرخيًا كتفَيه كأهل سهوب جنوب أفريقيا النائية.

كان ذلك النهار مشئومًا منذ بدايته. لم يكن مشوبًا بضباب ورذاذ خفيف كاليوم السابق، بل بعاصفةٍ شمالية جامدة ضربتنا في وجوهنا بوابلٍ من المطر، وخدَّرَت أيادينا المُمسكة باللجامَين. سلكنا الطريق نفسه، لكننا اندفعنا بالحصانَين غرب مجموعات حُفَّار الخنادق، ووصلنا إلى وادٍ ضحل يضمُّ قرية بيضاء وسط أشجار السرو. بعدها صادفنا طريقًا مُمهدًا جدًّا أوصلَنا إلى أعلى قمة كانت ستمنحنا إطلالةً رائعة بالتأكيد لو كان الجوُّ صافيًا. ثم أدرنا حصانَينا، وحددتُ مسارنا بحيث نصل إلى قمة المَمر الطويل الملاصق لحافة الروابي. كنت أريد تفقُّد الفيلا البيضاء.

ولكن قبل أن نقطع شوطًا طويلًا في طريق عودتنا، وقعنا في مأزق. فقد فوجئنا بكلبٍ هجين أصفر متوحِّش من كلاب الماشية يندفع نحونا كصاعقةِ البرق. بدا أنه كان معجبًا ببيتر تحديدًا؛ إذ ظلَّ يعضُّ عقبَي حصانه بوحشيةٍ حتى جعله يخرج عن الطريق بقفزة جامحة. كان ينبغي أن أُحذر بيتر، لكنني لم أُدرك ما كان يحدث إلا بعد فوات

الأوان. فقد فوجئتُ به يتبع طريقةً مختصرة للتخلص من ذاك الكلب المزعج؛ لأنه كان معتادًا التعامُل هكذا مع الكلاب الهجينة في قرى الزنوج بجنوب أفريقيا. فقد أخرج مُسدسه وأرداه قتيلًا برصاصة في رأسه لمَّا وجده لا يحترم سوطه.

لم تكد أصداء الطلقة تتلاشى حتى بدأ الشجار. ظهر رجل ضخم يركض نحوَنا صارخًا بعنفوان جنوني. خمنت أنه مالك الكلب، واقترحت ألَّا نُرعيه انتباهًا. لكن صيحاته استدعت رجُلَين آخرين — بدا من مظهرهما أنهما جنديان — ركضا نحونا وهما ينزعان بندقيتيهما عن أكتافهما. خطر ببالي في البداية أن نهرب، لكنني لم أكن أريد تَلقِّي رصاصة في ظهري، وبدا أنهما لن يتورَّعا عن إطلاق النار. لذا أبطأنا سرعتنا وواجهناهم.

صرنا بذلك أمام ثلاثيٍّ متوحش لا يتمنى أحدٌ مواجهته بتاتًا. بدا الراعي كأنه خرج من حفرة تحت الأرض؛ إذ كان همجيًّا قذرًا بشعرٍ متلبِّد ولحية كعُش الطائر. وقف الجنديان يحدقان بعبوسٍ غاضب على وجهيهما، واضعَين أصابعهما على زنادَيْ بندقيتَيهما، في حين كان الرجل الآخر يتحدَّث باهتياجٍ وثوران، وظلَّ يُشير إلى بيتر، الذي حدَّق بعينَيه الوديعتَين في ذلك المُعتدي عليه دون أن يرمش حتى.

كانت الكارثة أنَّ كلينا لم يكن يعرف كلمةً تركية واحدة. جربت الألمانية، لكنها لم تؤتِ أي جدوى. جلسنا ننظر إليهم وظلوا يصيحون بغضبٍ في وجوهنا، وكان الظلام يُخيِّم سريعًا. في وقتٍ ما، أدرتُ حصاني كأنني أهمُّ بمواصلة المضي قدمًا، فقفز الجنديَّان أمامي فورًا.

أخذا يُثرثران فيما بينهما بكلامٍ غير مفهوم، ثم قال أحدهما ببطء شديد: «إنه ... يريد ... جنيهات»، ورفع خمس أصابع. كان واضحًا أنهم رأيا من مظهرنا العام أننا لسنا ألمانًا.

قلت بغضب: «فلْأَمُتْ لو كان معه بنس واحد»، وسكن ضجيج المحادثة.

رأيت الوضع يزداد خطورة؛ لذا حادثتُ بيتر بكلمةٍ فيما بيننا. كان الجنديان مُمسكَين بندقيتيهما بقبضةٍ مرتخية، وقبل أن يستطيعا رفعهما، كنا مُصوبَين مُسدسينا نحوهما.

قلت: «إذا تحركتما فستموتان.» فَهِما ذلك بوضوحٍ تام، ووقفا ساكنَين بلا حراك، في حين توقف الراعي عن ثورانه الهائج، وظل يُتمتم كالجرامافون حين ينتهي التسجيل الصوتي المُشغَّل عليه.

قلت بنبرة حادة: «ألقِيا بندقيتيكما. هيا بسرعة، وإلا أطلقنا النار.»

فهِما مقصدي من النبرة، وإن لم يفهما كلماتي. تركا البندقيتين تنزلقان على الأرض وهما ما زالا يُحدقان إلينا. وفي الثانية التالية جعلنا حصانَينا يتعاليان فوقهما، ففر الثلاثة

كالأرانب. أطلقتُ رصاصة فوق رءوسهم لتشجيعهم. ثم ترجَّل بيتر من فوق حصانه، ورمى البندقيتَين وسط رقعة من الشجيرات لئلا يُعثَر عليهما بسهولة.

كان هذا التعطيل قد ضيَّع وقتًا. فبحلول تلك اللحظة، كان الظلام يشتد، وصار الليل حالكًا قبل أن نقطع حتى ميلًا واحدًا. كانت ورطة مزعجة؛ إذ ضللتُ وجهتي تمامًا، ولم تكن لديَّ، على أحسن تقدير، سوى فكرة ضبابية عن تضاريس المنطقة. بدا لي أنَّ أفضل خطة هي محاولة الوصول إلى قمة ربوةٍ ما لعلَّنا نرى أضواء المدينة، لكن الريف كله كان مليئًا بالمنخفضات والوديان؛ لذا كان من الصعب أن نجد الربوة الملائمة.

كان علينا الوثوق في غريزة بيتر. سألته عن المسار الذي ينبغي أن نسلُكه، فظلَّ يشم الهواء دقيقة وهو ساكن تمامًا بلا حراك. ثم أشار إلى الاتجاه. كنتُ سأختار اتجاهًا مختلفًا لو كنت اعتمدت على نفسي، لكن بيتر لم يكن يُخطئ في مثل هذه الأمور على الإطلاق تقريبًا.

بعد قليل وصلنا إلى منحدر طويل، فانفرجت أساريري. لكن لم أرَ في أعلاه ضوءًا في أي مكان، بل مجرد فراغ أسود كباطنِ قوقعة. وبينما كنتُ أحدق في الظلام، بدا لي أنني أرى بقعًا من ظلامٍ أحلك، خمنت أنها غابة.

قال بيتر: «أمامنا منزل على اليسار قليلًا.»

حدقتُ حتى آلَمَتني عيناي، ولم أرَ شيئًا.

قلت: «حسنًا، فلتُرشدني إليه بالله عليك»، وتقدَّمَني بيتر وانطلقنا معًا نحو أسفل التل.

كانت رحلة محفوفة بالصعاب؛ إذ ظل الظلام ملاصقًا لنا كصدار على أجسادنا. وطئنا مرتَين بالخطأ في بِرَك مُستنقعية، وأفلت حصاني مرةً بأعجوبة من السقوط في أحد مقالع الحصى. علقنا في أسلاك شائكة، وكثيرًا ما وجدنا أنوفنا تحتكُّ بجذوع أشجار. اضطُررتُ مرارًا إلى الترجُّل عن حصاني لأُحدِث فجوةً في حواجز مُشيدة بأحجار متقلقلة كي نمرَّ من خلالها. ولكن بعدما تعرضنا لكمٍّ سخيف من الانزلاقات والتعثرات، وصلنا أخيرًا إلى ما بدا طريقًا مستويًا، ووجدنا أمامنا بقعةً مُظلمة مميزة اتضح أنها سور شاهق.

قلت إنَّ كل أسوار الدنيا لها أبواب؛ لذا أخذنا نتحسَّسه، وسرعان ما وجدنا فجوة. كانت هناك بوابة حديدية قديمة على مفصلات مكسورة، ففتحناها بسهولة ووجدنا أنفسنا على ممشًى خلفي يؤدي إلى منزلٍ ما. بدا واضحًا أنه مهجور من كُتل الأوراق المتعفِّنة التي تُغطيه، ولأننا شعرنا من ملمسِه تحت أقدامنا أنه مغطًّى بالعشب.

ترجَّلنا حينئذٍ، وقُدنا حصانَينا خلفنا، وبعد نحو خمسين ياردة، انتهى الممشى وخرجنا منه إلى طريق مُمهد مُخصص للعربات. أو بالأحرى خمَّنا ذلك؛ لأنَّ المكان كان حالك السواد كالقار. كان واضحًا أنَّ المنزل لا يمكن أن يكون بعيدًا، لكنِّي لم أكن أعرف قطُّ في اتجاه يقع.

لم أكن أرغب آنذاك في زيارة أيِّ تركي في ذلك الوقت من اليوم. كان شغلنا الشاغل هو العثور على مكان انفتاح الطريق على الممر الضيق؛ لأنَّني كنت أعرف أنَّ طريقنا بعدئذٍ إلى القسطنطينية سيكون واضحًا. كان الممر الضيق يقع في اتجاه، على حين كان المنزل يقع في الاتجاه الآخر، ولم يبدُ من الحكمة أن نخاطر بالذهاب بالحصانَين بوقعِ حوافرهما الصاخب حتى باب المنزل الأمامي. لذا طلبت من بيتر أن ينتظرني عند نهاية الطريق الخلفي ريثما أستكشف قليلًا. اتجهت نحو اليمين، عازمًا على أن أعود إذا رأيتُ ضوء منزل، وأسلك الاتجاه الآخر مع بيتر.

مشيتُ كالأعمى في تلك الغياهب المُظلمة. كان يبدو أن الطريق يحظى بعناية جيدة، وكَتَم الحصى المبلَّل اللَّين وقع أقدامي. كانت الأشجار الضخمة تُغطيه من أعلاه بغصونها المُمتدة، وانحرفتُ مرارًا لأجد نفسي وسط شجيراتٍ تقطر ماء. ثم توقفتُ عن المشي فجأة حين سمعت صفيرًا.

كان الصفير قريبًا جدًّا، على بُعد نحو عشر ياردات. والغريب أنه كان لحنًا أعرفه، بل يكاد يكون آخِر لحن قد يتوقع المرء سماعه في هذه المنطقة من العالم. كان لحن الأغنية الاسكتلندية «قُد الخراف إلى التلال»، التي كانت مُفضلة لدى أبي.

من المؤكد أنَّ صاحب الصفير قد شعر بوجودي؛ لأنَّ اللحن توقف فجأة وسط ميزان موسيقي. تملَّكني فضول بالِغ لأعرف هوية ذلك الرجل. لذا بدأت أكمل اللحن وأنهيتُه بنفسي.

ساد الصمت لحظة، ثم سمعت الشخص المجهول يُعاود الصفير ويتوقف مرة أخرى. فأسهمت في إكمال اللحن وأنهيتُه مجددًا. بعدئذٍ شعرت بأنه يقترب. كان الهواء في ذلك النفق الرطب المَخنوق ساكنًا جدًّا، وأحسستُ بأنني سمعت وقعَ أقدامٍ خفيفًا. أظن أنني تراجعتُ خطوة. وفجأة رأيت وميض مصباحٍ كهربائي على بُعد ياردة، لكنه زال بسرعة شديدة فلم أستطع رؤية أي شيءٍ من الرجل الذي كان يحمِله.

ثم تحدث صوت خفيض من وسط الظلام — صوت أعرفه جيدًا — وبعدئذٍ وجدتُ يدًا تُوضَع على ذراعي. قال الصوت: «ما الذي تفعله هنا بحق السماء يا ديك؟» وكانت النبرة ممزوجةً بشيءٍ من الذعر.

حكيتُ له بنبرةٍ مضطربة؛ إذ بدأت أشعر بتوترٍ شديد.

قال الصوت: «أنت الآن في خطرٍ لم تواجِه أشد منه في حياتك. رباه يا رجل، ما الذي جعلك تتجول هنا في هذا اليوم تحديدًا دون كل الأيام؟»

لكم أن تتخيَّلوا قدر ما انتابني من الرعب؛ لأن ساندي لم يكن من الرجال المُبالغين إطلاقًا. وفي الثانية التالية ازداد رُعبي، حين قبض على ذراعي وجرَّني إلى جانب الطريق بخطوةٍ قافزة. لم أستطع رؤية أيَّ شيء، لكنني شعرت بأن رأسه التفَّ فجأة، فالتفتُّ مثله. وهناك، على بُعد نحو عشر ياردات، رأيت ضوء المصابيح الكربيدية لسيارة كبيرة.

أقبلَت نحونا ببطء شديد، تهدُر كالنمر، بينما حشرنا أنفسنا وسط الشجيرات. كانت تبعث من مصابيحها الأمامية ضوءًا منتشرًا على كلا الجانبين ولمسافة بعيدة، أظهر عرض الطريق كله وحدوده أيضًا، ونحو نصف ارتفاع الأشجار المقوسة فوقه. رأيت بجوار السائق شخصًا يرتدي زيًّا عسكريًّا لم يكن واضحًا في الوهَج المنعكس، لكن جسم السيارة كان مظلمًا.

زحفت السيارة نحوَنا وتجاوزتنا، ولم يكد بالي يستعيدُ هدوءه حتى توقفت مجددًا. سمعتُ صوت انضغاط مفتاحٍ كهربائي داخلها، وأضيئت الليموزين بنورٍ باهر. عندئذٍ رأيت بداخلها امرأة.

كان الخادم قد ترجَّل من السيارة وفتح الباب، وجاء من داخلها صوت رقيق واضح مُتحدثًا بلغةٍ لم أفهمها. وجدتُ ساندي قد انطلق نحو الأمام عند سماعه، فتبعتُه أنا أيضًا. فلم يكن يليق بي أبدًا أن يراني أحد مُختبئًا وسط الشجيرات.

بهرَني الوهج المفاجئ بشدة إلى حدٍّ أنني رمشت في البداية ولم أرَ شيئًا. ثم زالت الغشاوة عن عينيَّ، ووجدت نفسي أنظر إلى سيارة مُنجَّدة من الداخل بقماش ناعم بلون الحمام، ومزين بشكل جميل من الحواف باللونَين العاجي والفضي. كانت المرأة الجالسة فيها ترتدي طرحةً إسبانية من الدانتيل الأسود على رأسها وكتفيها، وكانت تُبقيها مطويةً على معظم وجهها بيدٍ رشيقة مُرصعة بالحلي. لم أرَ منها سوى عينَين شاحبتَين زرقاوَين ممزوجتَين باللون الرمادي، والأصابع النحيلة.

أتذكر أنَّ ساندي كان يقف باستقامةٍ شديدة واضعًا يدَيه على خصره، كما لو لم يكن خادمًا في حضرة سيدتِه إطلاقًا. كان رجلًا جميل الهيئة دومًا، لكنه في تلك الثياب البربرية،

وبرأسه الشامخ، وحاجبَيه الداكنَين تحت قلنسوته الضيقة، بدا كأنه ملك مُتوحش من عالَمٍ أقدم. كان يتحدَّث التركية، ويرمقني بنظراتٍ خاطفة بين الحين والآخر كما لو كان غاضبًا ومتحيرًا. ارتأيتُ أن هذا التلميح يدل على أنه يتظاهر بأنه لا يعرف أي لغةٍ أخرى، وأنه يسألني عن هويتي بغضب.

ثم نظرا إليَّ كلاهما؛ ساندي بنظرته الغجرية البطيئة الثابتة، والسيدة بعينَيها الشاحبتَين الجميلتَين الفضوليتَين. ألقيا نظرة سريعة على ثيابي وبنطال ركوب الخيل الجديد تمامًا الذي كنت أرتديه، وحذائي الطويل المُلطخ، وقُبعتي ذات الحافة العريضة. رفعت قبعتي وانحنيتُ بأفضل شكلٍ ممكن.

قلت: «سيدتي، يجِب أن أستميحك عذرًا على دخول حديقتك دون إذن. الحقيقة أنني وخادمي — الذي ينتظِرني عند أسفل الطريق مع الحصانَين، والذي أظن أنكِ لاحظتِه — خرجنا بعد ظُهر اليوم في جولة بالخيول، وضللنا الطريق تمامًا. دخلنا من بوابتك الخلفية، وكنتُ أبحث عن بابك الأمامي لأجد شخصًا ما يُرشدنا إلى وجهتنا، فاصطدمت بزعيم قُطاع الطرق ذاك الذي لم يفهم كلامي. أنا أمريكي، وجئتُ إلى هذا البلد بخصوص مسألةٍ حكومية مهمة. أكره أن أُزعجك، ولكن إذا تكرمتِ بإرسال رجلٍ معي يُرينا كيف نصل إلى المدينة، فسأكون في غاية الامتنان لك.»

لم تُفارق عيناها وجهي قط. قالت بالإنجليزية: «هلا تدخل السيارة؟ في المنزل سأبعث معك خادمًا يُرشدك إلى وجهتك.»

سحبَت إليها أطراف عباءتها المصنوعة من الفرو المُترامية لتُفسِح مكانًا لي، وجلستُ بحذائي الموحِل وثيابي التي تقطر ماءً على المقعد الذي أشارت إليه. قالت كلمة بالتركية لساندي، وأطفأت الضوء، وواصلت السيارة طريقها.

لم أصادف كثيرًا من النساء في حياتي من قبل، وكنتُ أجهل الكثير من طبائعهن كجهلي باللغة الصينية. فطوال حياتي كنتُ أعيش مع الرجال فقط، بل حشد من الرجال الغلاظ. عندما جنَيتُ ثروتي وعدتُ إلى وطني، كنت أتطلَّع إلى معايشة مجتمعٍ راقٍ صغير، لكنني كُلِّفت بمهمة جماعة «بلاك ستون» أولًا، ثم خضت غمار الحرب؛ لذا تضاءلَت معرفتي بفنون التعامُل مع النساء. لم أركب سيارة مع سيدة راقية من قبل، وشعرت كأنني سمكة على ركام رمليٍّ جاف. ملأتني الوسائد اللينة والروائح الرقيقة بإحساس شديد من عدم الارتياح. لم أكن أُفكر آنذاك في كلمات ساندي المُنذِرة بالخطر، ولا في تحذير بلنكيرون، ولا في مهمتي والعلاقة المؤكدة بينها وبين تلك المرأة. كان كل تفكيري

منصبًّا على شعوري المُميت بالخجل. وزاد الظلام الطين بلة. كنت متيقنًا من أنَّ رفيقتي تنظر إليَّ طول الوقت وتضحك عليَّ لأنها تراني مهرجًا.

توقفت السيارة، وفتح خادم طويل القامة الباب. كانت السيدة فوق عتبة المنزل قبل أن أصل إلى درجة المدخل حتى. تبعتُها بخطوات مُتثاقلة، وكان حذائي الطويل يُصدِر صوتًا كإسفنجةٍ مضغوطةٍ من شدة بللِه. لاحظتُ عندئذٍ أنها طويلة جدًّا.

قادتني عبر ممرٍّ طويل إلى غرفةٍ فيها عمودان يحملان مِصباحَين على شكل مشعلَين. كان المكان مُظلمًا خاليًا من أي أنوار باستثناء نورهما، وكان دافئًا كالصوبة بفضلِ مواقد غير مرئية. شعرتُ بملمس سجادٍ ناعم تحت قدميَّ، ووجدت على الحوائط سجاجيد ومنسوجات جدارية ذات نقوشٍ هندسية مُذهلة التعقيد، لكن كل جديلةٍ من خيوطها كانت ثمينة كالجواهر. وهناك، بين العمودَين، استدارت وواجهتني. كانت فراؤها مُنسدلةً إلى الوراء، وكانت الطرحة الإسبانية السوداء منزلقة إلى كتفَيها.

قالت: «سمعتُ عنك. تُدعى ريتشارد هاناو، الأمريكي. لماذا أتيت إلى هذه الأرض؟»

قلت: «لأُشارك في الحملة. فأنا مهندس، وأعتقد أنني أستطيع المساعدة في مهمةٍ كتلك الجارية في بلاد الرافدَين.»

سألتني: «هل أنت منحاز إلى ألمانيا؟»

أجبتُها: «أجل بالطبع. فنحن الأمريكيين يُفترَض أن نكون مُحايدين، وهذا يعني أننا أحرار في اختيار الانحياز إلى أي جانبٍ نُريده. وأنا مع القيصر.»

تفحَّصتني بعينَيها الباردتَين، لكن دون ارتيابٍ في نظراتها. رأيتُ أنها لم تشغل بالها بالشك في صدق كلامي أو عدمه. بل كانت تقيِّمني بصفتي رجلًا. لا أستطيع وصف تلك النظرة الهادئة التقييميَّة. لم يكن فيها أي انجذابٍ جنسي، ولا ذرة حتى من ذاك التعاطف الضِّمني الذي يُفترَض أن يستكشف به الإنسان كينونة إنسانٍ آخر. كنتُ مجرد مَتاع، مجرد شيء جُرِّد من أي فرصةٍ لتذوُّق الأُلفة المفترَضة بين البشر. لكني أنا شخصيًّا أمعن النظر في أي حصانٍ أنوي شراءه، وأتفحص كتفَيه وعراقيبه ومِشيته. ومن المؤكد أيضًا أنَّ أمراء القسطنطينية القدامى كانوا يتفحَّصون العبيد الذين جلبتهم الحرب إلى أسواقهم، ويُقيِّمون مدى منفعتهم في مهمةٍ أو أخرى دون أي تفكيرٍ في إنسانية مشتركة بين المشترَى والمشترِي. لكن المسألة لم تكن هكذا بالضبط. فنظرات تلك المرأة لم تكن تُقيِّمني من أجل أي مهمةٍ خاصة، ولكن لاستكشاف سِماتي الأساسية. شعرتُ بأنني أخضع للتدقيق من شخصٍ خبير في الطبيعة البشرية.

أعرف أنني كتبتُ أنني لا أعرف شيئًا عن النساء. لكن كل رجل لدَيه وعي بالجنس الآخر مُتأصل بداخله. كنت خجلًا ومرتبكًا، لكني كنتُ مبهورًا بشدة. فهذه المرأة الرشيقة، بوقفتِها الثابتة الرائعة كتمثالٍ بين المصباحَين المرتكزَين على العمودين، وشعرها الفاتح الذي يعلو رأسها كغيمة، ووجهها الرقيق الطويل، وعينَيها اللامعتَين بزُرقتهما الباهتة، كان لها سِحر كسحر حُلمٍ جامح. كنت أكرهها كرهًا غريزيًّا، كرهًا شديدًا، لكني كنتُ أتوق لإثارة اهتمامها. فتقييمي بنظراتٍ باردة من هاتَين العينَين أهان رجولتي، وشعرت بالغلِّ يحتدِم في نفسي. فأنا رجل قوي حَسن البنيان، طويل بعض الشيء، وغيظي جعل جسدي جامدًا، من شعري إلى أخمص قدمي. رفعت رأسي في شموخ، وبادلتها النظرة الباردة بنظرةٍ باردة مثلها، والكبرياء بكبرياء.

أتذكر أنني ذات مرة، حين كنتُ على متن سفينةٍ ما، صادفتُ طبيبًا يهوى ممارسة التنويم المغناطيسي، أخبرَني بأن إحساسي أشد تبلدًا من أي شخصٍ قابلَه في حياته. قال لي إنني شِبه مُحصَّن ضد التنويم المغناطيسي كجبل تيبل. بدأتُ أُدرك فجأة أنَّ هذه المرأة كانت تحاول السيطرة عليَّ بتعويذةٍ ما. فقد صارت عيناها أوسعَ وأشدَّ لمعانًا، وشعرتُ لوهلةٍ بإرادةٍ تُقاتل لإخضاع إرادتي. شعرت أيضًا، في اللحظة نفسها، برائحةٍ غريبة ذكَّرتني بتلك الساعة المحمومة التي قضيتُها في كوخ حديقة كوبراسو. مرَّ ذلك بسرعة، ورأيتُ عينَيها ترتخِيان لثانية. بدا لي أنني قرأتُ فيهما الفشل، لكنه أيضًا كان ممزوجًا بشيءٍ من الرضا، كأنها وجدت فيَّ أكثر ممَّا كانت تتوقَّعه.

قالت بصوتها الناعم: «كيف كانت حياتك؟»

فوجئتُ قليلًا بأنني استطعتُ الردَّ بصورةٍ طبيعية. قلت: «كنت مهندس تعدين في أرجاء مختلفة من العالم.»

«واجهتَ الخطر مرات عديدة؟»

«واجهتُ الخطر.»

«حاربتَ مع رجال في معارك؟»

«حاربتُ في معارك.»

ارتفع صدرها ونزل مُتنهدًا. ارتسمَت على وجهها ابتسامة لحظية غاية في الجمال. ثم مدَّت إليَّ يدَها. وقالت: «الحصانان عند الباب الآن، وخادمك معهما. سيُرشدك أحد رعيَّتي إلى المدينة.»

استدارت منصرفةً وخرجت من دائرة الضوء إلى غياهب الظلام المُخيِّم وراءها …

هرولتُ أنا وبيتر بالحصانَين إلى المنزل تحت المطر، في حين كان أحد رفاق ساندي ذوي الثياب الجِلدية يركض خببًا بحصانه بجوارنا. لم نتفوَّه بأي كلمة؛ فقد كانت أفكاري تركض ككلاب الصيد وراء أحداث الساعات الماضية. لقد رأيتُ هيلدا فون آينم الغامضة، وتحدثتُ إليها، وأمسكتُ يدَها. صحيح أنها وجهت إليَّ إهانةً خفية جدًّا، لكني لم أكن غاضبًا. فجأة تغلَّفَت اللعبة التي كنتُ ألعبها جديةً هائلة. بدا أنَّ خصومي القدامى، شتوم وراستا والإمبراطورية الألمانية كلها، تقلصوا وتوارَوا في الخلفية، تاركين المرأة الرشيقة وحدَها، بابتسامتها الغامضة وعينَيها النَّهِمتَين. وصفها بلنكيرون من قبل بأنها «مجنونة وخبيثة، لكن خبثها هو السمة الأساسية». لم أرَ أنَّ هذه كانت الألفاظ المناسبة؛ لأنها تنتمي إلى العالم الضيِّق الذي نعيش فيه تجاربنا العادية. أمَّا تلك المرأة، فكانت تتجاوزه وتفوقه، كما يشذُّ الإعصار أو الزلزال عن طبيعة الكون المألوفة. ربما كانت مجنونةً وخبيثة، لكنها كانت عظيمة أيضًا.

قبل وصولنا، قبض مُرشدنا على ركبتي بقوة، وتحدث ببضع كلمات كان من الواضح أنه حفظها عن ظهر قلب. أبلغني برسالة ساندي قائلًا: «الزعيم يقول لك أن تترقَّب وصوله عند منتصف الليل.»

الفصل الخامس عشر

إحراج أثناء تبديل الثياب

كنتُ مبتلًّا حتى النخاع، وبينما خرج بيتر ليبحث لنا عن عشاء، ذهبت إلى غرفتي لأبدل ثيابي. دلكتُ جسدي بالمنشفة بعد تجفيفه، ثم ارتديتُ منامتي لأمارس بعض تمارين رفع الأثقال بواسطة كرسيَّين؛ لأنَّ تلك الرحلة الطويلة تحت الأمطار قد أصابتني بتصلُّب في عضلات ذراعي وكتفي. كانت البيجاما رديئة، وكانت من سترة وبنطال، بلون أزرق بسيط نهبها بلنكيرون من خزانة ثيابي في لندن. أمَّا عندما كنتُ متنكرًا في شخصية كورنيليس براندت، فكنت أرتدي رداءَ نومٍ من قماش الفلانيل.

كانت غرفة نومي مفتوحةً على غرفة الجلوس، وبينما كنتُ منشغلًا بتماريني الرياضية، سمعتُ الباب يُفتَح. ظننتُه بلنكيرون في البداية، لكنَّ سرعة الخطوات كانت مختلفةً عن مشية بلنكيرون البطيئة المتأنِّية. كنتُ تاركًا الضوء مُنارًا هناك، وشعرتُ بأنَّ الزائر، أيًّا كانت هويته، قد تعامل كأنَّهُ في منزله. لذا سرعان ما ارتديتُ مِبذلًا أخضر أعارني بلنكيرون إياه، وانطلقتُ لأتحقق من المسألة.

كان صديقي راستا واقفًا بجوار المنضدة بعدما وضع عليها ظرفًا. التفت عند دخولي وألقى التحية.

قال: «جئتُ من عند وزير الحرب يا سيدي، وأحضرت إليك جوازات سفركم من أجل غد. ستسافر بـ...» عندئذٍ تلاشى صوته، وضاقت عيناه السوداوان بشدة. فقد رأى شيئًا أفقَده صوابه.

في تلك اللحظة رأيتُ أنا أيضًا ما رآه. كانت توجَد مرآة على الحائط الواقع خلفه، ولأنني كنتُ مواجهًا له، رأيت انعكاس صورتي فيها. كانت صورةً طبق الأصل لمنظر مهندس باخرة الدانوب؛ بنفس البنطال الجينز الأزرق والعباءة الخضراء المصنوعة من

صوف اللودن، وكل شيء. وتلك المصادفة السيئة اللعينة المتجسدة في ثيابي قد فضَحَت له هويةً كانت ستبقى مدفونةً في قاع البوسفور إلى الأبد لولا ذلك.

لا بد أن أعترف بأنَّ راستا كان رجلًا سريع التصرُّف. ففي لمح البصر وجدتُه التفَّ مسرعًا إلى الجانب الآخر من المنضدة ليَحُول بيني وبين الباب؛ حيث وقف يرمقني بنظراتٍ شريرة.

بحلول هذا الوقت كنتُ عند المنضدة ومددتُ يدي لآخُذ الظرف. كان أملي الوحيد في اللامبالاة.

قلت: «اجلس يا سيدي، وتناول شرابًا. فتلك ليلة موحلة ليست مناسبة للتجوُّل بالخارج.»

قال: «لا يا سيد براندت، شكرًا لك. يُمكنك أن تحرق جوازات السفر هذه لأنها لن تُستخدَم.»

صحتُ قائلًا: «ما خطبك بحق السماء؟ لقد أخطأت العنوان يا صاح. اسمي هاناو — ريتشارد هاناو — وشريكي السيد جون إس بلنكيرون. سيكون هنا حالًا. لم أعرف أي شخصٍ باسم براندت قط، باستثناء بائع تبغ في مدينة دنفر.»

قال بسخرية: «ألم تذهب إلى روسجق من قبل؟»

«لا على حدِّ علمي. لكن اسمح لي يا سيد بأن أسألك عن اسمِك وسبب وجودك هنا. فأنا لم أعتد بتاتًا أن يُناديني أحد باسمٍ هولندي أو يُشكك في صدق كلمةٍ من كلامي. في بلدي نعتبر هذا تصرفًا غير مُهذب بين الرجال المُحترمين.»

رأيت أن حيلتي بدأت تؤثر فيه. فقد بدأت نظرته الثابتة ترتعش، وعندما تكلم كانت نبرتُه أكثر تأدبًا.

قال: «أستميحك عذرًا لو كنت مخطئًا يا سيدي، لكنك نسخة طبق الأصل من رجل كان في روسجق قبل أسبوع، رجل تسعى الحكومة الإمبراطورية حثيثًا إلى القبض عليه.»

«قبل أسبوع كنتُ أترنَّح في قاربٍ صغير قذر قادم من كونستانتسا. لم أَزُر بلدة روسجق قطُّ إلا لو اعتبرناها موجودة وسط البحر الأسود. أظن أنك أخطأت القصد. آه بالمناسبة، كنتُ أنتظر جوازات سفر. هل أتيتَ من طرفِ الداماد أنور؟»

قال: «أتشرف بهذا.»

«حسنًا، أنور صديق مُقرب جدًّا لي. إنه أنبغ مواطن صادفتُه في هذا الجانب من المُحيط الأطلسي.»

كان الرجل يهدأ، وكانت شكوكه ستزول في غضون دقيقة. ولكن في تلك اللحظة، ولسوء حظي اللعين، دخل بيتر بصينيةِ أطباق. لم يلاحظ راستا، وسار مباشرة إلى المنضدة وهوى بحملِه عليها. كان التركي قد تنحى جانبًا عند دخول بيتر، ورأيتُ من نظرة عينَيه أن شكوكه قد تأكدت. فقد بدا مظهر بيتر، الذي كان مجردًا من ثيابه باستثناء قميصه وبنطال ركوب الخيل، بدا مُطابقًا تمامًا لرفيقي القصير الرثِّ الذي حضر معي لقاء روسجق.

لطالما كنتُ متيقنًا من شجاعة راستا. فقد قفز إلى الباب، وفي لمح البصر أخرج مسدسًا وصوَّبه إلى رأسي.

صاح قائلًا: «يا للحظ السعيد. العصفوران بحجرٍ واحد.» كانت يده على مزلاج الباب، وكان فمُه مفتوحًا ليصرخ. لذا خمنتُ أنَّ معه جنديًّا مُساعدًا ينتظِره على الدَّرج.

كان لدَيه ما يُسمَّى بالأفضلية الاستراتيجية؛ لأنه كان عند الباب، في حين كنتُ أنا عند الطرف الآخر من المنضدة، وكان بيتر عند جانبها بعيدًا عنه بياردتَين على الأقل. كان الطريق خاليًا أمامه، ولم يكن أيٌّ منا مُسلحًا. خطوتُ خطوة يائسة إلى الأمام وأنا لا أحمل في بالي أيَّ مقصدٍ معين؛ لأنني لم أكن أرى أي بصيصٍ من الأمل. لكن بيتر سبقني.

كان لا يزال مُمسكًا بالصينية، وفي تلك اللحظة، رمى الصينية بمحتوياتها نحو رأس راستا، كما يرمي الصبي حجرًا في بِركةٍ فينزلق على سطحها. كان الرجل يفتح الباب بإحدى يدَيه، في حين كان يصوب المسدس إليَّ بالأخرى، وأصابته الصينية في وجهه بدقة. انطلقت طلقة من المسدس، واخترقت الرصاصة الصينية، لكن صوت تحطم الأكواب الزجاجية والأواني الفخارية طغى على ضجيج الرصاصة. وفي الثانية التالية وجدتُ بيتر قد انتزع المُسدس من يد راستا وقبض على حلقومه بيده.

إنَّ شابًّا تركيًّا مُتغندرًا، نشأ في باريس وصُقِل في برلين، قد يكون شجاعًا كالأسد، لكنه لا يستطيع الصمود في شجارٍ عشوائي أمام صيادٍ من سهوب جنوب أفريقيا النائية، حتى وإن كان أكبر من ضِعف عمره. لم يكن بيتر بحاجةٍ إلى مساعدتي. فقد كانت لديه طريقته الخاصة، التي تعلَّمها في مدرسة الحياة البرية، لضربِ خصمه حتى يُفقِده الوعي. كمَّمه ببراعةٍ وإتقان، وكتَّفه بحزامه الشخصي، وحزامَين من صندوق في غرفة نومي.

قال كما لو كان ما فعله عاديًّا تمامًا: «هذا الرجل أخطر من أن نتركه يرحل. سيظلُّ ساكتًا الآن ريثما يتسنى لنا بعض الوقت لندبر خطة.»

في تلك اللحظة طُرق الباب. كان هذا مُشابهًا لما يحدث في المسرحيات الميلودرامية، فور انتهاء الشرير من ارتكاب جريمته بإتقان. المعتاد عندئذٍ أن يشحب بشدة، ويُحدق حوله بنظراتٍ مفعمة بتأنيب الضمير. لكن هذا لم يكن دأب بيتر.

قال بهدوء: «من الأفضل أن نُرتب المكان تحسبًا لاستقبال ضيوف.»

كانت في الغرفة واحدةٌ من تلك الخزانات الألمانية الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط مسنودةً إلى الحائط، ولا بد أنهم أدخلوها الغرفة على أجزاء لأنها ما كانت لتمرَّ عبر الباب كاملةً. كانت في تلك اللحظة فارغة إلَّا من صندوق قبعات بلنكيرون. وجدتُ بيتر يضع فيها راستا الغائب عن الوعي، ثم أوصدها بالمفتاح. وقال: «توجَد في الأعلى فتحاتُ تهويةٍ كافية لمنع اختناقه.» ثم فتح باب الغرفة. وجدتُ في الخارج قوَّاسًا ضخمًا مهيبًا يرتدي ثوبًا ملونًا بالأزرق والفضي. ألقى التحية وقدَّم لي بطاقة مكتوبًا عليها بالقلم الرصاص «هيلدا فون آينم».

كنت سألتمس بعض الوقت لأُغير ثيابي، لكن السيدة كانت خلفه. رأيتُ الطرحة السوداء وفرو السمور الغالي. اختفى بيتر في غرفة نومي وتركني لأستقبل ضيفتي في غرفة مليئة بقطع الزجاج المكسور ورجل فاقد الوعي في الخزانة.

أحيانًا ما يصادف المرء مواقف جنونية تفوق قدراته بشدة إلى حدِّ أنها تشحذ همته لمواجهتها. كدتُ أضحك عندما خطَت تلك السيدة الراقية المهيبة فوق عتبتي.

قلتُ بانحناءةٍ أبرَزَت مِبذلي القديم المُخجِل ومنامتي الشنيعة: «سيدتي. تجدينني الآن في وضع غير مُواتٍ. فقد عدتُ إلى المنزل مبتلًّا بشدة من رحلتي بالحصان، وكنتُ أُغيِّر ثيابي. أسقط خادمي للتو صينيةً من الأواني الفخارية، ويؤسِفني أنَّ هذه الغرفة ليست مكانًا ملائمًا لسيدة راقية. اسمحي لي بثلاث دقائق لأهندم نفسي.»

أمالت رأسها بجدية وجلست على كرسي بجوار النار. دخلتُ غرفة نومي، وكما توقعت، وجدتُ بيتر مختبئًا عند الباب الآخر. أمرته بنبرة مُهتاجة بأن يُخرِج مساعد راستا من المكان بأيِّ حجة، ويُخبره بأنَّ سيدَه سيعود لاحقًا. ثم ارتديت ثيابًا لائقة بسرعة، وخرجتُ لأجد ضيفتي شاردةً في تفكير عميق.

استفاقت مفزوعةً من شرودها عند دخولي، ووقفَت على سجادة المدفأة، في حين انزلق رداؤها الطويل المصنوع من الفرو عن جسدِها الرشيق.

قالت: «أنحن وحدنا؟ ألن يُقاطعنا أحد؟»

ثم جاءني إلهام. تذكرتُ أنَّ السيدة فون آينم، وفقًا لما قاله بلنكيرون، لم تكن على وفاقٍ مع «الشبان الأتراك»، وأخبرني حدسٌ غريب بأنَّها يستحيل أن تستسيغ شخصًا مثل راستا. لذا قلت الحقيقة.

«يجب أن أُخبرك بوجود ضيفٍ آخر هنا الليلة. أعتقد أنه لا يشعر بالراحة إطلاقًا. فهو الآن مُقيد على رفٍّ في تلك الخزانة.»

لم تكلف نفسها عناء الالتفات إلى الخزانة.

سألتني بهدوء: «أهو ميت؟»

قلت: «إطلاقًا، لكنه مُقيد بإحكام؛ لذا لا يستطيع الكلام، وأظن أنه لا يستطيع سماع الكثير.»

سألتني وهي تشير إلى الظرف الموضوع على الطاولة، والمَمهور بالطابع الأزرق الكبير الخاص بوزارة الحرب: «أهو الرجل الذي أحضر إليك هذا؟»

قلت: «هو نفسه. لستُ متيقنًا تمامًا من اسمه، لكني أظن أنهم يدعونه راستا.»

لم تبتسِم إطلاقًا، لكن راودني شعور بأنَّ هذا الخبر قد أسعدها.

سألتني: «هل ضايقك؟»

«نعم. ضايقني بعض الشيء. إنه مُتعجرف قليلًا، وأرى أنَّ قضاء بضع ساعات على الرفِّ سيُلقِّنه درسًا مفيدًا.»

قالت: «إنه رجل قوي نافذ، أحد أوغاد أنور الأشقياء. لقد جلبتَ لنفسك عدوًّا خطِرًا.»

قلت: «لا أُقيِّمه في سوق الرجال حتى بِسنتٍ واحد»، برغم شعوري الموحش بأنَّ قيمته ربما تُكلفني حياتي.

قالت بنظراتٍ جادة: «ربما تكون مُحقًّا. ففي تلك الأيام لا يوجَد عدو خطر على رجلٍ جريء. لقد أتيتُ الليلة يا سيد هاناو لأُحادثك في عمل، كما يقولون في بلدك. سمعتُ عنك خيرًا، واليوم رأيتك. ربما أحتاج إليك، وبالتأكيد ستحتاج إليَّ ...»

سكتت فجأة، ووقعت عيناها الغريبتان القويتان على وجهي مجددًا. كانتا كضوءٍ كاشف متَّقد يُظهِر كل خبايا الروح وصدوعها. شعرتُ بأنني سأجد صعوبةً بالغة في تقمُّص أي دورٍ تحت تلك النظرة الثابتة الجبارة. صحيح أنها لم تستطع تنويمي مغناطيسيًّا، لكنها جردتني من ثوبي التنكُّري، وخلعَت عني قناعي.

سألتني: «ما غرضك من المجيء إلى هنا؟ لستَ كالأمريكي البدين بلنكيرون؛ مُحبًّا للسُّلطة الرخيصة، عابدًا للعلم العقيم. وجهك يحمل شيئًا أكبر من ذلك. صحيح أنك

منحاز إلى صفِّنا، لكنك لستَ واحدًا من الألمان بتعطُّشهم لتشييد إمبراطورية على الطراز الروكوكي. بل أتيتَ من أمريكا، أرض الحماقات المُغلَّفة بورعٍ زائف، حيث يعبد الرجال الذهب والكلام. لذا أسألك، ما غرضُك من المجيء إلى هنا؟»

أثناء حديثها تخيلتُ أمامي كائنًا أشبهَ بأحد تلك الآلهة القديمة التي تنظر إلى الطبيعة البشرية من ارتفاعٍ شاهق، كائنًا مفعمًا بالاحتقار وجمود المشاعر، لكن له عَظَمته الخاصة. أشعل ذلك مخيلتي، وأجبتُ بالكلام الذي فكرتُ فيه مليًّا من قبل حين كنت أحاول أن أشرح لنفسي كيف يُمكن تفنيد قضية «دول الحلفاء».

قلت: «سأُخبرك يا سيدتي. أنا رجلٌ سلكتُ دربًا من دروب العلم، لكن ذلك الدرب كان مليئًا بالمغامرة، وقد خُضتُ غِماره، وتغيَّرت نظرتي للحياة. لقد صار العالم، من وجهة نظري، أكثر تهاونًا واسترخاءً ممَّا ينبغي. نسي الرجال رجولتهم في الكلام الناعم، وتخيلوا أنَّ قواعد حضارتهم المتعجرفة تحكم الكون كله. لكن هذا مخالف لتعاليم العلم وتعاليم الحياة. لقد نسِينا الفضائل العظمى، وبدأنا نتحوَّل إلى أفَّاكين فاقدي الرجولة يعبدون نقائصهم. ثم جاءت الحرب، وصارت الأجواء صافية. وجدتُ ألمانيا، رغم أخطائها وفظاظتها، تُقدِّم نفسها بوصفها السوط الذي يجلد النفاق. كان لدَيها من الشجاعة ما يكفي لتتحرَّر من قيود الدجل والنفاق وتهزأ بأصنام القطيع. لذا فأنا منحاز إلى ألمانيا. لكني أتيتُ إلى هنا لسببٍ آخر. لا أعرف شيئًا عن الشرق، ولكن لأنني قرأتُ في التاريخ، أعرف أن التطهير آتٍ من الصحراء. عندما تختنق البشرية بالزيف والعِبارات الرنَّانة والأصنام المَطلية المزخرفة، تهبُّ ريح من البرية لتُطهِّر الحياة وتُعيد إليها بساطتها. العالم يحتاج إلى براح وهواء نقي. فالحضارة التي نتباهى بها ليست سوى مرتعٍ للتفاهة والسطحية والتخبط، وأنا أتوق إلى الريف المفتوح.»

لاقى هذا الهراء اللعين استحسانها. كانت عيناها الشاحبتان تشعَّان بالضوء البارد الذي تبثُّه عيون المتعصِّبين. بدَت بشعرها الفاتح ووجهها البيضاوي الطويل الرائع كعاصفةِ غضبٍ مدمرة من أحد آلهة الأساطير النوردية. أظن أنني في تلك اللحظة شعرتُ بخوفٍ حقيقي منها لأول مرة؛ فقبل ذلك كانت مشاعري نحوَها مزيجًا من الكره والإعجاب. وحمدًا للرب أنها في خضمِّ انهماكها لم تلاحِظ أنني قد نسيتُ التحدُّث بلكنةِ مدينة كليفلاند الأمريكية.

قالت: «أنت من أهل الإيمان. قريبًا ستتعلَّم الكثير؛ لأنَّ الإيمان يقود إلى النصر. أمَّا الآن، فلديَّ كلمة لك. أنت ورفيقك ستسافران شرقًا.»

قلت: «نحن ذاهبان إلى بلاد الرافدَين. أعتقد أنَّ هذه جوازات سفرنا»، وأشرتُ إلى الظرف.

فوجدتها تُمسِكه وتفتحه، ثم مزقته ورمته في النار.

قالت: «تلك الأوامر أُلغيَت. أنا بحاجة إليكما وستذهبان معي. ليس إلى سهول دجلة، بل إلى التلال الكبرى. غدًا ستتلقَّيان جوازات سفر جديدة.»

مدَّت لي يدها واستدارت لترحل. ثم توقفت عند العتبة ونظرت إلى الخزانة المصنوعة من خشب البلوط. وقالت: «غدًا سأُخلِّصك من سجينك. سيكون أكثر أمنًا بين يديَّ.»

تركتني في حالةٍ من الحيرة التامة. فقد صار مقررًا لنا أن نُربَط بعجلات عربة تلك المرأة الشرسة ونخوض مهمة أصعب وأشد جنونًا من مُحاربة أصدقائنا في الكوت. ومن ناحية أخرى، فقد كشفني راستا، وأصبح مبعوثُ أكثر الرجال نفوذًا في القسطنطينية محبوسًا لديَّ في خزانة. كان علينا إبقاء راستا مُحتجزًا بأي ثمن، لكني كنت عازمًا بشدة على عدم تسليمِه إلى السيدة. فقد خمنتُ أنها تنوي حل المشكلة بأن تقتُله بدمٍ بارد، وما كنتُ لأشارك في جريمةٍ كهذه. كان الوضع معقدًا جدًّا، لكني في تلك اللحظة كنتُ في حاجة ماسَّة إلى تناوُل الطعام؛ لأنني لم آكل شيئًا منذ تسع ساعات. لذا ذهبت أبحث عن بيتر.

لم أكد أبدأ وجبتي، التي طال تأجيلها، حتى دخل ساندي. أتى قبل ميعاده، وبدا مُتجهمًا كبومةٍ سقيمة. أمسكتُ به كما يتعلق الغريق بقشة.

سمع قصتي عن راستا بوجهٍ يزداد تجهمًا.

قال: «هذا سيئ. تقول إنه كشفك، وتصرفاتك اللاحقة لن تُغير قناعته بالطبع. تلك ورطة شنيعة، ولكن يوجَد مَخرجٌ واحد منها. يجب أن أودعه في عهدة رجالي. سيُبقونه سالمًا إلى حين الحاجة إليه. لكن يجب ألا يراني.» وخرج مسرعًا.

أخرجتُ راستا من سجنه. كان قد استعاد وعيه في ذلك الوقت، واستلقى يرمقني بنظراتٍ جامدة مفعمة بالغل.

قلت: «أعتذر بشدة عما حدث يا سيدي. لكنك لم تترك لي خيارًا آخر. لديَّ مهمة كبيرة على عاتقي، ويستحيل أن أسمح بتعرضها لأي معوقات منك أو من أي شخصٍ آخر. أنت تدفع ثمن طبيعتك الشكَّاكة. عندما تعرف الحقيقة، سترغب في الاعتذار لي. سأحرصُ على أن تبقى ساكتًا ومرتاحًا بضعة أيام. لا داعيَ إلى القلق لأنك لن تتأذَّى. أضمن لك هذا بشرفي بصفتي مواطنًا أمريكيًّا.»

دخل اثنان من أشقياء ساندي وحملا راستا إلى الخارج، وسرعان ما عاد ساندي نفسه بعدئذٍ. وعندما سألته إلى أين سيأخُذانه، قال ساندي إنه لا يعرف. «لقد تلقَّيا

أوامرهما وسيُنفذانها حرفيًّا. يوجَد في القسطنطينية كثير من الأماكن المجهولة المناسِبة لإخفاء رجل، لا يدخلها أفراد قوات الخُفية أبدًا.»

ثم ارتمى على كرسي وأشعل غليونه القديم.

قال: «ديك، هذه المهمة تزداد صعوبة وغموضًا. لكني عرفتُ مزيدًا من المعلومات في الأيام القليلة الماضية. اكتشفتُ معنى الكلمة الثانية التي خربشها هاري بوليفانت.»

سألته: «كلمة «سرطان»؟»

«نعم. إنها لا تعني أكثر من معناها الحرفي. فذو العباءة الخضراء يُحتضر، يُحتضر من شهور. أحضروا طبيبًا ألمانيًّا بعد ظهر اليوم ليفحصه، وقال الرجل إنه لن يعيش أكثر من بضع ساعات. ربما يكون ميتًا الآن.»

نزل الخبر عليَّ كالصاعقة. ظننتُ لوهلةٍ أنَّ الأمور قد حُسمت بذلك. قلت: «إذن، فهذا يفسد الحملة المُرتقبة. فلا يُمكن شن حرب دينية من دون نبي.»

«ليت الأمر كان كذلك. إنها نهاية مرحلة، لكنها بداية مرحلة جديدة أحلك. هل تظن أن تلك المرأة سترتدِع بشيءٍ تافه كموتِ نبيِّها؟ ستجد بديلًا، سواء أحد الوزراء الأربعة أو أي شخصٍ آخر. إنها شيطانة متجسِّدة، لكن لدَيها روح نابليونية. الخطر الأعظم بدأ للتو.»

ثم حكى لي ما فعله مؤخرًا. قال إنه اكتشف منزل السيدة فون آينم دون عناء يُذكَر، وعزف مقطوعة موسيقية مع صعاليكه في سَكَن الخدم. ذكر أنَّ النبي كان مُحاطًا بحاشية كبيرة، وأنَّ شهرة عازفي ساندي المتجولين وصلت سريعًا إلى مسامع «القديسين»؛ لأنَّ «رفاق الأوقات الوردية» كانوا يحظَون بصيتٍ واسع في أرض الإسلام. ولأنَّ ساندي زعيم في تلك العصبة المُتشددة جدًّا؛ فقد اشتهر ووصلت أخباره إلى الوزراء الأربعة. وأصبح هو وخدمه الستة من نزلاء الفيلا، وبفضل معرفة ساندي بمعتقدات الإسلام التقليدية المتوارثة، وورعه الظاهر المُبهر، نال ثقة أهل البيت. تقبلته فون آينم حليفًا لها بكل ترحاب؛ لأنَّ «الرفاق» كانوا أخلَصَ المروِّجين للوحي الجديد.

كان الوضع غريبًا، حسبما وصفه. فذو العباءة الخضراء كان يُحتضر ويعاني ألمًا بليغًا في أغلب الأحيان، لكنه كان يبذل كل ما بوسعه لتلبية مَطالب حاميته. كان الوزراء الأربعة، من وجهة نظر ساندي، زاهدِين في الدنيا، على حين كان النبي نفسه قديسًا، وإن كان قديسًا عمليًّا ذا درايةٍ سياسية، لكنَّ السيدة كانت هي العقل المُهيمن والإرادة المسيطرة. بدا أنَّ ساندي نال حظوته، بل ومحبَّته أيضًا. كان يتحدَّث عنه بنوعٍ من الشفقة اليائسة.

لم أرَ رجلًا كهذا قط. إنه أعظم رجل محترم يُمكنك تخيُّله، له هيبة كجبل شاهق. إنه حالم وشاعر أيضًا، بل وعبقري إن كان لي أن أحكم على مثل هذه السمات. أظن أنني أستطيع تقييمه كما ينبغي؛ لأنني أعرف روح الشرق بعض الشيء، لكن الوقت الآن لا يتسع لذلك. الغرب لا يعرفون شيئًا عن الرجل الشرقي الحقيقي. فهم يتصوَّرونه منغمسًا في ألوان صارخة وكسلٍ وترفٍ وأحلام جميلة. لكن هذا خاطئ تمامًا. فالكمال الذي يتوق إليه يتسم بالتقشُّف. وتقشف الشرق هو مكمَن جماله ورُعبه ... إنَّ رغباته الكامنة في قرارة عقله لا تتغير أبدًا. لقد جاء الأتراك والعرب من براحٍ شاسع، ولديهم اشتياقٌ إليه حتى النخاع. فعندما يستقرون ويغرقون في الركود، تتردى طبيعتهم بمرور الوقت وتفسد أهواؤهم إلى أن يُهيمن عليها ذاك الخبث المرعب. ثم يأتي وحي جديد ونفحة عظيمة تُعيد إلى الحياة بساطتها. إنهم يُريدون أن يعيشوا وجهًا لوجه مع الله دون حاجزٍ من الطقوس والصور وممارسات رجال الدين. يريدون تقليم الحياة من زوائدها الغبية، والعودة إلى عراء الصحراء النبيل. تذكر أنَّ التعويذة التي تسحرهم دائمًا ما تكمُن في الصحراء الخاوية والسماء الفارغة، بالإضافة إلى أشعة الشمس الساخنة القوية المُطهرة التي تحرق كل العفن والنتن. لا تحسبنَّ هذا غير إنساني. إنها إنسانيةُ جزءٍ من الجنس البشري. صحيح أنها ليست كإنسانيتنا، وليست جيدة مثلها، لكنها جيدة جدًّا مع ذلك. أحيانًا ما تستحوذ عليَّ بشدة إلى حدِّ أنني أميل إلى التخلِّي عن دين آبائي!

«حسنًا، ذو العباءة الخضراء هو نبي تلك الرسالة العظيمة الداعية إلى البساطة. كلامه يمسُّ صميم الإسلام مباشرة، ورسالته نبيلة. ولكنْ عقابًا لنا على خطايانا، فقد شُوِّهت رسالته وصارت جزءًا من تلك الدعاية الألمانية اللعينة. استغلوا زهده لممارسة لعبة سياسية خبيثة، واستغلوا إيمانه بالبراح والبساطة لتعزيز أبشع صور الانحطاط البشري. ربَّاه يا ديك، كأنني أرى القديس فرنسيس تقوده ميسالينا.»

قلت: «السيدة كانت هنا الليلة. سألتني عن قناعاتي، فاختلقتُ هراء لعينًا نال استحسانها. لكني أرى شيئًا واحدًا. ربما تسعى هي ونبيُّها إلى غايتَين مختلفتَين، لكنهما يسلكان الدرب نفسه.»

انتفض ساندي مفزوعًا. صاح قائلًا: «كانت هنا! أخبِرني يا ديك، ما رأيك فيها؟»

«أرى أنَّ الطابع الغالِب عليها هو الجنون، لكنَّ جزءًا منها يتَّسِم بشيءٍ استثنائي أقرب إلى تأثيرٍ مُلهِم.»

فقال: «يكاد يكون هذا صحيحًا. لقد أخطأتُ في تشبيهها بميسالينا. إنها شيء أشدُّ تعقيدًا بكثير. تقود النبي لمجرد أنها تُشاركه قناعته. لكنَّ نيَّة النبي حكيمة وحسنة، ونيَّتها مجنونة وشنيعة. سأخبرك بشيء، ألمانيا أيضًا تُريد تبسيط الحياة.»

قلت: «أعرف. قلت لها ذلك قبل ساعة، عندما تحدثتُ بمعدَّل هائل من الهراء لم يبلُغه أي رجل عادي من قبل. سيقضُّ هذا مضجعي بقية حياتي.»

«بساطة ألمانيا نابعةٌ من العصابية وليست بساطة بدائية. إنها مدفوعة بجنون العظمة والأنانية والغرور، كالرجل الذي ورد عنه في الإنجيل أنه سَمِن ورَفَس. لكن النتائج واحدة. إنها تريد التدمير والتبسيط، لكن ليس ببساطة الزهاد الروحانية، بل بساطة المجانين التي تسحق كل ابتكارات الحضارة وتحوِّلها إلى نمطٍ موحَّد بلا ملامح. النبي يريد تخليص أرواح قومه، وألمانيا تريد أن تحكم جثةَ العالَم الهامدة. ولكن يمكنك وصف الاثنين بالألفاظ نفسها. وهكذا ستجدُ الشراكةَ بين القديس فرانسيس وميسالينا. أخبرني يا ديك، هل سمعتَ عن شيء يُدعى «الرجل الخارق»؟»

أجبته قائلًا: «في وقتٍ ما لم تكن الصحف تتحدَّث إلَّا عن ذلك. أظنُّ أنه من ابتكار رجلٍ رائع يُدعى نيتشه.»

قال ساندي: «ربما. فنيتشه العزيز يُلام على ترهاتٍ كثيرة كان سيُفضِّل الموت على أن يُقر بأنه صاحبها. لكنني أقصد بهذا هوسًا رائجًا في ألمانيا الحديثة المُسمَّنة. إنه نوع خيالي لا يمكن أن يتحقق في الواقع أبدًا، شأنه شأن «الرجل الاقتصادي» الذي يتحدث عنه الساسة. فالجنس البشري لديه حسٌّ فكاهي يتوقف عند حدٍّ معين من العبث. لم، ولن، يشهد الكون وجود رجلٍ خارق حقيقي أبدًا ... ولكن ربما توجَد امرأة خارقة.»

قلت له: «ستجلب لنفسك المتاعب يا صديقي بهذا الحديث.»

«لكنه صحيح. فالنساء لديهن منطقٌ خَطِر لم يكن لدَينا مثله قط، وبعضُ أفضلهن لا يرى هزل الحياة كما يراه الرجل العادي. يُمكنهن أن يُصبحن أعظم بكثير من الرجال؛ لأنهن يستطعنَ الولوج إلى صميم الأشياء مباشرة. فما من رجلٍ قط وصل إلى منزلةٍ مقرَّبة من الرب كالتي بلغتها القديسة جان دارك. لكني أرى أيضًا أنهنَّ قد يُصبحنَ أبغض عند الربِّ من أيِّ ذَكَر شهده الكون؛ لأنهنَّ لا يتوقفنَ بين الحين والآخر ويضحكنَ على أنفسهن ... لا يوجَد رجل خارق. والحمقى المساكين الذين يحسبون أنفسهم كذلك إمَّا أساتذة مخابيل لا يستطيعون أن يحكموا فصلًا مدرسيًّا واحدًا في مدرسة دينية، وإما جنود غاضبون صغيرو الرءوس مُعتدُّون بأنفسهم، يظنون أنَّ إعدام دوق إنجين بالرصاص هو الذي صنع نابليون. ولكن توجَد امرأة خارقة، واسمها هيلدا فون آينم.»

تأوهتُ مُتحسرًا، وقلت: «كنت أظن أن مهمتنا كادت تنتهي، والآن تبدو كأنها لم تبدأ كما ينبغي أصلًا. لقد قال بوليفانت إنَّ كل ما علينا القيام به هو معرفة الحقيقة.»

«بوليفانت لم يكن يعرف. لا أحد يعرف سوانا أنا وأنت. صدقني، تلك المرأة لديها قوة هائلة. لقد ائتمنَها الألمان على ورقتهم الرابحة، وستلعب بها بكلِّ ما تملكه. لا جريمة ستعترض طريقها. لقد أطلقَت السهم من القوس بالفعل، وإذا لزم الأمر، ستنحر كل أنبيائها وتدير الحملة بنفسها ... لا أعرف ماهية مهمتك؛ لأنني بصراحةٍ لا أستطيع إطلاقًا أن أفهم ما ستفعله أنت وبلنكيرون. لكني أفهم مهمتي بوضوح تام. لقد أشركَتني في المسألة، ولن أُبارحها لعلِّي أجد فرصة لإفسادها ... سنسافر شرقًا غدًا، مع نبيٍّ جديدٍ إذا مات القديم.»

سألته: «إلى أين ستذهب؟»

«لا أعرف. لكنني أخمِّن أنها ستكون رحلة طويلة، بناء على التحضيرات. ولا بد أنها ستكون في بلدٍ بارد، بناء على الثياب التي أعطَوني إياها.»

«حسنًا، أيًّا كانت الوجهة، فنحن ذاهبان معك. فأنت لم تسمع تكملة قصتنا. اندمجتُ أنا وبلنكيرون في أرقى الأوساط باعتبارنا مهندسَين أمريكيَّين بارعَين سنُلحق أضرارًا جسيمة بالبريطانيين على نهر دجلة. وأصبحتُ الآن من أصدقاء أنور، وقد عرض عليَّ الحماية. أحضر راستا المأسوفُ عليه جوازاتِ سفرنا لنرحل إلى بلاد الرافدين غدًا، لكن سيدتك مزقتها وألقتها في النيران منذ ساعة. نحن ذاهبان معها، وقد تكرَّمَت بإخباري بأن رحلتنا ستكون صوب التلال الكبرى.»

أطلق ساندي صفيرًا طويلًا خفيضًا. وقال: «ما الذي تُريده منك بحق السماء؟ المسألة تزداد تعقيدًا يا ديك ... وفوق ذلك أين بلنكيرون؟ فهو الخبير في السياسة العليا.»

وبينما كان ساندي يتكلَّم، دخل بلنكيرون المفقود إلى الغرفة بخطوته البطيئة الهادئة. رأيتُ من مشيتِه أنه، وللمرة الأولى، لم يكن يُعاني عسر الهضم، ومن عينَيه أنه كان متحمسًا.

قال: «اسمعوني يا أولاد، لدي خبر مُهم جدًّا. لقد نشب قتال محتدم على الحدود الشرقية، وتلقى «الأوغاد» ضربة موجعة.»

كانت يداه عامرتَين بأوراق اختار منها خريطةً وبسطها على المنضدة.

«ما زالوا يتكتَّمون على الأمر في العاصمة، لكني كنتُ أُلمل خيوط القصة طول الأيام الماضية، وأظن أنني فهمتها فهمًا صحيحًا. قبل أسبوعين نزل القائد نيقولا من جباله

وسحق أعداءه هناك، في قرية كوبريكوي حيث يمر الطريق الرئيسي المتَّجه شرقًا عبر نهر آراس. لم تكن هذه سوى بداية المغامرة الجريئة؛ لأنه واصل تقدُّمه على نطاق جبهةٍ عريضة، والرجل المحترم المدعو كامل، الذي يقود الجيش في تلك المنطقة، لم يكن كفئًا بما يكفي لوقف تقدمه. لقد حُشِر الأوغاد كالأغنام من الشمال والشرق والجنوب، والآن يجلس الروس خارج قلاع أرضروم. يُمكنني أن أُخبركم بأنَّ القيادات العليا يائسة جدًّا من الوضع ... أنور يتصبَّب دمًا من أجل إرسال فِرَق جديدة إلى أرضروم من جاليبولي، لكن الطريق طويل ويبدو أنهم لن يلحقوا المعركة ... سننطلق غدًا، أنا وأنت يا حضرة الميجور، إلى بلاد الرافدين، وهذا يكاد يكون أسوأ حظٍّ صادفه جون إس على الإطلاق. سنفوِّت فرصة رؤية القتال الأعنف في هذه الحملة.»

أخذتُ الخريطة ووضعتها في جيبي. فالخرائط كانت تخصُّصي، وكنت أبحث عن واحدة.

قلت: «لن نذهب إلى بلاد الرافدين. لقد أُلغيَت الأوامر التي تلقيناها.»

«لكني قابلتُ أنور للتو، وقال إنه أرسل جوازات سفرنا إلى هنا.»

قلت: «إنها في النار. ستصل الجوازات الصحيحة صباح غد.»

قاطعَنا ساندي فجأة بعينَين لامعتَين من شدة الإثارة.

وقال: «التلال الكبرى! ... نحن ذاهبون إلى أرضروم ... ألا تريان أنَّ الألمان يلعبون ورقتَهم الرابحة؟ إنهم يُرسلون ذا العباءة الخضراء إلى بؤرة الخطر لعل وصوله يستنفر الجيش التركي ويُوحد صفوفه. لقد بدأت المياه الراكدة في التحرك يا صديقي العزيز ديك. لن نشعر بفراغٍ مُمل بعد الآن. سننخرِط في القتال حتى النخاع، وليكُن الرب في عون الرجل الأفضل ... عليَّ المغادرة الآن لأن لديَّ أشياء كثيرة عليَّ إنجازها. إلى اللقاء. سنلتقي لاحقًا في التلال.»

ظلَّ بلنكيرون حائرًا حتى أخبرتُه بما حدث في تلك الليلة. وبينما كان يستمع إليَّ، تلاشى كل الارتياح من وجهه، وتسللَت إلى قسماته تلك الحيرة الطفولية المضحكة.

قال: «ليس لي أن أتذمَّر؛ لأنَّ ذلك في صميم مهمتنا، لكني أعتقد أنَّ تلك القافلة ستُواجه معضلةً شديدة. إنها قسمة الرب، وعلينا الإذعان لها. لكني لن أدَّعي أنني لستُ مُرعوبًا مما ينتظرنا.»

قلت: «أوه، وأنا أيضًا. فالمرأة تُصيبني بنوبات هلع. صحيح أننا واقعان في مأزق شديد هذه المرة. لكني سعيد بأنهم سيُشرِكوننا في قلب الأحداث الحقيقي في مدينة كبرى. فأنا لم أُحب فكرة التجوُّل في المقاطعات الصغرى.»

«أظن هذا صحيحًا. لكني أتمنَّى أن يأخذ الربُّ الرحيم تلك السيدة الجميلة إليه. فهي أشدُّ من أن يتحمَّلها رجل هادئ مُسالم في مثل عمري. فحين تدعونا إلى المشاركة في شيء في مكانٍ ما، أشعر برغبة في الهرب بسرعة إلى أبعد مكانٍ ممكن عنه.»

الفصل السادس عشر

خان المسافرين المُتهالك

بعد ذلك بيومَين، وصلنا مساء إلى أنقرة، التي كانت أولى محطات رحلتنا.

كنا قد تسلَّمنا جوازات السفر في صباح اليوم التالي، كما وعدَتْنا السيدة فون آينم، ومعها خارطةٌ لرحلتنا. وفوق ذلك خصَّصَت فردًا من عصبة «الرفاق» ذا درايةٍ بسيطة بالإنجليزية ليُرافقنا، وكان ذلك إجراءً احترازيًّا حكيمًا؛ لأننا كلنا لم نكن نفقه شيئًا من اللغة التركية إطلاقًا. كان هذا مُجمل ما لدينا من تعليمات. ولم أسمع شيئًا آخر عن ساندي أو ذي العباءة الخضراء أو السيدة بعد لقائنا الأخير. فقد كان مُقررًا أن تسافر مجموعتنا هذه وحدَها.

ذهبنا إلى أنقرة عبر السكة الحديدية؛ إذ ركبنا عربة نوم ألمانية مريحة جدًّا ملحَقة بنهايةِ قطار عسكري. لم تتسنَّ لنا رؤية كثير من المناظر الريفية؛ لأننا بعدما غادَرْنا مضيق البوسفور اصطدمنا بهبوبِ نُدَف ثلجية، ولم يكن لديَّ أي فكرةٍ عن المنظر الطبيعي المُحيط بنا باستثناء شعوري بأننا كنا نصعد هضبةً كبيرة. قضينا وقتًا مُمتعًا، وكانت هذه معجزة لأن ذلك المسار كان أشدَّ اكتظاظًا من أيِّ مكانٍ رأيته في حياتي. فالمكان كان مزدحمًا بالجنود العائدين من جاليبولي، ووجدتُ كل مسارٍ جانبي مُكتظًّا بشاحنات المؤن والإمدادات. وعندما كنا نتوقف — بمعدل مرة كل ساعة في المتوسط تقريبًا — كنا نرى معسكراتٍ شاسعة على جانبَي مسار القطار، وكثيرًا ما صادفْنا أفواجًا من جنود راجِلِين عبر مسار السكة الحديدية. بدَوا مجموعةً رائعة حَمولة من الأوغاد المتوحِّشين، لكن كثيرين منهم كانوا في حالة رثة مؤسِفة، ولم تُعجبني أحذيتهم. تساءلتُ كيف سيقطعون الأميال الخمسمائة المؤدية إلى أرضروم.

سلَّى بلنكيرون نفسه بلعبة سوليتير بأوراق اللعب، فيما جربتُ أنا وبيتر لعبة بيكيه الثنائية، لكننا كنا ندخن ونثرثر أغلب الوقت. فالابتعاد عن تلك المدينة اللعينة قد بث

في نفوسنا بهجة عجيبة. كنا في تلك اللحظة على الطريق المفتوح، حيث كنا نتحرك نحو صوت المدافع. حتى في أسوأ الأحوال لن نَهلِك كالجرذان في أنابيب المجاري. بل وسنكون كلنا معًا أيضًا، وكان في ذلك عزاء لنا. أظن أننا كنا نشعر بالارتياح الذي ينتاب المرء عند إعادته إلى كتيبته بعد اغترابه عنها في موقع عسكري منعزل. وفوق ذلك، فزمام المسألة قد انفلت تمامًا من أيادينا. لم يكن مُجديًا أن نُخطط وندبر؛ فلا أحد منَّا كان يحمل أدنى فكرة عن ماهية الخطوة التالية. كنا آنذاك قَدَريِّين مؤمِنين بقسمة الرب، وهذا الإيمان بث الطمأنينة في نفوسنا.

كلنا عدا بلنكيرون. فدخول هيلدا فون آينم في المسألة قد أصابه بنفور شديد. كان من المُثير للاهتمام أن أتأمَّل تأثير تلك المرأة في مختلف أفراد عُصبتنا. ولم يكن بيتر مهتمًّا إطلاقًا؛ إذ لم يكن يُفرِّق بين رجلٍ وامرأة ومخلوق أسطوري حتى؛ لذا واجه المسألة كلها بمنتهى الهدوء كما لو كان يُخطط لاصطياد أسد عجوز في رقعة من الشجيرات، متقبلًا الحقائق كما هي، متعاملًا معها كمسألة حسابية. أمَّا أنا وساندي، فكنا مبهورين، لا جدوى من إنكار ذلك، كنا مبهورين إلى حدٍّ رهيب، لكننا من فرط اهتمامنا لم نكن نشعر بخوف، ولم نكن مفتونَين بها إطلاقًا. بل كنا نكرهها بشدة. لكنها أفقدت بلنكيرون النطق. قال بنفسه إنَّ الأمر أشبه تمامًا بلقاء بين أفعى مجلجلة وطائر.

جعلتُه يتحدث عنها؛ لأنني ارتأيتُ أن حالته ستسوء لو جلس وأطال التفكير فيها باكتئاب. استغربتُ أن أجد هذا الرجل — الذي كان في رأيي أشد اتزانًا وأشجع من أي رجلٍ آخر قابلته في حياتي — عاجزًا هكذا بسبب امرأةٍ نحيفة. لم يكن ثمة شك في هذا. فالتفكير فيها جعل المستقبل أمامه حالك السواد كغيمةٍ رعدية. لقد انتزعَتِ القوة من مفاصله، وبدا أنها إذا وُجدت معه في نفس المكان كثيرًا، فقد يعجز عن إكمال المهمة.

ألمحت إلى أنه مُغرم بها، لكنه أنكر ذلك بشدة.

«كلَّا يا سيد، لا أحمل عاطفةً من أي نوع تجاه السيدة. مشكلتي أنها تُربكني، ولا أستطيع التعامُل معها باعتبارها عدوة. أظن أننا، نحن الأمريكيين، نفتقر إلى رباطة الجأش المناسبة للتعامُل مع هذا النوع من الإناث. لقد عظَّمنا قدر نسائنا حتى أصبحن إلهاتٍ صغيرات من الصفيح، وفي الوقت نفسه تركناهن خارج مُعترك الحياة العملية الفعلي. لذا فحين نُصادف امرأة تؤدي أصعب نوع من الأدوار الرجالية، لا نستطيع استيعابها. فلسنا مُعتادين أن نعتبرهنَّ سوى ملائكة وطفلات. ليتني حظيتُ بتنشئةٍ كالتي حظيتم بها يا أولاد.»

كانت أنقرة مُشابهة لتصوُّري عن مكانٍ مثل أميان أثناء الانسحاب من مونس. فكانت كتلةً واحدة من القوات ومركبات النقل، بدت كعنق الزجاجة لأنها كانت تستقبل مزيدًا من الوافدين كل ساعة، دون وجود أي مخرجٍ متاح سوى الطريق الوحيد المؤدي إلى الشرق. وجدنا البلدة في حالةٍ من الهرج والمرج، في حين كان ضباطٌ ألمان مشتتون يُحاولون فرض بعض النظام عليها. لم يشغلوا بالَهم بنا؛ إذ كان من المستبعد العثور على شخصيات مشبوهة في قلب الأناضول. أخذنا جوازات سفرنا إلى القائد، الذي أشَّر عليها فورًا، ووعدَنا بأنه سيبذل كل ما بوسعه ليُدبر لنا وسيلة نقل. بِتنا الليلة في مكانٍ شبيه بالفندق، حيث تكدَّسنا نحن الأربعة كلنا في غرفة نوم واحدة صغيرة، وفي صباح اليوم التالي جلبتُ لنا سيارة بصعوبة بالغة. فقد استغرقتُ في ذلك أربع ساعات، واستعنتُ بكلِّ اسمٍ بارز في الإمبراطورية التركية لأجلب سيارة حقيرة من طراز ستوديبيكر، وساعتَين أخريَين لأحصل على الوقود والإطارات الاحتياطية. لكنني لم أستطع العثور على سائق بشتَّى السُّبُل، واضطُررت إلى قيادة ذلك الشيء بنفسي.

غادرنا بعد منتصف النهار مباشرة، وخرجنا متأرجحين بالسيارة إلى وسط رَوابٍ متموِّجة قاحلة جرداء مُرقَّعة بأراضٍ حرجية قصيرة الشجيرات. لم يكن هناك ثلوج، لكننا اصطدمنا بهبوب رياحٍ شرقية كانت تخترق النخاع. وبعد قليلٍ صعدنا إلى تلال، وصار الطريق وعرًا كقعرِ مجرًى مائي، مع أنَّ حالته الأصلية التي أُنشئَ عليها لم تكن سيئة. ولا عجب في ذلك؛ لأنَّه كان يشهد زحامًا مروريًّا كالذي رأيتُه من قبل على ذاك الطريق البشِع الواصل بين كاسل وإيبر، ولم تكن توجَد فِرَق من عمَّال إنشاء الطرُق البلجيكيِّين لإصلاحه. وجدنا جنودًا بالآلاف يمشون في نفس اتجاهنا مُسرعي الخُطى بوجوه تركية جامدة الملامح، وقوافل من الثيران، وقوافل من البغال، وعربات تجرُّها خيول أناضولية صغيرة قوية، أمَّا الاتجاه المعاكس، فكان فيه مجموعةٌ كبيرة قادمة من سيارات الهلال الأحمر المُتهالِكة وعربات نقل الجرحى. اضطُررنا إلى الزحف ساعاتٍ طويلةً متواصلة حتى تجاوزنا أحد الانسدادات المرورية. وقبل حلول الظلام بقليل، بدا أننا سبقنا التكدُّس المروري الأول، وقطعنا نحو عشرة أميال بلا معوقات عبر ممرٍّ منخفض وسط التلال. بدأتُ أقلق على السيارة؛ لأنها كانت سيارة رديئة حتى في أحسن حالاتها، ولأنني كنتُ متيقنًا من أنَّ الطريق سيحوِّل أي سيارة إلى قطعةٍ من الحديد الخردة عاجلًا أو آجلًا، حتى وإن كانت من طراز رولز رويس.

لكني مع ذلك كنت مبتهجًا بالخروج إلى الهواء الطلق مجددًا. اكتسى وجه بيتر بمظهرٍ جديد، وأخذ يستنشق الهواء القارس كأنه ظبي. كان الجو مُحملًا برائحة دخانِ حطبٍ وحرائق روثٍ منبعثة من معسكرات صغيرة على جانب الطريق. وتلك الرائحة، مع الرائحة الشتوية اللاذعة الغريبة المُنبعثة من المساحات الشاسعة التي تضربها الرياح، ستظل تراود ذاكرتي دومًا كلما تذكرتُ ذاك اليوم. كنت أزداد طمأنينة وعزمًا في كل ساعة. شعرتُ بالإحساس نفسه الذي راودَني في أول مرة زحفَت فيها كتيبتي من بلدة إير نحو خط القتال، والذي كان أشبه بمزيج من الترقب والتوقع الجامح. فأنا لستُ معتادًا المدن، والتسكعُ في أرجاء القسطنطينية قد أوهنَ هِمتي. أمَّا في تلك اللحظة، ومع هبوب الرياح القارسة، فكنتُ أشعر بأنني مُستعد لأي نوع من الأخطار. كنا على الطريق الرئيسي المؤدي إلى الشرق والتلال الحدودية، وكنا نقترِب من أبعد جبهة قتالية في الحرب. لم تعُد هذه مهمةً استخباراتية عادية. فقد انتهى كل هذا، وكنا حينئذٍ في طريقنا إلى منطقة إطلاق النار، حيث سنشارك في سقوط أعدائنا المُحتمل. لم أفكر في أننا كنَّا بين هؤلاء الأعداء بالفعل، وأننا قد نشاركهم سقوطهم، إن لم نُردَ قتلى بالرصاص قبلها. ففي الحقيقة كنت قد توقفت عن اعتبار الأمر صراعًا بين جيوش وأمم. لم أشغل بالي بالتفكير في محلِّ تعاطُفي وانحيازي. بل كنت أعتبر المسألة، في المقام الأول، صراعًا بيننا نحن الأربعة وامرأة مختلة، وهذا العداء الشخصي جعل صراع الجيوش مجرد شيءٍ هامشي باهت.

نمنا تلك الليلة هامدين بلا حراك كجذوع الأشجار على أرضية خان قذرة، وانطلقنا في صباح اليوم التالي وسط حُبَيبات الثلج. كنا على ارتفاعٍ شاهق جدًّا حينئذٍ، وكان البرد مُهلكًا. كان عضو عصبة «الرفاق» المصاحب لنا — الذي كان اسمُه حسين تقريبًا — قد قطع ذاك الطريق من قبل، وظل يُخبرني بأسماء الأماكن التي كنا نمرُّ بها، لكني لم أفهم شيئًا منها. ظللنا طوال الصباح نسير مُتعرِّجين وسط عددٍ كبير من القوات كانوا يُشكلون لواءً على الأقل، ويمضون قُدمًا بمشية عسكرية منتظمة بوتيرةٍ سريعة، وخطوات متحررة جميلة لا أظن أنني رأيتُ أفضل منها من قبل. يجب أن أقول إنني كنتُ معجبًا بالمقاتل التركي، تذكرتُ شهادة رفاقنا له بأنه مقاتل شريف، وتحسرتُ بشدة على أنَّ ألمانيا دفعته إلى هذا المعترك القذر. توقفوا لتناول وجبة، وتوقفنا نحن أيضًا، وتغدَّينا ببعض الخبز الأسمر والتين المجفف وقارورة من نبيذ حامض جدًّا. تبادلت بضع كلمات مع أحد الضباط الذي كان يتحدث الألمانية قليلًا. أخبرني بأنهم متجهون نحو روسيا

مباشرة؛ لأنَّ تركيا أحرزت نصرًا عظيمًا في القوقاز. قال بجمودٍ كأنه يردد درسًا ملقَّنًا: «هزمنا الفرنسيين والبريطانيين، والآن حان دور روسيا.» لكنه أضاف أن الحرب قد أعيَته بشدة حدَّ الموت.

تجاوزنا طابور القوات بعد الظهر، وظللنا نسير في طريق مفتوح بضع ساعات. كانت الأرض حينئذٍ مائلة نحو الشرق، كأننا نتحرك نحو وادي نهر كبير. وسرعان ما بدأنا نصادف مجموعاتٍ صغيرة من رجالٍ قادمين من الشرق بنظرة جديدة في وجوههم. كانت مجموعات الجرحى الأولى مُشابهة لمظهر الجرحى المعتاد على كل جبهة، ورأيتُ محاولات شكلية للتحلي بشيءٍ من النظام. لكن هذه المجموعات الجديدة كانت منهكة ومحطمة تمامًا؛ إذ كان أغلب أفرادها حفاة، وبدا أنهم فقدوا وسيلة نقلهم وكانوا يتضوَّرون جوعًا. كنا نجد مجموعةً منهم مُمدَّدين على جانب الطريق في أقصى درجات الإعياء. ثم كنا نجد آخرين سائرين بخطوات عرجاء وإنهاكٍ شديد إلى حد أنهم كانوا لا يلتفتون لينظروا إلينا قط. كانوا كلهم تقريبًا مُصابين، بعضهم بجروح بليغة، وبدا على معظمهم النحول الشديد. تساءلتُ كيف سيشرح صاحبي الضابط التركي القادم على الطريق من خلفنا ذاك المنظر لرجاله، إذا كان يؤمن بأنَّ بلاده حققت نصرًا عظيمًا. فلم يكن يبدو عليهم أنهم بقايا جيش منتصر.

حتى بلنكيرون، الذي لم يكن جنديًّا، لاحظ ذلك.

قال: «هؤلاء الأولاد يبدون بحالة بشِعة. علينا أن نسرع يا سيادة الميجور إذا أردنا أن نجد مقاعد لمشاهدة الفصل الأخير.»

كان هذا رأيي أنا أيضًا. فالمنظر جعلني متلهفًا بجنون للإسراع؛ لأنني رأيتُ أنَّ الشرق يشهد أحداثًا كبرى. كنت أحسبُ أنَّ أربعة أيامٍ ستكفي لتأخذنا من أنقرة إلى أرضروم، لكنَّا صِرنا على مشارف نهاية اليوم الثاني ولم نبلُغ ثلث الطريق بعد. ضغطت على دواسة الوقود بتهوُّر، وهذه العجلة جلبت خرابًا على رءوسنا.

ذكرتُ لكم أن سيارة ستوديبيكر كانت قديمة ورديئة جدًّا. فكان نظام التوجيه فيها مُختلًّا بشدة، وازداد الطين بلةً بسبب سطح الطريق السيئ وانعطافاته الحادة المُتكررة. سرعان ما وصلنا إلى أرض مكسوة بجليد سميك جدًّا، ومتجمِّد بشدة، ومليء بأخاديد طولية من آثار سير عربات النقل الكبيرة. ظللنا نتخبَّط ونتقافز، وكنا نهتز كحبات أرزٍ في بالون منفوخ. بدأت أقلق بشدة على تلك المركبة المتداعية القديمة، خصوصًا أننا كنا نبدو بعيدِين جدًّا عن القرية التي اقترحتُ أن نبيت فيها. كان الشفق يُسدل أستاره وكنا

ما نزال في أرضٍ مُقفرة بلا ملامح، حيث كنا نعبر واديًا ضيقًا ضحلًا لمجرًى مائي. وجدنا هناك جسرًا مشيدًا بجذوع الشجر والتُّراب عند أسفل منحدَر، وبدا أنه قد قُوِّي بمزيدٍ من الدعامات مؤخرًا ليتحمل الكثافة المرورية الشديدة. وبينما كنا نقترِب منه بسرعةٍ كبيرة، لم تعد السيارة تستجيب لعجلة القيادة.

بذلت جهدًا مُضنيًا لأُبقيها في مسارٍ مُستقيم، لكنها انحرفت يسارًا وطارت من فوق ضفة جانبية وغاصت بنا في منخفَضٍ سبخ. تعرضنا لارتطامٍ أصابنا بالغثيان حين اصطدمنا بالأرض السفلية، وقُذف الرجال كلهم خارجًا في الوحل الجليدي المتجمِّد. لا أعرف حتى الآن كيف أفلتُّ سالمًا؛ لأن السيارة انقلبت وكان من المفترض أن ينكسر ظهري. لكن لم يتأذَّ أحد. كان بيتر يضحك، وشاركه بلنكيرون الضحك بعدما نفض الثلج عن شعره. أما أنا، فكنت أفحص السيارة كالمسعور. كانت في أبشع حالة مُمكنة؛ لأن محور العجلات الأمامية كان مكسورًا.

عندئذٍ لعنتُ سوء حظي وشعرت باليأس. فقد كنا عالِقين وسط آسيا الصغرى بدون أي وسيلة نقل؛ لأن الحصول على محور جديد كان مستحيلًا كاستحالة العثور على كراتٍ ثلجية في الكونغو. كان الظلام على وشك الحلول، ولم يكن لدَينا وقت نضيعه. أخرجت عبوات الوقود والإطارات الاحتياطية وخبأتها وسط صخور على جانب التل. ثم جمعنا أمتعتنا القليلة من سيارة ستوديبيكر المهجورة. كانت كل آمالنا معلقة على حسين. كان عليه أن يجد لنا مكانًا للمبيت، على أن نحاول في اليوم التالي الحصول على أحصنة أو استقلال أي عربة عابرة. لم يكن لديَّ أمل في الحصول على سيارة أخرى. فكل السيارات في الأناضول آنذاك ستكون قليلة وباهظة.

كان حادثًا مؤسفًا بغيضًا جدًّا إلى حد أننا كلنا تقبلناه بهدوء. فما كانت الشتائم النابية لتفيدنا بشيء. انطلق حسين وبيتر في اتجاهَين مختلفَين من الطريق بحثًا عن منزل، وأَويتُ أنا وبلنكيرون إلى أسفل أقرب صخرة، وأخذنا ندخن بشراهة.

كان حسين هو أول مَن وجد ما ينِّقب عنه. فقد عاد بعد عشرين دقيقة مُخبرًا إيَّانا بأنه وجد مسكنًا ما على بُعد ميلَين بمحاذاة مجرى النهر. ثم ذهب ليُحضر بيتر، وحملت أنا وبلنكيرون أمتعتنا، ومشَينا بخطوات متثاقلة بمحاذاة النهر. كان الظلام قد اشتدَّ بحلول ذلك الوقت، وتعرَّضنا لعدة تعثُّرات سيئة وسط البرك المُستنقعية. وعندما لَحِق بنا حسينٌ وبيتر، وجدا طريقًا أفضل، وسرعان ما رأينا وميضًا مرتعشًا من الضوء في المنخفَض الواقع أمامنا.

تبيَّن أنها مزرعة مُتهالكة بائسة وسط أيكة من أشجار الحور، مكونة من ساحةٍ موحلة كريهة الرائحة، وكوخ حقير من غرفتَين للسَّكَن، وحظيرة كانت جافة بعض الشيء، فاخترناها لننام فيها. كان المالك رجلًا عجوزًا مُحطمًا منهكًا عرفنا منه أنَّ أبناءه جميعًا قد سافروا للمشاركة في الحرب، واستقبلَنا بهدوء عميق ينمُّ عن شخص لا يتوقع من الحياة سوى الكدر.

كنا بحلول هذا الوقت قد تمالكنا أعصابنا مجددًا، وكنت أحاول جاهدًا تطبيق فلسفتي الجديدة المؤمنة بقسمة الرب. ارتأيتُ أنه إذا كانت الأخطار مقدَّرة على المرء سلفًا، فالصعوبات أيضًا كذلك، وأننا يجب أن نتقبَّل الاثنتَين باعتبارهما جزءًا من الحياة اليومية. أشبعنا جوعنا ببقايا مُؤَننا وبعض الحليب الرائب، وتقوقعنا بين قش البازلاء في الحظيرة. أعلن بلنكيرون بتنهيدةٍ تفوح بالسعادة أنه لم يشعر بعُسر الهضم طوال اليومَين الماضيين.

أتذكَّر أنني رأيتُ حلمًا غريبًا في تلك الليلة. رأيتني كأنني في مكان مقفر وسط جبال، وكنت مطارَدًا، لكني لم أستطع معرفة هوية مُطارِدي. أتذكر أنني كنتُ أتعرق من الخوف؛ لأنني بدوت وحدي تمامًا، ولأن الشيء المرعب الذي كان يُلاحقني بدا أفظع من مجرد قوة بشرية عادية. كان المكان هادئًا ساكنًا إلى حد رهيب، وكانت كل أرجائه مغطاةً بثلوج سميكة لدرجة أنني شعرتُ بأن كل خطوةٍ كنت أخطوها ثقيلة كالرصاص. ستقولون إنه كابوس عادي جدًّا. هذا صحيح، لكن كان فيه شيء غريب. فالليل كان حالك السواد، لكني رأيتُ في الممر الضيق أمامي بقعةً من الضوء كشفَت لي عن تلٍّ صغير عجيب ذي قمة صخرية مجوفة، على غرار التلال التي نُشبِّهها في جنوب أفريقيا بقدور الطعام. خطر ببالي أنني إذا استطعت الوصول إلى هذا التل فسأنجو؛ لذا ركضتُ لاهثًا نحوَها وسط أكوام الثلج، في حين كان ولي الدم يُلاحقني. استيقظتُ لاهثًا لأجد ضوء الصباح الشتوي يحاول أن يتخلل عوارض السقف الخشبية المُتشقِّقة، وسمعتُ بلنكيرون يقول مبتهجًا إنَّ أمعاءه كانت مهذبة طوال الليل. استلقيتُ في سكون بعض الوقت محاولًا تثبيت الحلم في ذهني، لكنه تلاشى كله إلى ضبابٍ باستثناء صورة التل الصغير، الذي كان جليًّا تمامًا بكل تفاصيله. قلت لنفسي إنها ذكرى لمكانٍ ما في السهوب البرية في ريف واكرستروم بجنوب أفريقيا، لكني لم أستطع تذكُّر موضعه بدقة، مع أنني بذلت كل جهدي في ذلك.

لن أخوض في تفاصيل الأيام الثلاثة التالية؛ لأنها كانت سلسلة مُتواصلة من خيبات الأمل الشديدة. مشَّط حسين وبيتر الريف بحثًا عن أحصنة، وجلس بلنكيرون في الحظيرة

ولعب بورق اللعب، في حين ظللت أنا أتردد على جانب الطريق قرب الجسر لعلِّي أجد وسيلة نقلٍ من أي نوع. لكن مهمتي باءت بالفشل الذريع. مرَّت بي طوابير القوات، وكانوا يرمقون السيارة المُحطَّمة وسط الأعشاب المُستنقعية المتجمدة بعيونٍ متسائلة، لكنهم لم يستطيعوا تقديم أي مساعدة. وعدَني صديقي الضابط التركي بأن يبعث برقيةً من أقرب مكان متاح إلى أنقرة لاستدعاء سيارة جديدة، لكنني تذكرتُ الوضع في أنقرة، فلم أُعلِّق أي أمل على ذلك. مرَّت بي سيارات كثيرة مكتظة بضباط أركان أتراك وألمان، لكنهم كانوا أشدَّ استعجالًا حتى من أن يتوقفوا ويتحدثوا. الاستنتاج الوحيد الذي خرجتُ به من طول انتظاري على جانب الطريق أن الوضع كان يزداد احتدامًا بجوار أرضروم. فكل مَن صادفته على هذا الطريق كان في عجلة جنونية إمَّا للوصول إلى هناك وإما للفرار من هناك.

كان حسين أفضل فرصة لنا؛ لأن عصبة «الرفاق»، كما قلت، كانت تحظى بنفوذٍ خاص وغريب جدًّا في كل أنحاء الإمبراطورية التركية. لكنه في اليوم الأول عاد خاوي الوفاض. قال إنَّ الخيول كلها خُصصت للحرب بأوامر عُليا، وإنه — وإن كان متيقنًا من أن بعض أصحاب الخيول قد امتنعوا عن تسليم خيولهم وأخفَوها — لم يستطع العثور على أي حصان. وفي اليوم الثاني عاد بحصانَين مُنهكَين بائسَين لاهثين بحالة يُرثى لها من العيش على تناول الفول فقط. فالريف لم يكن متبقيًا فيه أي غذاءٍ مناسِبٍ من الذُّرة أو التبن. وفي اليوم الثالث تَحصَّل على فحلٍ عربي ضئيل مقبول، صحيح أن حالته كانت سيئة، لكنه كان سليمًا تمامًا. دفعنا ثمنًا باهظًا مقابل تلك البهائم؛ لأن بلنكيرون كان موسرًا، ولأننا لم يكن لدينا وقت نُهدره في المساومة الشرقية التي لا تنتهي.

قال حسين إنه قد مشَّط الريف كله، وصدقتُه. لم أكن أجرؤ على التأخُّر يومًا آخر، حتى وإن كان ذلك يعني تركه ورائي. لكنه لم يكن ينوي تركنا إطلاقًا. فقد قال إنه عدَّاء سريع، ويستطيع مواكبة سرعة خيولٍ كخيولنا تلك حتى وإن ظلَّ يركض بجوارها إلى الأبد. عندئذٍ حسبتُ أننا لن نصل إلى أرضروم قبل عدة أسابيع إذا كانت هذه هي وتيرة سيرنا.

انطلقنا في فجر صباح اليوم الرابع بعدما تمنَّى لنا المزارع العجوز رحلة موفقة، وباع لنا بعض خبز الجاودار البائت. امتطى بلنكيرون الفحل العربي لأنه كان الأثقل وزنًا، فيما ركبتُ أنا وبيتر الحصانَين المنهكَين الوضيعَين. وسرعان ما تحققت أسوأ هواجسي المتشائمة، ووجدتُ حسين يسير بجواري بخطواتٍ واسعة متمهلة بعدما لحق بنا

بكل سهولة. كنا نسير ببطءٍ شديد كعربة ثقيلة تجرها ثيران. كانت البهائم بلا حدوات، ورأيت أن حوافرها ستتمزق قِطعًا عمَّا قريب من شدة وعورة الطرق. مَضينا قُدمًا ببطءٍ كعربة مقطورة تحمل رحَّالة غجريين، بسرعة لم تتجاوز نحو خمسة أميال في الساعة، عاجزين بلا حيلة لدرجة أننا بدَونا عارًا على طريقٍ سريع بحالتنا تلك.

كانت السماء في تلك اللحظة تمطر رذاذًا خفيفًا، فاشتد اكتئابي. مرت بنا سيارات وتوارت في الضباب، سائرة بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة، ساخرة من بطئنا. لم يتحدث أيٌّ منا؛ لأن عُقم مسعانا أحبط معنوياتنا. عضضتُ بقوة على شفتي لأكبح اهتياجي، وأظن أنني كنت على استعداد لأن أبيع روحي هناك مقابل أي شيء سريع الحركة. فلا أعرف تجربة أشد إيلامًا من أن يكون المرء متلهفًا للوصول بسرعة ويُضطر إلى الزحف ببطء كالحلزون. كنت أزداد تأهبًا لخوض أي مغامرة متهورة.

عند منتصف النهار تقريبًا، نزلنا إلى سهلٍ فسيح مليء بعلاماتٍ تنم على أنه غني بالزراعات. صرنا نرى قرًى كثيرة، ووجدنا الأرض مليئة ببساتين أشجار الزيتون وأخاديد الري. وممَّا تذكرتُه من الخريطة، استنتجتُ أننا نقترب من ذاك الريف المفتوح قُرب مدينة سيفاس، التي تُعَد صومعة حبوب تركيا، وموطن السلالة العثمانية الحقيقية.

ثم وصلنا إلى خان المسافرين عند منعطف الطريق.

كان مكانًا قذرًا متهالكًا، ورأينا رقعًا متساقطة من الجص الوردي الذي يكسو جدرانه. كان هناك فناء ملاصق للطريق، ومبنًى ذو سطح مستوٍ يحمل فجوةً كبيرة في جانبه. كان المكان بعيدًا عن أي ساحة معركة؛ لذا توقعت أن يكون هذا الضرر ناتجًا من انفجارٍ ما. وعلى بُعد بضع مئات الياردات خلفه، رأيت سريةً من أفراد سلاح الفرسان مُخيِّمةً بجوار جدول ماء، في حين كانت خيولهم مربوطة في صفوفٍ طويلة من الأوتاد.

وعلى جانب الطريق، وجدنا سيارة كبيرة جديدة متوقفة، كانت وحيدة ومهجورة تمامًا.

لم نرَ في الطريق كله من أمامنا ومن خلفنا رجلًا واحدًا باستثناء الجنود المُخيِّمين بجوار الجدول. لذا أيقنتُ أنَّ مُلاك السيارة، أيًّا كانت هويتهم، موجودون داخل الخان حتمًا.

كنت قد قلتُ إنني راغب في فعل شيء متهور، وللعجب، منحتني العناية الإلهية الفرصة! اشتهيتُ تلك السيارة كما لم أشتهِ أي شيءٍ في الدنيا من قبل. كانت كل خططي في تلك اللحظة منحصرة في شوقٍ محموم إلى بلوغ ساحة المعركة. كان علينا أن نجد ذا

العباءة الخضراء في أرضروم، ومن المفترض أننا كنا سنحظى بحماية هيلدا فون آينم فور وصولنا إلى هناك. كنا في وقتِ حربٍ آنذاك، وكان التحلي بالجرأة هو أضمن سبيل إلى الأمان. لكنني في الحقيقة لم أستطع التوصل إلى أي خطةٍ تستحق الذكر. لم أرَ سوى شيءٍ واحد؛ سيارة سريعة قد تُصبح لنا.

تبادلت كلمة مع الآخرين، وترجَّلنا من فوق خيولنا وربطناها عند طرف الفناء القريب منَّا. كنت أسمع همهمة خافتة لأصوات الفرسان عند جدول الماء، لكنهم كانوا على بُعد ثلاثمائة ياردة ولم يرَونا. طلبنا من بيتر أن يتقدَّمنا ليستطلِع الوضع في الفناء. لم يكن في المبنى نفسه سوى نافذة واحدة تُطلُّ على الطريق، وكانت موجودة في الطابق العلوي.

في تلك الأثناء زحفتُ بجوار الحائط إلى مكان السيارة، وألقيت نظرةً عليها. كانت سيارة رائعة ذات مُحرك من ستِّ أسطوانات، وجديدة تمامًا مع أنَّ إطاراتها كانت متآكلة قليلًا. وجدت سبع علبٍ صفيحية من البنزين متراصَّة خلفها وإطارات احتياطية، ثم نظرت داخل السيارة، فوجدتُ أجربة خرائط ومناظير ميدانية متناثرة على المقاعد، كما لو أن أصحابها قد خرجوا من السيارة ليُمدِّدوا سيقانهم ويتمشَّوا دقيقة ليس إلَّا.

عاد بيتر وأخبرنا بأنَّ الفناء فارغ.

قال: «يوجَد رجال في الغرفة العلوية، أكثر من واحد؛ لأنني سمعت أصواتهم. إنهم يتحركون بلا توقف، وربما يخرجون قريبًا.»

ارتأيتُ أن لا وقت لدينا لنضيعه، فطلبت من الآخرين أن يتسللوا خلسةً على الطريق وينتظروني على بُعد خمسين ياردة وراء الخان، وأن يكونوا متأهِّبين لركوب السيارة حالما أنطلق بها وأمرُّ بهم. كان عليَّ تشغيل محرك تلك السيارة اللعينة، وربما يترتب على ذلك إطلاق نار.

انتظرتُ بجوار السيارة حتى رأيتهم يصلون إلى المكان المتفق عليه. سمعتُ أصوات رجال قادمة من الطابق الثاني، وخطواتٍ تتحرك جيئة وذهابًا. كنت في غاية القلق؛ فقد كنتُ معرَّضًا لأن يراني أحدهم من النافذة في أي لحظة. ثم ارتميتُ على مقبض تشغيل المحرك، وعملتُ بكلِّ همة.

صعَّب البرد مهمتي، وكنت مرعوبًا؛ لأنَّ الضجيج الذي أحدثتُه في ذلك المكان الهادئ لا بد أنه قد أيقظ حتى الأموات. ثم اشتغل المحرك بفضل الرب، فقفزت فورًا إلى مقعد القيادة، وحللتُ تعشيق القابض، وضغطت دواسة الوقود. انطلقت السيارة الرائعة إلى

الأمام، وشعرت بأنني سمعت من ورائي أصواتًا حادة. فوجئتُ برصاصة مسدس تخترق قبعتي، واستقرت رصاصة أخرى في بطانة المقعد بجواري.

وفي غضون لحظة واحدة صرتُ خارج المكان، وكان بقية رفاقي يركبون السيارة. صعد بلنكيرون على المرقاة ودخل إلى المقعد الخلفي متدحرجًا كجوال فحم. وركب بيتر بجواري قافزًا بحركة بهلوانية، ودخل حسين من الخلف بعدما تسلَّق السيارة بالصعود فوق ثنايا سقفها. كانت أمتعتنا في جيوبنا، ولم يكن لدَينا ما نحمله.

انهال علينا الرصاص من حولنا، لكنه لم يُصبنا بأي أذًى. ثم سمعت دويَّ إطلاق نار في أذني، ولمحتُ بيتر بطرفِ عيني يُنزِل مسدسه. وبعد قليل ابتعدنا عن مرمى نيرانهم، وعندئذٍ نظرت إلى الوراء، فرأيت ثلاثة رجال يلوِّحون بإيماءاتٍ منفعلة في منتصف الطريق.

قال بيتر بأسًى: «تبًّا لهذا المسدس. لم أستطع إصابة الهدف بدقة بمسدس صغير قط. لو كانت بندقيتي معي ...»

فسألته في ذهول: «لمَ أطلقت النار؟ لقد أخذنا سيارة الرجال، ولا نريد أن نُلحِق بهم أي أذًى.»

قال بيتر بهدوء: «كنت سأوفر علينا العناء لو كانت بندقيتي معي. فذلك الرجل الضئيل الذي تدعوه راستا كان هناك، وقد عرفك. سمعته ينادي باسمك. إنه رجل ضئيل غاضب، وأنا ألاحظُ أن هناك خطَّ تلغراف على هذا الطريق.»

الفصل السابع عشر

متاعب عند أنهار بابل

أعتبرُ أنَّ جنوني بدأ من تلك اللحظة. فجأة نسيت كل هموم الحاضر والمستقبل وصعوباتهما وأصبحت خاليَ البال ببلاهة. كنا منطلقين بسرعة نحو المعركة الكبرى حيث الرجال منخرطون في القتال؛ مهنتي الأصلية. أدركتُ عندئذٍ كُرهي الشديد للأيام التي قضيتها وحيدًا في ألمانيا، بل وكرهي الأشد للأسبوع الذي أهدرته متسكعًا في القسطنطينية. كنت في تلك اللحظة متحررًا من كل هذا، متجهًا نحو صدام الجيشين. لم أشغل بالي بأننا كنا على الجانب الخطأ من جبهة المعركة. فقد خبَّرني حدسي بأن فرصتنا ستكون أفضل كلما كان الوضع أشد قتامة وجموحًا.

قال بلنكيرون وهو ينحني فوقي: «يبدو لي أن هذه الرحلة الممتعة بالسيارة المسروقة ستنتهي قبل الأوان عمَّا قريب جدًّا. بيتر محق. ذاك الشاب سيبعث ببرقية، وسيوقفوننا في البلدة التالية.»

أجبته: «عليه أن يذهب إلى مكتب تلغراف أولًا. وهنا تكمن أفضليتنا عليه. فليستخدم الأحصنة الوضيعة التي تركناها وراءنا إن شاء، وإذا استطاع أن يصل إلى مكتب تلغراف قبل المساء، فأنا لا أَفقَه شيئًا. سأخرق كل قواعد القيادة وأستغل أقصى إمكانات هذه السيارة. ألا ترى أننا كلما اقتربنا من أرضروم أصبحنا أكثر أمنًا؟»

قال ببطء: «لا أفهم. أعتقد أنهم سيكونون في انتظارنا بالأصفاد في أرضروم. لماذا بحق السماء لم يستطع هؤلاء الصعاليك ذوو الشعر الكثيف إبقاء ذلك القصير اللعين محتجَزًا؟ إنَّ سجل تصرفاتك متهور جدًّا حتى في نظر أشد القادة العسكريين سذاجة يا حضرة الميجور.»

«هل تتذكر ما قلتَه عن إمكانية الاحتيال على الألمان بالتظاهر الخادع؟ حسنًا، سأستخدم أقوى أنواع التظاهر الخادع. سيوقفوننا بالطبع. سيبذل راستا كل ما بوسعه.

لكن تذكَّر أنه وأصدقاءه ليسوا محبوبين للدرجة لدى الألمان، على عكس السيدة فون آينم. نحن نحظى بحمايتها، وكلما كان المسئول الألماني الذي سأقف أمامه أكثر نفوذًا، سأشعر بأمان أكبر. لدينا جوازات سفرنا وأوامرنا التي تلقيناها، ولن يجرؤ رجل على إيقافنا فور دخولنا نطاق الأراضي الألمانية. لذا سأنطلق بأقصى سرعة يقدرني عليها الرب.»

كانت تلك الرحلة بالسيارة تستحق كتابة ملحمة عنها. فالسيارة كانت جيدة، وتعاملتُ معها ببراعة، وإن كان ينبغي ألَّا أقول ذلك عن نفسي من باب التواضع. كان الطريق في ذاك السهل المركزي الفسيح ممهدًا بلا عوائق، وكثيرًا ما كنت أصل بها إلى سرعة خمسين ميلًا في الساعة. مررنا بمجموعاتٍ من الجنود على مسار دائري مُمتد عبر السهل، حيث واجهنا أخطارًا رهيبة، وانزلقنا في إحدى المرات بجوار إحدى عربات النقل حتى كادت عجلاتنا الجانبية تتجاوز حافة وادٍ ضيق عميق. سِرنا عبر شوارع سيفاس الضيقة كسيارة إطفاء، في حين كنت أصرخ بالألمانية بأننا نحمل رسائل عاجلة إلى مقر القيادة. مضينا بسرعة وسط رذاذ مطر خفيف، ثم صادفنا لحظاتٍ قصيرة من ضوء الشمس الشتوية، وبعدها اصطدمنا بعاصفة ثلجية كادت تنزع الجلد من وجوهنا. وطوال هذا الوقت، كان الطريق الطويل ممتدًّا أمامنا إلى حيث يتناحر جيشان بشراسة في صراع مُميت في موضع ما في نهايته.

لم نبحث عن مأوًى في تلك الليلة. تناولنا طعامًا زهيدًا في السيارة وسقفها مقفل علينا، وتحسَّسنا طريقنا في الظلام بمساعدة المصابيح الأمامية التي كانت حالتها ممتازة. انحرفنا عن الطريق أربع ساعات للنوم، وتفحصتُ الخريطة. انطلقنا مجددًا قبل الفجر ووصلنا إلى ممرٍّ جبلي ضيق مُؤدٍّ إلى وادي نهر كبير. أظهر فجر الشتاء امتدادات النهر اللامعة، التي كانت مكسوة بالجليد وسط المروج المُغطاة بنُدَف ثلجية متناثرة. ناديتُ بلنكيرون قائلًا:

«أعتقد أن هذا النهر هو الفرات.»

فقال باهتمامٍ شديد: «حقًّا. إذن، فهذه هي أنهار بابل. يا إلهي، لا أصدق أنني عشت حتى رأيت الحقول التي كان الملك نبوخذ نصر يأكل فيها العشب! هل تعرف اسم هذا التل الكبير يا حضرة الميجور؟»

صحتُ قائلًا: «أرارات، على الأرجح»، وصدَّقني.

كنا في تلك اللحظة وسط التلال الصخرية، التي كانت منحدرة وضخمة وسوداء، ورأينا من خلال الوديان الضيقة الجانبية منطقة نائية ذات قمم جليدية. أتذكر أنني

ظللت أبحث عن التل ذي القمة المجوَّفة الذي رأيته في حلمي. فذاك الشيء لم يكفَّ عن مُطاردتي قط، وكنت واثقًا تمامًا في تلك اللحظة بأنه ليس جزءًا من ذكرياتي في جنوب أفريقيا. صحيح أنني لست رجلًا مؤمنًا بالخرافات، لكنَّ الرسوخ الشديد الذي ظلَّت حافة تلك القمة الصغيرة المنحدرة عالقة به في ذهني أوحى إليَّ بأنه كان تحذيرًا مرسَلًا من العناية الإلهية. كنت متيقنًا تمامًا من أنني سأكون في مواجهة ورطة شديدة عندما تقع عيناي عليها.

ظللنا طوال الصباح ماضين في طريقنا نحو أعلى ذلك الوادي العريض، وقبل الظهر مباشرة، وصلنا إلى جزء أوسع، ووجدنا الطريق ينخفض نحو حافة النهر، ورأيت أمامي الأسطح البيضاء لبيوت إحدى البلدات. كان الثلج في تلك اللحظة سميكًا، ممتدًّا حتى ضفة النهر، لكن السماء كانت صافية، ووسط خلفيةٍ من زُرقة السماء ارتفعت قمم متلألئة كالجواهر جنوبًا. ظهرت أمامي أقواس جسر مُمتد عبر فرعَي النهر، وعندما أبطأتُ سرعتي عند المنعطف، سمعنا صيحة مدوية من حارس من كوخ محصَّن، سائلًا إيَّانا عن هويتنا. كنا قد وصلنا إلى قلعة أرزينجان؛ معقل أحد الفيالق التركية وبوابة أرمينيا.

أطلعت الرجل على جوازات سفرنا، لكنه لم يؤدِّ التحية العسكرية لنا، وتركنا نمضي. نادى رجلًا آخر من كوخ الحراسة، فأشار إلينا ذاك الرجل بأن نُسايره، ومشى بخطًى متثاقلة نحو أسفل ممر جانبي. وعند الطرف الآخر من الممر، رأينا ثكنة كبيرة وحراسًا خارجها. تحدث الرجل إلينا بالتركية، التي ترجمها لنا حسين. قال لنا إنَّ شخصًا ما في تلك الثكنة يريد رؤيتنا بشدة.

اقتبس بلنكيرون من سِفر المزامير قائلًا بهدوء: «على أنهار بابل جلسنا وبكينا. أخشى يا حضرة الميجور أن نجد أنفسنا نتذكر صهيون قريبًا.»

حاولت إقناع نفسي بأن هذا مجرد إجراء اعتيادي في قلعة حدودية، لكن حدسي خبَّرني بأنَّ ثمة صعوبات تنتظرنا. كنت متأهبًا لممارسة أجرأ أنواع التظاهر الخادع لو صحَّ أن راستا قد أرسل برقيات تفضح أمرنا؛ إذ كنا لا نزال على بعد ثمانين ميلًا من أرضروم، وكان علينا أن نصل إلى هناك قبل حلول الليل بأي ثمن.

استقبلنا ضابطُ أركان نزِقٌ عند الباب. وعندما رآنا، صاح مناديًا أحد أصدقائه ليأتي ويرانا.

«ها هي الطيور قد دخلت القفص. رجل سمين واثنان نحيفان وهمجي يبدو كرديًّا. استدعِ الحارس وقُدْهم إلى الخارج. لا شك في هويتهم.»

قلت: «معذرة يا سيدي. ولكن ليس لدَينا وقت نضيعه، ونودُّ أن نكون في أرضروم قبل حلول الظلام. أتوسَّل إليك أن تُتمم أي إجراءات شكلية بأسرع وقت ممكن.» وأضفتُ مشيرًا إلى الحارس: «هذا الرجل يحمل جوازات سفرنا.»

قال بصفاقة: «اهدأ؛ فأنتم لن تواصلوا رحلتكم فورًا، وعندما تواصلونها، فلن يحدث ذلك بسيارة مسروقة.» أخذ جوازات السفر وقلَّبها بأصابعه بلامبالاة. ثم رأى فيها شيئًا جعله يعقد حاجبَيه.

سأل، ولكن بنبرةٍ أقل ثقة، قائلًا: «من أين سرقتم هذه؟»

تحدثتُ بأدبٍ شديد. «يبدو أنك ضحية خطأ مُضلِّل يا سيدي. هذه أوراقنا نحن. لدينا أوامر بتسجيل حضورنا في أرضروم دون أي تأخير. مَن يعوقُنا سيكون هو المسئول أمام الجنرال فون ليمان. سنكون شاكرين إذا اقتدتَنا فورًا إلى الحاكم.»

قال: «ليس مسموحًا لكم برؤية الجنرال بوسلت، هذا عملي. لديَّ برقية من سيفاس مفادها أنَّ أربعة رجال سرقوا سيارة تخص أحد رجال الداماد أنور. والبرقية تحمل أوصافكم جميعًا، وتقول إنَّ اثنين منكم جاسوسان سيِّئا السمعة، مطلوب القبض عليهما من الحكومة الإمبراطورية. ما قولكم في ذلك؟»

«لا شيء سوى أنَّ هذا هراء. يا سيدي الفاضل، لقد رأيت جوازات سفرنا. لا يمكن الإفصاح عن مهمتنا، لكنَّ خمس دقائق مع الجنرال بوسلت ستكون كفيلة بتوضيح المسألة. ستندم بشدة إذا تأخرتَ دقيقة أخرى.»

تأثر بكلامي رغمًا عنه، وبعدما شدَّ شاربه، استدار على عقبيه وغادر وترَكَنا. ثم سرعان ما عاد وقال بفظاظة شديدة إن الحاكم سيُقابلنا. تبعناه عبر ممر مؤدٍّ إلى غرفة كبيرة مطلَّة على النهر، حيث وجدنا رجلًا عجوزًا بعض الشيء يجلس على كرسي بمسندَين للذراعَين بجوار مدفأة، ويكتب رسائل بقلم حبر.

كان هذا بوسلت، الذي ظل حاكمًا لأرضروم حتى مَرِض وحل محلَّه أحمد فوزي. كان له فم ذو شفتَين ممتلئتَين، وكان تحت عينَيه انتفاخات زرقاء كبيرة. من المفترض أنه كان مهندسًا بارعًا، وأنه جعل أرضروم حصينة، لكنَّ تعبيرات وجهه أعطتني انطباعًا بأن سمعته في تلك اللحظة كانت مُهددة بعض الشيء.

تحدث إليه ضابط الأركان بهمسٍ خافت.

فقال بانفعال نزِق: «أجل أجل، أعرف. هل هؤلاء هم الرجال؟ يبدون مجموعة من الأوغاد. ما الذي تقوله؟ ينكرون ذلك؟ لكن السيارة معهم. لا يمكنهم إنكار ذلك.» ثم حدق في بلنكيرون قائلًا: «يا أنت، من أنت بحق الجحيم؟»

ابتسم له بلنكيرون ابتسامة ناعسة وهو لا يفهم أي كلمة، فبادرت بالكلام.

قلت: «جوازات سفرنا تثبت هويتنا يا سيدي.» فألقى نظرة خاطفة عليها، وازداد وجهه تجهُّمًا.

قال: «إنها سليمة تمامًا. ولكن ماذا عن قصة سرقة السيارة هذه؟»

قلت: «صحيحة تمامًا، لكني أحبذ استخدام كلمة ألطف. سترى من أوراقنا أن كل سلطة على الطريق لديها تعليمات بأن تتيح لنا أفضل وسائل النقل. تعطلت سيارتنا، وبعد تأخير دام طويلًا، تحصلنا على خيول وضيعة منهكة. ومن المهم للغاية أن نكون في أرضروم دون تأخير؛ لذا قررت الاستيلاء على سيارة فارغة وجدناها خارج أحد النُّزُل دون استئذان. أنا آسف على الإزعاج الذي سببتُه لأصحابها، لكن مهمتنا كانت عاجلةً جدًّا بما لا يحتمل التأخير.»

«لكن البرقية تقول إنكم جواسيس سيئو السمعة!»

ابتسمت. وسألته: «مَن أرسل البرقية؟»

«لا أجد سببًا يمنعني من إخبارك باسمه. إنه السيد راستا. لقد جلبت لنفسك عدوًّا صعبًا.»

لم أبتسِم هذه المرة، بل ضحكت. صحتُ قائلًا: «راستا! إنه أحد أتباع أنور. هذا يُفسر أشياء كثيرة. أودُّ أن أُحادثك على انفراد يا سيدي.»

أومأ برأسه لضابط الأركان، فرحل، وعندئذٍ تظاهرتُ بأقصى درجات الرزانة وبدوتُ جادًّا كأنني عمدة بلدة في زيارة ملكية.

قلت: «أستطيع أن أتحدث بحُرية؛ لأنني أتحدَّث إلى جندي ألماني. لا توجَد أي مَحبة بين أنور وأولئك الذين أعمل بخدمتهم. لا داعي إلى أن أخبرك بذلك. لقد ظنَّ هذا المدعو راستا أنه وجد فرصة لتأخيرنا، لذا اختلق ذلك الهراء بشأن كوننا جواسيس. إنَّ أعضاء تلك اللجنة مهووسون بالجواسيس ... خصوصًا أنه يكره السيدة فون آينم.»

قفز من مكانه عند سماع الاسم.

وسألني بنبرة محترمة: «هل لديكم أوامر منها؟»

فأجبته: «نعم بالطبع، وهذه الأوامر عاجلة.»

نهض واتجه نحو طاولة، ثم استدار ناظرًا إليَّ بوجهٍ مُتحير. قال: «أنا ممزق بين الأتراك وأبناء وطني. إذا أرضيتُ أحدهما فسأغضب الآخر، والنتيجة أنني في حيرة لعينة. يمكنكم الذهاب إلى أرضروم، لكنني سأرسل معكم رجلًا ليتيقَّن من وصولكم إلى المقر

الرئيسي هناك. آسف على ذلك أيها السادة الأفاضل، لكني مُجبر على عدم المجازفة في هذه المسألة. راستا قدم شكوى ضدكم، لكن يمكنكم بسهولة أن تحتموا بالسيدة. لقد مرَّت بهذه البلدة منذ يومين.»

بعد ذلك بعشر دقائق كنا نسير بالسيارة منزلقين على الثلج الذائب في الشوارع الضيقة، وبجواري يجلس ملازم ألماني مُتبلد الملامح.

كان نهار ذاك اليوم واحدًا من تلك الأنهُر النادرة التي يحظى فيها المرء، أثناء توقفات الثلج القصيرة، بفاصلٍ قصير من طقس معتدل كطقس شهر مايو. تذكرتُ أنني مررتُ بأيام عديدة كهذا أثناء تدريبنا الشتوي في هامبشير. كان الطريق جيدًا ومصممًا ببراعة، ويحظى بصيانة جيدة أيضًا، بالنظر إلى كم السيارات التي تسير عليه. لم نتأخر كثيرًا؛ لأنه كان عريضًا بما يكفي ليسمح لنا بتجاوز القوات وعربات نقلهم دون أن نُبطئ من سرعتنا. كان الرجل الجالس بجواري ودودًا جدًّا، لكن وجوده كبح مُحادثتنا بالطبع. ولم أكن أريد التحدُّث على أي حال. فقد كنت أحاول تجميع خطةٍ في رأسي، ولم أحرز سوى تقدم ضئيل جدًّا؛ لأنني كنت بلا أيِّ خطوط إرشادية. يجب أن نجد هيلدا فون آينم وساندي، ويجب أن نعمل فيما بيننا على إحباط مخطط ذي العباءة الخضراء. وبعدما ننجح في ذلك، لا يهم ما سيحدث لنا. فقد استنتجتُ أنَّ الأتراك يمرون بوضعٍ عصيب حتمًا، وأنهم إذا لم ينالوا دَفعةً تحفيزية من «ذي العباءة الخضراء» فسينهارون أمام الروس. كنت أتطلع إلى أن نحظى بفرصة، في خضمِّ فوضى تلك الهزيمة الكارثية المُرتقبة، للانضمام إلى الجانب المقابل. ولكن لم يكن مُجديًا في تلك اللحظة أن أبتعد بتطلُّعاتي إلى هذا الحد؛ إذ كان علينا الوصول إلى ساندي أولًا.

كنتُ في تلك اللحظة ما أزال مفعمًا بالجرأة المتهورة التي نلتُها من سرقة السيارة. لم أدرك كم كانت قصتنا غير مُقنعة، وأنَّ راستا قد يستطيع بأساليبه المُلتوية أن يكسب نفوذًا في مقر القيادة الرئيسي بكلِّ سهولة. ولو كنتُ أدركت ذلك، لرميتُ الملازم الألماني من السيارة قبل وقتٍ طويل من وصولنا إلى أرضروم، ووجدت طريقةً ما لأذوب وسط جموع السكان. كان من المُمكن أن يساعدني حسين في ذلك. كنت أزداد ثقةً منذ لقائنا مع بوسلت لدرجة أنني شعرت بأنني أستطيع خداع الجيش الألماني كله.

لكن شغلي الشاغل آنذاك كان محض هراء. فقد كنت أحاول العثور على تلِّي الصغير. كنت أتوقع عند كل منعطف من الطريق أن أجد ذلك التل ذا القمة المجوفة أمامنا. يجب أن تعلموا أنني مهووس بالجبال العالية منذ صغري. فقد أخذني والدي إلى باسوتولاند

عندما كنت صبيًّا، وأظن أنني تسلقتُ كل شبرٍ تقريبًا من مرتفعات جنوب نهر الزامبيزي، من جبال هوتنتوتس هولاند إلى زوتبانسبرج، ومن التلال النائية الصفراء القبيحة في داماралاند إلى منحدرات مونت أو سورس المبهرة. صحيح أنَّ إحدى الأمنيات التي كنت أتطلَّع إليها عند عودتي إلى دياري هي فرصة تسلق جبال الألب. لكني في تلك اللحظة كنت وسط قممٍ تخيلتُها أعلى من جبال الألب، ولم أستطع أن أتحاشى الالتفات إليها وأُبقِي عينيَّ على الطريق إلَّا بشِق الأنفس. كنتُ متيقنًا تمامًا من أنَّ تلِّي الصغير المنشود موجود بين تلك القمم؛ لأن ذلك الحلم كان مُسيطرًا على ذهني بقوة. ومن المُضحك أنني لم أعد أعتبر ذلك التل نذير شؤم؛ لأنَّ المرء سرعان ما ينسى أجواء الكوابيس. لكنني كنتُ موقنًا بأنَّ قدَري أن أراه، بل أن أراه عمَّا قريب جدًّا.

حل الظلام في حين كنا على بُعد بضعة أميال من المدينة، وعانينا في اجتياز الشوط الأخير بالسيارة. فقد وجدنا مجموعة من عربات النقل وإمدادات المهندسين مُصطفَّة على جانبَي الطريق، وكان بعضها منحرفًا إلى وسط الطريق السريع. لاحظتُ الكثير من التفاصيل الصغيرة التي كانت تعني أننا وصلنا إلى حافة جيش؛ إذ رأيتُ كتائب من حاملي الرشاشات الآلية، ومجموعات من أفراد سلاح الإشارة، وفِرقًا من حاملي النقالات، وحالما بدأ الليل يخيِّم، بدأَت كشافات السيارة تتلمس السماء بأصابعها البيضاء.

بعدئذٍ طغى على الهمهمة الصادرة من جانب الطريق صوتُ المدافع الضخمة. كانت القذائف تنفجر على بُعد أربعة أو خمسة أميال، ولا بد أن المدافع كانت على مسافةٍ أبعدَ بكثير. لكنها، في ذلك التجويف السهلي المحاط بأراضٍ مرتفعة في الليل المكسو بالصقيع، بدَت قريبة للغاية. ظلَّت أصواتها المهيبة تتردد، يفصل بين كل تكرار لها دقيقة واحدة، لم تكن انفجارات نارية متلاحقة كتلك التي تُشبه قرع الطبول، بل كانت منتظمةً بوتيرة ثابتة تنمُّ عن أن نيران المدفعية مصوَّبة بدقة نحو هدفٍ ما. استنتجتُ أنهم يقصفون الحصون الخارجية حتمًا، وفوجئتُ في لحظةٍ ما بانفجار مدوٍّ ووهج أحمر كما لو أن القصف أصاب مخزنًا للذخيرة.

لم أكن قد سمعتُ صوتًا كهذا منذ خمسة أشهر، وقد أصابني بجنون شديد. تذكرت كيف سمعته من قبلُ لأول مرة على الحافة الجبلية قبلَ بلدة لافينتي. شعرت عندها بمزيج من الخوف والمهابة، لكن كل أعصابي شُحِذَت بهمَّة بالغة. عندها كانت تلك تجربةً جديدة في حياتي حبست أنفاسي من شدة الترقب، أمَّا في تلك اللحظة، فكان ذلك شيئًا معتادًا، شيئًا تَشاركتُه مع الكثير من الرجال الباسِلِين، أي: مهنتي الطبيعية، والمهمة الوحيدة

التي تليق بالرجال. شعرتُ عند سماع أصوات المدافع بأنني أمضي وسط أجواءٍ طبيعية مجددًا. شعرت بأنني عدت إلى دياري.

أُوقِفنا عند صفٍّ طويل من المتاريس، وأخذ رقيب ألماني يحدق فينا حتى رأى المُلازم بجانبي، فأدَّى التحية العسكرية ومضينا قُدمًا. سرعان ما غصنا في شوارع ضيقة ملتوية مكتظة بالجنود، حيث كابدتُ صعوبة في توجيه السيارة. كانت الأضواء قليلة؛ فلم نكن نرى سوى لهب مشعل يظهر بين الحين والآخر يُظهِر لنا المنازل الحجرية الرمادية، التي كانت كل نوافذها مغلقة ومغطاةً بسلك شبكي. كنت قد أطفأت مصابيحي الأمامية تاركًا المصابيح الجانبية فقط؛ لذا كان علينا أن نتحسس طريقنا بحذر عبر تلك المتاهة. تمنيتُ أن نصل إلى مهجع ساندي قريبًا؛ لأن بطوننا كلنا كانت خاوية تمامًا، ولأنَّ الجو قد حلَّ به صقيع جعل معاطفنا السميكة تبدو رقيقة كالورق.

تولَّى الملازم إرشادنا. اضطُررنا إلى تقديم جوازات سفرنا، وتوقعت أن تكون المسألة سهلة كنزولنا من السفينة في بولوني. لكني أردت الانتهاء من كل ذلك؛ فقد كنت أتضور جوعًا، والبرد كان رهيبًا. ومع ذلك، ظلَّت أصوات المدافع تتعالى ككلاب صيد تنبح وراء طريدة ما. كانت المدينة خارج مرمى النيران، لكني رأيت أضواء غريبة على قمة التل جهة الشرق.

وصلنا إلى وجهتنا أخيرًا، ودخلنا من مدخلٍ مقوس قديم جميل مزخرف بالنقوش إلى فناء، ومنه إلى بهو تعصفُ به تيارات هوائية.

قال مرشدنا: «يجب أن تقابلوا قائد الوحدة.» فنظرت حولي لأتيقن من أننا كلنا موجودون، ولاحظت اختفاء حسين. لكني لم أهتم بذلك؛ لأن اسمه لم يكن مُدرجًا على جوازات السفر.

تبعْنا المرشدَ وهو يقتادنا عبر باب مفتوح. وجدنا رجلًا يقف موليًا ظهره لنا وينظر إلى خريطة مُعلقة على الحائط، كان رجلًا ضخمًا جدًّا بعُنق منتفخ فوق ياقته. كنتُ سأعرف ذلك العنق حتى لو كان وسط مليون واحد. وحين رأيته، التفتُّ نصف التفاتة لأهرب. لكن الأوان قد فات؛ لأن الباب كان قد أُغلقَ خلفنا، ووجدتُ بجانبه حارسَين مسلحَين.

استدار الرجل فجأة ونظر إلى عيني. راودني أملٌ يائس في أن أخدعه بمظهري؛ إذ كنتُ أرتدي ثيابًا مختلفة، وحلقت لحيتي. ولكن يستحيل ألَّا يتعرف عليك عدوك بعدما تشتبِك معه في معركة حياة أو موت لمدة عشر دقائق.

شحب وجهه جدًّا، ثم تمالك نفسه، ولوى قسمات وجهه ليبتسِم ابتسامته العريضة المعتادة.

قال: «عجبًا، الهولنديان الوضيعان! ها نحن التقينا مجددًا بعد فترة طويلة.»

لم يكن من المُجدي أن أكذب أو أقول أي شيء. فأطبقتُ أسناني وانتظرت.

«وأنت يا سيد بلنكيرون؟ لم يُعجبني مظهرك قط من البداية. كنت تثرثر كثيرًا، ككل مواطنيك الأمريكيين المَلاعين.»

قال بلنكيرون بهدوء: «أظن أن تفضيلاتك الشخصية ليس لها علاقة بالمسألة. إذا كنتَ القائد المسئول هنا، فلتتفضل مشكورًا بإلقاء نظرة على جوازات السفر تلك؛ لأننا لا نستطيع الانتظار إلى أجل غير مسمًّى.»

أغضبه ذلك بشدة. فصاح قائلًا: «سأُعلمك الأدب»، وتقدم خطوة ليمسك بكتف بلنكيرون، محاولًا أن يُرهبه باللعبة التي لعبها معي مرتَين من قبل.

لكن بلنكيرون لم يُخرج يدَيه من جيبَي معطفه إطلاقًا. قال له بنبرة جديدة متشدقة: «إيَّاك أن تقترب. فأنا أصوب مسدسي نحوك، وسأثقب رأسك الطويل الغبي إذا لمستني.»

استعاد شتوم هدوءه بصعوبة. ثم ضغط جرسًا وبدأ يبتسِم. جاء حاجبٌ فتحدث إليه بالتركية، وسرعان ما دخل صفٌّ من الجنود إلى الغرفة.

قال: «سأُجردكم من أسلحتكم أيها السادة. فمحادثتنا ستكون ألطف بلا مسدسات.»

كان من العبث أن نقاوم. سلَّمنا أسلحتنا، وكاد بيتر أن يبكي من الغيظ وهو يُسلم سلاحه. أرجحَ شتوم ساقَيه من فوق كرسيٍّ، وجلس عليه بالعكس مُسنِدًا ذقنه إلى مسند الظهر.

قال: «لقد انتهت لعبتك، كما تعلم. لقد قال هؤلاء الحمقى من الشرطة التركية إنَّ الهولنديين ماتا، ولكن راودَني آنذاك شعور أكثر تفاؤلًا. كنتُ مؤمنًا بأنَّ الرب الكريم استبقاهما لي. عندما وصلَت إليَّ برقية راستا، كنتُ متيقنًا؛ لأن أفعالك ذكَّرَتني بحيلة صغيرة خدعتَني بها من قبل على طريق شفاندورف. لكني لم أتوقع العثور على هذا العجوز السمين الذي يُشبه طائر الحجل معكم»، ونظر إلى بلنكيرون مبتسمًا. ثم أضاف: «مهندسان أمريكيان بارزان وخادمهما متجهون إلى بلاد الرافدين في مهمةٍ حكومية بالغة الأهمية! كانت هذه كذبة مقنعة، ولكن لو كنتُ في القسطنطينية، لفُضِح أمرها بسرعة. راستا وأصدقاؤه لا يُهمونني. يمكنك أن تخدعهم كما تشاء. لكنك حاولت كسب ثقة سيدةٍ مُعينة، ومصالحها هي مصالحي. كما أنك أهنتني، وأنا لا أُسامح.» وصاح بنبرة

حادة مفعمة بالانفعال: «بربِّي، بعدما أنتهي منكم، ستبكي أمهاتكم في قبورهن على أنهنَّ أنجبنَكُم أصلًا!»

كان بلنكيرون هو الذي رد. كانت نبرته هادئة كأنه رئيس شركة محتالة، ونزلَت على الأجواء العكرة تلك كوقعِ الحمض على الشحم.

قال: «لا أكترث بالجعجاعين ذوي الكلام الرنان. إذا كنت تحاول إخافتي بكلام الروايات الرخيصة هذا، فأظن أنك اخترت الرجل الخطأ. إنك كالكناس العالق في المدخنة، أي: أكبر قليلًا ممَّا تتطلبه وظيفتك. أعتقد أنَّ لديك موهبة في كتابة الروايات المُثيرة تُهدرها في الخدمة العسكرية. لكن إذا كنت ستمارس معي أي ألعابٍ دنيئة، فأود أن تعلم أنني مواطن أمريكي، وأحظى بتقديرٍ كبير في بلدي وفي بلدك، وستندم على ذلك لاحقًا. قد أعذر من أنذر يا كولونيل شتوم.»

لم أكن أعرف ما يعتزمه شتوم، لكن كلام بلنكيرون زعزع ثقته بالقدر المطلوب بالضبط. أعني أن شتوم قد اكتشف حقيقتي أنا وبيتر بوضوحٍ تام، لكنه لم يكن مُتيقنًا من علاقة بلنكيرون بنا، وكان خائفًا من أن يؤذِينا نحن الثلاثة، أو أن يطلق سراح بلنكيرون. وكان من حُسن حظنا أنَّ الأمريكي تصرف بهذه الجرأة المُبهرة في معقل الألمان.

قال بلامبالاة: «لسنا في عجلة من أمرنا. سنقضي ساعات سعيدة طويلة معًا. سآخذكم جميعًا معي إلى بيتي؛ لأنني إنسان مِضياف. ستكونون معي أكثر أمنًا ممَّا ستكونون في سجن المدينة؛ لأنه ليس آمنًا. فيمكن التسلُّل إلى داخله، وربما يمكن التسلُّل إلى خارجه.»

أصدر أمرًا آخر، فاقتادونا إلى الخارج، يُصاحب كلًّا منَّا جنديٌّ ملاصق له. حشرونا نحن الثلاثة في المقعد الخلفي للسيارة، في حين جلس أمامنا رجُلان واضعَين بندقيتيهما بين رُكبهما، ووقف رجل ثالث خلفنا على رفِّ الأمتعة، وجلس رابع بجوار سائق شتوم. وهكذا انطلقنا مُكدَّسين كقِطع السردين نحو الشوارع القاتمة، التي كانت النجوم تتلألأ فوقها في أشرطةٍ من السماء.

كان حسين قد اختفى تمامًا من على وجه الأرض، وارتأيت أنه محقٌّ تمامًا في ذلك. صحيح أنه كان رجلًا شهمًا، ولكن لم يكن لدَيه سبب يجعله يُورط نفسه في مشكلاتنا.

الفصل الثامن عشر

عصافير على أسطُح المنازل

قال بلنكيرون: «لطالما أسفتُ على أن زمن المعجزات قد ولَّى.»

لم أردَّ عليه؛ إذ كنت أتحسس الجدران بحثًا عن أي فتحة كنافذة أو ما شابَه.

أضاف: «لأنني أظن أننا نحتاج إلى معجزةٍ خارقة مضمونة من المعجزات القديمة لنخرج من هذا المأزق. إنه يتعارض تمامًا مع كل مبادئي. فقد أمضيت حياتي في استخدام المواهب التي حباني بها الرب لأتجنَّب الوصول إلى حد العنف الهمجي، وكنت ناجحًا في ذلك حتى اللحظة. ثم أتيتَ يا حضرة الميجور ودفعت مواطنًا محترمًا في منتصف العمر إلى صراعٍ فوضوي همجي. وهذا غير لائق إطلاقًا. أرى أن الخطوة التالية تقع على عاتقك؛ لأنني لا أُجيد مغامرات الهروب من المنازل.»

رددتُ قائلًا: «ولا أنا، لكني لن أستسلِم للهزيمة أبدًا. ساندي موجود في مكان ما في الخارج، ومن ورائه حشدٌ غفير.»

بصراحة لم أشعر باليأس الذي تُحتِّمه كل أحكام المنطق في موقف كهذا. فالمَدافع قد أسكرتني. كنت لا أزال أسمع أصواتها العميقة مع أننا كنا مُنعزلين عن الهواء العلوي بياردات من الخشب والحجر.

كان الأشد إيلامًا لنا هو جوعنا. فباستثناء بضع لُقيمات على الطريق، لم نأكل شيئًا منذ الصباح، ولأنَّ الطعام الذي تناولناه على مرِّ الأيام الماضية لم يكن وفيرًا؛ كنا نحتاج إلى تعويض لبطوننا. لم يتفقدنا شتوم قط منذ أن حُشرنا داخل السيارة. كان رجاله قد أحضرونا إلى منزلٍ ما وكدَّسونا في مكانٍ أشبه بقبو للنبيذ. كان حالك الظلام، وبعدما تحسستُ الجدران — وأنا على قدميَّ أولًا، ثم وأنا محمول على ظهر بيتر — استنتجتُ أنه بلا نوافذ. وارتأيتُ أنه حتمًا يستمدُّ إضاءته وتهويته من شبكةٍ ما في السقف. لم يكن في

المكان أي قطعة أثاث، لا شيء سوى أرضية ترابية رطبة، وجدران حجرية عارية، وكان الباب من بقايا العصر الحديدي، وكنت أسمع خطوات حارس خارجه.

عندما تتفاقم الأمور ويستحيل على المرء أن يُحسِّنها، لا يتسنى له سوى أن يعيش اللحظة الحاضرة دون تفكير فيما هو قادم. التجأ ثلاثتنا إلى النوم ليهوِّن علينا ألَم بطوننا الفارغة. افترشنا الأرضية، وكانت بئس الفراش، لكننا لففنا معاطفنا لنتوسَّدها، واستفدنا من الأرضية أفضل استفادة. وسرعان ما عرفت من أنفاس بيتر المُنتظمة أنه نام، وتبعته بعد قليل …

أيقظتني ضغطة أسفل أذني اليسرى. ظننت لوهلةٍ أنه بيتر؛ لأن هذه حيلة مُعتادة لدى الصيادين لإيقاظ الرجال دون ضجيج. لكن الصوت الذي أيقظني كان مختلفًا. أخبرني بعدم وجود وقتٍ نُضيعه، وطلب مني أن أنهض وأتبعه، وقد كان هذا صوت حسين.

كان بيتر مُستيقظًا، وهززنا بلنكيرون حتى أيقظناه من سباته العميق. أُمِرنا بخلع أحذيتنا وتعليقها من الأربطة حول أعناقنا كما يفعل الصبية الريفيون عندما يريدون السير حفاة. ثم اتجهنا على أطراف أصابعنا نحو الباب الذي كان مواربًا.

وجدنا في الخارج ممرًّا في آخره سلمٌ يقود إلى الهواء الطلق. كان هذا السلم مضاءً ببريق خافت من ضوء النجوم، وبفضل هذا البريق رأيتُ رجلًا متكومًا عند سفحه. تبيَّن لي أنه حارسنا؛ إذ كان مُكممًا ومقيدًا بإحكام وبراعة.

قادتنا درجات السُّلَّم إلى فناء صغير مُحاط بجدران منازل مرتفعة كجروفٍ صخرية. توقفنا، في حين أنصت حسين. بدا المكان خاليًا من أي خطر، وقادنا مرشدنا إلى جانبٍ كان مكسوًّا بتعريشةٍ خشبية متينة. ربما كانت دعامة لبعض أشجار التين يومًا ما، لكن النباتات في تلك اللحظة كانت ميتة، ولم يبقَ منها سوى محاليق ذابلة، وجذوع متعفنة.

كان من السهل للغاية عليَّ أنا وبيتر أن نتسلَّق تلك التعريشة، لكنها كانت مهمة بالغة الصعوبة على بلنكيرون. فقد كانت حالته سيئة وكان يتنفَّس لاهثًا كالدولفين، وبدا أنه لا يستطيع التعامُل مع المرتفعات. لكنه كان شجاعًا كالثور، وبدأ يتسلَّق ببسالة حتى خارت قوى ذراعَيه وصار عالقًا تمامًا. لذا صعدت أنا وبيتر إلى جانبيه، وأمسك كلٌّ منا بإحدى ذراعَيه، مثلما رأيتُ رجلَين من قبل يساعدان رجلًا مصابًا بالدوار عالقًا أعلى مدخنة منجم كلوف على جبل تيبل. كنت في غاية الامتنان حين أوصلته لاهثًا إلى أعلى التعريشة، وكان حسين قد سبقنا إلى أعلاها بعدما تسلَّقها من جوارنا بخفة وبراعة.

زحفنا على طول جدار عريض بعض الشيء، مُغطًّى ببوصةٍ أو بوصتَين من ثلج مسحوق، ثم صعدنا على دعامة مائلة إلى السطح المستوي للمنزل. كانت تلك مهمة بشعة بالنسبة إلى بلنكيرون، الذي كان سيسقط حتمًا لو نظر تحتَه، وكان علينا أنا وبيتر أن نبقى مُنتبهَين طوال الوقت. ثم بدأت مهمة أصعب. فقد أشار حسين إلى حافةٍ قادتنا إلى ما وراء مجموعة من المداخن إلى مبنًى آخر أقل ارتفاعًا بقليل؛ لأن هذا هو المسار الذي رآه مناسبًا. عندئذٍ جلستُ بعزم وانتعلتُ حذائي، وفعل الآخرون مثلي. فقد خشينا أن تُصاب أقدامنا بقضمة الصقيع فتُعوِّق حركتنا في رحلة كهذه.

كانت هذه عقبة صعبة على بلنكيرون، ولم نجعله يتجاوزها إلا بأن مدَدْنا أيادينا وأرجُلنا أنا وبيتر وألصقناها بالحائط، وتركناه يمرُّ على الحافة أمامنا ووجهه نحونا. لم يكن لدَينا شيء نمسِك به أثناء ذلك، وكنا سنسقط نحن الثلاثة في الفناء لو تعثر بلنكيرون. لكننا تجاوزناه بنجاحٍ ونزلنا على سطح المنزل المجاور بأخفتِ صوتٍ ممكن. وضع حسين إصبعه على شفتَيه، وسرعان ما أدركت السبب. فقد كانت ثمة نافذة مُضاءة في الحائط الذي هبطنا منه.

دفعني عفريتٌ شقيٌّ إلى الانتظار والاستكشاف. تبع الآخران حسين، وسرعان ما وصلوا إلى الطرف الأقصى من السطح، حيث كان هناك هيكل أشبه بظُلَةٍ خشبية بارزة عن بقية السطح، بينما حاولت أنا إلقاء نظرة إلى الداخل. كانت النافذة مُسدَلة الستائر، وبها لوحان زجاجِيَّان قابلان للطي مشبوكان معًا عند المنتصف. ومن خلال فجوة في الستارة، رأيتُ غرفة صغيرة مضاءة بمصباح، ورجلًا ضخمًا جالسًا إلى طاولة مليئة بأوراق متناثرة عليها.

شاهدته بنظراتٍ مبهورة وهو يلتفِت ليتفحص وثيقةً ما ليعرف منها شيئًا معينًا، ويضع علامة على الخريطة أمامه. ثم نهض فجأة، وتمطى وألقى نظرة خاطفة على النافذة، وخرج من الغرفة، مُحدِثًا قعقعة عالية وهو ينزل الدَّرج الخشبي. لكنه ترك الباب مواربًا والمصباح مشتعلًا.

خمنتُ أنه ذهب ليتفقد سجناءه، وعندئذٍ سيفتضح أمرنا. لكن عقلي كان مفعمًا برغبةٍ جنونية في رؤية خريطته. كانت تلك الرغبة واحدة من تلك الدوافع المجنونة التي تُلقي غيمةً على التفكير السليم لتحجبه تمامًا، ولم تكن معتمِدة على أي خطة، كأنها قفزة مجنونة في الظلام. لكنها كانت جامحة لدرجة أنني كنتُ مستعدًّا لاقتلاع تلك النافذة من إطارها، إذا لزم الأمر، للوصول إلى تلك الطاولة.

لكني لم أحتجْ إلى ذلك؛ لأن المشبك الهش انفتح فور جذبه، وفُتح اللوحان الزجاجيَّان بكل سهولة. هرولت إلى الداخل، بعدما أرهفت السمع لأتيقَّن من عدم وجود خطوات على الدَّرج. طويت الخريطة في عجالةٍ وحشرتها في جيبي، وكذلك الورقة التي رأيته ينسخ منها. ثم أزلتُ كل أثر يدل على دخولي بعناية شديدة؛ إذ جرفتُ الثلج عن الألواح الخشبية عند حافة النافذة، وسحبت الستارة لأعيدها كما كانت، وخرجت وأعدت إغلاق لوحَي النافذة بالمشبك. ولكن لم أسمع أي صوتٍ ينمُّ عن عودته حتى تلك اللحظة. ثم انطلقتُ للَّحاق بالآخرين.

وجدتهم يرتجفون في ظُلة السطح. فقلت: «علينا أن نتحرك بأقصى سرعة؛ لأنني اقتحمتُ غرفة شتوم الخاصة للتو. هل سمعت ذلك يا حسين يا بُني؟ ربما يُطاردوننا في أي لحظة؛ لذا أدعو الرب أن نجد مسارًا أفضل عمَّا قريب.»

فهِم حسين قصدي. فقادنا بخطًى سريعة من سطح إلى آخر؛ لأنَّ كل الأسطح هنا كانت على الارتفاع نفسه، ولم يكن يفصلها سوى حواجز وأسوار منخفضة. لم نرَ أي مخلوق قط؛ لأن الليالي الشتوية ليست مناسبة ليتسكَّع أحد على سطح منزله. ظللتُ منصتًا لأسمع أي مشكلةٍ من خلفنا حال وقوعها، وقد سمعتُها بالفعل في غضون نحو خمس دقائق. فقد اندلعت جلبة من الأصوات، وكان أحد الأصوات أعلى من البقية، فنظرت إلى الوراء، وعندئذٍ رأيت مِشكاوات تتأرجَّح. فتبيَّن لي أن شتوم قد أدرك ما فقده، ووجد آثار اللص.

ألقى حسين نظرة خاطفة خلفه، فأسرع بنا نحو الأمام بسرعة متهورة، في حين كان بلنكيرون العجوز يلهث ويتعثر. تعالت الصيحات خلفنا، كما لو أن عينًا أثقَب من البقية قد رصدت حركتنا في الظلام المضاء بنور النجوم. كان من الواضح تمامًا أنهم إذا واصلوا مطاردتنا هكذا فسيمسكون بنا؛ لأن بلنكيرون كان بطيئًا على الأسطح كفرس النهر.

بعد قليل وصلنا إلى مَسقَطٍ يقع أسفلنا على ارتفاعٍ عالٍ، ووجدنا شيئًا أشبَه بسُلَّم يقود إلى أسفله، حيث كانت توجَد حافة ضيقة تمتد إلى اليسار وتغوص وسط ظلامٍ دامس. أمسك حسين بذراعي وأشار إلى الأسفل. وهمس قائلًا: «اتبعوها، وستصلون إلى سطح يمتد عبر شارع. اعبروه، وستجدون على الجانب الآخر مسجدًا. اتجهوا يمينًا هناك وستجدون مسارًا سهلًا لمسافة خمسين مترًا، مُتواريًا جيدًا عن أسطح المباني الأعلى. بالله عليكم ابقَوا مُختبئين خلف ذلك الحاجز الحاجب. سأعاود الانضمام إليكم هناك في مكانٍ ما.»

هرع بنا عبر الحافة مسافة قصيرة ثم عاد، وأخفى آثار أقدامنا ببعض الثلج من أركان الحافة. وبعدها انطلق وحدَه مباشرة في مسار آخر، حيث مشى بخطواتٍ قصيرة غريبة كطائر. فهمت حيلته. لقد أراد أن يجعل مطاردينا يتبعونه، وكان عليه أن يُضاعف عدد آثار الأقدام، ويعتمد على أن رجال شتوم لن يُدركوا أنَّ كل هذه الآثار من صُنع رجل واحد.

لكن بالي كان مشغولًا بمساعدة بلنكيرون لتجاوز تلك الحافة. فقد كان على وشك الانهيار التام، وكان يتصبَّب عرقًا من شدة الرعب، وفي الحقيقة أنه كان يخوض واحدةً من أصعب الأخطار في حياته؛ لأننا لم يكن معنا حبل، ولأن حياته كانت معتمدة على قدراته الذاتية. سمعته يتضرع لإله غير معروف يُدعى مايك المقدس. لكنه أقدمَ على المخاطرة ببسالةٍ ووصلنا إلى السطح الممتد عبر الشارع. كان ذلك أسهل، مع أنه كان صعبًا ويتطلَّب دقة بالغة، لكن الالتفاف حول حواف قبة ذاك المسجد لم يكن هينًا على الإطلاق. وأخيرًا وجدنا الحاجز وتنفَّسنا الصعداء؛ لأننا صِرنا في مأمنٍ من اتجاه الخطر. ظللت أتلفَّت حولي لحظة، وعلى بُعد ثلاثين ياردة، على الجانب الآخر من الشارع، رأيت مشهدًا غريبًا.

كانت المطاردة جارية عبر الأسطح الموازية للسطح الذي أوينا إليه. رأيتُ وميض المشكاوات المرتعش يتأرجح إلى أعلى وأسفل، في حين كان حاملوها ينزلقون في الثلج، وسمعت صيحاتهم ككلاب صيد تطارد أثرًا ما. لم يكن شتوم بينهم؛ فبِنيته الجسدية لم تكن مناسبة لخوض غمار مطاردة كهذه. تجاوزونا وواصلوا المسير إلى يسارنا، تارة كانت المداخن البارزة تحجبهم عنَّا، وتارة كانوا يظهرون بوضوح وسط الأفق. كانت الأسطح التي كانوا يسيرون عليها أعلى من أسطحنا ربما بستِّ أقدام؛ لذا استطعنا أن نلاحظ مسارهم بوضوح حتى ونحن مختبئون. ارتأيتُ أنهم لو استمرُّوا هكذا وظلوا يُطاردون حسين عبر أرضروم كلها، فسنواجه عواقب مشئومة؛ لأنني لم أكن أعرف أي شيءٍ عن المكان الذي كنا فيه أو الذي سنذهب إليه.

ولكن بينما كنا نشاهد، رأينا شيئًا آخر. كانت المشكاوات المتأرجحة في تلك اللحظة على بُعد ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة، لكننا رأينا قامة رجلٍ ظهرت على الأسطح المقابلة لنا على الجانب الآخر من الشارع. ظننتُه أحد مُطاردينا، فجثمنا جميعًا نحو الأسفل، ثم أدركتُ من رشاقته أنه حسين. لا بد أنه قد استدار وعاد مجددًا؛ إذ ظلَّ مُتخفيًا على يسار المطاردة، وعرَّض نفسه لأخطارٍ شديدة في الأماكن المكشوفة. لكن ها هو ذا قد عاد، وكان أمامنا تمامًا، ولم يكن يفصله عنَّا سوى عرض الشارع الضيق.

تراجع خطوة واستجمع قواه استعدادًا للقفز، ووثب برشاقة دون أن يصطدم بأي شيء. ثم هبط كالقطة على السور فوقنا، وتعثر من قوة اندفاعه فوق رءوسنا مباشرة.

همس قائلًا: «نحن في مأمنٍ مؤقتًا، لكنهم حين يكتشفون اختفائي سيعودون. علينا الإسراع.»

ظللنا طوال نصف الساعة التالي عالِقين في متاهة من الانحناءات والانعطافات؛ إذ ظللنا ننزلق على أسطح جليدية ونتسلق مداخن مكسوة بجليد أكبر سُمكًا. كان ضجيج المدينة قد تلاشى، ولم نعد نسمع أي صوت تقريبًا من الشوارع الحالكة الظلام تحتنا. لكن صوت المدافع القوي ظلَّ مستمرًّا طوال الوقت في الشرق. ظللنا ننزل تدريجيًّا إلى مستوًى أدنى، حتى وجدنا أنفسنا فوق سقيفة في فناء. أطلق حسين صيحة غريبة، كصيحة بومة مجنونة، وعندئذٍ بدأ شيء ما يتحرك تحتنا محدِثًا ضجيجًا.

كانت عربة كبيرة مغطاة مملوءة بحزَمٍ من العلف، يجرها أربعة بغال. وفي أثناء نزولنا من فوق السقيفة إلى أرضية الفناء المكسوة بنثارٍ متجمِّد من القش والتبن، خرج رجل من الظل وتحدث إلى حسين بصوت خفيض. رفعْنا بلنكيرون أنا وبيتر إلى العربة، وركبنا بجواره بسرعة، ولم أشعر قطُّ بنعمةٍ أعظم من دفء ذلك المكان وليونته بعد الأسطح المتجمدة. كنت قد نسيتُ جوعي تمامًا، ولم أكن أتوق إلى شيء سوى النوم. ثم سرعان ما خرجت العربة من الفناء إلى الشوارع المظلمة.

عندئذٍ بدأ بلنكيرون يضحك بقرقرة داخلية عميقة هزَّت جسده بشدة، وأسقطت كومة من العلف على رأسه. ظننتُ أنها حالة هستيرية ناجمة من فرط الارتياح بعد التوتر العصبي الذي عاناه في الساعة الماضية. لكنها لم تكن كذلك. فأعصابه دائمًا ما كانت سليمة تمامًا، وإن لم تكن لياقته الجسدية بأفضل حال. لقد كان مفعمًا ببهجة حقيقية.

قال وهو يلهث: «قلَّما أُكِنُّ كراهية تجاه الرجال الآخرين يا حضرة الميجور، لكني لم أستسغ الكولونيل شتوم لسببٍ ما. لكني الآن أكاد أُحبه. لقد ألحقتَ بفكه إصابةً بالغة في ألمانيا، والآن سرقت ملفاته الخاصة التي أظنُّها مُهمة، وإلَّا فما كان ليُصرَّ هذا الإصرار المُستميت على مطاردتك عبر كل هذه الحواجز فوق الأسطح. لم أفعل شيئًا كهذا منذ أن اقتحمتُ كوخ الحطب لدى جاري براون لأسرق «أبسومه» الأليف، وكان ذلك قبل أربعين عامًا. هذه أول تسلية حقيقية أحظى بها في هذه المغامرة، ولم أضحك بهذا القدر منذ أن روى جيم هوكر العزيز حكاية «ابنة العم سالي ديلارد»، حين كنا نصطاد البط في ميشيجان، وأُصيبَ شقيق زوجته بسكتة دماغية ليلًا ومات بسببها.»

غلبني النعاس ونمتُ على صوت ضحكات بلنكيرون المكتومة، لألحق ببيتر الذي نام منذ أول دقيقة.

وعندما استيقظت، كان الظلام لا يزال مخيِّمًا. كانت العربة متوقفة في فناء بدا مظلَّلًا بأشجار كبيرة. كان الثلج أكثر سُمكًا في هذا المكان، واستشعرت من طبيعة الهواء أننا قد غادرنا المدينة، وصعدنا إلى أرض أعلى. وجدت مباني كبيرة على أحد الجانبين، ورأيت على الجانب الآخر ما يُشبه حافة تل مرتفعة. كان المكان خاليًا من أي أنوار، غارقًا في ظلام دامس، لكنني شعرت بوجود رجال آخرين على مقربة مني بخلاف حسين والسائق.

اصطحبونا بسرعة إلى مبنًى خارجي ومعنا بلنكيرون، الذي لم يكن قد استفاق تمامًا من نومه، ثم نزلنا بضع درجات سُلم إلى قبو فسيح. وهناك، أشعل حسين مشكاة فوجدنا أنفسنا في مكان كان يُستخدم في السابق مخزنًا للفاكهة. فقد كانت الأرضية لا تزال مغطاة بقشور قديمة متناثرة، وكان المكان يفوح برائحة تفاح. وجدنا في الأركان فُرشًا للنوم من قشٍّ مكدَّس، وطاولة بدائية، وأريكة من ألواح مغطاة بجلود الأغنام.

سألت حسين: «أين نحن؟»

قال: «في بيت الزعيم. ستكونون آمِنين هنا، ولكن عليكم أن تبقَوا ساكنين ريثما يأتي الزعيم.»

سألته: «هل السيدة الألمانية هنا؟»

أومأ حسين بالإيجاب، وأخرج بعض الطعام من جعبة، وكان عبارة عن زبيب ولحم بارد ورغيف خبز. فانقضضنا على الطعام كالنسور، وبينما كنا نأكل، اختفى حسين. ولاحظت أنه أوصد الباب خلفه.

حالما فرغنا من طعامنا، استأنف الآخران نومهما الذي قوطِع. لكنني ظللت مستيقظًا، وكان ذهني نهمًا لمعرفة أشياء كثيرة. أخذت مشعل بلنكيرون الكهربائي واستلقيت على الأريكة لأتفحص خريطة شتوم.

أدركت من أول نظرة إلى الخريطة أنني قد عثرت على كنز. فقد تبيَّن أنها خريطة قيادة الأركان الخاصة بدفاعات الجيش في أرضروم، وكانت توضح الحصون والخنادق الميدانية، بالإضافة إلى ملاحظات قصيرة مكتوبة بعجالة بخط شتوم الصغير الأنيق. أخرجت الخريطة الكبيرة التي أخذتها من بلنكيرون، وتبينتُ منها المخطط العام لتضاريس المنطقة. رأيتُ في الشرق سلسلة تلال ديفي-بويون التي تتخذ شكل حدوة حصان، والتي كانت المدافع الروسية تقصفها. كانت خريطة شتوم مُماثلة لنوعية خريطة المدفعية

المقسمة إلى مربعات التي استخدمناها في فرنسا؛ إذ كانت مرسومة بمقياس رسم مقداره ١ إلى ١٠ آلاف، وتتضمَّن خطوطًا حمراء عنكبوتية توضح الخنادق، لكنَّ الاختلاف الوحيد أن الخنادق التركية هي التي كانت موضَّحة بالتفصيل، في حين أنَّ الخنادق الروسية كان مُشارًا إليها بلا أي توضيح. في الحقيقة كانت تلك خريطة سرِّية لحدود حصن أرضروم كله، وكانت قيمتها للعدو لا تُقدَّر بالذهب. لا عجب أنَّ شتوم قد استشاط غضبًا لفقدانها.

بدت لي تحصينات ديفي-بويون قوية إلى حدٍّ هائل، وتذكرت مزايا المقاتل التركي حين يقاتل من وراء دفاعات قوية. عندئذٍ بدا لي أنَّ روسيا مقبلة على مواجهة «بلفن» ثانية أو «جاليبولي» جديدة.

ثم انتقلت إلى تفحُّص الجناحَين. كانت سلسلة جبال بالاندوكن تقع جنوبًا، وتضم حصونًا لحماية الممرات الجبلية، حيث تمتد الطرق المؤدية إلى موش وبحيرة وان. وقد بدا ذلك الجانب أيضًا قويًّا جدًّا. أمَّا شمالًا في وادي الفرات، فرأيتُ حصنَين كبيرين، وهما «تافتا» و«كارا جوبك»، يحمِيان الطريقَ الممتدَّ من أولتو. كانت ملاحظات شتوم كثيرة في هذا الجزء من الخريطة، وأوليتُها كل اهتمامي. تذكرتُ معلومة بلنكيرون عن تقدُّم الروس على نطاق جبهة واسعة؛ إذ كان واضحًا أنَّ شتوم يبذل جهدًا مضنيًا للدفاع عن جناح الحصن.

كان حصن كارا جوبك هو النقطة المهمة. كان يقع على قطعةٍ طولية من الأرض بين قمتَين مرتفعتَين بمَيلٍ شديد الانحدار، حسبما اتضح من الخطوط الكنتورية على الخريطة. كان من الواضح أنهم ما داموا مسيطرين عليه فلن يستطيع أيٌّ من الغزاة أن يتقدم نحو أسفل وادي الفرات. كتب شتوم ملحوظةً عن كون القمتَين «غير مُحصنتَين»، وعلى بُعد نحو ميلَين جهة الشمال الشرقي، وجدتُ علامة حمراء من خطَّين متقاطعَين، واسم «شفالسكي». فافترضتُ أنَّ هذه هي أبعد نقطة وصلَت إليها مَيمنة الهجوم الروسي حتى الآن.

ثم انتقلت إلى الورقة التي كان شتوم ينسخ منها الملاحظات الموجزة المدونة على خريطته. كانت مكتوبة بالآلة الكاتبة، وتضم ملاحظاتٍ عن نقاط مختلفة. كانت إحداها معنونة بكلمة «كارا جوبك»، وجاء فيها: «لا وقتَ لتحصين القمتَين المجاورتَين. من الصعب على العدو أن يوصل بطاريات مدفعياته إلى هناك، لكنه ليس مستحيلًا. وهذا هو مكمن الخطر الحقيقي؛ لأنه إذا ظفر شفالسكي بهاتَين القمتَين، فسيسقط حصنا كارا جوبك وتافتا حتمًا، وسيصبح العدو عند الجزء الخلفي الأيسر من معقل ديفي-بويون الرئيسي.»

كنت جنديًّا خبيرًا بما يكفي لأدرك الأهمية الهائلة لتلك الملحوظة. فقد استنتجتُ أنَّ الدفاع عن أرضروم كان معتمدًا على حصن كارا جوبك، وأنَّ الحصن سهل الاختراق إذا عُرف موطن ضعفه. لكن حين تفحصت الخريطة مجددًا، لم أقتنع بأنَّ أي قائد عسكري يمكن أن يرى أن هناك فرصة للظَّفر بالقمتَين المتجاورتَين، حتى وإن رآهما غير مُحصنتَين. كانت تلك المعلومة مقصورة على ضباط الأركان الأتراك والألمان. ولكن إذا أمكن إيصالها إلى الدوق الأكبر، فستُصبح أرضروم في قبضته في غضون يوم واحد. وإلَّا فسيواصل قصف سلسلة تلال ديفي–بويون لأسابيع، وقبل مدة طويلة من الظفر بها، ستصل كتائب جاليبولي، وستُصبح أعداد قوات العدو ضِعف أعداد قواته، وستتلاشى فرصته في تحقيق النصر.

جعلني هذا الاكتشاف أجوب القبو ذهابًا وإيابًا في حماسة مفرطة. كنت أتوق إلى جهاز اتصال لاسلكي أو حمامة زاجلة أو طائرة، أو أي شيء يعبر الأميال الستة الفاصلة بيني وبين الجبهة الروسية. جُن جنوني من عجزي عن الاستفادة من تلك المعلومة المهمة التي صادفتها. فأنَّى لثلاثة هاربين مُختبئين في قبو، مُطارَدين من عُش دبابير الأتراك والألمان الذي أُثيرَ عليهم؛ أن يطمحوا إلى إرسال هذه الرسالة التي كان فحواها مسألة حياة أو موت؟

عدت إلى الخريطة وتفحصت أقرب المواقع الروسية. فقد كانت مُحددة بدقة. كان شفالسكي متركزًا في الشمال، حيث يقود القوة الرئيسية على الجانب الآخر من ديفي–بويون، في حين وصلَت طوابير القوات الجنوبية حتى ممرات بالاندوكن، لكنها لم تعبرها بعد. لم يكن بإمكاني معرفة أيهما الأقرب إلينا قبل أن أعرف مكاننا بالتحديد. وبينما كنتُ أفكر في ذلك، بدأت أرى ملامح خطة متهورة. كانت خطتي تعتمد على بيتر، الذي كان في تلك اللحظة نائمًا ككلبٍ مُنهَك على أريكة من القش.

كان حسين قد أوصد الباب، وكنت مضطرًّا إلى انتظاره ريثما يعود لأعرف منه المعلومة التي أريدها. لكنني فجأة لاحظت وجود نافذة في السقف، وبدا واضحًا أنها كانت تُستخدم لرفع المؤن التي تُخزن في القبو وإنزالها. بدا مصراعها غير موضوع بإحكام في إطاره، وربما لا تكون موصدة؛ لذا سحبتُ الطاولة إلى أسفلها، ووجدت أنني أستطيع رفع المصراع بلا عناء. كنت أعلم أنني أخوض مجازفة هائلة، لكن حرصي الشديد على تنفيذ خطتي جعلني أتجاهل كل الأخطار. استطعتُ ببعض العناء أن أقتلع المصراع، وتشبثتُ بحواف الفتحة بأصابعي، ثم رفعت جسدي ووضعت ركبتيَّ على الحافة.

وجدتُ نفسي في المبنى الملحق الخارجي الذي كنا مُختبئِين في قبوه، وكان شِبه مُضاء. لم أجد مخلوقًا هناك، وأخذت أبحث حتى عثرت على مرادي. كان ما وجدته سُلَّمًا يؤدي إلى حجيرة أشبَهَ بعليةٍ، وكانت هذه بِدَورها تقود إلى السطح. وهنا كان عليَّ أن أتوخَّى الحذر الشديد؛ لئلَّا يراني أحد من المباني العالية حولي. لكني، من حسن حظي، وجدتُ تعريشةً لكروم العنب مُمتدة في أرجاء المكان، فأتاحت لي ستارًا حاجبًا لا بأس به. استلقيتُ على بطني وأمعنت النظر على امتداد مساحةٍ شاسعة من الريف المفتوح.

نظرت شَمالًا، فرأيت المدينة وسط ضبابٍ من سديم الصباح، ورأيت خلفها سهلَ الفرات وفتحة الوادي الضيق التي يخرج عندها النهر من التلال إلى السهل. وهناك في الأعلى، وسط المرتفعات المكسوة بالثلوج، وجدتُ حِصنَيْ تافتا وكارا جوبك. أمَّا في جهة الشرق، فكانت هناك سلسلة تلال ديفي-بويون، حيث كان الضباب ينقشع قبل شروق شمس الشتاء. رأيتُ وسائل نقل تتحرك على الطرق المؤدية إلى هناك، ورأيت دائرة الحصون الداخلية، لكن صوت المدافع سكت لحظةً. وفي الجنوب، وجدت جدارًا شاهقًا من جبل أبيض استنتجتُ أنه جبل بالاندوكن. وكذلك استطعت رؤية الطرق المؤدية إلى الممرات، ودخان المعسكرات وطوابير الخيول أسفل الجروف.

لقد عرفت كل ما كنت أحتاج إليه. فتبيَّن لي أننا كنا في المباني الخارجية المُلحَقة بمنزل ريفي كبير يقع على بُعد ميلَين أو ثلاثة أميال جنوب المدينة. وكانت أقرب نقاط الجبهة الروسية إلينا تقع في مكانٍ ما عند سفوح بالاندوكن.

وأثناء نزولي، سمعتُ صوتًا رقيقًا خافتًا جميلًا كصيحة طائر بري، وتبيَّن لي أنه صوتُ المؤذن من مآذن أرضروم.

عندما أسقطتُ نفسي من خلال نافذة السقف، وجدت الآخرين مُستيقِظين. كان حسين يضع الطعام على المائدة، وينظر إلى نزولي باستنكارٍ قَلِق.

فقلت له: «لا بأس. لن أُكرر ذلك مرة أخرى؛ لأنني عرفت كل ما كنت أريده. عزيزي بيتر، استعِد لأداء أهم مهمةٍ في حياتك!»

الفصل التاسع عشر

ذو العباءة الخضراء

لم يرفع بيتر عينيه عن فطوره تقريبًا.

قال: «أنا على أتم استعدادٍ يا ديك. لكن لا تطلب مني أن أصاحب شتوم. فذاك الشخص يُصيبني بقعشريرة باردة في أمعائي.»

كانت تلك أول مرة لا يُناديني فيها باسم «كورنيليس» المستعار. فقد انتهت مرحلة التظاهُر بهويات زائفة بالنسبة إلينا جميعًا.

قلت: «لن تُصاحبه، بل ستحطمه هو وكل أمثاله.»

فقال بيتر بابتهاج: «إذن أنا مُستعد. ما المهمة؟»

بسطتُ الخريطتَين على الأريكة. لم يكن في المكان أي مصدر ضوء سوى مشعل بلنكيرون الكهربائي؛ لأن حسين قد أطفأ المشكاة. شرع بيتر في استكشافهما فورًا؛ لأن عمله الاستخباراتي في حرب البوير جعله بارعًا في استخدام الخرائط. وأدرك أهمية الخريطة التي سرقتُها دون أن يحتاج إلى شرح كثير منِّي.

«هذه المعلومة تساوي ملايين الجنيهات»، قالها وهو يعقد حاجبيه وحكَّ طرف أذنه اليسرى بلطف. فقد كان هذا دأبه دائمًا حين يكون مذهولًا.

سألته: «كيف لنا أن نُوصلها إلى أصدقائنا؟»

فكَّر بيتر مليًّا. ثم قال: «ليس أمامنا سوى طريقةٍ واحدة. يجب أن يوصلها رجلٌ بنفسه إليهم. أتذكَّرُ أننا، ذات يومٍ حين كنا نُحارب قبيلة ماتابيلي، كنا بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى معرفة ما إذا كان الزعيم ماكابان حيًّا أم لا. فالبعض قال إنه مات، والبعض الآخر قال إنه عبَر الحدود البرتغالية، لكنني كنت موقنًا بأنه ما زال حيًّا. لم يستطع أيٌّ من أهل القبيلة إخبارنا بالحقيقة؛ ولأن قريته كانت مُحصنة بشدة؛ كان يستحيل أن يدخلها أي مرسال عادي. لذا تحتَّم إرسال رجلٍ لتقصِّي الحقيقة.»

رفع بيتر رأسه وضحك. «عثر الرجل على الزعيم ماكابان. كان حيًّا وبأتمِّ عافية، وكان يطلق النيران ببراعة من بندقية. لكن الرجل أخرج الزعيم ماكابان من قريته وسلَّمه إلى شرطة الخيالة. هل تتذكر الكابتن أركول يا ديك، جيم أركول؟ حسنًا، ضحك جيم بشدة لدرجة أنَّ جرحًا قديمًا في رأسه قد انفتح، واحتاج إلى طبيب.»

قلت له: «كنتَ أنت ذلك الرجل يا بيتر.»

قال: «أجل. كنتُ أنا ذلك الرجل. فالتسلُّل إلى القرى أسهل من منع الناس من دخولها.»

«هل ستغتنم هذه الفرصة؟»

«بالتأكيد يا ديك. فقد بدأ جسدي يتيبَّس من البقاء عاطلًا هكذا، وإذا ظللت حبيس المنازل أكثر من ذلك، فستُصيبني الشيخوخة. لقد راهنني رجلٌ على السفينة بخمسة جنيهات على أنني لا أستطيع اجتياز خندقٍ في جبهة القتال، ولو كان يُوجَد خندق قريب منِّي آنذاك، لكنتُ كسبت الرهان. سأكون سعيدًا جدًّا بهذه المهمة يا ديك، لكني لا أجزم بأنني سأنجح. فهذا بلد جديدٌ عليَّ، وسأكون متعجلًا، وفي العجلة الندامة.»

أطلعته على المكان الذي ارتأيتُ أنه الأرجح، حيث كان يقع في نتوءات جبال بالاندوكن. كان لبيتر أسلوب فريد من نوعه في إنجاز المهام. كشطَ بعض التراب والجص عن أحد الأركان وجلس ليصنع بهما مجسمًا مصغرًا لتضاريس المنطقة على الطاولة، مستعينًا بالخطوط الكنتورية المرسومة في الخريطة. فعل ذلك بدقة استثنائية؛ لأنه، ككل الصيادين البارعِين، كان ماهرًا كطائر الحباك. ظل يتأمل المجسم مليًّا، وتفحص الخريطة حتى حفظها حتمًا عن ظهر قلب. ثم أخذ منظاره الميداني، وكان منظارًا مُمتازًا أحادي العدسة من طراز «زايس»، كان إحدى الغنائم التي ظفرنا بها من سيارة راستا، وقال إنه سيحذو حذوي ويصعد إلى سطح المبنى. وسرعان ما اختفت ساقاه خلال نافذة السقف، وتُركنا أنا وبلنكيرون لتأمُّلاتنا.

لا بد أن بيتر وجد شيئًا استثنائيًّا مثيرًا للاهتمام؛ لأنه بقي على السطح جُل النهار. كانت تلك مهمة مُملة لنا؛ لأن الغرفة كانت بلا ضوء، ولم يستطع بلنكيرون حتى أن يُسلي نفسه بلعب الورق. لكنه مع ذلك كان في حالةٍ معنوية جيدة؛ لأنه لم يشعر بعسر الهضم منذ أن غادرنا القسطنطينية، وقال إنه يعتقد أنه انتصر أخيرًا على ألَم أمعائه اللعين هذا. أما أنا، فلم يهدأ لي بال؛ لأنني لم أستطع تصوُّر السبب الذي يؤخِّر ساندي. كان من الواضح لي أن وجودنا لا بد أن يبقى سرًّا عن هيلدا فون آينم؛ لأنها كانت صديقة

لشتوم، ولأنه حتمًا قد فضح أمرنا أنا وبيتر لها. سألت نفسي إلى متى يمكن أن تدوم هذه السرية. فلم يعُد لدينا أي مصدر حماية في تلك الجماعة كلها. كان راستا والأتراك مُتعطشين لدمائنا، وكذلك شتوم والألمان، وحالما تكتشف السيدة أنَّنا كنا نخدعها، ستكون الأشد تعطشًا لدمائنا. كان أملنا الوحيد هو ساندي، ولم تظهر أي علامة على وجوده. بدأت أخشى أن يكون مكروه قد أصابه هو أيضًا.

لكني في الحقيقة لم أكن مُحبَطًا، بل جزعًا فقط. لم أتمكن قط من العودة إلى حالة الركود البغيضة التي ظللتُ فيها طوال أسبوع القسطنطينية ذاك. أبقتني المدافع متفائلًا. كان هناك قصفٌ رهيب تواصل طوال النهار، والتفكير في أنَّ حلفاءنا كانوا يطلقون نيران مدافعهم المدوية من هناك، على بُعد ستة أميال فقط، منحني أملًا حالمًا ليس له أي أساس ملموس. قلت لنفسي إنهم إذا اخترقوا الجبهة الدفاعية، فستغرق هيلدا فون آينم ونبيها وكل أعدائنا في الطوفان. وكانت تلك الفرصة المباركة تعتمد بشدة على بيتر العزيز، الذي كان في تلك اللحظة راقدًا على أسطح المباني كالحمام.

لم يظهر حسين مرة أخرى إلا في وقتٍ متأخر من عصر ذلك اليوم. لم يلاحظ غياب بيتر، لكنه أشعل مشكاةً ووضعها على الطاولة. ثم اتجه إلى الباب وانتظر. بعدها بقليل سمعنا وَقع خطوة خفيفة على الدرج، فتراجع حسين ليسمح لأحدٍ بالدخول. ثم غادر فورًا وسمعت صوت المفتاح يدور في القفل مغلقًا الباب من خلفه.

رأينا ساندي واقفًا هناك، لكنه جاء في شكل آخر جديد جعلني أنا وبلنكيرون نهبُّ واقفَين. لم يكن مرتديًا ثيابه الجلدية ولا قلنسوته الجلدية، بل كان مكتسيًا بسترة كتانية طويلة مشدودة على خصره بحزام عريض. رأيت رأسه مزينًا بعمامة خضراء غريبة، وحين خلعها، وجدته قد صار حليق الرأس. بدا كأنه شمَّاسٌ، لكنه شماس مُنهَك؛ لأن مشيته كانت خالية من أي نشاط، وكان جسده خائر القوى. ارتمى على الأريكة خدِرًا ووضع رأسه بين يدَيه. أظهرت المكشاة عينَيه المنهكتَين تُحيط بهما هالتان داكنتان.

صحتُ قائلًا: «رباه، هل مرضتَ يا صاح؟»

قال بصوت أجش: «لستُ مريضًا. جسدي مُعافًى تمامًا، لكني كنت أعيش في جحيم طوال الأيام القليلة الماضية.»

أومأ بلنكيرون إيماءة متعاطفة. فقد كان يشاطره الرأي في وصفه لصُحبة السيدة الألمانية بالجحيم.

اتجهتُ نحوَه وأمسكت بكِلا معصمَيه.

قلت له: «انظر إليَّ في عيني.»

كانت عيناه كعيون السائرين نيامًا؛ ذاهلة لا ترمش حتى. فقلت له: «رباه، أنت مُخدَّر يا رجل!»

صاح قائلًا بضحكة منهكة: «مُخدَّر. نعم، لقد خُدِّرت، ولكن ليس بمادة مخدرة. لم يَدس لي أحدٌ شيئًا في الطعام. لكن لا يمكن أن تخوض أهوال الجحيم دون أن تلفح النارُ عينيك.»

ظللتُ قابضًا على معصمَيه. وقلت: «خذ وقتك يا صاح، واحكِ لنا ما حدث. فأنا وبلنكيرون هنا، وبيتر العزيز على السطح ليس ببعيد. سنعتني بك.»

قال: «يسعدني سماع صوتك يا ديك. فهو يذكِّرني بالأشياء الطاهرة الصادقة.»

«كل هذه الأشياء ستعود، لا تخَف أبدًا. صرنا على مشارف النهاية. جولة أخرى من الجهد وينتهي كل شيء. عليك أن تُخبرني ما هي العقبة الجديدة. أهي تلك المرأة؟»

ارتجف كمُهر مذعور. وصاح قائلًا: «امرأة! هل يمكن لامرأة أن تجر رجلًا عبر باب الجحيم؟ إنها شيطانة. أوه، ليست مشكلتها الجنون. فهي عاقلة مثلك ورابطة الجأش مثل بلنكيرون. لكن حياتها لعبة شطرنج جهنمية، وتلعب بالأرواح كأنها بيادق. إنها شريرة شرًّا مطلقًا.» ودفن رأسه بين يديه مرة أخرى.

كان بلنكيرون هو مَن أضفى الهدوء العقلاني على هذا الجو المحموم. فنبرته البطيئة الأثيرة كانت كمُهدِّئ للأعصاب.

قال: «اسمعني يا فتى، إنني أتفق معك تمامًا فيما تقوله عن السيدة. لكن مُهمتنا ليست الحُكم على شخصيتها. فخالقها حتمًا سيتكفل بذلك ويحكم عليها بما تستحقُّه يومًا ما. علينا أن نكتشف كيف نتحايل عليها ونُحبط مخططاتها؛ ولذا عليك أن تُخبرنا بما حدث بالضبط منذ أن افترقنا.»

تمالك ساندي نفسه بصعوبة بالِغة.

«لقد مات ذو العباءة الخضراء في تلك الليلة التي رأيتكم فيها. دفنَّاه سرًّا في حديقة الفيلا بأمرٍ منها. ثم طرأت معضلة بشأن تعيين خليفته ... فالوزراء الأربعة ما كانوا ليقبلوا بالمشاركة في عملية احتيال. لقد كانوا رجالًا شرفاء، وعقدوا العزم على بناء قبرٍ لسيدهم وتكريس بقية أيامِهم للصلاة في ضريحه. كانوا راسخين ككتلةٍ من الجرانيت، وكانت السيدة تعرف ذلك ... ثم ماتوا هم أيضًا.»

شهقتُ قائلًا: «قُتلوا؟»

«قُتلوا ... الأربعة كلهم في صباح واحد. لا أعرف كيف، لكنني ساعدت في دفنهم. أوه، لقد كلَّفَت ألمانًا وأكرادًا بإنجاز المهمة القذرة نيابةً عنها، لكن أياديهم كانت نظيفة مقارنةً

بيدَيها. أرجو أن تُشفق عليَّ يا ديك، لأنني شاهدتُ الصدق والفضيلة يُذبحان، وشاركت في الجريمة عندما تمَّت. سيظل هذا يُطاردني حتى مماتي.»

لم أتوقف لأواسيه؛ إذ كان ذهني مُتقدًا كالجمر من وقع الخبر الذي ذكره.

صحتُ قائلًا: «إذن، فقد مات النبي، وانتهى المُخطط الخادع.»

فقال: «النبي ما زال حيًّا. لقد وجدَتْ خليفة له.»

وقف بسترته الكتانية.

وقال: «لماذا أرتدي هذه الثياب برأيك؟ لأنني ذو العباءة الخضراء. أنا كعبة الحرية للإسلام كلِّه. وبعد ثلاثة أيام سأكشف عن نفسي لأتباعي، وألبس على صدري مئزر النبي الأخضر.»

ثم انفجر في ضحك هستيري. وقال: «أتعرف، لن أفعل ذلك. أفضِّل أن أنحر عنقي على أن أفعل ذلك.»

قال بلنكيرون بنبرة مُهدئة: «هون عليك! سنجد طريقةً ألطف من هذه.»

قال: «لا تُوجَد طريقة، لا طريقة سوى الموت. لقد أصبحنا في عداد الموتى، كلنا. صحيح أن حسين أنقذكم من بين براثن شتوم، لكن الخطر يُحدق بكم في كل لحظة. وعلى أحسن تقدير، لن تعيشوا سوى ثلاثة أيام أخرى، وبعدها ستصبحون أمواتًا أنتم أيضًا.»

لم تسعفني الكلمات للردِّ على حديثه. فقد كنتُ مصدومًا من هذا التحول الذي طرأ على ساندي الجريء الذي لا يُزعزعه شيء.

واصل قائلًا: «لقد جعلَتني شريكًا لها في جريمتها. كان يجب أن أقتُلها على قبور هؤلاء الرجال الأبرياء. لكني بدلًا من ذلك نفَّذت كل ما طلبته وانضممتُ إلى لُعبتها ... كانت صريحة جدًّا ... إنها لا تكترث بدين الإسلام مثلها مثل أنور. بل يمكن أن تهزأ به. لكنها تحمل طموحاتها الخاصة، وهي مهووسة بها كهوسِ القديسين بالورع والتعبد. لقد أخبرتني بها، وإذا كان اليوم الذي قضيتُه في الحديقة جحيمًا، فإن الأيام التي تلَته أشعرتني بأنني قابع في الدرك الأسفل من الجحيم. أظن — وإن كان من الشنيع أن أقول هذا — أنها تكنُّ لي إعجابًا جنونيًّا. فحين يأتي اليوم الذي نستعيد فيه الشرق، تُريدني أن أكون بجانبها وهي تدخل القدس بحصانها الأبيض كالحليب ... وقد مرَّت عليَّ لحظات — أقسم بالربِّ أنها لحظات عابرة ليس إلَّا — تأثرتُ فيها أنا نفسي بنيران جنونها ...»

بدت هيئة ساندي تتقلص وصارت نبرتُه حادة ومهتاجة. كان ما قاله أشدَّ ممَّا يستطيع بلنكيرون تحمُّله. فتفوَّه بوابلٍ من الألفاظ النابية التي أعتقد أنه لم يتفوَّه بمثلها من قبل.

قال: «سحقًا، لا أطيق الاستماع إلى هذا الكلام الملعون. هذا لا يليق. افعل شيئًا يا حضرة الميجور وأعِد صديقك المكلوم إلى رشده.»

بدأتُ أفهم ما حدث. كان ساندي رجلًا عبقريًّا — لا يقلُّ عن أي عبقري صادفته في حياتي — لكنه كان مشوبًا بعيوبِ تلك النفوس الحساسة الحالمة. فهو مقدام مُستعد لخوض أخطر المجازفات، ولا يخشى أي إرهابٍ عادي. لكن إذا تشوش ضميره الحي وانحرف عن استقامته، ووجد نفسه في موقفٍ رأى أنه يمسُّ شرفه؛ فقد يُجن جنونه. لقد استطاعت المرأة، التي لم تُثِر في داخلي أنا وبلنكيرون سوى الكراهية، أن تستحوذ على مخيلته وتُثير فيه تجاوبًا معها رغمًا عنه، ولو للحظةٍ عابرة فقط. وبعدها اجتاحه هذا الندم المَرَضي المرير حتى هيمن عليه اليأس.

لم يكن لدينا وقت للملاطفة والمهادنة. صحتُ قائلًا: «ساندي يا صديقي الأحمق، كن مُمتنًّا لأن لديك أصدقاء يمنعونك من الانزلاق إلى أي حماقة. لقد أنقذت حياتي في لوس، وبالتأكيد سأساعدك للخروج من هذا المأزق. أنا قائد المجموعة الآن، وبالرغم من كل أساليبك اللعينة التي تُشبه أساليب الأنبياء، عليك أن تتلقَّى أوامرك منِّي. لن تكشف عن نفسك لأتباعك، ولن تنحر عنقك. سينتقِم ذو العباءة الخضراء لمقتل وزرائه، وسيجعل تلك المرأة المُختلة تندم على مجيئها إلى الدنيا. سنرحل من هنا سالِمين، وفي غضون أسبوع واحد، سنكون جالسين بصُحبة الدوق الأكبر نيقولا نحتسي معه الشاي.»

لم أكن أوهِمه أو أضلِّله. صحيح أنني لم أكن أعرف سبيلًا إلى تحقيق ما قلته، لكنني كنت لا أزال مفعمًا بتلك الثقة العمياء في أننا سننتصِر. وبينما كنتُ أتكلم، تدلَّت ساقان من خلال نافذة السقف، ونزل بيتر وسطنا يُغطيه التراب ويرمش بعينَيه.

أخذت منه الخرائط وبسطتُها على الطاولة.

قلت: «أولًا، يجب أن تعلم أنَّ الحظ قد حالفنا بقوة لا تُصدَّق. ففي الليلة الماضية أخذَنا حسينٌ في نزهةٍ على أسطح أرضروم، وبمباركة العناية الإلهية، دخلتُ غرفة شتوم، وأخذت خريطة قيادة الأركان الخاصة به ... انظر هناك ... هل ترى ملاحظاته؟ هذا هو الموضع غير الحصين في جبهتِهم الدفاعية كلها. حالما يظفر الروس بذلك الحصن، كارا جوبك، سيكونون قد طوَّقوا المعقل الرئيسي. والظفر به ممكن بالفعل، وشتوم يعرف ذلك؛ لأن هذَين التلَّين المُتجاورين غير مُحصَّنَين ... تبدو مغامرة جنونية على الورق، لكن شتوم يعلم أنها مُمكنة جدًّا. والسؤال هو: هل سيُخمن الروس ذلك؟ لا أظن هذا، إلا إذا أخبرهم أحد. لذا علينا أن نوصل هذه المعلومات إليهم، بأي طريقةٍ مهما كانت.»

بدأ الاهتمام بالواقع يراود ساندي من جديد. فتفحص الخريطة وبدأ يقيس المسافات.

«سيحاول بيتر القيام بذلك. يرى أنَّ فرص نجاحه واردة. وإذا فعلها — إذا سلَّم هذه الخريطة إلى ضباط أركان الدوق الأكبر — فسيفشل مخطط شتوم حتمًا. وفي غضون ثلاثة أيام، سيكون القوزاق في شوارع أرضروم.»

سألني ساندي: «ما احتمالية نجاحه؟»

رمقت بيتر بنظرة خاطفة. وقلت: «نحن أناس صقَلَتنا الصعاب والشدائد، ونستطيع مواجهة الحقيقة. أظن أن احتمالية النجاح عشرون في المائة.»

قال بيتر بتواضع: «بل سبعون في المائة. على أسوأ تقدير. لا أظن أنك توفيني حقي يا ديك يا صديقي العزيز.»

نظرت إلى جسمه الرشيق المشدود ووجهه اللطيف الحازم، وغيرت رأيي. قلت: «فلتتنزل عليَّ صاعقة لو قلتُ إنني أستطيع تحديد أي احتمالات. لو كان من سيفعلها أي شخصٍ آخر، لاحتاج إلى معجزة، ولكن ما دام بيتر هو من سيحاول، فأرى أنَّ الاحتمالية خمسون في المائة.»

أصرَّ بيتر قائلًا: «بل سبعون في المائة. لو كانت خمسين في المائة، لما أثارت المسألة اهتمامي.»

صاح ساندي قائلًا: «دعوني أنا أذهب. فأنا أتحدث لُغتهم، وأستطيع إيهامهم بأنني تُركي، وفرصتي في النجاح أكبر بمليون مرة. من أجل الرب يا ديك، دعني أنا أذهب.»

«لا يمكن أن تذهب أنت. فأنا أحتاج إليك هنا. وإذا اختفيت، فستفسد المهمة كلها قبل الأوان، وسنُعلَّق نحن الثلاثة الباقون هنا في المشانق قبل طلوع الصباح ... لا يا بُني. ستهرب، لكنك ستهرب بصحبتي أنا وبلنكيرون. علينا اجتثاث مسألة ذي العباءة الخضراء برُمَّتها من جذورها لئلَّا يبقى منها شيء يُعاود الظهور مجددًا ... أخبِرني أولًا، كم من رجالك سيبقى معك؟ أعني من «رفاق الأوقات الوردية».»

«الستة كلهم. إنهم في غاية القلق بالفعل مما حدث. لقد جعلَتني أجس نبضهم في حضورها، وأعلنوا استعدادهم التام لقبولي خليفةً لذي العباءة الخضراء. لكن لدَيهم شكوك بخصوص ما حدث في الفيلا، وليس لديهم أي مَحبة تجاه المرأة ... سيخوضون معي أهوال جهنم إذا أمرتَهم بذلك، لكنهم يُفضِّلون أن أكون أنا قائدهم ولا أحد سواي.»

صحتُ قائلًا: «عظيم جدًّا. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يؤرقني. والآن، لاحِظ هذه الخريطة. أرضروم ليست مُحاطة من جميع الجهات إطلاقًا. فالروس مُتركزون

حولها في شكل هلالٍ عريض. وهذا يعني أن الجهات الغربية والجنوبية الغربية والشمالية الغربية كلها مفتوحة وغير مَحميَّة بخنادق دفاعية. يوجَد جناحان بعيدان من قوات العدو متركزان شمالًا وجنوبًا في التلال، ولكن يمكن الالتفاف من حولهما، وحالما نلتفُّ من حول أحد هذَين الجناحَين، لن يحول شيء بيننا وبين أصدقائنا ... لقد حددتُ طريقنا»، ومرَّرتُ إصبعي على الخريطة لأُريهم إيَّاه. ثم أضفت: «إذا استطعنا أن نسلك هذا الطريق الملتفَّ الطويل إلى الغرب، وتخطَّينا هذا الممرَّ من دون أن يلاحظنا أحد، فسنلقى حتمًا مجموعةً من القوات الروسية في اليوم التالي. سيكون الطريق وعرًا، لكني أظنُّ أننا جميعًا قد طرقنا في الماضي دروبًا وطرقًا وعرةً تضاهيه صعوبةً. لكن لا بد أن يكون لدينا شيء واحد، وهو الخيول. هل نستطيع نحن وأشقياؤك الستة أن نرحل خلسةً في الظلام على ظَهر أفضل الأحصنة في هذه البلدة؟ إذا استطعتَ تدبُّر ذلك، فسنبلغ مُرادنا.»

جلس ساندي وأخذ يفكر مليًّا. والحمد للرب أنه كان يفكر حينئذٍ في تصرُّفٍ فعلي وليس في ضميره.

ثم قال أخيرًا: «يجب فعل ذلك، لكنه لن يكون سهلًا. حسين رجل بارع، ولكن كما تعلم جيدًا يا ديك، ليس من السهل الحصول على خيول بالقُرب من جبهة المعركة. غدًا عليَّ أن ألتزم بصيامٍ لعين عن الطعام والشراب، وفي اليوم التالي ستُدرِّبني تلك المرأة على دوري الذي سأؤدِّيه. سيتحتَّم علينا أن نمنح حسين وقتًا كافيًا ... ليتنا كنا نستطيع فعلها الليلة.» وعاود الصمت مرةً أخرى قليلًا، ثم قال: «أعتقد أن أفضل وقتٍ سيكون هو الليلة الثالثة، عشية الكشف عن نبوءتي. فهي حتمًا ستترُكني وحدي في تلك الليلة.»

قلت: «حسنًا. صحيح أن الجلوس في هذا القبر البارد لن يكون مُمتعًا، ولكن علينا أن نحافظ على رباطة جأشنا، وألا نتعجل فنُعرِّض المهمة للفشل. وفوق ذلك، إذا نجح بيتر، فسيكون الأتراك مشغولين بحلول بعد غد.»

سمِعنا المفتاح يدور داخل قفل الباب، ودخل حسين متسللًا في صمتٍ كالظل. وكان دخوله بمنزلة إشارةٍ لساندي بالرحيل.

قال ساندي: «لقد منحتموني قبلة الحياة أيها الرفاق. فالآن لديَّ خطة، وأستطيع الآن أن أشحذ هِمتي وأعقد العزم وأنفذها.»

تقدم نحو بيتر وقبض على يده. قال له: «بالتوفيق. أنت أشجع من قابلتُهم في حياتي وهم قِلة.» ثم استدار فجأة وخرج، وقال بلنكيرون من ورائه: «اعكف على إحضار الخيول.»

ثم شرعنا في تجهيز بيتر لغزوته. وكان ذلك سهلًا؛ لأن متاعنا كان قليلًا أصلًا. لم تكن هيئته، بمعطفه السميك ذي الياقة المصنوعة من الفرو، مختلفة عن هيئة أي ضابطٍ تركي عادي في الضوء الخافت. لكن بيتر لم يكن ينوي التظاهُر بأنه تركي، بل لم يكن يعتزم إعطاء أي شخصٍ فرصة ليراه أصلًا، وكان تركيزه منصبًّا على التماهي مع المشهد من حوله لئلَّا يلفت الأنظار. لذا خلع معطفه السميك وارتدى كنزتي الرمادية فوق سُترته، واعتمر خوذة صوفية بنفس اللون. لم يكن بحاجة إلى الخريطة؛ لأنه قد حفظ مساره عن ظهر قلب منذ وقتٍ طويل، وما يثبت في ذلك الدماغ مرة يظلُّ عالقًا فيه كالشمع، لكنني جعلته يأخذ خطة شتوم والورقة التي كتبَها، وخبأهما أسفل قميصه. ارتأيت أن الصعوبة الكبرى ستكمن في الوصول إلى الروس دون إطلاق الرصاص عليه، بافتراض أنه سيجتاز الخنادق التركية. كان أمله الوحيد أن يصادف شخصًا ذا دراية، ولو ضئيلة، باللغة الإنجليزية أو الألمانية. صعد إلى السطح مرتين وعاد مبتهجًا؛ لأن الشواهد كانت تنذر بطقس عاصف.

أحضر حسين عشاءنا، وأعدَّ بيتر صرةً من الطعام ليأخذها معه. كان لدَينا أنا وبلنكيرون قنينتان صغيرتان من البراندي، فأعطيت بيتر قنينتي.

ثم مدَّ يدَه مودِّعًا إيَّانا بكل بساطة، كأنه طفل مطيع ذاهب إلى فراشه. لم يتحمَّل بلنكيرون ذلك. فانهمرتِ الدموعُ بغزارة على وجنتَيه، ووعد بيتر بأنه، إذا تخطينا كلنا هذا المأزق، سيضعه في أطرى فراش يمكن شراؤه. لكني لا أظن أن بيتر قد فهِمه؛ لأنَّ عينَيه لاح فيهما ذلك الانهماك الشارد الذي يستحوذ على الصياد حين يجد صيدًا. كان تفكيره منصبًّا على مهمته فقط.

صعد إلى أعلى واختفت ساقاه وحذاؤه المُهترئ للغاية عبر نافذة السقف، وفجأة شعرتُ بوحدةٍ وحزن شديدَين. بدأَت المدافع تدوي مرة أخرى في الشرق، وبين كلِّ دويٍّ وآخر كنتُ أسمع صفير العاصفة الآخِذة في الاشتداد.

الفصل العشرون

بيتر بينار يذهب إلى الحرب

أسردُ في هذا الفصل القصةَ التي حكاها لي بيتر بعد ذلك بمدة طويلة، وهو جالسٌ بجوار موقد في الفندق بمدينة برجن، حيث كنا ننتظر سفينتنا.

بعدما ودَّعَنا، تسلَّقَ إلى السطح ونزل منه إلى الأرض متكئًا بيدَيه وقدمَيه على قوالب الطوب المكسورة في الجدار الخارجي. كان المبنى الخارجي الذي كنا ماكثين فيه متاخمًا لطريقٍ ما، وكان يقع خارج السور الرئيسي المحيط بالمنزل. ولا شك أنَّ ذلك الجانب يعجُّ بالحراس في الأوقات العادية، ولكن من المُحتمل أن يكون ساندي وحسين قد تمكَّنا من إبعادهم عنه بعض الوقت. لكنه لم يرَ أحدًا آنذاك وهو يعبر الطريق ويغوص وسط الحقول المُغطاة بالثلوج.

كان يُدرك تمامًا أنَّ أمامَه اثنتي عشرة ساعة فقط لينجز المهمة قبل انقشاع الظلام. فجبهة المعركة تكون مكشوفةً تمامًا في النهار ولا يمكن لأحدٍ أن يختبئ فيها، لا سيما مع وجود طبقةٍ سميكة من الثلج تجعل كل شيءٍ بارزًا بوضوح. كان بيتر يكره التعجُّل في مثل هذه المهام؛ لأنه يُفضِّل التأني والدقة كسائر البويريين، لكنه كان يستطيع الإسراع بما يكفي إذا اقتضت الحاجة. وبينما كان يندفع عبر الحقول المكسوة بالثلوج، أخذ يُحصي العوامل المواتية له، فلم يجد سوى الطقس السيئ. فقد كانت الأجواء مشوبةً برياحٍ عاتية عاصفة تحمل وابلًا من نُدَف الثلج، لكنها لم تصل قطُّ إلى حدِّ الهطول الغزير. كان الصقيع قد زال، وصار الثلج المُتراكم لينًا كالزبد. ارتأى ذلك مواتيًا له؛ إذ كان سيُعاني الأمرَّين لو كانت تلك ليلة صافية جافة.

قطع الشوط الأول من رحلتِه عبر أراضٍ زراعية كانت تتخلَّلها أخاديد صغيرة للري مملوءة بالثلوج. وكان يُصادف بين الحين والآخر بيوتًا ورقعًا من أشجار الفاكهة، لكنه

لم يكن يجِد أي أحدٍ في الخارج. كانت الطُّرُق مزدحمة جدًّا، لكن الطُّرُق لم يكن لها نفع لدى بيتر. أستطيع تخيُّله وهو يمضي قُدمًا بانسياب، حانيًا ظهره، ومتوقفًا بين الحين والآخر ليتشمَّم ويتسمَّع، ومتيقظًا ليستشعر الخطر قبل وقوعه. كان يستطيع أن يقطع الريف كله كظبيٍ رشيق عندما يشاء.

ثم سرعان ما وجد طريقًا كبيرًا مكتظًّا بعربات النقل. كان ذلك هو الطريق المُمتد من أرضروم إلى ممرِّ جبال بالاندوكن، وتحيَّن بيتر فرصته وعبَره. بعدها وجد نفسه على أرضٍ وعرة مليئة بجلاميد صخرية ورُقَع من الأشجار الشائكة، فأتاح له ذلك ساترًا رائعًا، حيث أمكنه التحرك بسرعةٍ بلا قلق. ثم توقف فجأة حينما وجد نفسه على ضفة نهر. صحيح أنه كان يعلم بوجوده سلفًا من الخريطة، لكنه فوجئ بأنه كبير جدًّا.

كان النهر أشد غزارة من المعتاد بفعلِ الثلج الذائب وانهمار مياه الأمطار من التلال، وكان عرضه خمسين ياردة. فكر بيتر أنه كان يستطيع أن يعبُره سباحةً، لكنه كان يكره أن يغمر جسده بالماء. فقال: «الرجل المُبلل يُحدِث ضوضاء أعلى مما ينبغي»، وفوق ذلك، كان معرَّضًا، ولو بنسبة ضئيلة، لأن يكون التيار شديدًا بالنسبة إليه. لذا مشى بمحاذاة النهر بحثًا عن جسر.

وفي غضون عشر دقائق، عثر على واحدٍ بالفعل؛ إذ وجد جسرًا حديثًا مثبتًا على حوامل، عريضًا بما يكفي لاستيعاب عربات النقل. كان الجسر تحت الحراسة؛ لأن بيتر سمع وقْع أقدام حارس، وبينما كان يصعد بمشقة نحو أعلى الضفة لاحَظ بضعة أكواخ خشبية طويلة، وبدا واضحًا له أنها مساكن لإيواء الحراس. كانت هذه الأكواخ تقع على الجانب القريب من بيتر، وتبعد نحو اثنتي عشرة ياردة عن الجسر. وجد بيتر باب أحدها مفتوحًا ورأى فيه ضوءًا، وسمع أصواتًا قادمة من داخله … كانت حاسَّة السمع لدى بيتر تُضاهي الحيوانات البرية، واستطاع حتى من وسط الثرثرة المختلطة أن يميز أنَّ الأصوات ألمانية.

وبينما كان جاثمًا يتنصَّت، مرَّ رجل فوق الجسر. كان ضابطًا؛ لأن الحارس أدَّى له التحية العسكرية. ثم اختفى ذلك الرجل داخل أحد الأكواخ. اتضح لبيتر أنه وصل إلى مساكن وورشة إصلاح تابعة لكتيبةٍ من المهندسين العسكريين الألمان.

وبينما كان يهمُّ بالعودة أدراجَه مفعمًا بالأسى، ومحاولة العثور على مكانٍ مُواتٍ ليسبح منه إلى الضفة الأخرى من النهر، خطر له أنَّ الضابط الذي مرَّ به كان يرتدي ثيابًا مُطابقة تمامًا لثيابه. فقد كان هو أيضًا يرتدي كنزةً رمادية وخوذة صوفية؛ لأنَّ

حتى الضباط الألمان لا يشغلون بالهم بالتأنق في ليلةٍ شتوية كهذه في الأناضول. عندئذٍ خطر ببال بيتر أن يعبر الجسر بجرأة، معتمدًا على أن الحارس لن يلاحظ الفرق.

تسلل بيتر من حول زاوية الكوخ وسار على الطريق. كان الحارس آنذاك عند الطرف البعيد من الجسر، وكان ذلك من حُسن حظ بيتر؛ لأنه كان بذلك يستطيع أن يَخنقه في أسوأ الأحوال. تقمص بيتر المشية الألمانية الصارمة، ومرَّ بالحارس خافضًا رأسه كأنه يَحمي نفسه من الريح.

أدى الحارس التحية العسكرية له. ولم يكتفِ بذلك، بل بادرَه بالحديث أيضًا. لا بدَّ أنَّ الضابط الذي انتحل بيتر شخصيته كان ودودًا.

قال الحارس بالألمانية: «إنها ليلة صعبة يا حضرة الكابتن. العربات تأخَّرت. أدعو الرب ألا يكون مايكل قد تلقى قذيفة في عرباته. فقد بدءوا في إطلاق قذائف ضخمة.»

فتمنَّى له بيتر ليلةً طيبة بكلماتٍ ألمانية مقتضبة، وواصل السير بخطًى واسعة. وبينما كان على وشكِ مُغادرة الطريق، سمع صيحةً عالية خلفه.

من المؤكد أنَّ الضابط الحقيقي ظهر من بعدِه مباشرة، وبذلك أُثيرت شكوك الحارس. انطلقت صافرة، ونظر بيتر إلى الوراء، فرأى مشكاوات تلوح في الجو العاصف. لقد خرجوا بحثًا عن مُنتحل شخصية الضابط.

توقف ساكنًا للحظة، ولاحظ الأضواء تنتشر جنوب الطريق. وبينما كان يهمُّ بالهروب من الجانب الشمالي، أدرك وجود عقبةٍ أمامه. فقد وجد هناك حدًّا جانبيًّا شديد الانحدار ينزل إلى مصرفٍ مائي محدود من الناحية المقابلة بحدٍّ جانبي آخر، ورأى فيما بينهما فيضانًا جارفًا. فقد أبصر تموُّجات الماء الخافتة تحت تيارات الريح.

كان سيُلقَى القبض عليه سريعًا لو سلك الطريق نفسه؛ لأنهم بدءوا البحث عند جنوبه، والمصرف نفسه لم يكن مناسبًا للاختباء فيه؛ لأنه رأى فيه مشكاةً آتية نحوه. لكنه قفز فيه على أي حال، ووضع خطة. كان الجانب الواقع أسفل الطريق مُجوفًا قليلًا إلى الداخل، شديد الانحدار. فقرَّر أن يلتصِق به؛ لأنه بذلك سيكون مخفيًّا عن الطريق، ومن المُستبعَد أن يبحث عنه أحد من مُمشِّطي المصرف في الجوانب الخالية من أي شقوق أو فجوات. كانت حِكمة بيتر الدائمة أن أفضل مخبأ ممكن هو المكان الأسوأ الذي لا يخطر ببال مَن يبحثون عنه.

انتظر حتى اقتربَت منه أضواء مشكاوات الباحثين عنه على الطريق وفي المصرف، ثم أمسك الحافة بيُسراه، حيث اتكأ على بعض الحجارة، وغرس طرفَي حذائه الأمامِيَّين

في التربة الرطبة، وألصق جسدَه بالحد الجانبي للمصرف كالبطلينوس. كان البقاء في هذه الوضعية طويلًا يتطلب قوة بدنية، لكن عضلات ذراعَيه وساقَيه كانت قوية مرنة كالسوط.

سرعان ما تعب الباحث عنه في المصرف؛ لأن المكان كان شديد البلل، وانضمَّ إلى رفاقه على الطريق. اقتربوا منه وهم يركضون ويُسلطون أنوار مشكاواتهم داخل الخندق، ويتفقَّدون كل أجزاء المنطقة الريفية المجاورة.

ثم انبعث ضجيج من عجلات وخيول قادمة من الاتجاه المعاكس. كان مايكل يقترب ومعه العربات المتأخِّرة. جاءت مندفعة بسرعة شديدة؛ لأن سائقيها كانوا يقودونها بتهور واهتياج، وارتعب بيتر لوهلةٍ ظنًّا منه أنها ستسقط في المصرف عند المكان نفسه الذي كان مُختبئًا فيه. مرَّت العجلات على مقربةٍ شديدة من الحافة لدرجة أنها كادت تخدش أصابعه. صاح أحد الرجال بأمرٍ ما، فتوقفت العربات على بُعد ياردة أو اثنتَين من الجسر. ثم جاء الآخرون وجرى تشاورٌ فيما بينهم.

أقسم مايكل أنه لم يمر بأحدٍ على الطريق.

قال الضابط بنفاد صبر: «لقد رأى هذا الأحمق هانوس شبحًا. الجو بارد ولا يحتمِل هذه التفاهات الطفولية.»

كرَّر هانوس كلامه وهو يكاد يبكي. صاح قائلًا: «لقد حادثني الرجل بلغةٍ ألمانية جيدة.»

قال الضابط: «سواءٌ أكان شبحًا أم لا، فقد صار بعيدًا جدًّا ولن يَمسَّنا بسوء. ربَّاه، كانت تلك ضخمة!» وسكت ونظر إلى انفجار خلَّفَته قذيفة مُدوية؛ لأن القصف المدفعي من الشرق كان يزداد شراسة.

وقفوا دقيقةً يتحدَّثون عن نيران الانفجار، ثم سرعان ما انفضَّ الجمع. أمهلهم بيتر دقيقتَين ليبتعِدوا، ثم تسلق عائدًا إلى الطريق السريع وانطلق راكضًا. استطاع الركض بأمانٍ بفضل ضجيج القصف والرياح إلى جانب الظلام الشديد.

ترك الطريق مع أول فرصةٍ سنحت له واتجه إلى الريف الوعر. وجد الأرض هناك مائلةً تدريجيًّا إلى الأعلى نحو أحدِ نتوءات جبال بالاندوكن، وكانت الخنادق التركية تقع على الجانب الآخر من ذلك النتوء. كانت تلك الليلة في بدايتها حالكة السواد كالقار، إلى حدِّ أنَّ حتى الدخان المتصاعد من انفجارات القذائف، الذي غالبًا ما يُرى في الظلام، لم يكن مرئيًّا. ولكن بينما كانت الرياح تسوق السُّحُب الثلجية بعرض السماء، كشفت عن رقعٍ من النجوم فيها. كان بيتر يحمل بوصلة، لكنه لم يحتجْ إلى استخدامها؛ لأنه كان

يعرف الاتجاهات في البيئات الطبيعية بنوعٍ من «الحدس»، بإحساسٍ فطري خاص لدى أهل البراري البدائيين، ولا يمكن أن يكتسِبه الرجل الأبيض إلا بعد خبرةٍ طويلة. أعتقد أنه كان يستطيع معرفة اتجاه الشمال بالشمِّ. كان شِبه مُستقر على الموضع الذي سيُحاول التسلل من عنده، وقد اختاره لمجرد قربه من العدو. لكنه كان مُستعدًّا لتغييره إذا رأى سببًا يستدعي ذلك، وبينما كان يتحرك، بدأ يرى أن آمَن مكان للتسلل هو المكان الأشد تعرضًا للقصف. لم تُعجبه هذه الفكرة، لكنها بدت منطقية.

وفجأة صادف أشياء غريبة في الأرض تساءل في حيرة عن ماهيتها، واستغرق لحظةً ليعرف ما هي؛ لأنه لم يرَ مدافع كبرى من قبل. سرعان ما أطلق أحدها قذيفة استقرت بجواره مباشرة، مُحدِثة دويًّا شديدًا كأنه يوم القيامة. كانت تلك مدافع نمساوية من طراز هاوتزر، وأتصور أن عيارها لم يكن يتعدَّى ثماني بوصات، لكنها بدت في نظر بيتر كوحوش لوياثان الأسطورية. وهناك أيضًا رأى لأول مرة حفرة كبيرة وحديثة جدًّا من الحفر التي تنشأ من انفجار القذائف؛ إذ كانت المدافع الروسية تحاول استكشاف هذا الموقع. وقد استحوذت على اهتمامه لدرجة أنه تطفَّل على مكانٍ يُفترَض ألا يوجَد فيه، وسقط بثقله في الحفرة الواقعة خلف منصة أحد المدافع.

إنَّ المدفعيين دأبهم واحِد في أي مكانٍ في العالَم؛ فهم أناسٌ خجولون يختبئون في الحفر ويبقَون ماكثين فيها، ويكرهون أن يكشف أمرَهم أحد.

صاح صوت أجش في وجه بيتر قائلًا: «من أنت؟» وقبضت يدٌ غليظة على رقبته.

كان بيتر جاهزًا بقصة مختلَقة. ادعى أنه فردٌ من فريق عربة مايكل، وأنهم تركوه وراءهم. وطلب أن يعرف الطريق إلى مخيم المهندسين العسكريين. كانت نبرته اعتذارية جدًّا، إن لم تكن متذلِّلة.

قال أحد المدفعيين: «إنه أحد تلك الخنازير البروسية القابعة على جسر مارتا. اركُله ليتعلَّم أن يكون واعيًا بتصرفاته. اتَّجِه يمينًا أيها الرجل القصير، وستجد طريقًا. وكن حذرًا عندما تصل إلى هناك؛ لأن الروس يستهدفونه بقذائفهم.»

شكرهم بيتر واتَّجَه يمينًا. بعدها ظل يُراقِب مدافع الهاوتزر بحذر، وشعر بالامتنان حين خرج من نطاق إطلاقها إلى المنحدرات أعلى التل. فقد كانت هذه هي نوعية الأراضي المألوفة له، وتحدَّى أي تركي أو جندي ألماني أن يستطيع العثور عليه وسط الشجيرات وجلاميد الصخور. وبينما كان يمضي قُدمًا على أحسنِ ما يُرام، فوجئ مجددًا بسماع دويٍّ كدوي قيام القيامة بالقُرب من أُذنه.

كان ذلك دويَّ المدافع الميدانية هذه المرة، وهو يؤذي الأعصاب حين يسمعه المرء بغتةً على مقربةٍ منه. ظن بيتر أنه قد أُصيبَ بقذيفة، واستلقى قليلًا ليفكر. ثم أدرك الحقيقة، وزحف إلى الأمام بمنتهى الحذر.

بعدها بقليل رأى أول قذيفة روسية في حياته. سقطت على بُعد ستِّ ياردات إلى يمينه، حيث أحدثت حفرةً كبيرة في الثلج، وقذفت في الهواء كتلةً من التراب المُختلط بالثلج والحجارة المكسورة. بصق بيتر التراب وشعَر بمهابةٍ شديدة. تذكروا أنه لم يرَ قصفًا شديدًا في حياته قبل ذلك، وأنه في تلك اللحظة كان يَخوض غمار قصفٍ حامي الوطيس من الدرجة الأولى بلا أي استعداد. قال لي إنه شعر ببرودةٍ في مَعِدته من شدة الخوف، وبرغبةٍ شديدة في الهروب، لو كان يوجَد مهرب يلجأ إليه أصلًا. لكنه ظلَّ ملازمًا قمة التل، التي كان يتسع فوقها وهجٌ كبير كضوء شروق الشمس. تعثَّر في إحدى المرات بسلكٍ ما، استنتج أنه فخ، وبعدَها واصل السير بحذَر شديد. وبعد وقت قصير وصل إلى صخرتَين كبيرتَين فوضع وجهه بينهما، وأطلَّ على ساحة المعركة الحقيقية.

قال لي إنها كانت صورة طبق الأصل من وصف الوعاظ لجهنم. كانت الخنادق التركية على بُعد نحو خمسين ياردة أسفل المنحدر، حيث كانت مظلمةً وسط الثلوج، وكان بين الحين والآخر يلمح هيئةً سوداء كهيئة الشيطان تظهر لحظيًّا وتختفي. من الواضح أن الأتراك كانوا يتوقَّعون هجومًا من المشاة؛ لأنهم كانوا يُطلقون قنابل مُضيئة وشعلات إنارة بمسدسات من طراز «فيري». كان الروس يقصفون جبهتهم ويرشُّون كل المنطقة الواقعة خلفها، ليس بقنابل شظايا، وإنما بقذائف صلبة شديدة الانفجار. فكان المكان يُصبح ساطعًا كالنهار للحظةٍ ويختنق كله بدوَّامة من الدخان والثلج والحطام، ثم تُخيِّم عليه سحابة من السواد الحالك، فيكون رعد المدافع هو الشيء الوحيد الدال على جريان المعركة هناك.

شعر بيتر بغثيانٍ شديد. لم يكن يتصور أنه يمكن أن يسمع ضجيجًا هائلًا كهذا في الدنيا، وكانت طبلتا أُذنَيه تتمزقان. إنَّ مَن تكون الشجاعة دأبه وديدنه طوال حياته، يجتاحُه شعور فظيع حين يتذوق طعم الخوف؛ الخوف المُطلق الصريح. فعندئذٍ يشعر بأنه يمحو رجولته كلها. استلقى بيتر على القمة، وأخذ يُراقب انفجار القذائف، وكان واثقًا من أنه قد يتحوَّل في أي لحظة إلى مجرد أشلاء. استلقى وناجى نفسه، وراح ينعت نفسه بكل وصفٍ مُهين خطر بباله، لكنه كان مدركًا أن لا شيء يمكن أن يزيل الخوف المتجمِّد في قلبه.

ثم لم يعُد يستطيع تحمُّل الأمر. فنهض وركض لينجو بحياته.

لكنه ركض إلى الأمام.

كان ذلك هو التصرف الأشد جنونًا. فقد انطلق بأقصى سرعة على أرضٍ تُمطَر بوابلٍ من القذائف الشديدة الانفجار، ولكن بفضلِ رحمة الرب لم يُصبه أيٌّ منها. صحيح أنه سَقَط سقطات مروعة في حفر القذائف، لكنه تمكن في النهاية من اجتياز الياردات الخمسين، تارةً على قدمَيه وتارةً على أطرافه الأربعة، ووقع في خندقٍ تركي، حيث سقط مباشرةً فوق جثة رجل.

عاد إلى رشدِه حين لامس تلك الجثة. فحقيقةُ أنَّ الرجال يمكن أن يموتوا أصلًا بدَت له شيئًا مُطمئنًا مألوفًا بعد كل هذا الجحيم غير الطبيعي الذي لاقاه. وفي اللحظة التالية، أصابت قذيفةٌ متراس الخندق على بُعد بضع ياردات إلى يساره، ليُدفَن نصف جسده وسط انهيارٍ ثلجي.

خرج من تحت ذلك الانهيار زاحفًا، وقد أُصيبَ بجرحٍ بالغٍ في رأسه. كان في تلك اللحظة هادئًا تمامًا ويفكر مليًّا في خطوته التالية. وجد رجالًا في كلِّ مكانٍ من حوله، ورأى وجوههم داكنة متجهمة عندما انطلقت شعلات الإنارة. كانوا مُتمركزين عند المتاريس، ومتلهِّفين لأي شيء آخَر غير القصف. لم يُرعوه أي اهتمام؛ لأنني أتخيل أن الوحدات في ذلك الخندق كانت تضمُّ أفرادًا مُختلطين، وتحت وطأة القصف الشديد، لا أحد يهتم بجاره. فوجد نفسه يستطيع التحرك كما يشاء بمنتهى الحرية. ورأى أرض الخندق وقد تناثرت عليها فوارغ الطلقات، وكان هناك كثير من الجثث.

كانت القذيفة الأخيرة، كما قلت، قد دمرت متراس الخندق. وفي خضمِّ نوبة الظلام التالية، زحف بيتر خلال الفجوة التي أحدثها الانفجار، وأخذ يمضي ملتويًا وسط روابٍ ثلجية. لم يعُد خائفًا من القذائف، بل صار يعتبرها كأي عواصف رعدية شهدِها سابقًا في سهوب أفريقيا. لكنه كان مُتحيرًا جدًّا وهو يحاول إيجاد سبيل للوصول إلى الروس. لقد صار الأتراك خلفه، لكن الخطر الأكبر كان أمامه.

ثم توقف القصف المدفعي. فاجأه ذلك بشدة حتى إنه ظن أنه قد أُصيبَ بالصمم، وكاد لا يُدرك نعيم الراحة في هذا التوقُّف وينعم به. وبدا أن الرياح أيضًا قد تلاشت، أو ربما كان التل يَحجبها عنه. وجد كثيرًا من الجثث هناك أيضًا، ولم يستطع فهم ذلك؛ لأنها كانت جثثًا حديثة. هل هاجم الأتراكُ وأجبرهم الروس على التراجع؟ بعدما قطع نحو ثلاثين ياردة، توقف ليُحدد مكانه ويُقيِّم موقفه. وجد إلى يمينه أنقاض مبنًى كبير مُشتعل

بنيران قذائف المدافع. ورأى حول المبنى ملامح ضبابية لأشجار وحطام جدران. وبعيدًا إلى اليسار، وجد تلًّا آخر مُمتدًّا بعيدًا إلى الشرق، وبدا المكان الذي كان فيه أشبه بكوبٍ مُجوَّف بين نتوءَين جبليَّين. وأمامه مباشرة، وجد مبنًى صغيرًا مُتهدمًا، ورأى السماء من خلال عوارض سقفه الخشبية؛ لأنَّ المبنى الخَرِب الآخر المُشتعِل على اليمين نشر بصيصًا من الضوء. وتساءل عما إذا كانت جبهة إطلاق النار الروسية تقع هناك.

عندئذٍ سمع أصواتًا — أصواتًا مكتومة — على بُعد أقل من ياردة واحدة، وبَدَت آتية من تحت الأرض. وفي الحال توصَّل إلى تفسير ذلك. كان ذلك خندقًا تركيًّا مُخصصًا للاتصالات. لم يكن بيتر يعرف الكثير عن الحرب الحديثة، ولكن كان لدَيه ما يكفي من المعلومات، سواء مما قرأه في الصحف أو مما سمعه مني، ليستخلص الاستنتاج الصحيح. ووجود الجثث الجديدة كان يُشير إلى الاستنتاج نفسه. لقد أدرك أنَّ ما دخلها قبل قليل كانت خنادق الدعم التركية، وليست جبهة إطلاق نيرانهم. فهذه كانت لا تزال أمامه.

لم ييئَس؛ لأن تعافِيه من الذُّعر بثَّ فيه جرعةً إضافية من الشجاعة. زحف إلى الأمام، رويدًا رويدًا، دون أن يُجازف بأي شكلٍ من الأشكال، وسرعان ما وجد نفسه ينظر إلى المتراس الخلفي لخندق جديد. عندئذٍ استلقى في هدوء ليفكر في الخطوة التالية.

كان القصف قد توقف، وساد ذلك السكونُ الغريب الذي أحيانًا ما يُخيِّم على جيشَين بينهما أقل من ربع ميل. قال بيتر إنه لم يسمع شيئًا آنذاك سوى تنهُّد الرياح البعيد. ولم يبدُ له أن هناك أي حركة إطلاقًا في الخندق الذي أمامه، والذي كان يمرُّ عبر المبنى المدمَّر. كان ضوء الاحتراق يخبو، ولم يتسنَّ لبيتر سوى رؤية كومة التراب الواقعة على بُعد ياردةٍ واحدة أمامه. بدأ يشعر بالجوع، فأخرج صرة طعامه وشرب جرعة من قنينة البراندي. أراحه ذلك، وشعر بأنه عاد سيد مصيره مجددًا. لكن الخطوة التالية لم تكن سهلة إطلاقًا. فكان عليه معرفة ما يُوجَد وراء تلك الكومة الترابية.

وفجأة وقع صوتٌ غريب على مسامعه. كان خافتًا جدًّا إلى حد أنه ظن في البداية أن حواسَّه تخدعه. ثم تعالى الصوت أكثر مع هبوب الرياح. بدا يُشبه تمامًا صوت قطعة معدنية مجوفة عند ضربها بعصًا؛ إذ كان موسيقيًّا ورنانًا بغرابة.

استنتج أنَّ الصوت ناجِم عن غُصنٍ تُطوِّحُه الرياح فتصدمه بمرجلٍ قديم في المبنى الخَرِب أمامه. غير أنَّ الرياح في ذاك الكوب المجوف المعزول الذي كان جاثمًا فيه لم تكن قوية بما يكفي لذلك.

ولكن بينما كان يُنصت، سمع الصوت الموسيقي مرة أخرى. كان صوتَ جرسٍ، جرس ساقط، ومن المؤكد أن المكان الذي أمامه كان كنيسة صغيرة. تَذكَّر أنه رأى ديرًا

أرمينيًّا مُحددًا بعلامة على الخريطة الكبيرة، وخمَّن أنه هو نفسه ذلك المبنى المُحترق عن يمينه.

أوحت إليه فكرة الكنيسة والجرس بوجود قوةٍ بشرية وراء ذلك الصوت. وفجأة تأكد له هذا الإيحاء. فقد جاء الصوت منتظمًا منسقًا، كما لو كان ممثلًا بنقطةٍ ثم شرطة، ثم نقطة ثم شرطة، ثم نقطة ثم نقطة. ربما يمكن للغصن والريح أن يخدعا المرء بحيلٍ غريبة، ولكن يستحيل أن يُرسِلا رسالةً مشفرة بشفرة مورس.

هنا استفاد بيتر من عملِه الاستخباراتي السابق في حرب البوير. كان يعرف شفرة مورس ويستطيع قراءتها، لكنه لم يفهم تلك الإشارة. إما أنها كانت مشفرة بشفرةٍ خاصة، وإما أنها مُرسَلة بلغةٍ غريبة.

استلقى ساكنًا وراح يفكر بهدوء. كان أمامه رجلٌ، جندي تركي مأجور يعمل لصالح العدو. لذا ارتأى بيتر أنه يمكن أن يتحالف معه؛ لأنهما كانا مُنحازين إلى الجانب نفسه. لكن كيف له أن يقترب منه دون أن يُطلِق عليه الرصاص أثناء اقترابه؟ كذلك كيف يمكن لرجل أن يُرسِل إشارات إلى العدو من جبهة إطلاق نار دون أن يُكتشَف أمره؟ وجد بيتر إجابة في النَّسَق الغريب للأرض. فقد أدرك أنه لم يسمع صوتًا إلَّا بعدما أصبح على بُعد ياردات قليلة من المكان، وأن الأصوات لن تكون مسموعةً للرجال في الخنادق الاحتياطية ولا حتى في خنادق الاتصالات. وإذا تصادف أنَّ فردًا من خنادق الاتصالات سمع الصوت أثناء اقترابه من الجبهة، فسيكون من السهل تفسيره بأي سببٍ طبيعي. لكن الرياح التي كانت تهبُّ عبر ذلك التجويف الطبيعي الشبيه بالكوب من شأنها أن تحمل الصوت بعيدًا في اتجاه العدو.

بَقِي مُمكنًا أن يسمعه أولئك القابعون بموازاة الجرس في خنادق إطلاق النار. واستنتج بيتر أن عدد أفراد ذلك الخندق قليل حتمًا، والأرجح أنهم بضعة مُراقِبين فقط، وأن أقربهم ربما يكون على بُعد اثنتي عشرة ياردة كاملة. فقد قرأ من قبل أنَّ هذا هو النهج الفرنسي أثناء التعرُّض لقصف شديد.

كانت الخطوة التالية أن يتوصل إلى طريقة ليُعرِّف بها هذا الحليف بنفسه. وقرَّر أن السبيل الوحيد لذلك هو أن يباغته. ربما يُطلِق عليه الرصاص، لكن بيتر كان واثقًا في قوته وخفة حركته أمام رجلٍ مُنهَك لا شك. وبعدما يُحكِم قبضته عليه ويأمن شره، يمكن أن يشرح له الأمر.

كان بيتر في تلك اللحظة مُستمتعًا جدًّا. تمنَّى أن تبقى تلك المدافع اللعينة صامتة، ليلعب اللعبة بالطريقة الرصينة اللائقة التي يُحبها. بدأ يزحف في حركةٍ ملتوية بمنتهى الحذر إلى مصدر الصوت.

كان الليل آنذاك حالك السواد من حوله، وهادئًا جدًّا أيضًا، باستثناء تنهدات العاصفة المحتضَرة. كان الثلج قد انجرف وتراكم قليلًا عند الجدران المدمرة غير المواجهة للرياح، وكان يتقدم ببطء شديد جدًّا بطبيعة الحال. لم يكن قادرًا على إزاحة أونصة واحدة من الثلج. لكن صوت الرنين استمر، وصار أعلى في تلك اللحظة. خاف بيتر أن يتوقف الصوت قبل أن يصِل إلى رَجُله.

بعدها بقليل وجد يدَه تنزل على مساحة فارغة. فأدرك أنه بلغ حافة الخندق الأمامي. كان الصوت عندئذٍ على بُعد ياردة واحدة إلى يمينه، فغيَّر وضعيته بحذر بالغ. أصبح الجرس حينئذٍ تحته مباشرة، وأحسَّ بالعارضة الخشبية الكبيرة التي كان الجرس يتدلى منها. وأحس بشيء آخر أيضًا؛ شريط سلكي مثبت في الأرض، وطرفه البعيد متدلٍّ في الفراغ. وفطن إلى أنَّ هذا هو التفسير الذي كان الجاسوس سيختلقه إذا سمع أحد الصوت وجاء يبحث عن سببه.

كان الرجل آنذاك موجودًا أمامه وتحته في مكانٍ ما وسط الظلام الحالك، على بُعد أقل من ياردة واحدة. بقي بيتر ساكنًا تمامًا يدرس الوضع. لم يكن يرى شيئًا، لكنه كان يشعر بالوجود من حوله، وكان يُحاول تحديد مكان الرجل والجرس بالنسبة إليه، والمسافة التي تفصله عنهما بالضبط. لم يكن الأمر سهلًا كما بدا؛ لأنه لو قفز إلى المكان الذي يوجَد فيه الرجل حسبما يعتقد، فقد يُخطئ الهدف ويتلقى رصاصةً في بطنه. كان موقنًا أنَّ الرجل الذي يلعب لعبةً محفوفة بالأخطار كهذه من المُرجَّح أن يكون بارعًا في استخدام الأسلحة النارية. وفوق ذلك، فإذا اصطدم بالجرس نفسه، فسيثير ضجة رهيبة، ويلفت انتباه الجبهة كلها.

وفجأة منحه القدر الفرصة المناسبة. فقد وقف الشخص الخفي وتحرك خطوة حتى أصبح ظهره مستندًا إلى المتراس الخلفي للخندق. واحتكَّ بمرفق بيتر بالفعل، لكن بيتر حبس أنفاسه تمامًا.

يشتهر الزنوج بمسكةٍ مُعينة تتطلَّب عدة مخططات بيانية لشرحها. تقوم هذه الطريقة على إمساك الرقبة مع ليِّ الذراع اليُمنى للخلف ليًّا يُصيبها بالشلل التام، ولكن إذا طُبقت على رجل من وراء ظهره، فإنها تُقيد حركته بإحكام كما لو كان مُكبَّل اليدَين. رفع بيتر جسده ببطءٍ وسَحَب ركبتَيه تحته ليتكئ عليهما، ثم مد يدَه نحو فريسته.

أمسك به. ثم سحب رأسه إلى الوراء من فوق حافة الخندق، وشعر بحركة ذراعِه اليُسرى وهي تضرب الهواء بوهنٍ دون أن تستطيع الوصول إلى الخلف.

همس له بيتر بالألمانية: «اهدأ، لن أوذيك. فنحن صديقان لدينا الغرض نفسه. هل تتحدَّث الألمانية؟»

قال الرجل بصوت مكتوم: «لا.»

«الإنجليزية؟»

«نعم.»

فقال بيتر: «حمدًا للرب. إذن يمكن لكلَينا أن يفهم الآخر. رأيتُ اختراعك لإرسال الإشارات، وهو رائع جدًّا. عليَّ أن أصل إلى الجبهة الروسية بأي طريقةٍ قبل الصباح، وأُريدك أن تُساعدني. أنا إنجليزي، أو يُمكنك أن تعتبرني إنجليزيًّا، لذا فنحن حليفان. إذا تركتُ رقبتك، هل ستتصرَّف بأدب وتتحدَّث بعقلانية؟»

أبدى الرجل موافقته. فأفلته بيتر، وفي اللحظة نفسها انسلَّ إلى جواره. استدار الرجل ومد ذراعه بسرعة، لكنه وجد نفسه يُمسك الفراغ.

قال بيتر: «على رسلك يا صديقي، إياك أن تُحاول خداعي وإلا فسأغضب.»

فسأله الصوت المتحير: «من أنت؟ من أرسلك؟»

خطرَت ببال بيتر فكرة ذكية. فقال: «رفاق الأوقات الوردية.»

قال الصوت: «إذن، فنحن حليفان بالفعل. اخرج من الظلام يا صديقي، ولن أُوذيك. أنا تركي صالح، قاتلتُ مع الإنجليز في كردفان وتعلمت لُغتهم. كل مرادي من الحياة أن أرى هلاك أنور، الذي أفقر عائلتي وذبح أخي التوءم. لذا أخدم كفار موسكو.»

«لا أعرف من هم كفار موسكو، ولكن إذا كنت تقصد الروس، فأنا معك. عندي معلومة لهم ستجعل أنور سقيمًا شاحبًا. والسؤال هو: كيف أستطيع الوصول إليهم؟ وهذا هو ما ستساعدني فيه يا صديقي.»

«كيف؟»

«بعزفِ لحنك الصغير ذاك مجددًا. أخبرهم بأن يترقبوا خلال نصف الساعة القادم وصول هاربٍ من الجيش يحمل رسالةً مهمة. أخبرهم بالله عليك ألا يطلقوا النار على أي شخصٍ قبل أن يتيقنوا أنه ليس أنا.»

أخذ الرجل طرفَ حربته الكليل وجلس القرفصاء بجوار الجرس. أحدثت الضربة الأولى رنة واضحة ثاقبة طارت عبر الوادي. ثم أطلق ثلاث رنات أخرى على فتراتٍ متباعدة. قال لي بيتر إن الرجل كان أشبه تمامًا بعامل تلغراف يتَّصِل بإحدى المحطات.

قال له بيتر: «أرسل الرسالة بالإنجليزية.»

فقال الرجل: «قد لا يفهمونها.»

«إذن، أرسلها كيفما شئت. فأنا أثِق بك؛ لأننا إخوة.»

بعدها بعشر دقائق توقف الرجل وأنصت. ومن بعيدٍ جاء صوتُ جرسِ خندقٍ، على غرار تلك الأجراس التي كانوا يستخدمونها على الجبهة الغربية لإطلاق إنذار الغاز.

قال له الرجل: «يقولون إنهم سيكونون جاهزين في انتظارك. لا أستطيع تدوين الرسائل في الظلام، لكنهم أعطَوني الإشارة التي تعني «موافقة».»

قال بيتر: «حسنًا، هذا ممتاز. والآن يجب أن أتحرك. تريد نصيحة منِّي. عندما تسمع إطلاق نارٍ كثيفًا جهة الشمال، استعد للانسحاب بسرعة؛ لأنَّ مدينتك ستكون في ورطةٍ ميئوس منها. وأخبر قومك أيضًا بأنهم يرتكبون خطأً فادحًا بالسماح لهؤلاء الألمان الحمقى بأن يحكموا أراضيهم. اجعلهم يشنقون أنور وأصدقاءه التافِهين، وستعمُّ السعادة علينا مجددًا.»

قال التركي: «فليقبل الشيطان روحه في الجحيم! أمامنا سياجٌ شائك، لكنني سأريك طريقًا لتجتازه. لقد أحدثَت المدافع فتحاتٍ كثيرةً فيه هذا المساء. ولكن أسرِع؛ لأنهم قد يستدعون فريقًا لإصلاحه عمَّا قريب. تذكر أنك ستقابل الكثير من الأسلاك الشائكة قبل خطوط الخنادق الأخرى.»

اجتاز بيتر تشابُكات الأسلاك الشائكة بسهولة، بفضل توجيهات مُعينة. صحيح أن أحد أجزائها خدش ظهره وأصابه بجرحٍ فيه، لكنه سرعان ما وصل إلى آخر الأوتاد ووجد نفسه في أرضٍ مفتوحة. قال لي إن المكان كان مقبرةً لجُثث غير مدفونة، وإن رائحتها كانت بشعة وهو يزحف بينها. لكن لم يكن بإمكانه التباطؤ إطلاقًا؛ إذ شعر بأنه سمع حركة فريق العمال الأتراك من خلفه، وكان خائفًا من أن تكشفه شعلة ما ويُمطَر بوابلٍ من الرصاص أثناء انسحابه.

شق طريقه زحفًا كالدودة من حفرةٍ إلى أخرى من حفر القذائف، حتى لقي خندق اتصالاتٍ قديمًا مُدمرًا كان يؤدي إلى الاتجاه الصحيح. لا بد أن الأتراك أُجبِروا على التراجُع في الأسبوع الماضي، وأن الروس كانوا حينئذٍ في الخنادق التي أخلاها الأتراك. كان الخندق مملوءًا بالماء حتى نصفه، لكنه أعطى بيتر شعورًا بالأمان؛ لأنه مكَّنه من خفض رأسه تحت مستوى الأرض. ثم وصل إلى نهايته ووجد أمامه غابةً من الأسلاك الشائكة.

كان التركي قد ذكر في إشارته أنَّ بيتر سيصِل في غضون نصف ساعة، لكن بيتر شعر بأنه استغرق نحو ساعتَين كاملتَين قبل أن يتمكن من اجتياز تلك التشابكات المؤذية. لم

يكن القصف قد ألحق بها ضررًا جسيمًا. فقد كانت الأوتاد كلها سليمة، وكادت لفائف الأسلاك الشائكة أن تلامس الأرض. تذكَّروا أنه لم يكن يحمِل قطَّاعة أسلاك، لم يكن لدَيه سوى يدَيه العاريتَين. تملَّكه الخوف مرة أخرى. فقد شعر بأنه عَلِق في شبكة، وأن النسور الوحشية تنتظر الانقضاض عليه من أعلى. كان معرضًا في أي لحظة لاكتشاف أمره بشعلةٍ مضيئة تنطلق في الهواء، وتصويب عشرات البنادق نحوه عندئذٍ. نسي تمامًا أمر الرسالة التي أُرسلت؛ لأنَّ كل رسائل الدنيا ما كانت لتبدِّد شعور الموت الدائم الذي كان يُحدِق به. قال لي إنه شعر وكأنه يتبع أسدًا شرسًا إلى الأدغال عبر مدخلٍ واحد ضيق، ثم لم يجد مخرجًا.

بدأ القصف المدفعي مجددًا — وكان صادرًا هذه المرة من المدافع التركية المتركزة وراء التلال — ونزلت قذيفة أمامه بمسافة قصيرة مزقت السلك الذي كان هناك. استغل أنَّ الانفجار سيصرف الأنظار عنه، وتمكن من قطع مسافة طويلة بعض الشيء، تاركًا أجزاءً كبيرة من ملابسه عالقة في لفائف السلك. وفجأة، عندما كاد الأمل يموت في قلبه، شعر بالأرض ترتفع بحدة. استلقى ساكنًا بلا حراك، وأُنيرَ المكان بصاروخٍ مضيءٍ من الجانب التركي، فوجد أمامه متراسًا رأى من خلفه رءوس الحراب. لقد كانت تلك ساعة استعداد القوات الروسية.

رفع أطرافه المُتشنجة عن الأرض وصرخ قائلًا: «أنا صديق! إنجليزي!»

رأى وجهًا ينظر إليه من الأعلى، ثم خيَّم الظلام مرة أخرى.

قال بصوتٍ مبحوح: «صديق. إنجليزي.»

سمع كلامًا خلف متراس الخندق. ثم سُلِّط عليه وميض مِشعل كهربائي للحظة. وبعدها سمع صوتًا يتحدَّث، صوتًا ودودًا، وبدا أنَّ صاحب الصوت كان يدعوه إلى المجيء.

كان واقفًا على قدمَيه آنذاك، وعندما وضع يدَيه على متراس الخندق، شعر بأنَّ الحراب قريبة جدًّا منه. لكن الصوت الذي تحدَّث كان ودودًا؛ لذا رفع جسده بمشقةٍ وتسلَّق حافة الخندق بيدَيه وقدمَيه وارتمى داخله. سُلط عليه وميض المِشعل الكهربائي مرة أخرى، فرأى المتفرجون رجلًا نحيلًا في منتصف العمر، قذرًا على نحوٍ لا يوصف، ووجدوا رأسه ملطخًا بالدماء، وظهره لا يكاد يحمل أي قطعة مُتبقية من قميصه. رأى الرجل وجوهًا ودودةً من حوله، فابتسم مبتهجًا.

قال: «كانت تلك رحلة شاقة يا أصدقاء، أريد لقاء جنرالكم بأقصى سرعة؛ فأنا أحمل له هدية.»

اقتيد إلى ضابط في مخبأ تحت الأرض، فخاطبه بالفرنسية التي لم يفهمها. لكن رؤية خريطة شتوم كان لها مفعول السحر. فبعدها اقتادوه سريعًا عبر خنادق الاتصالات، ثم فوق حقول سبخة إلى مزرعة بين الأشجار. وهناك وجد بعض ضباط الأركان الذين نظروا إليه ونظروا إلى خريطته، ثم وضعوه على حصانٍ وهرعوا به شرقًا. ووصل في النهاية إلى منزلٍ كبير مُتهدم، واقتادوه إلى غرفة بدت مليئةً بالخرائط والجنرالات.

وهنا يجب أن تُحكى الخاتمة بلسان بيتر نفسه.

«وجدتُ هناك رجلًا ضخمًا جالسًا إلى طاولةٍ يشرب القهوة، وعندما رأيته، قفز قلبي من جسدي من هول المفاجأة. لقد كان الرجل الذي اصطدت معه في بونجوي في عام ٩٨، والذي أطلق عليه الزنوج لقب «قرن الأيل»، بسبب شاربه المَبروم الطويل. كان أميرًا آنذاك، وصار الآن جنرالًا عظيم الشأن. عندما رأيته، ركضتُ نحوه وأمسكت يده وصرخت قائلًا بالهولندية: «كيف حالك يا سيدي؟» عرفني وصاح قائلًا بالهولندية: «عجبًا، بيتر بينار العزيز!» ثم قدم لي قهوةً ولحم خنزير وخبزًا طيبًا، ونظر إلى خريطتي.»

«صاح بوجهٍ مُحمر قائلًا: «ما هذه؟»»

«فقلت: «إنها خريطة قيادة الأركان الخاصة بشخصٍ يُدعى شتوم، وهو وغد ألماني يتولى قيادة الجيش في تلك المدينة.»»

نظر إليها عن كثبٍ وقرأ العلامات، ثم قرأ الورقة الأخرى التي أعطيتني إيَّاها يا ديك. عندئذٍ رفع ذراعَيه وضحك. أخذ رغيفًا ورماه في الهواء فسقط على رأس جنرال آخر. تحدث إليهم بلُغتهم، فضحكوا هم أيضًا، ووجدتُ رجلًا أو اثنَين منهم يخرجان ركضًا كأنهما كُلِّفا بمهمةٍ ما. لم يسبق لي أن رأيتُ مثل هذا الاحتفال المرح. كانوا رجالًا أذكياء، وأدركوا قيمة ما أعطيتني إيَّاه.

ثم وقف على قدمَيه وعانقني، مع أنني كنت متسخًا جدًّا، وقبَّلني على كلتا وجنتيَّ.

«وقال: «أُشهِد الرب يا بيتر أنك أعظم صيادٍ منذ نمرود. لقد وجدتَ لي صيودًا كثيرة من قبل، لكن هذا أكبر صيدٍ جلبته لي!»»

الفصل الحادي والعشرون

التل الصغير

كان رجلًا حكيمًا ذاك الذي قال إن أعظم أنواع الشجاعة أن تكون قادرًا على البقاء ساكنًا بلا حراك. كان ذلك ما اعتدتُ أن أشعر به عندما كنا نتعرَّض للقصف في الخنادق الاحتياطية خارج فيرميليس. وشعرت به قبل أن نتجاوز متاريس الخنادق في لوس، لكنه لم يجتحني قط بقدْر ما اجتاحني في اليومَين الأخيرين في ذلك القبو. كان عليَّ ببساطة أن أكتفيَ بإطباق أسناني والحفاظ على رباطة جأشي. كان بيتر قد ذهب في مهمةٍ جنونية، ورأيتُ أن نجاحه فيها شِبه مُستحيل. أمَّا ساندي، فلم يظهر له أي أثر، كان موجودًا في مكانٍ ما على بُعد مائة ياردة حيث يخوض معاركه الخاصة، وكانت تؤرِّقني فكرةُ أنه قد ينفعل مجددًا من فرط إحساسِه بالذنب ويُفسد كل شيء. أحضر إلينا فردٌ غريب من أفراد عصبة «الرفاق» طعامًا، لكنه لم يكن يتحدث إلا التركية ولم يستطع إخبارنا بأي شيء، أما حسين، فخمَّنتُ أنه كان منشغلًا بتدبر أمر الخيول. تمنيتُ أن أستطيع فعل أي شيءٍ للمساعدة في قضاء حوائج المهمة؛ لأن ذلك كان من شأنه أن يُخلصني من قلقي، لكن لم يكن بإمكاني فعل شيء، لا شيء سوى الانتظار والتأمُّل في كآبة. يُمكنني القول إنني قد بدأت أتعاطف مع الجنرال الذي يبقى خلف الخطوط في المعركة، ويضع الخطة التي يُنفذها الآخرون. فقيادة الهجوم في ساحة المعركة لا يمكن أن تكون مُوتِّرة بقدرِ الجلوس في كرسي مريح وانتظار أخبارها.

كان الجو قارس البرودة، وكنَّا نقضي معظم النهار مُتدثرين بمعاطفنا الثقيلة، مدفونِين في أعماق القش. أذهلني بلنكيرون في تلك الفترة. فلم يكن في القبو ضوءٌ يُتيح له اللعب بالورق، لكنه لم يتذمَّر قط. كان ينام فتراتٍ طويلة من الوقت، وعندما يستيقظ، يتحدث بمرحٍ كأنه يستهل عطلة. كان عزاؤه المريح الوحيد أنه لم يعُد يُعاني عسر الهضم.

ووجدته يواظب على إنشاد الترانيم شكرًا للعناية الإلهية الرحيمة التي خلَّصت مَعِدته من آلامها.

أمَّا أنا، فكان شُغلي الشاغل الوحيد هو الاستماع إلى المدافع. في نهار أول يومٍ بعد رحيل بيتر، وجدتُ صوتها هادئًا جدًّا على الجبهة الأقرب إلينا، ولكن في وقتٍ متأخر من المساء، بدأ قصف مروع. وفي اليوم التالي لم يتوقَّف قط من الفجر حتى الغسق، فذكَّرني بالساعات الثماني والأربعين الرهيبة التي سبقَت معركة لوس. حاولت أن أستشف من ذلك دليلًا ما على أن بيتر قد نجح في مهمته، لكني لم أفلح. بل بدا أنَّ العكس هو ما حدث؛ لأن هذا القصف الشديد كان يعني حتمًا أنَّ الروس ما زالوا مُصمِّمين على مهاجمة خطوط العدو من الجبهة الأمامية.

تسلقت إلى سطح المنزل مرتَين أو ثلاثًا لأستنشِق هواء نقيًّا. كان النهار ضبابيًّا ورطبًا، ولم أرَ من الريف إلَّا القليل جدًّا. كانت وسائل النقل ما زالت تمضي مُترجرجة نحو الجنوب على طول الطريق المؤدي إلى بالاندوكن، وكانت العربات البطيئة المُحملة بالجرحى عائدة من هناك. لكني لاحظتُ شيئًا واحدًا؛ كانت ثمة حركة مستمرة من الذهاب والإياب بين البيت والمدينة. كنت أرى سياراتٍ ورُسلًا على ظهور خيولهم يأتون إلى البيت ويغادرون باستمرار، واستنتجتُ أن هيلدا فون آينم كانت تتأهَّب لدورها في الدفاع عن أرضروم.

كانت كل مرات الصعود هذه في اليوم الأول بعد رحيل بيتر. وحين جرَّبتُ فتح نافذة السقف في اليوم الثاني، وجدتُها مغلقةً بوزنٍ ثقيل من فوقها. استنتجتُ أنَّ أصدقاءنا هم من فعلوا ذلك حتمًا، وارتأيتُه تصرفًا صائبًا تمامًا. فما دام المنزل قد بدأ يتحول إلى منتجعٍ عام، فلن يكون في صالحي إطلاقًا أن أصعد إلى السطح.

عاود حسين الظهور في وقتٍ متأخر من الليلة الثانية. كان ذلك بعد العشاء، عندما غطَّ بلنكيرون في نومٍ هانئ، وبدأتُ أنا أعد الساعات حتى الصباح. لم يغمض لي جفن في نهار تلك الأيام، ولم أكن أنام كثيرًا خلال الليل.

دخل حسين دون أن يُشعل مشكاة. سمعت صوت مفتاحه في القفل، ثم وقْع خطوته الخفيفة بالقرب من مرقدنا.

سألني: «أنائم أنت؟» وحين أجبتُه جلس بجواري.

قال: «لقد عثرنا على الخيول، وأمرَني الزعيم أن أخبرك بأننا سننطلق في الصباح قبل طلوع الفجر بثلاث ساعات.»

سُررتُ بهذا الخبر. ورجوته قائلًا: «أخبِرني بما يحدث؛ فنحن راقدون هنا في هذا القبر منذ ثلاثة أيام ولم نسمع أي أخبار.»

قال: «المدافع تُواصِل القصف. والألمان يأتون إلى هنا كل ساعة، لا أعرف لماذا. أيضًا هناك بحث مُكثف عنك. جاء بعض الباحِثين إلى هنا، لكننا صرفناهم خاوي الوفاض … نَم يا سيدي؛ فأمامنا مهمة شاقة.»

لم أنم كثيرًا، لأنني كنتُ متوترًا جدًّا من فرطِ الترقُّب، وكنت أحسد بلنكيرون على سباته العميق الذي كان يهنأ به حينئذٍ مع زوال عسر الهضم. لكن غلبني النعاس ساعة أو نحو ذلك، وعندئذٍ عاودني كابوسي القديم. وجدتُ نفسي مجددًا في عُنق ممر جبلي ضيق، حيث كنت أطارَد مطاردةً شعواء، وأبذل جهدًا مضنيًا للوصول إلى ملاذ كنت أعلم أنني يجب أن أصل إليه. لكنني لم أكن وحدي هذه المرة. بل كان معي أناس آخرون، وإن لم أعرف عددهم؛ لأنَّهم تلاشَوا في الضباب حينما حاولت رؤية وجوههم. كانت الثلوج سميكة من تحت أقدامنا، والسماء رمادية فوقنا، وكنا مُحاطين من كل جانبٍ بقِمم سوداء، لكننا كنا نرى أمامنا، وسط ضباب الممر الجبلي، ذلك التل الغريب الشبيه بقِدْر الطعام، الذي رأيته لأول مرة في حلمي الذي راودني على طريق أرضروم.

رأيته واضحًا حتى أدق تفاصيله. كان يظهر عن يسار الطريق المُمتد عبر الممر الجبلي، فوق مُنخفَض يضم جلاميد صخرية كبيرة بارزة وسط الثلج. كانت جوانبه شديدة الانحدار إلى حدٍّ أنَّ الثلج قد تساقط عن رُقَعٍ معينة منه، ليكشف عن امتداداتٍ طويلة من صخره الزيتي الأسود اللامع. لم تكن حواف قمتِه رأسية، بل كانت مائلة بزاوية مقدارها خمس وأربعون درجة، وبدت القمة نفسها مجوفة من الداخل، كما لو أنَّ الطقس قد أزال التربة من وسط إطارها الصخري، فحوَّلها إلى كوب.

كانت هذه هي حال معظم التلال الشبيهة بقدور الطعام في جنوب أفريقيا، وكنت أعلم أنَّ هذا التل من النوع ذاته. كنا نبذل جهدًا مُضنيًا لبلوغه، لكن الثلج كان يُعوِّقنا، وكان أعداؤنا قريبين جدًّا من خلفنا.

عندئذٍ أيقظني شخص بجواري. قال: «استعد يا سيدي؛ حانت لحظة الانطلاق.»

خرجنا كالسائرين نيامًا إلى الهواء القارس. اقتادنا حسين إلى الخارج من بابٍ خلفي سري قديم، ثم قادنا عبر مكانٍ أشبه ببستان، حتى وصلنا إلى ظُلَّةٍ من أشجار طويلة دائمة الخضرة. وجدنا الخيول واقفة هناك، وهي تأكل وتمضغ بهدوء من مَخاليها. قلت لنفسي: «جيد، وجبة من الشوفان قبل مجهود شاق.»

وجدنا هناك تسعَ دواب لتسعة فرسان. فامتطيناها دون أن ننبس ببنت شفة، وسرنا بها وسط أجمة من الأشجار حتى وصلنا إلى سياج خشبي مكسور، حيث كانت هذه بداية أرض مزروعة. اختار حسين أن يقودنا هناك طوال عشرين دقيقة تقريبًا وسط ثلوجٍ سميكة تعوق الحركة. فقد أراد تجنُّب إصدار أي صوتٍ حتى نبتعد بما يكفي عن مسامع مَن في المنزل. بعدها سلكنا طريقًا فرعيًّا سرعان ما التحم بطريق سريع صلب خمَّنتُ أنه متجه إلى ما بين الاتجاه الغربي والاتجاه الجنوبي الغربي. وحالَما وصلنا إلى هناك، انطلقنا بخيولنا بسرعةٍ جامحة وسط الظلام.

وجدت نفسي قد استعدتُ كل بهجتي. بل بثَّت فيَّ الحركة شعورًا بالنشوة، وكان بوسعي أن أُقهقه بأعلى صوتٍ وأغني. فأسفل مظلة الليل الحالكة، إمَّا تُنسَى الأخطار وإما تجتاح المرء اجتياحًا مروعًا. وقد صارت أخطاري أنا منسية. فالظلام الذي كنت أركض فيه كان يقودني إلى الحرية والأصدقاء. أجل، والنجاح أيضًا، النجاح الذي لم أجرؤ على أن أتمناه، بل لم أجرؤ حتى على أن أحلم به.

كان حسين يقود حصانه في المقدمة، وأنا بجواره. التفتُّ ورأيت بلينكيرون خلفي، وبدا واضحًا أنه كان مُستاءً للغاية من السرعة التي كنا نركض بها، والحصان الذي كان يمتطيه. صحيح أنه قال لنا من قبل إنَّ ركوب الخيل مُفيد لكبده، لكنه كان يُحب الخبب الخفيف والركض وقتًا قصيرًا، لا هذا الاندفاع الجامح. كانت فخذاه مُكتنزتَين جدًّا، حتى إن جِلد السرج لم يكن يلائمهما. مررنا بنارٍ في جوفٍ منخفض يضمُّ مُخيمًا مؤقتًا لوحدة عسكرية تركية، فانتفضَت الخيول كلها بعنف. عرفت من شتائم بلنكيرون عندئذٍ أن قدمَيه انفلتتا من ركابه، وأنه صار جالسًا على رقبة حصانه.

كان الحصان الراكض بجواره يحمل شخصًا طويلًا ملثَّمًا حتى عينَيه، يرتدي حول رقبته شالًا تتطاير أطرافه من خلفه. فبالطبع لم يكن ساندي لدَيه معطف سميك أوروبي؛ لأنه لم يرتدِ ثيابًا لائقة منذ عدة أشهر. أردتُ التحدث إليه، لكني، بطريقة ما، لم أجرؤ. منعني سكونه التام. كان فارسًا بارعًا رائعًا، بجلسته الإنجليزية الثابتة الشائعة بين الصيَّادين، وقد نفعته براعتُه؛ لأنه لم يكن يُعطي أي انتباه إلى حصانه. فقد كان رأسه ما زال يموج بأفكار جامحة.

ثم بدأت رائحة الهواء من حولي تصير حادة موحية ببرودة قارسة، ورأيت ضبابًا يتصاعد من المنخفضات.

صحتُ قائلًا لحسين: «تبًّا لسوء حظنا. هل تستطيع إرشادنا وسط الضباب؟»

هز رأسه. وقال: «لا أعلم. كنت أُعوِّل على رؤية شكل التلال.»

«لدينا خريطة وبوصلة، على أي حال. لكن هذا سيبطئ حركتنا. نسأل الرب أن ينقشع!»

وبعد قليلٍ تحوَّل البخار الأسود إلى رمادي، وطلع النهار. لكن ذلك لم يحمِل عزاءً لنا. فقد انساب الضباب متموجًا حتى بلغ آذان الخيول، وبينما كنتُ أقود حصاني على رأس المجموعة، لم أستطع رؤية الصف التالي إلا على نحوٍ خافت.

قال حسين: «حان الوقت لترك الطريق، وإلا فقد نلتقي بأناس فضوليين.»

اتجهنا يسارًا، فوق أرضٍ شبيهة تمامًا بمُستنقع اسكتلندي. كان بها بِرَك من المطر، وكُتل من شجيرات العرعر المتشابكة المُحملة بالثلوج، وسلاسل طويلة من الصخور الأردوازية الرطبة. كان طريقًا سيئًا، وقضى الضباب على أيِّ أملٍ في أن نسلك مسارًا مواتيًا. أخرجت الخريطة والبوصلة، وحاولتُ تحديد طريقنا بحيث نلتفُّ من عند جانب نتوءٍ جبلي كان يفصلنا عن الوادي الذي كنا نقصده.

قلت لحسين: «أمامنا جدول مائي. هل هو ضحل؟»

قال وهو يسعل: «إنه مجرد نُهَير ضئيل. هذا الضباب لعنة من إبليس.» لكني كنتُ أعلم قبل وقتٍ طويل من وصولنا إليه أنه ليس نُهيرًا ضئيلًا. كان مجرًى مائيًّا يتدفَّق على جانب التل بفيضان غزير، وسرعان ما خمنتُ أنه يجري في وادٍ ضيق عميق، وقد كان هكذا بالفعل. وصلنا بعد قليلٍ إلى حافته، حيث وجدنا دوَّامة متصلة طويلة من شلالات رغوية ومنحدرات بُنِّية سريعة. كان عبورنا بالخيول إلى الضفة الأخرى لا يقل صعوبةً عن الصعود بها إلى أعلى جروف بالاندوكن الشاهقة.

نظر حسين إليه بفزع. وقال: «اللهم اغفر لي حماقتي؛ فقد كان ينبغي لي أن أعلم. يجب أن نعود إلى الطريق السريع ونجد جسرًا. معذرة يا سادتي على أنني ضلَّلتكم هكذا.»

عدنا إلى ذلك المُستنقع وأنا في غاية الإحباط. فنحن لم نكن متقدِّمين بفارقٍ زمني طويل عن مطاردينا، وكانت هيلدا فون آينم على استعداد لأن تقلب السموات والأرض للحاق بنا. وجدتُ حسين يسرِّع وتيرة ركضنا؛ إذ لم يكن قلقُه يقلُّ عن قلقي.

وقبل أن نصل إلى الطريق، انقشع الضباب فكشف لنا عن قطعة أرض كالإسفين، مُمتدة مباشرة إلى التلال الواقعة على الجانب الآخر من النهر. كان مشهدًا واضحًا، وبرَزَت كل تفاصيله مبتلةً وجليةً في ضوء الصباح. رأينا الجسر والفرسان مُصطفِّين بعرضه، ورأينا كذلك حراسًا من سلاح الفرسان يتحركون عبر الطريق.

لكنهم رأَونا في اللحظة نفسها. فتناقلوا الخبر عبر الطريق، وأُطلقَت صافرة عالية، وانطلق الحراس بخيولهم نحو الضفة حيث بدءوا يعبرون المستنقع.

فقال حسين بغضب ونحن نستدير بسرعةٍ ونركض بالخيول عائدين أدراجنا: «ألم أقل إن هذا الضباب لعنة من إبليس؟ لقد رآنا هؤلاء الضباط الملاعين، وقُطع علينا الطريق.»

كنت أرغب في تجربة عبور النهر بأي ثمن، لكن حسين أوضح أن هذا لن يُجدينا أي نفع. فأفراد سلاح الفرسان المتمركزون على الجانب الآخر من الجسر كانوا يقتربون من الجانب المقابل لنا على الضفة الأخرى. قال حسين: «أعرف دربًا يمرُّ عبر التلال، ولكن علينا أن نسلكه سيرًا على الأقدام. إذا استطعنا توسيع المسافة التي نسبقهم بها، وحجَبَنا الضبابُ عن أنظارهم، فما زالت لدَينا فرصة.»

خضنا مسيرة مُنهكة بخطًى بطيئة مُتثاقلة صعودًا إلى أطراف التلال. كان مطاردونا وراءنا آنذاك، وهذا فاقَم كل صعوباتنا. أتذكر أننا كنا نسير على منحدرات جانبية طويلة من ركامٍ صخري متكسر، حيث كان الثلج ينزلق في أشكال لولبية تحت أقدامنا. اضطُررنا إلى الالتفاف حول جلاميد صخرية ضخمة، واصطدمنا بِبُقع مستنقعية، تكونت حين التقت الجداول المائية المنبثقة من الثلوج لأول مرةٍ مع السهول، فغمَرَنا وحْلُها حتى بلغ أحزمة سروج خيولنا. ومن حُسن حظنا أن الضباب قد انسدل علينا مرة أخرى، لكنَّ هذا، وإن أعاق مُطاردينا، فقد صعَّب على حسين إيجاد الدرب.

لكنه عثر عليه. وجدنا هناك الوادي الضيق ودرب البغال الوعر المؤدي إلى الأعلى. لكن كان هناك أيضًا انهيار أرضي، وبدا من علاماته أنه حديث جدًّا. وقد أحدث تجويفًا كبيرًا بعرضِ جانب التل، وكشف عن باطن التربة الخام، ولَمَّا كان جانب التل مُغطًّى من أعلاه بالثلج، فقد بدا المنظرُ كما لو أنَّ شريحةً قُطِعت من كعكة شوكولاتة مُغطاة بطبقةٍ من الكريمة البيضاء.

ظللنا مُحدِّقين به ببلاهة للحظة، حتى أدركنا أن لا أمل لنا في اجتيازه.

قلت: «سوف أحاول الوصول إلى الجروف المنحدرة. فحيثما يوجَد طريق، يمكن إيجاد طريق آخر.»

قال حسين مُتجهمًا: «ليصطادنا هؤلاء الرماة واحدًا تلو الآخر بكل ارتياح. انظر!»

كان الضباب قد انقشع مُجددًا، وبنظرة خاطفة ورائي تبيَّنتُ مطاردينا وهم يقتربون منا. كانوا حينئذٍ على بُعد أقل من ثلاثمائة ياردة. فاستدرْنا بخيولنا وانطلقنا شرقًا عبر حواف الجروف.

عندئذٍ تحدث ساندي للمرة الأولى. «لا أعرف ما رأيكم يا رفاق، لكني لن أدعهم يأخذونني. ليس أمامنا سوى أن نعثر على مكان ونقاتلهم منه. يُمكننا أن نقتل منهم الكثير قبل أن يقتلونا.»

قال بلنكيرون بابتهاج: «هذا هو الخيار الوحيد.» كان الركض بالخيل طوال هذا الوقت قد عذَّبه بشدة، فصار يُرحِّب بأي نوع من القتال ما دام سيكون ثابتًا على الأرض.

قال ساندي: «وزعوا الأسلحة.»

كان كل أفراد عصبة «الرفاق» يحملون بنادق مُعلقة على أكتافهم. أخرج حسين بنادق وأحزمة طلقاتٍ لبقيَّتنا من حقيبةٍ عميقة مُعلقة بسرج حصانه. وبينما كنت أضع بندقيتي على قربوس حصاني، وجدتها بندقية ماوزر ألمانية من أحدث طراز.

قال ساندي: «سننطلق بأقصى سرعة إلى أن نجد نقطة ارتكاز مناسبة لمقاومة العدو. الظروف ضدنا هذه المرة.»

دخلنا وسط الضباب مرة أخرى، وسرعان ما وجدنا أنفسنا على أرض مُمهدة ممتدة على منحدرٍ مستوٍ. ثم وصلنا إلى رابية مرتفعة، ورأيت الشمس على قمَّتها. بعد ذلك بقليل غُصنا في ضوء النهار الساطع، مُطلِّين على وادٍ واسع، حيث رأينا طريقًا منحنيًا صاعدًا إلى ممرٍّ في سلسلة التلال. كنت أتوقَّع ذلك. كان طريقًا أحاديَّ الاتجاه يؤدي إلى ممرِّ بالاندوكن الجبلي، على بُعد بضعة أميال جنوب المنزل الذي كنا ماكثين فيه.

ثم نظرت جنوبًا، فأبصرتُ ما كنت أترقَّبه منذ عدة أيام. وجدتُ تلًّا صغيرًا في منتصف الوادي، وعلى قمتِه حلقة دائرية من الصخور. كان هذا هو «التل الشبيه بقِدر الطعام» الذي رأيته في ذلك الحلم الذي كان يُراودني باستمرار.

عندئذٍ تولَّيت زمام المبادرة. صحت قائلًا: «ها هو حصننا هناك. حالما نصل إليه، يُمكننا أن نبقى فيه أسبوعًا كاملًا. هيا امتطوا خيولكم وانطلقوا نحوه.»

قُدنا خيولنا على جانب التل نحو الأسفل بأقصى سرعة كما لو كنا رجالًا مَمسوسين، وحتى بلنكيرون ظلَّ ثابتًا على ظهر حصانه بكل رجولة بين الانحناءات والانعطافات والمنزلقات. وسرعان ما صرنا على الطريق، نركض بجوار جنودٍ راجِلين من المشاة وخيولٍ لجر المدافع وعربات فارغة. لاحظت أن معظمهم بدَوا يتحركون نحو أسفل الطريق، في حين أنَّ القليل منهم كانوا مُتجهين إلى أعلاه. صرخ حسين ببضع كلماتٍ تركية فأفسحوا لنا الطريق لنمر، لكن سرعتنا الجنونية جعلتهم يُحدقون بنا بالطبع. وبطرفِ عيني رأيت ساندي قد تخلَّص من معظم الأغطية التي كان متشحًا بها، وصار شكلُه يبدو مبهرًا

جدًّا وزاهي الألوان. لكني لم أكن منشغلًا إلا بالتفكير في التل الصغير، الذي كان في تلك اللحظة شِبه مواجِهٍ لنا على الجانب الآخر من الوادي الضحل.

لم يكن بإمكان أي حصان أي ينزل ذلك المنحدر الشديد. لذا دفعنا خيولنا إلى داخل المُنخفَض، ثم ترجَّلنا بسرعة، وحملنا أمتعتنا الثقيلة على ظهورنا، وبدأنا نشقُّ طريقنا بصعوبة صعودًا على جانب التل الصغير. كان جانبه مليئًا بجلاميد صخرية كبيرة، مما أتاح لنا غطاءً ساترًا احتجنا إليه بعد ثوانٍ معدودة. فحينما ألقيت نظرة خاطفة ورائي، رأيت مطاردينا على الطريق من فوقنا، يستعدون لإطلاق النار.

كنا سنصير صيدًا سهلًا في الأوقات العادية، ولكن من حُسن حظنا أنَّ المُنخفَض في تلك اللحظة كان محاطًا بخيوطٍ وأشرطة من الضباب. استطاع الآخرون حماية أنفسهم من الرصاص؛ لذا بقيت ملاصقًا لبلنكيرون وسحبته — وقد انقطعَت أنفاسه تمامًا — عبر المسار الأقل تعرضًا لرصاصهم. كان الرصاص يتناثر بين الحين والآخر على الصخور، وسمعتُ إحدى الرصاصات تُغني بصرير مزعج قُرب رأسي. قطعنا ثلاثة أرباع المسافة هكذا، ولم يعُد متبقيًا أمامنا سوى الياردات العشر المكشوفة حيث كان مَيل المنحدر يتضاءل حتى حافة الحلقة الصخرية.

أُصيبَ بلنكيرون في ساقه، وكان هو الجريح الوحيد بيننا. لم يكن لديَّ خيار سوى حمله؛ لذا أرجحته واضعًا إيَّاه على كتفيَّ، وقطعتُ ذلك الشوط الأخير بقلبٍ يكاد ينفجر. كانت مهمة محمومة، وكان الرصاص يتطاير بكثافةٍ شديدة من حولنا، لكننا وصلنا كلنا سالمين إلى الحلقة الصخرية، وصعدنا فوق حافتها بعدما تسلَّقنا ارتفاعًا قصيرًا. وضعت بلنكيرون داخل تجويف قمة التل، وشرعتُ في إعداد دفاعنا.

لم يكن لدينا مُتسع من الوقت لذلك. فقد لمحتُ وسط الضباب الرقيق أشخاصًا يقتربون نحونا وهم جاثمون يحتمون وراء ساتر. كان المكان الذي كنا فيه حصنًا طبيعيًا، باستثناء أنه كان بلا فتحاتٍ لإطلاق النار ولا أجولة رمال. لذا كان علينا أن نرفع رءوسنا فوق الحافة لإطلاق النار، لكن الخطر لم يكن كبيرًا بفضلِ مرمى النيران الرائع الذي أتاحه لنا ذلك الأحدور الممتد على تلك الياردات العشر الأخيرة. نشرتُ الرجال في أماكنهم وانتظرت، وأصرَّ بلنكيرون، بوجهٍ شاحب، على أن يشارك معنا، قائلًا إنه كان بارعًا في استخدام الأسلحة النارية فيما مضى.

أصدرت الأمر بألا يطلق أي شخص النار إلَّا بعدما يخرج أفراد جيش العدو من وراء الصخور إلى الأحدور المكشوف. كان الأحدور يحيط بالقمة تمامًا؛ ولذا كان علينا أن

نُراقب كل الجوانب لنمنعهم من التسلل إلينا من الجنب أو الخلف. وبالفعل سرعان ما سمعتُ بندقية حسين تطلق النار من الخلف، فأدركتُ أنَّ احتياطاتي كانت في محلِّها.

كنا نحن الثلاثة رُماة بارعين، وإن لم يكن أيٌّ منَّا يرقى إلى مستوى بيتر الإعجازي، وأبلى «الرفاق» أيضًا بلاء حسنًا. كنتُ أدرى بالماوزر من أي سلاح آخر، وأصابت معظمُ رصاصاتي الهدف بدقة. لم تُتَح لمهاجمينا أي فرصة قط للتغلُّب علينا؛ لأن أملهم الوحيد كان الاندفاع نحونا ومباغتتنا بأعدادٍ كبيرة، ولكن لأنَّ المجموعة بأكملها لم تزد على دزينتَين، فقد كان عددهم أقل بكثيرٍ ممَّا يلزم لخطوة كهذه. أعتقد أننا قتلنا منهم ثلاثة؛ لأن جُثثهم تُركت وراءهم، وجرحنا ستةً على الأقل، في حين تراجع البقية نحو الطريق. وهكذا انتهى الاشتباك كلُّه في غضون ربع ساعة.

سمعت حسين يقول بشراسة: «إنهم كلاب الأكراد. فلا يُطلِق النارَ على كسوة الكعبة إلَّا كافر كردي.»

عندئذٍ ألقيتُ نظرة فاحصة على ساندي. كان قد تخلص من الشيلان والأغطية التي كانت تكسوه، مرتديًا أغرب زيٍّ ارتداه رجل في معركة على الإطلاق. كان قد تمكن، بطريقةٍ ما، من شراء حذاء ميداني طويل، وبنطال قديم من بناطيل ركوب الخيل. وكان يرتدي فوقه جبةً حريرية رائعة، أو مئزرًا ذا لون زمردي لامع، تصِل حتى ما أسفل خصره بكثير. صحيح أنني وصفتها بالحريرية، لكنها لم تكن كأي حريرٍ شهدته من قبل؛ إذ كان نسيجها بديعًا جدًّا، ويحمِل بين ثناياه بريقًا شديدًا وعُمقًا بالغًا. كان صدرُها مطرزًا بنقشٍ غريب لم أستطع تتبُّع شكلِه في الضوء الخافت. أراهنُ أنَّ هذا هو أندر وأغلى ثوب عُرِّض للرصاص على تلٍّ شتوي قاحل.

بدا ساندي غير واعٍ بثيابه. فراح يتفحَّص المنخفَض بعينِه التي لم تعد فاترة. وصاح قائلًا: «هذا مجرد عزفٍ تمهيدي. أمَّا المعزوفة الكبرى، فستبدأ قريبًا. يجب أن ننصب متراسًا في هذه الفجوات، وإلا فسيصطادوننا من على بُعد ألف ياردة.»

في هذه الأثناء كنتُ قد ضمدتُ جرحَ بلنكيرون في عجالةٍ بخرقةٍ كتانية أعطاني إياها حسين. كان الجرح ناتجًا من رصاصةٍ مرتدة اخترقت شظاياها ساقه اليسرى. ثم شاركت مع الآخرين في تشييد سواتر ترابية لاستكمال الدائرة الدفاعية حول الحصن. لم تكن المهمة سهلة؛ لأننا كنا نعمل بسكاكيننا فقط، وكان علينا أن نحفر عميقًا تحت الحصى المُغطى بالثلج. وبينما كنا نعمل، قيَّمتُ ملاذنا.

كان التل ذا شكلٍ شبه دائري، وقُطر يبلغ نحو عشر ياردات، مملوءًا من الداخل بجلاميد صخرية وأحجار غير مثبتة معًا، وكان ارتفاع متراسِه نحو أربع أقدام. كان الضباب قد انقشع على نطاق مساحةٍ كبيرة، واستطعت رؤية المناطق المحيطة بنا مباشرة. نظرت نحو الغرب، على الجانب الآخر من المنخفَض، فرأيت الطريق الذي جئنا منه، ووجدتُ بقايا مُطاردينا مجتمِعين عليه. ثم نظرت جهة الشمال، فرأيت التل ينحدر بميلٍ شديد إلى قاع الوادي، أمَّا جهة الجنوب، فكان هناك منخفَض، لكني اصطدمت بعده بسلسلة من التلال حجبَت الرؤية. وناحية الشرق، وجدتُ تفرعًا آخر للنهر خمنت أنه التفرع الرئيسي، وكان من الواضح أن الطريق الرئيسي يمتد بمُحاذاته إلى الممر الجبلي؛ لأنني رأيته مزدحمًا بوسائل النقل. بدا أن الطريقَين يلتقيان عند مكانٍ ما في الجنوب أبعدَ من نطاق رؤيتي.

خمنتُ أننا قريبون من الجبهة حتمًا؛ لأن ضجيج المدافع بدا قريبًا جدًّا، سواءٌ الفرقعة الحادة من المدافع الميدانية أو الدوي الأعمق لمدافع الهاوتزر. وفوق ذلك، كنت أسمع طقطقة الرشاشات، التي بدت كزقزقة طيور العقعق بين نباح كلاب الصيد. حتى إنني رأيت انفجار القذائف الروسية، التي كان واضحًا أنها تحاول بلوغ الطريق الرئيسي. فقد سقطت قذيفة كبيرة، قُطرها نحو ثماني بوصات، على بُعد أقل من عشر ياردات من قافلة متجهة نحو شرقنا، وسقطَت أخرى في المنخفَض الذي كنا قد أتينا منه. كان واضحًا أنَّ تلك قذائف تجريبية لتحديد مدى الاستهداف، وتساءلت عمَّا إذا كان الروس لديهم نقاط مراقبة على المرتفعات لتحديد مواضع سقوطها. ارتأيتُ أنهم، لو صح ذلك، قد يحاولون قريبًا إنشاء حزامٍ ناري بقذائفهم، وأننا حتمًا سنكون قريبين جدًا من حافته. ستكون واحدة من عجائب سُخريات القدر أن نُصاب بقذائف صديقة.

سمعت ساندي يقول: «أقسم بالشيطان أننا لو كنا نملك رشاشين فقط، لأمكننا التحصُّن في هذا المكان ضد فرقة كاملة.»

فسألته: «وماذا عن القذائف اللازمة لذلك؟ إذا صعدوا بمدفعٍ، فيمكنهم تفجيرنا إلى أشلاء صغيرة في عشر دقائق.»

أجاب قائلًا: «لنَرجُ من الرب أن يبقَوا منشغلين بالروس فلا ينتبهوا إلى ذلك.»

أخذتُ أراقِب أعداءنا على الطريق بنظراتٍ قلقة. فقد بدا أن أعدادهم قد زادت. وكانوا يشيرون أيضًا إلى راية بيضاء ترفرف. ثم انسدلت أستار الضباب علينا مرة أخرى، وصار نطاق رؤيتنا مقتصرًا على عشر ياردات ملبَّدة بشبورةٍ.

صحت قائلًا: «خذوا حذركم؛ فقد يُحاولون الاندفاع نحونا في أي لحظة. فليُبقِ كل رجلٍ عينَه على حافة الضباب، ويطلق النار عند أول إشارة.»

ظللنا مُنتظرين هكذا نصف ساعة تقريبًا على ساعةِ يدي في ذاك العالم الأبيض الغريب، وكانت أعيُننا تتألَّم بإجهادٍ من طولِ التحديق. بدا أن صوت المدافع قد سكت، وخيَّم صمت مُطبِق على كل شيء. وفجأة فزع كل الرجال بصرخةٍ من بلنكيرون حينما اصطدمَت ساقه المُصابة بصخرة.

ثم جاء صوت من وسط الضباب.

كان صوتًا نسائيًّا عاليًا ثاقبًا عذبًا، لكنه تكلَّم بلغة لم أفهمها. لم يفهمها سوى ساندي. انتفض فجأة كأنه يدافع عن نفسه ضد لكمةٍ تلقاها.

ظهرت صاحبة الصوت بوضوح على الأحدور على بُعد ياردة أو اثنتَين. وكان وجهي هو أول وجه رأته.

قالت بالإنجليزية: «جئت لأتفاوض وأعرض شروطي. فهل تسمح لي بالدخول؟»

لم يسعني أن أفعل شيئًا سوى خلع قُبعتي والقول: «أجل يا سيدتي.»

أمَّا بلنكيرون، الذي كان متكئًا على المتراس، فأخذ يسبُّ بغضبٍ في سرِّه.

تسلَّقَت الحلقة الصخرية وخطَت من فوق حافتها بخفةٍ كالغزال. كانت ثيابها غريبة؛ إذ كانت تنتعِل حذاء طويلًا، وترتدي بنطالًا قصيرًا لركوب الخيل، ومن فوقه فستان أخضر قصير. كانت تعتمِر قبعةً صغيرة مُزينة بدبوس مُرصع بجواهر، وتكتسي رداءً من قماش ريفي خشن متدلٍّ من كتفَيها. كانت مرتدية قفازات واقية خشنة في يديها، ومتسلحة بسوطٍ من سياط ركوب الخيل. أتذكر أن بلورات الضباب كانت ملتصقةً بشعرها، وأنَّ ثيابها كانت مُغطاة بطبقة فضية رقيقة من الضباب.

لم يسبق لي أن رأيتها جميلة قط. ربما تكون غريبة أو مبهرة أو مدهشة، قل ما شئت، لكن كلمة الجمال كانت تحمل طابعًا بشريًّا لطيفًا لا يتماشى إطلاقًا مع وجهٍ كهذا. ولكن بينما كانت واقفة هناك ببشرتها المتورِّدة، وعينَيها اللامعتَين كالنجوم، ووقفتها التي كانت كوقفة طائر بري، اضطُررت إلى الاعتراف في قرارة نفسي بأنها ذات حُسن فريد من نوعه. ربما كانت شيطانة، لكنها كانت ملكة أيضًا. ارتأيتُ أنَّ دخول القدس على حصانٍ بجوارها قد يحمِل مزايا.

وقف ساندي متصلبًا، وكان وجهه في غاية الجدية والثبات. مدَّت إليه يدَيها الاثنتين، وتحدثت بالتركية بمنتهى الرقة. لاحظتُ أن الرفاق الستة قد اختفَوا من على قمة التل، وكانوا في مكانٍ ما بعيد عن الأنظار على الجانب الآخر.

لا أعرف ما قالته، لكني استنتجتُ من نبرتها، ومن عينَيها قبل كل شيء، أنها كانت تتوسَّل إليه؛ تتوسَّل من أجل أن يعود، من أجل أن يشاركها في مغامرتها الكبرى، تتوسَّل إليه كي يُحبها، على ما أظن.

كانت قسماته أشبه بقناع الموت؛ إذ كان حاجباه مشدودَين بعبوسٍ طفيف، وكان فكُّه جامدًا.

قال: «سيدتي، أطلب منك أن تُخبريني سريعًا بالغرض من مجيئك، وأن تقوليه بالإنجليزية. فأصدقائي يجب أن يسمعوه بكل وضوح مثلي تمامًا.»

صاحت قائلة: «أصدقاؤك! ما علاقة أميرٍ مثلك بهؤلاء المأجورين؟ ربما يكونون عبيدك، ولكن ليسوا أصدقاءك.»

فكرر ساندي بتجهُّم: «بل أصدقائي. عليك أن تعلمي يا سيدتي أنني ضابط بريطاني.»

كانت تلك ضربةً صاعقة مُحكَمة بلا شك. الرب أعلم بما كانت تُخمِّنه من قبل عن هويته الأصلية، لكن المؤكد أنها لم تتخيل ذلك قط. اتسعت عيناها أكثر وازدادت لمعانًا، وافترقت شفتاها كأنها على وشك التحدُّث، لكن صوتها خذلها. ثم تمالكت نفسها بصعوبة، وانطفأ كل وهَج الشباب ولهيب الحُب من وجهها الغريب. واكتسى مجددًا بالقناع الشرير الذي عرفتها به في أول لقاء جمعَنا.

سألَته بصوتٍ هادئ: «وهذان الآخران؟»

«أحدهما ضابط زميل معي في كتيبتي. والآخر صديق أمريكي. لكن ثلاثتنا مشاركون في نفس المهمة. جئنا إلى الشرق لتدمير ذي العباءة الخضراء وطموحاتك الشيطانية. لقد دمرتِ أنبياءكِ بنفسكِ، والآن حان دوركِ لتُهزَمي وتختفي. اعلمي يقينًا يا سيدتي أنَّ تلك الحماقة قد انتهت. سأمزق هذا الثوب المقدس ألفَ قطعة وأنثرها في الريح. الناس ينتظرون الكشف عن النبي اليوم، لكن هذا لن يحدث. فلتقتلينا إذا استطعتِ، لكننا على الأقل سحقنا كذبتكم، وأسدينا خدمة إلى بلدنا.»

ما كنتُ لأرفع عينيَّ عنها في هذه اللحظة ولو بكنوز الدنيا. كتبتُ من قبل أنها كانت ملكة، ولم يكن في ذلك أيُّ شك. كانت لديها روحٌ انتصارية قاهرة؛ إذ لم يُخالط سيماءها ذرةُ ضعف أو خيبة أمل. لم تكن عيناها تشعُّ إلا كبرياء وإصرارًا مفعمًا بهيبة لا توصف.

«قلت إنني جئتُ لأعرض شروطي. وسأعرضها على أي حال، مع أنها صارت مختلفة عمَّا كان في حسباني. بخصوص الأمريكي السمين، سأعيده إلى وطنه سالمًا. فأنا لا أعادي

أمثاله. إنه عدو ألمانيا، وليس عدوي أنا.» ثم أضافت وهي تلتفت نحوي بشراسة: «أمَّا أنت، فسأشنقك قبل حلول الغسق.»

كانت هذه أسعد لحظةٍ في حياتي. فقد أدركتُ ثأري أخيرًا. لقد اختصتني هذه المرأة دون الآخرين بصبٍّ جام غضبها عليَّ، وكدتُ أُحبها بسبب ذلك.

التفتت إلى ساندي، وقد زالت الشراسة من وجهها.

قالت له: «أنت تبحث عن الحقيقة. وأنا أيضًا مثلك، وإذا استخدمنا كذبة، فما ذلك إلَّا لسحقِ كذبةٍ أكبر. إنني أعتبرك واحدًا من أهلي بالروح، وأنت الوحيد من بين كل الرجال الذي رأيته جديرًا بأن يُصاحبني في مهمتي. قد تفشل ألمانيا، لكني لن أفشل. إنني أعرضُ عليك أعظم مهنةٍ عرفها إنسان. أعرض عليك مهمة تتطلَّب كل ذرة من العقل والقوة والشجاعة. فهل سترفض هذا المصير؟»

لا أعرف التأثير الذي كان ذلك التبجُّح سيُحدِثه لو كانا في غرفة معطرة ساخنة، أو في لحظةٍ من الاسترخاء في حديقة فخمة، لكنه فوق قمة ذلك التل البارد كان واهيًا، مثله مثل الضباب المُحيط بنا. لم يبدُ حتى مبهرًا، بل مجرد كلام مجنون.

قال ساندي: «سأبقى مع أصدقائي.»

«إذن، سأعرض المزيد. سأنقذ أصدقاءك. سأجعلهم هم أيضًا يشاركونني انتصاري.»

لم يستطع بلنكيرون تحمُّل ذلك. فهبَّ واقفًا على قدمَيه ليعبِّر عن الاحتجاج الذي انتُزِع من أعماق روحه، ونسي ساقه المصابة، فتدحرج على الأرض متأوهًا.

ثم بدا أنها تتوسَّل للمرة الأخيرة. كانت تتكلم بالتركية حينئذٍ، ولا أعرف ماذا قالت، لكني استنتجتُ أنه كان توسلًا من امرأة إلى حبيبها. عادت لتُصبح المرأةَ الجميلة المُعتدة بكبريائها، لكن كبرياءها كانت مشوبة برعشة، كنت سأكتب «حنان». كان الاستماع إليها خيانة فظيعة، كالتنصت على شيء مُثير للشفقة. أنا متيقن من أنَّ وجهي قد احمرَّ من الخجل آنذاك، أما بلنكيرون، فقد أشاح بوجهه بعيدًا.

ظل وجه ساندي جامدًا تمامًا. وردَّ بالإنجليزية.

قال: «لا رغبة لي في أي شيءٍ يمكن أن تعرضيه عليَّ. فأنا خادم وطني، وأعداؤه أعدائي. يستحيل أن أشارك معك إطلاقًا. وهذا هو جوابي النهائي يا سيدة فون آينم.»

عندئذٍ انكسرت رباطة جأشها الفولاذية. بدا كأنَّ سدًّا ينهار أمام كتلة مكبوحة من المياه الجليدية. خلعَت أحد قفازيها مُمزِّقة إياه وألقت به في وجهه. ورأيتُ عينَيها تُشعان كراهية حاقدة.

صاحت قائلة له: «لقد اكتفيتُ منك. لقد استخففتَ بي، لكنك حفرت قبرك بنفسك.»

ثم قفزَت على المتراس، ونزلَت على الأحدور في طرفة عين. كان الضباب قد انقشع مجددًا، ورأيتُ على الجانب الآخر من المنخفَض مدفعًا ميدانيًّا منصوبًا وحوله رجالٌ ليسوا أتراكًا. لوحَت لهم بيدها، ونزلَت مسرعة نحو أسفل التل.

لكني في تلك اللحظة سمعتُ صفير قذيفة روسية بعيدة المدى. وقعَت بين الجلاميد الصخرية فأحدثت انفجارًا مصحوبًا بصوتِ اصطدام مكتوم، وتصاعُد كتلة من التراب الأحمر على شكلِ فطر عيش الغراب. مرَّ كل ذلك في لحظة خاطفة؛ رأيت أفراد المدفعية على الطريق يشيرون بأياديهم وسمعتهم يصيحون، وسمعتُ أيضًا صوتًا كالنحيب من بلنكيرون، كل هذا قبل أن أدرك بنفسي ما حدث. ثم رأيت ساندي، الذي كان على الجانب الآخر من الأحدور بالفعل حينئذٍ، يقفز بوثبات كبيرة نحو أسفل التل. كانوا يُطلقون النار عليه، لكنه لم يكترث بهم. اختفى عن الأنظار دقيقة، ولم أعد أعرف مكانه إلا من فرقعات وابل الرصاص المصوَّب إليه.

ثم عاد، وصعد الجزء المائل الأخير ببطءٍ شديد، حاملًا شيئًا ما بين ذراعَيه. عندئذٍ لم يعُد أفراد العدو يُطلقون النار؛ لأنهم أدركوا ما حدث.

أنزَل حِمله بلُطف في أحد أركان تجويف التل من الداخل. كانت القبعة قد سقطت، وكان الشعر منحلًّا طليقًا. رأيتُ الوجه شديد البياض، لكنه كان خاليًا من أي جروح أو كدمات.

سمعته يقول: «لقد قُتلَت في الحال. كُسِر ظهرها بشظيةِ قذيفة. ديك، يجب أن ندفنها هنا ... اسمعني، لقد ... لقد أحبتني. وهذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع تقديمه لها نظير ذلك.»

كلَّفنا أفراد عصبة «الرفاق» بالحراسة، وتمكنَّا، ببطءٍ شديد جدًّا، من حفر قبرٍ ضحل أسفل المتراس الشرقي باستخدام أيادينا وسكاكيننا. وعندما انتهينا، غطَّينا وجهها بالعباءة الكتانية التي كان ساندي يرتديها صباح ذلك اليوم. ثم رفع جثمانها ووضعه في مكانه بخشوع.

قال: «لم أكن أعلم أنني سأحمل في حياتي شيئًا بهذه الخفة.»

لم يكن من اللائق أن أنظر إلى مشهد كهذا. فذهبت إلى المتراس بمنظار بلنكيرون وألقيت نظرة على أصدقائنا المتمركزين على الطريق. لم يكن بينهم أي تركي، وخمنت السبب؛ فلم يكن من السهل الاستعانة برجال مُسلمين ضد صاحب العباءة الخضراء.

كان الأعداء ألمانًا أو نمساويين، وكان معهم مدفع ميداني. بدا لي أنهم مصوِّبون إيَّاه نحو حصننا، لكنهم كانوا ينتظرون. وبينما كنتُ أنظر، رأيت خلفهم قامة ضخمة بدا لي أنني أعرف صاحبها. لقد جاء شتوم ليرى هلاك أعدائه.

ثم رأيت جهة الشرق مدفعًا آخر في الحقول الواقعة أسفل الطريق الرئيسي مباشرة. أدركتُ أنهم أحاطوا بنا من الجانبَين، وصرنا عالقين بلا مهرب. لقد شاءت الأقدار أن تحظى هيلدا فون آينم بمحرقةٍ نبيلة، ورفقة صالحة في رحلتها الوشيكة إلى الدار الآخرة.

كان الغسق يسدل أستاره على الأجواء حينئذٍ، غسقٌ صافٍ ساطع حيث كانت النجوم تبرز عبر بريق أرجواني. كان القصف المدفعي متواصلًا في كل أرجاء الأفق، وحينما نظرت ناحية الممر الجبلي على الطريق الآخر، حيث يقع حصن بالاندوكن، رأيت غبارًا ودخانًا متصاعدًا من قصفٍ عنيف. وبدا لي أيضًا أنَّ المدافع المتمركزة على الجبهات الأخرى قد اقتربت. كان حصن ديفي-بويون محجوبًا عنِّي بنتوء بارز من أحد التلال، لكني رأيت جهة الشمال غيومًا بيضاء تتدلى فوق وادي الفرات كأشرطةِ سُحُب المساء. كانت السماء كلها ترنُّ وتطنُّ كوترٍ مشدود يُضرَب ...

وبينما كنت أنظر، انطلقَت قذيفة من المدفع الموجود جهة الغرب؛ المدفع الذي كان شتوم عنده. سقطت القذيفة إلى يميننا على بُعد عشر ياردات. وبعد ثانية، سقطت قذيفة أخرى خلفنا.

كان بلنكيرون قد جرَّ نفسه إلى المتراس. لا أظن أنه تعرَّض لقصفٍ من قبل، لكني رأيت في وجهه فضولًا لا خوفًا.

قال: «أعتقد أن دِقتهم في التصويب سيئة جدًّا.»

فقلت: «بالعكس، هم يعرفون عملهم. إنهم يطوِّقون ...»

لم تكد الكلمات تخرج من فمي حتى سقطت إحدى القذائف بيننا. أصابت الحافة البعيدة لقمةِ التل المجوفة، وحطمت الصخر، لكن معظم الانفجار وقع في الخارج. انبطحنا جميعًا لنتفاداها، ولم يُصَب أيٌّ منَّا بأي أذًى سوى بعض الخدوش الطفيفة. أتذكَّر أن كثيرًا من الحطام والفتات سقط على قبر هيلدا فون آينم.

سحبتُ بلنكيرون من فوق المتراس البعيد، وطلبتُ من الباقين أن يتبعوني، قاصدًا الاحتماء بساترٍ على الجانب الوعر من التل. ولكن حالما ظهرنا من مَخبئنا، أُمطِرنا من أمامنا بطلقات نارية من مسافة بضع مئات من الياردات. عندئذٍ فهمت ما حدث بسهولة. لقد أرسلوا رماة ليُبقونا في الخلف. وما كانوا ليهاجمونا ما دمنا داخل تجويف التل، لكنهم سيمنعون أي محاولة للعثور على ملاذٍ آمِن خارجه. كنا تحت رحمة شتوم ومدفعه.

جثمنا تحت المتراس مرة أخرى. قلت: «لنُجرِ قُرعة. أمامنا خياران فقط؛ إمَّا أن نبقى هنا ونُقصَف، وإما أن نُحاول شق طريقنا عَنوة وسط هؤلاء الرجال المتمركزين في الخلف. وكلاهما محفوف بالخطر كثيرًا.»

لكني كنت أعرف أننا لا نملك خيارًا. فعجزُ بلنكيرون عن الحركة أجبرَنا على البقاء داخل تجويف التل. كنا في عداد الأموات بلا شك.

الفصل الثاني والعشرون

مدافع الشمال

لكن لم تسقط أي قذائف أخرى.

خيَّم الظلام، وظهرت مجموعة من النجوم المتلألئة لأنَّ الهواء كان يشتدُّ برودة، إيذانًا بحلول الصقيع مجددًا. انتظرنا ساعة، جاثمين خلف المتاريس البعيدة، لكننا لم نسمع ذلك الصفير المألوف المشئوم.

ثم نهض ساندي وتمطَّى. قال: «أنا جائع. لنُخرِج الطعام يا حسين. فنحن لم نأكل شيئًا من قبل طلوع الفجر. تُرى ما المغزى من تلك الهدنة؟»

خُيِّل لي أنني أعرف.

قلت: «هذا دأب شتوم. يريد تعذيبنا. سيتركنا مُترقبين بفارغ الصبر ساعات وساعات، في حين يجلس هناك مُتلذذًا بما يتصوَّر أننا نعانيه. لديه مخيلة كافية لذلك ... كان سيندفع نحونا لو كان لدَيه ما يلزم من الرجال. أمَّا في ظل الوضع الحالي، فسيَنسفنا إلى أشلاء، لكنه سيفعل ذلك ببطء وهو يلعق شفتَيه تلذذًا به.»

تثاءب ساندي. وقال: «سنُخيب آماله؛ لأننا لن نقلق يا صديقي العزيز. فنحن الثلاثة تَجاوزنا هذا النوع من الخوف.»

قلت: «في هذه الأثناء، سنبذُل كل ما بوسعنا. لقد حدَّد شتوم مدى الاستهداف بدقة. علينا أن نجد حفرةً في مكانٍ ما خارج تجويف التل مباشرةً، وأيَّ ساترٍ نحمي به رءوسنا. سنتأذَّى حتمًا في كل الأحوال، لكننا سنصمِد حتى النهاية. وعندما يظنُّون أنهم قضَوا علينا ويهرعون إلى المكان، ربما يكون بيننا رجل حي يُطلق رصاصة تخترق جسد شتوم الوضيع. ما رأيكم؟»

وافقوا على هذا الرأي، وبعدما تناولنا وجبتنا، زحفنا أنا وساندي إلى الخارج للتنقيب، وتركنا الآخرين على أهبة الاستعداد تحسبًا لوقوع هجوم. وجدْنا حفرة صغيرة في الأحدور

جنوب القمة المجوفة بقليل، وعملنا بهدوءٍ شديد حتى استطعنا توسيعها، وحفرنا تجويفًا أشبه بكهفٍ غير عميق في صخرِ التل. صحيح أنه ما كان لينفعنا لو أُصبنا بقذيفة مباشرة، لكنه كان سيحمينا من الشظايا المتطايرة. فقد ارتأيتُ من قراءتي للموقف أنَّ شتوم سيُلقي القذائف بقدرِ ما يشاء في تجويف قمة التلِّ نفسه، ولن يشغل باله بالجوانب. وبذلك، فحينما يبدأ القصف العنيف، سيكونُ هناك مأوًى لشخصٍ أو اثنَين في الكهف.

كان أعداؤنا يقِظين. أطلق الرماة المتمركزون في الشرق شعلات مضيئة بمسدسات من طراز فيري على فترات متباعدة، وأطلقت مجموعة شتوم صاروخًا مضيئًا كبيرًا. أتذكَّر أنني، قبل منتصف الليل مباشرة، رأيتُ جحيمًا مدويًا اندلع بالقرب من حصن بالاندوكن. لم تسقط قذائف روسية أخرى داخل المُنخفَض الذي كنا عنده، لكن الطريقَ الممتدَّ إلى الشرق كان كله تحت قصف النيران، ووقع في الحصن نفسه انفجارٌ مدمر، حيث رأيتُ توهجًا قرمزيًّا غريبًا كما لو أنَّ القذائف قد أصابت مخزنًا للذخيرة. ظل إطلاق النار متواصلًا بكثافةٍ على مدار نحو ساعتَين، ثم هدأ. لكني ظللتُ ألتفت تجاه الشمال. فالصوت هناك بدا مختلفًا؛ إذ كان دوي المدافع أكثر حدة، كما لو كانت القذائف تسقط في وادٍ ضيق فيتعالى صداها بفعلِ جدران الوادي الصخرية. تُرى هل تنزَّلت أيُّ مصادفة مباركة على الروس وجعلتهم يلتفُّون حول ذلك الجانب؟

طلبتُ من ساندي أن ينصت، لكنه هز رأسه رافضًا. قال: «تلك المدافع على بُعد عشرة أميال. ولم تقترب قيد أنملة منذ ثلاثة أيام. لكن يبدو كما لو أن الرجال الشجعان في الجنوب ربما يحظَون بفرصة للنجاح. عندما يخترقون ويتدفقون عبر الوادي، سيحتارون حينما يعثرون على ما تبقَّى منا، ولن يجدوا تفسيرًا لذلك ... لم نعد ثلاثة مغامرين في أرض العدو. بل صرنا طليعة قوات الحلفاء. صحيح أنَّ أصدقاءنا لا يعرفون بأمرنا، وسنكون معزولين عنهم، كما حدث لطلائع كثيرة من قبل. ولكن على أي حال، ها نحن أولاء مجددًا في جبهتنا التي ننتمي إليها. ألا يسرُّك هذا يا ديك؟»

الحق أنه سرَّني بشدة؛ لأنني أدركتُ حينئذٍ ما العبء الذي كان يُثقل قلبي منذ أن قبلت مهمة السير والتر. كان الشعورَ بالوحدة التي تكتنفها. كنتُ أقاتل بعيدًا عن أصدقائي، بعيدًا عن جبهات القتال الحقيقية. كنت أخوض معركة جانبية لم تكن تحمل ذرة من بهجة المعركة الأساسية، مهما بلغت أهميتها. ولكن ها نحن أولاء قد عدنا الآن إلى مكاننا المألوف. كنا مثل أفراد كتيبة هايلاندرز الذين كانوا معزولين في سيتي سانت أوجست في اليوم الأول من معركة لوس، أو أفراد الحرس الاسكتلندي في فيستوبرت الذين

سمعت عنهم من قبل. باستثناء أنَّ أصدقاءنا الآخرين لم يكونوا على علمٍ بوجودنا، ولن يسمعوا به قط. لو نجح بيتر في مهمتِه فسيروي قصتنا، لكني ارتأيتُ أنه على الأرجح قد صار جثةً هامدة في مكانٍ ما في المنطقة المحرمة بين جبهتَي القتال. لن يسمع عنَّا أحد بعدئذٍ أبدًا، لكن أثر عملنا سيبقى خالدًا. سيعرف السير والتر ذلك، وسيُخبر متعلقاتنا القليلة بأننا بذلنا أرواحنا في خدمة بلدنا.

كنا حينئذٍ داخل تجويف قمة التل مرةً أخرى جالسين تحت المتاريس. ولا بد أن نفس الأفكار التي جالت في خاطري قد راودت ساندي أيضًا؛ لأنه ضحك فجأة.

«إنها نهاية غريبة يا ديك. أن نختفي ببساطةٍ هكذا في فضاء الكون اللامتناهي. إذا نجح الروس في العبور، فلن يتعرفوا أبدًا على ما سيتبقى منَّا بين حطام المعركة الكثير ذاك. سيُغطينا الثلج عمَّا قريب، وحينما يأتي الربيع، لن يكون متبقيًا منَّا سوى بضع عظام مُبيضَّة. أقسم بروحي أنَّ هذه هي المِيتة التي طالما أردتها. وأخذ يُناجي نفسه بهدوءٍ ببيتٍ من قصةٍ شعرية اسكتلندية قديمة، قائلًا:

«الكثيرون سيندبونه عند موته،
لكن لا أحد سيعلم أين الجثمان،
وحينما تتعرَّى عظامه البيضاء
ستظل الرياح تذرُوها إلى آخر الزمان.»

فصرختُ بشهقةٍ شديدة مفاجئة من السعادة قائلًا: «لكن عملنا سيبقى خالدًا. المهم هو إنجاز المهمة، وليس الرجال الذين ينجزونها. وقد أنجزنا مهمتنا. لقد انتصرنا يا صديقي العزيز، انتصرنا بلا شك، ونصرُنا حاسمٌ لا مَردَّ له. انتصرنا على أي حال، وإذا حالف بيتر ولو قدرٌ من الحظ، فقد ظفرنا بكل الغنائم … وفي كل الأحوال، نحن لم نكن نتوقع قط أن نخرج من هذه المهمة أحياء.»

أمَّا بلنكيرون، الذي كانت ساقه ممدَّدة أمامه مُتصلبة، فكان يدندن لنفسه بهدوء، كدأبه في أغلب الأحيان عندما يشعر بالبهجة. لم يكن يُغني سوى أغنية «جثمان جون براون» (جون براونز بادي)، وعادةً ما كان يكتفي بسطرٍ واحد فقط في كل مرة، لكنه في هذه اللحظة وصل إلى نهاية المقطع الشعري:

«استولى على هاربرز فيري،
مع رجاله التسعة عشر المُخلصين،

وأرعب فرجينيا القديمة كلها،
حتى صارت ترتعِد وترتعِد.
أطاحوا بعُنقه بتهمةِ الخيانة،
وإن كانوا هم الخائنين.
لكن روحه ستبقى خالدة بأثرها.»

سألته: «أأنت بخير؟»

«بخير. أنا أسعد الرجال حظًّا على وجه الأرض يا حضرة الميجور. فلطالما تمنيتُ المشاركة في معركةٍ كبرى، لكني لم أكن أعرف كيف يمكن أن تسنح هذه الفرصة لمواطنٍ بيتيٍّ مثلي، يعيش في منزل مُدفًّأ بالبخار، يذهب إلى مكتبه في وسط المدينة كل صباح. كنت أحسد والدي العجوز الذي قاتل في تشاتانوجا، ودائمًا ما كنتُ أخبرك بذلك. لكني أعتقد أن تشاتانوجا كانت بمثابة مشاجرةٍ في حانةٍ بشارع باوري مقارنةً بما نحن فيه الآن. عندما أقابل الرجل العجوز في الجنة، ستكون عندي حكاياتٌ جديرة بأن يستمع إليها.»

حالما أنهى بلنكيرون كلامه، تلقَّينا تذكيرًا بوجود شتوم. كان المدفع مصوبًا بدقة؛ لأنَّنا فوجئنا بقذيفةٍ تسقط على الحافة القريبة لتجويف قمة التل. قَضَت على رجلٍ من «الرفاق» كان مكلفًا بالحراسة هناك، وأصابت آخر بجروحٍ بالغة، وأصابت إحدى شظاياها فخذي بجرحٍ عميق. احتمَينا بالكهف الضحل، لكننا عُدنا إلى المتاريس بعدما تعرَّضنا لوابلٍ عنيف من الرصاص من الجانب الشرقي؛ لأننا خشِينا أن يهجموا علينا. لكن لم يهجم علينا أي أحد، ولم تسقط علينا أي قذائف أخرى، وخيَّم الهدوء على الليل مجددًا.

سألتُ بلنكيرون عمَّا إذا كان لدَيه أي أقرباء مُقربين.

فقال: «لا، باستثناء ابنِ أختٍ واحد، وهو طالب جامعي لا يحتاج إلى خاله. من حُسن الحظ أننا نحن الثلاثة لسنا متزوِّجين. ولا أحمل أي حسراتٍ أيضًا؛ لأنني أخذتُ من الحياة ما يكفيني وزيادة. خطر ببالي صباح اليوم أنه من المؤسِف أن أفارق الحياة في الوقت الذي بدأتُ أتخلص فيه للتو من آلام معدتي. لكني أرى هذه رحمةً أخرى من الرحمات التي نعمتُ بها. لقد خلَّصني الرب الرحيم من آلام معدتي لألقاه بذهنٍ صافٍ، وقلب شاكر.»

قال ساندي: «نحن أناس محظوظون؛ فكلنا أخذنا نصيبنا من الدنيا. حينما أتذكر الأوقات السعيدة التي قضيتُها، لا يسعني سوى أن أنشد ترنيمةَ حَمدٍ للرب. لقد عشنا زمنًا كافيًا لنفهم أنفسنا، ونُشكِّل ذواتنا في إطارٍ من الاحترام واللياقة. لكن فكِّر في هؤلاء الفتيان الذين ضحَّوا بأرواحهم بمحض إرادتهم وما زالوا في مُقتبل حياتهم يتعرفون معنى الحياة. كانوا في مُقتبَل الطريق، ولم يكونوا على دراية بالمآسي الكئيبة التي تنتظرهم. كانوا يرَون الحياة كلها مشرقةً وردية، لكنهم تخلَّوا عنها بلا أي تردُّد. وفكِّر في الرجال الذين كانوا ينعمون بعائلاتٍ وزوجاتٍ وأطفال كانوا أغلى ما لدَيهم في الحياة. لو تهرَّب أمثالنا من القتال، لكان ذلك جُبنًا شائنًا، وعارًا يُلازمنا بقية حياتنا. نحن لا نستحقُّ ثناء كبيرًا على صمودنا. ولكن حينما عقد هؤلاء الآخرون عزمَهم وتقدموا، كانوا أبطالًا مُبارَكين ...»

بعد ذلك خيَّم السكوت علينا. ففي مثل هذه الأوقات، تبدو أفكار المرء أنشط بكثير من المعتاد، وتصبح ذاكرته حادة ونقية جدًّا. لا أعلم ما الذي كان يجول في خاطرهم آنذاك، لكنني أعرف ما الذي كان يجول بخاطري ...

لا أظن أن من ينعمون بأغلب مُتَع الدنيا، ويشعرون دومًا بالابتهاج والمرح، هم الأشد خوفًا من الموت. بل أصحاب الأرواح الواهية الذين يَمضون في حياتهم بعيونٍ فاترة هم أكثر مَن يتشبثون بالحياة بشراسة. فهم لا يشعرون ببهجة الوجود على قيد الحياة، التي تُعَد ضمانةً للخلود ... أعرف أن أفكاري كانت مُسلطة بالأساس على الأشياء المبهجة التي رأيتها وفعلتها، ولم يكن يشوبها أي ندم أو حسرة، بل كانت مفعمة بالامتنان. مرَّ أمام عينيَّ شريطٌ من أوقات الظهيرة الزرقاء في سهوب جنوب أفريقيا، وليالي الصيد في الأدغال، ومذاق الطعام والنوم، والاستيقاظ في الفجر القارس، ومتعة المغامرات البرية، وأصوات الأصدقاء الأوفياء القدامى. كنتُ أشعر قبل هذه اللحظة بأنَّ الحرب منفصلة عن كل ما سبقها، لكنها آنذاك لم تعد سوى جزءٍ من الصورة الكاملة. تذكرتُ كتيبتي والرفاق الشجعان هناك، الذين سقط كثيرون منهم على متاريس لوس. لم أتوقَّع قط أنني سأخرج من هناك سالمًا. لكنني نجوت، ومُنحتُ فرصة لأداء مهمةٍ أعظم، ونجحت فيها. كانت تلك هي الحقيقة الرائعة، وكنتُ أشعر بمزيج من الامتنان المتواضع للرب والفخر المبتهج. كان الموت ثمنًا زهيدًا مقابل ذلك. وكما كان بلنكيرون سيقول، لقد جنيتُ ربحًا كبيرًا في هذه الصفقة.»

كان الليل يشتدُّ برودة، كما يحدُث قبل الفجر. عاد الصقيع مرة أخرى، وأيقظَت شدتُه جوعنا. فأخرجتُ ما تبقى من الطعام والنبيذ وتناولنا وجبةً أخيرة. أتذكر أنَّ كلًّا منَّا شرب نخب الآخر.

قال ساندي: «لقد أكلنا وجبة الفصح. متى ستحل النهاية برأيك؟»

فقلت: «بعد الفجر. من المؤكد أنَّ شتوم ينتظر ضوء النهار ليستمتع بلذةِ انتقامه كاملةً.»

تحول لون السماء رويدًا من الأسود الداكن إلى الرمادي، وظهرت في خلفيتها تلالٌ سوداء مُظللة. هبت ريح عبر الوادي، حاملة معها رائحة احتراق لاذعة، لكنها أيضًا كانت مُحمَّلة بشيءٍ من نضارة الصباح. أثارت في داخلي أفكارًا غريبة، وأيقظت في دمائي تلك الهمة الصباحية المُعتادة التي ارتأيتُ أني لن أشعر بها مُجددًا أبدًا. عندئذٍ اجتاحني ندم مفاجئ لأول مرة في تلك السهرة الطويلة كاد يمزقني.

قلت: «يجب أن ندخل الكهف قبل وضح النهار. يُستحسن أن نُجري قرعة لاختيار الاثنين اللذَين سيختبئان في الكهف.»

رَسَت القرعة على أحد «الرفاق» وبلنكيرون. فقال الأخير: «يمكنكم أن تعتبروني مُنسحبًا. إذا كنتم تريدون رجلًا يبقى حيًّا عندما يأتي أصدقاؤنا لإحصاء غنائمهم، فأظن أنني لستُ مناسبًا على الإطلاق. أفضِّل البقاء هنا، إذا لم يكن لديكم مانع. لقد تصالحتُ مع خالقي، وأريد أن أنتظر نداءه في هدوء. سألعب بورق اللعب لتمضية الوقت.»

ما كان ليتقبَّل أي رفضٍ منَّا؛ لذا أعدنا القرعة مرة أخرى، ووقعت على ساندي.

قال: «إذا كنتُ أنا آخِر من سيرحل، أعدكم بأنني لن أخطئ الهدف. سأجعل شتوم يلحق بي إلى الآخرة سريعًا.»

صافحَنا بابتسامتِه المبهجة، وانسلَّ هو وفرد عصبة «الرفاق» من فوق المتراس في الظلال الأخيرة قبل الفجر.

نشر بلنكيرون أوراق اللعب على صخرةٍ مسطحة، ووزعها ليلعب لعبة «دابل نابليون». كان في منتهى الهدوء، وأخذ يدندن لنفسه لحنه الوحيد. أمَّا أنا، فكنت أتجرع آخر جرعةٍ من هواء التل. كان رضاي يتلاشى. شعرت فجأة بنفورٍ شديد من الموت.

ولا بد أنَّ بلنكيرون قد راوده شعور مماثل. فقد رفع عينَيه فجأة وسألني باقتباسٍ من رواية «ذو اللحية الزرقاء» الشهيرة، قائلًا: «أختي آن، أختي آن، هل ترَين أحدًا قادمًا؟»

وقفتُ بالقُرب من المتراس، مُراقبًا كل تفاصيل المشهد أثناء ظهورها مع طلوع ضوء النهار الكاشف. رأيتُ على أكتاف جبال بالاندوكن أكوامًا من الركام الثلجي متدليةً من فوق حواف الجروف. تساءلت متى ستنهار. ثم وجدتُ ما يُشبه حقلًا صغيرًا مُسيَّجًا على أحد جوانب التلال، ورأيتُ دخان الفطور قد بدأ يتصاعد من أحد الأكواخ. فأدركتُ أنَّ أفراد مدفعية شتوم مُستيقظون، وبدا لي أنهم كانوا يعقدون مجلسًا. وبعيدًا، وعبر الطريق الرئيسي، رأيتُ قافلة تتحرك، وسمعتُ صرير العجلات من على بُعد ميلَين كاملَين؛ لأن الهواء كان ساكنًا تمامًا.

ثم تحول العالم بغتةً إلى جحيمٍ بشع، كما لو أنَّ زنبركًا مضغوطًا قد انحلَّ فجأة. فقد بدأت المدافع تُطلق قذائفها بهدير شديد في كل أرجاء الأفق. كان قصفها شرسًا في الجنوب بالأخص، حيث سمعتُ انفجارات مُدوية لم أعهدها من قبل. ألقيت نظرة خاطفة خلفي، فرأيتُ الفجوة بين التلال وقد امتلأت بالأدخنة والغبار.

لكن عينيَّ كانتا مُسلطتَين على الشمال. رأيت ألسنةً طويلة من اللهب تتصاعد من أماكن عديدة في مدينة أرضروم. ومن ورائها، ناحية فتحة وادي الفرات، دوَّى صوت فرقعةٍ عالية من مدافع ميدانية. أمعنتُ النظر وأرهفتُ السمع، وأنا أكاد أُجَن من نفاد صبري، وفهمتُ اللغز.

هتفتُ قائلًا: «ساندي، لقد نجح بيتر. الروس يلتفُّون من حول الجناح. المدينة تحترق. الحمد للرب، انتصرنا، انتصرنا!»

وبينما كنتُ أتحدث، بدت الأرض كأنها انشقت بجانبي، وقُذِف جسدي إلى الأمام لأسقط على الحصى الذي كان يُغطي قبر هيلدا فون آينم.

عندما وقفت واستجمعت نفسي، فوجئتُ بأن وجدت نفسي سليمًا بلا إصابات، ورأيت بلنكيرون يمسح الغبار عن عينَيه ويضع إحدى بطاقات اللعب في موضعها الصحيح. كان قد توقف عن الدندنة، وصار يُغني بصوت عالٍ، قائلًا:

«استولى على هاربر فيري، مع رجاله التسعة عشر المخلصين،
وأرعب فيرجينيا القديمة ...»

صاح قائلًا: «انظر يا حضرة الميجور، أعتقد أن تنبؤات لعبتي تتحقق.»

فقدتُ صوابي تمامًا حينئذٍ. كان عقلي محمومًا بفكرةِ أن بيتر العزيز قد نجح، وأننا قد نجحنا بما يتجاوز أشدَّ توقعاتنا جموحًا، وأننا إذا متنا، فإنَّ أولئك القادِمين سيثأرون

منا بأشدِّ صنوف الانتقام. قفزت على المتراس ولوحتُ بيدي لشتوم، وأنا أصيح معلنًا التحدي. سمعتُ طلقات البنادق من خلفي، وقفزتُ عائدًا إلى الداخل في آخر لحظةٍ قبل إطلاق القذيفة التالية.

لا بد أن كمية الذخيرة التي وُضعت في تلك القذيفة كانت قليلة؛ لأنها أخطأت الهدف، وسقطت على الأحدور. أمَّا التالية، فكانت أدق وسقطت على المتراس القريب، مُحدِثةً فجوة كبيرة في حافة الحلقة الصخرية. هذه المرة وجدتُ ذراعي متدليةً بارتخاء، وأدركت أنها كُسرت بشظية حجر، لكنني لم أشعر بأي ألم. بدا لي أنَّ بلنكيرون يحمل روحًا مُحصنة بتعويذةٍ سحرية؛ لأنه كان مُغطًّى بالغبار، ولكن لم يُصَب بأي أذًى. نفض الغبار عن أوراقه بعناية شديدة، وواصل اللعب.

ثم سقطت قذيفة بدقة محكمة داخل تجويف التل على الأرض الرخوة، لكنها لم تنفجر. عقدتُ العزم على الخروج من داخل التل إلى العراء، والمجازفة بالتعرُّض لرصاص البنادق؛ لأنَّنا سنموت حتمًا إذا واصل شتوم إطلاق القذائف على تجويف التل. أمسكتُ بلنكيرون من وسطه، وقفزت به من فوق المتراس، ناثرًا أوراقه في الريح.

قال: «لا تعتذِر يا حضرة الميجور. ففوزي في ذلك الدور كان شبه محسوم. لكن بالله عليك أفلتني؛ لأنك إذا لوَّحت بي كراية الحرية هكذا، فسأموت برصاصهم حتمًا.»

كان كل ما يشغلني هو الاحتماء بساترٍ ما في الدقائق التالية؛ لأنَّ حدسي خبَّرني بأن ترقُّبنا الطويل كان قارَب على الانتهاء. فدفاعات أرضروم كانت تتهاوى كقلاع الرمل، وقد شعرتُ بأن الصوت لا يصل إلى مسامعي، فأدركتُ مدى توتر أعصابي. رآنا شتوم ونحن نعبر المتراس، وبدأ ينثر قذائفه على كل المكان المُحيط بتجويف التل. كنتُ أنا وبلنكيرون مُستلقِيَين كفرقةٍ من العمال عالقة بين جبهتَي القتال تحت نيران الرشاشات، وحاولنا الحفاظ على رباطة جأشنا بقدر المُستطاع. كان ساندي مُحتميًا بساتر، لكننا كنا على الأحدور المكشوف الأبعد، وربما قد نُصبح تحت رحمة الرماة المتمركزين على ذلك الجانب.

لكن لم تأتِنا منهم أي طلقات. نظرت شرقًا، فوجدت جانب التل، الذي كان أعداؤنا متمركزين عليه قبل قليل، خاويًا كالصحراء. ثم رأيت على الطريق الرئيسي منظرًا جعلني أصرخ كالمجنون مرة ثانية. فعبْر ذلك الوادي الضيق، رأيتُ حشدًا قادمًا من رجال وعربات مجرورة بخيول راكضة؛ حشد جامح متدافع يفيض من الطريق إلى المنحدرات الشديدة على جانبَيه، تاركًا وراءه العديد من الجثث التي شكَّلت نقاطًا سوداء كَسَت الثلوج بطبقة داكنة. لقد انهارت بوابات الجنوب الطبيعية، وعبَرَها أصدقاؤنا.

نسيتُ الخطر المُحدِق بنا تمامًا عند رؤية هذا المنظر. لم أعد أُبالي مثقال ذرة بقذائف شتوم. بل صرتُ موقنًا بأنه لا يمكن أن يُصيبني. فالأقدار الرحيمة التي حفظتنا من السوء حتى تذوَّقنا أول طعم للنصر ستُرافقنا وترعانا حتى النهاية.

أتذكر أنني هرعتُ ببلنكيرون بمُحاذاة التل للعثور على ساندي. لكنَّ خبرنا كان متوقعًا. فقد رأيت أسفل الجانب الذي كنَّا مُتمركزين عليه من الوادي نفس الجلبة الفوضوية المُصاحبة لحشد من الرجال. وفوق ذلك، فقد رأيتُ وراءهم، بعيدًا عند عنق الممر، فرسانًا؛ فرسانًا يُطاردونهم. لقد استطاع نيقولا العزيز إدخال فرسانه.

كان ساندي واقفًا على قدمَيه، بشفتَين مُطبَقتَين وعينَين ذاهلتَين. ولولا أن وجهه كان مسفوعًا من كثرة التعرض للشمس، لبدا شاحبًا كخرقةٍ بيضاء. فرجل مثله يستحيل ألَّا يشعر بالتِّيه حينما يجد حياته تُرَد إليه، بعد أن هيَّأ نفسه للموت. ظننتُ أنه لم يكن يفهم ما حدث؛ لذا ضربته على كتفَيه.

صحتُ قائلًا: «يا رجل، هل ترى؟ القوزاق! القوزاق! يا إلهي! انظر كيف يأخذون هذا المنحدر! إنهم يهجمون عليهم الآن. بِربِّي لنركبنَّ معهم! سنأخذ حصانَي المدفع!»

كانت هناك هضبة صغيرة تحجب عن شتوم ورجاله رؤية ما كان يحدث في أعلى الوادي، فلم يُدركوا الوضع حتى وصلت إليهم الموجة الأولى من الفلول المدحورة. واصل قصف تجويف التل والمنطقة المُحيطة به، في حين كان العالَم يتصدَّع فوق رأسه. كان حصانا المدفعِ واقفَين في المُنخفَض الواقع أسفل الطريق، وقد زحفنا — بذراعي اليسرى المُرتخية وساق بلنكيرون العرجاء كالبطة — عبْر التل بين الجلاميد الصخرية.

كان الحيوانان المِسكينان يُعافران ويشدَّان أوتادهما للإفلات منها، ويتنشقان ريح الصباح، التي كانت تحمِل معها أدخنةً كثيفة من القصف الشديد، وصرخات عصية على الفهم أو الوصف من جيش مقهور. وقبل أن نصل إليهما، اجتاحهما ذاك الحشد المجنون بمَن فيه مِن رجالٍ يلهثون ويشهقون أثناء هروبهم، وكثيرين مُلطَّخين بدماء جروحهم، وكثيرين يترنحون على مشارف الانهيار والموت. رأيت عشرات الأيادي تُمسك بالحصانَين في صراعٍ يائس من أجل الاستحواذ عليهما. ولكن حين توقفنا هناك، أخذنا نُحدِّق إلى المدفع المنصوب على الطريق من فوقنا؛ لأنَّ طلائع الفلول المدحورة كانوا يتدفَّقون من حوله في تلك اللحظة.

لم يسبِق لي من قبل أن رأيت انسحابَ جيشٍ مقهور، حينما ينهار صمود الرجال الشُّوس، ولا يتبقى منهم إلا ظلال منكسرة تبحث عن ملاذٍ دون جدوى. ولا شتوم أيضًا

قد رأى شيئًا كهذا من قبل، ذاك الشيطان المسكين. لم يتبقَّ بداخلي أي ضغينة تجاهه، مع أنني عندما نزلت من ذلك التل كنتُ آمُل أن نخوض معًا عراكًا أخيرًا. لقد كان فظًّا مُستأسدًا على غيره، لكنه والله كان رجلًا! سمعت زئيره المدوِّي عندما رأى طوفان المُنسحبين، ثم رأيتُ هيئته الوحشية تعمل على المدفع. وجَّهه نحو الجنوب سريعًا وصوَّب فوهته إلى الهاربين.

لكنه لم يُطلق قذيفته قط. فقد انقضُّوا عليه، وانحرف المدفع جانبًا. فوقف بقامته التي كانت أطول بقدمٍ كاملة من أيٍّ منهم، وبدا أنه يُحاول كبح اندفاعهم بمسدسه. لكن الكثرة تغلب الشجاعة، حتى وإن كان كلُّ فردٍ فيها هاربًا منكسرًا. كان شتوم في تلك اللحظة هو العدو في أنظار هذا الحشد الجامح، وكانت لديهم القوة الكافية لسحقِه. تدفقت الموجة من حوله ثم اكتسحته. رأيتُ أعقاب البنادق تنهال على رأسه وكتفَيه تُهشِّمها، وفي الثانية التالية تدفق نهر الرجال فوق جثتِه.

كان ذلك حُكم الرب على الرجل الذي جعل نفسه فوق أمثاله من البشر.

أمسك ساندي بكتفَيَّ وصرخ في أذني قائلًا:

«إنهم قادمون يا ديك. انظر إلى هؤلاء الشياطين الشجعان الرماديين ... أوه، الحمد لله، إنهم أصدقاؤنا!»

في اللحظة التالية، كنَّا ننزل على جانب التل بخطًى متعثرة، في حين كان بلنكيرون يتقافز بيننا على ساقٍ واحدة. سمعتُ همسًا خافتًا من ساندي وهو يصرخ قائلًا: «أوه، أحسنتم صنعًا يا حلفاءنا!» وبلنكيرون وهو يُلقي خطبة مطولة عن هاربرز فيري، لكن صوتي كان متلاشيًا تمامًا، ولم أكن راغبًا في الصراخ. كنت أعلمُ يقينًا أن الدموع تملأ عينيَّ وأنني، لو تُركت وحدي، لجلستُ وبكيت بدموعِ الشكر الخالص. فقد رأيت غيمةً من الفرسان الرماديين على صهوات خيول نحيفة صغيرة تجتاح الوادي بسرعةٍ جارفة؛ غيمة لم تتوقف لملاحقة فلول الهاربين، بل واصلَت المُضي بانسيابيةٍ كأقواس قزح، فيما كانت رءوس رماح فرسانها الفولاذية تتلألأ في شمس الشتاء. كانوا مُتجهين بخيولهم إلى أرضروم.

تذكروا أننا كنَّا مع العدو طوال ثلاثة أشهر، ولم نرَ في تلك الفترة وجه رجلٍ من جيش الحلفاء قط. كنَّا مُنعزلين عن رفاقنا الذين يشاركوننا حَمْلَ قضيةٍ عظيمة، كحصنٍ مُحاصَرٍ بجيش من الأعداء. وفي تلك اللحظة تحرَّرنا، وصِرنا نشعرُ من حولنا ببهجة الرفقة الدافئة وبهجة النصر.

رمَينا الحذَر وراء ظهورنا، وجُن جنوننا. كان ساندي يتسلق المنحدر الأبعد للمُنخفَض وهو ما زال مرتديًا معطفه ذا اللون الزمردي وعمامته، وراح يهتف بعباراتِ التحية بكل اللغات التي عرفها البشر. رآه القائد، فأوقف فرسانه لحظةً بكلمةٍ واحدة منه — وكان من الرائع رؤيتهم يكبحون جماح خيولهم الراكضة بهذه السرعة المذهلة — وترجَّل ستة جنود من السرب، واستداروا بسرعةٍ وأتَوا نحونا. ثم وجدنا رجلًا مُرتديًا معطفًا رماديًّا وقبعةً من جلد الغنم واقفًا بجوارنا، ويشدُّ على أيدينا بقوةٍ مُصافحًا إيَّانا.

قال: «أنتم في أمان يا أصدقائي الأعزاء»، كان الصوتُ هو صوت بيتر، وأضاف قائلًا: «سأعيدكم إلى جيشنا وأحضر لكم فطورًا.»

فصاح ساندي: «كلا والله لن تفعل ذلك. لقد مررنا بالنهاية الصعبة للمهمة، والآن حان وقت الاستمتاع. اعتنِ ببلنكيرون ورفاقي هؤلاء. أمَّا أنا، فسأمتطي حصانًا وأذهب به إلى المدينة بجوار مُقاتليك البُسَلاء.»

تحدَّث إليهم بيتر بكلمة، فترجَّل اثنان من القوزاق عن حصانَيهما. لم أدرِ بنفسي بعدها إلَّا وأنا وسط غيمة المعاطف الرمادية، أركض بحصانٍ نحو أسفل الطريق الذي كنَّا قد صعدناه بمشقة في صباح اليوم السابق لنصل إلى قمة التل المجوفة.

كانت تلك أعظم ساعةٍ في حياتي، وكان عيشُها يساوي اثنتي عشرة سنة من العبودية. لم أستطع إحكام سيطرتي على الحصان بسبب ذراعي اليُسرى المكسورة، فاستأمنته على رقبتي وتركته يمضي بي كيفما يشاء. كنتُ متَّشحًا بالسواد من أثر التراب والدخان، ولم أكن أرتدي قبعةً ولا زيًّا عسكريًّا، فبدت هيئتي بربريةً أكثر من أي قوزاقي. وسرعان ما انفصل عني ساندي، الذي كان سليمَ الذراعَين ويمتطي جوادًا أفضل، وبدا عازمًا على الإسراع قُدمًا نحو الطليعة نفسها. كان سيُصبح بمنزلة انتحارٍ لي لو جربتُ أن أحذو حذوه، وبذلتُ كل ما بوسعي لأبقى مواكبًا للمجموعة التي كنتُ أرافقها.

لكنها بالله العظيم كانت ساعةً استثنائية! فقد تعرضنا لإطلاق نار عشوائي على جانبنا، لكنه لم يُشكل أي تهديد لنا، مع أن أحد فرق مدافع الهاوتزر النمساوية، الذي كان يناضل بجنون لعبورِ أحد الجسور، قد اشتبك معنا وكبَّدنا قليلًا من العناء. كان كل شيءٍ من حولي يمضي عابرًا بسرعةٍ خاطفة كغيمةٍ من الدخان، أو كنهاية جنونية لحلمٍ قبل الاستيقاظ مباشرةً. كنتُ واعيًا بالحركة الحية من تحتي، ورفقة الرجال من حولي، لكن شعوري بكل ذلك كان طفيفًا؛ لأنني في قرارة نفسي كنت وحيدًا أحاول جاهدًا استيعابَ عالمٍ جديد يتكشف من حولي. شعرت بظلال وادي بالاندوكن تتلاشى، وبدفقة الضوء

الكبيرة عند خروجنا إلى الوادي الأوسع. رأيتُ عند مكانٍ ما أمامنا حجابًا من الدخان تتخلَّله ألسِنة لهب حمراء، ومن ورائه لمحتُ ظُلمةَ تلالٍ أعلى ارتفاعًا. كنت طوال ذلك الوقت أشعر كأنني في حلم، وأدندن لنفسي بمقطوعاتٍ سخيفة، شاعرًا بسعادة شديدة، بل بسعادة تصل إلى حد الهذيان، حتى إنني لم أجرؤ على محاولة التفكير في أي شيء. ظللت أتمتم بشيء أشبه بصلاة مؤلَّفة من كلمات إنجيلية للرب الذي أراني جُودَه في أرض الأحياء.

ولكن حينما ابتعدنا عن أطراف التلال، وبدأنا نسلك المنحدر الطويل نحو المدينة، استعدتُ كامل وعيي. شعرت برائحة جلود الغنم والخيول المتعرِّقة، ومن قبلهما رائحة النار اللاذعة. كانت أرضروم تقع أسفلنا في الأخدود الطولي، حيث وجدتُ النيران مشتعلة في كثير من أجزائها، ورأيتُ فرسانًا يقتربون منها من جهة الشرق متجاوزين الحصون الصامتة. صحتُ قائلًا لرفاقي إننا الأقرب، وإننا سنصل إلى المدينة قبلهم، فأومئوا بسعادة وأطلقوا صيحاتهم الحربية الغريبة. وعندما وصلنا إلى قمة التلال الأخيرة، رأيتُ أسفل مني طليعة هجومنا — التي بَدَت كتلةً داكنة على الثلج — في حين كان فلول العدو المدحورون على كلا الجانبين يطوِّحون أسلحتهم ويتناثرون في الحقول.

وجدتُ على رأس المقدمة — التي كانت تدنو حينئذٍ من أسوار المدينة — رجلًا واحدًا. بدا كرأس رُمح فولاذي سيُصيب هدفه عمَّا قريب. ورأيتُ في هواء الصباح الصافي أنه لم يكن يرتدي زي الغزاة العسكري. بل كان يعتمر عمامةً ويقود حصانه كرجلٍ مَمسوس، ولمحتُ وسط الثلج بريق عباءته الزمردية الداكنة. وبينما كان يركض بحصانه، بدا أنَّ فلول الأتراك الهاربين يتجمَّدون في مكانهم بلا حراك، ويخِرُّون على جانب الطريق مُحدِّقين بعيونهم إلى هيئته وهي تمضي قُدمًا بلا التفات ...

أدركتُ عندئذٍ أن النبوءة كانت صادقة، وأن نبيهم لم يخذلهم. لقد أتى الوحي الذي طال انتظاره. وظهر ذو العباءة الخضراء أخيرًا لشعبٍ كان ينتظره.


هنــداوي